أحداث النهاية
ونهاية العالم

فضيلة الشيخ

محمد حسان

خروج الروح	كثرة القتل وانتشار الزنا	انتشار الربا وقبض العلم	خروج يأجوج ومأجوج	أول من يقضى بينهم يوم القيامة
حياة البرزخ	عقوق الوالدين	رفع العلم وانتشار الجهل	طلوع الشمس من المغرب	أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة
كثرة الفتن	شهادة الزور وموت الفجأة	خروج المسيح الدجال	نفخة البعث	الميزان والصراط
ضياع الأمانة	كثرة الشح وقلة البركة	نزول عيسى وقتل الدجال	أرض المحشر وأهوال القيامة	إما الجنة أو النار

مكتبة فياض

أحداث النهاية

فضيلة الشيخ
محمد حسان

مكتبة فياض
للتجارة والتوزيع

أحداث النهاية

١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

رقم الإيداع بدار الكتب

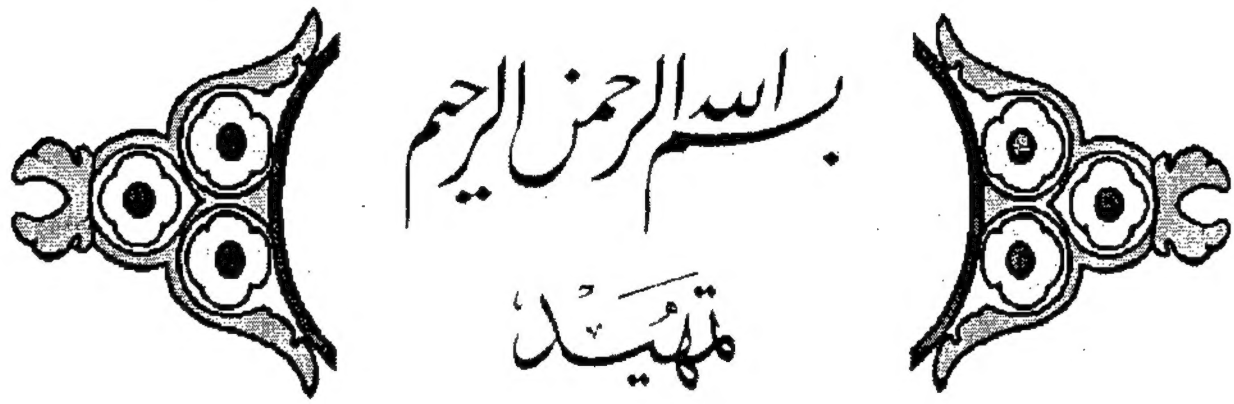
٢٠٠٧/٢٥٢٢١

مكتبة

فياض للتجارة والتوزيع

المنصورة: شارع عبد الهادي ـ عزبة عقل

ت: ٠٥٠/٢٢٦٧٣٩٨



إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهْدِه الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادِيَ لهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

○ **أما بعد** :

فإن أصْدَقَ الحديث كتاب الله ، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ ، وشَرَّ الأمُورِ مُحْدَثَاتُها ، وَكُلُّ مُحْدَثَة بِدْعَة ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النار .

● قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢] .

● ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء:١] .

● ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب:٧٠، ٧١]

○ **ثم أما بعد ..**

فلقد كثر الحديثُ في السنواتِ الماضية عن أحداثِ النهاية ، وعن الملاحمِ والمعاركِ والأماراتِ الصغرى والكبرى التي ستقعُ بين يدي الساعة .

ولم يقتصر الحديثُ في هذا الموضوع الخطير على العلماء والدعاة من المسلمين فحسب ؛ بل انشغل به كثيرٌ من القادة والزُّعماء والعلماء والمفكِّرين والكُتَّاب من غير المسلمين أيضًا .

والجديرُ بالتأمل العميق أن ما يكتبه ويتحدَّثُ به هؤلاء ليس من باب الطَّرح الفكري أو الثَّقافي الذهني البارد !! بل من منطلقٍ عَقَديٍّ بَيِّن .

○ **يقول ابنُ القيم** رحمه الله [١] : « والأُمَمُ الثلاثُ تنتظر منتظرًا يخرج في آخر الزَّمان ، فَإِنَّهم وُعِدُوا به في كل مِلَّةٍ ، والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السَّماء لِكَسْرِ الصَّليب ، وَقَتْلِ الخِنْزِيْرِ ، وقتل أعدائه من اليهود وعُبَّادِه من النَّصارى ، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النُّبُوة يملأُ الأرضَ عَدْلًا كما مُلِئَت جَوْرًا » .

وهذا أولُ رئيس وزراء لدولة اليهود « بن جوريون » يقول [٢] : « تستمد الصهيونيةُ وجودها وحيويتها من مصدرين : مصدر عميق عاطفي دائم وهو مستقل عن الزمان والمكان ، وهو قديم قدم الشعب

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٤٦٢) طبعة المكتب الإسلامي .

(٢) «الخلفية التوراتية» (ص٤٢) .

اليهودي ذاته ، وهذا المصدر هو الوعد الإلهي والأمل بالعودة . ويرجع الوعد إلى قصة اليهودي الأول الذي أبلغته السماء أن (سأعطيك ولذريتك من بعدك جميع أراضي بني كنعان مُلْكًا خالدًا لك) . هذا الوعد بوراثة الأراضي رأى فيه الشعب اليهودي جزءًا من ميثاقٍ دائمٍ ، تعاهدوا مع إلههم على تنفيذه وتحقيقه ، والإيمان بظهور المسيح لإعادة المملكة أصبح مصدرًا أساسيًا في الدين اليهودي يردده الفرد في صلواته اليومية ، إذ يقول بخشوعٍ وابتهالٍ : أؤمن إيمانًا مطلقًا بقدومِ المسيح ، وسأبقى حتى لو تأخر أنتظره كل يوم ».

فاليهودُ يعتقدون أن المسيح المنتظر سيكون من بني إسرائيل ، وسيكونون جُنْدَه وأعوانه ، وسيحكم العالم كلّه من أورشليم «القدس»!! والنصارى يعتقدون بعودة المسيح ، ونزوله إلى الأرض ليقتل اليهود والمسلمين وكلَّ من لا يدين بدينهم في معركةٍ فاصلةٍ يسمُّونها «هرمجدون» أو «سهل مجيدون» . وهو سهلٌ في أرض فلسطين . يعتقدون أن هذه المعركة الحاسمة ستكون على أرضه !!

o تقول الكاتبةُ الأمريكية « جَريس هالسل » : « اقتناعًا منهم بأن هرمجدون نووية لا مفرَّ منها بموجب خطة إلهية ؛ فإن العديد من الإنجيليين المؤمنين بالتَدَبُّرِيَّةَ ألزموا أنفسهم سلوك طريقٍ مع إسرائيل يؤدي بصورة مباشرة باعترافهم أنفسهم إلى محرقة أشد وحشية ، وأوسع انتشارًا من أي مجزرة يمكن أن يتصورها عقل أدولف هتلر الإجرامي ».

○ بل ويصور « أوترال لوبرتس » صاحب كتاب « دراما نهاية الزمن » وكذلك « هول لندسي » صاحب كتاب « نهاية الكرة الأرضية العظيمة » يصوران نهاية مأساوية مثيرة قريبة للعالم في تلك المعركة التي يسمُّونها « هرمجدون » إلى الحدِّ الذي عبَّر عنه أحدهم بقوله : « لا داعي للتفكير في ديون أمريكا الخارجية أو ارتفاع الضرائب أو مستقبل الأجيال القادمة ، فالمسألة بضع سنوات ويتغير كلُّ شيء في العالم جذريًّا » .

○ وهذا كاتبٌ أصوليٌّ أمريكيٌّ آخر يُدْعَى « لاري جونز » يقول : « إنَّ المؤمن بنظرية « هرمجدون » هو أصولي يقرأ الكتاب المقدس كما يقرأ قاموسًا ليتنبأ بالمستقبل ... ثم يقول : إن اليمين المسيحي الجديد يعتقدون في أن الكتاب المقدس يتنبأ بالعودة الحتمية الثانية للمسيح بعد مرحلة من الحرب النووية العالمية ، أو الكوراث الطبيعية ، والانهيار الاقتصادي ، والفوضى الاجتماعية ، إنهم يعتقدون أن هذه الأحداث يجب أن تقع قبل العودة الثانية .. ثم يقول : وفي نهاية المحنة سيعود هؤلاء المسيحيون المولودون من جديد مع المسيح كقائدٍ عسكري ظافر لخوض معركة « الهرمجدون » لتدمير أعداء الله ، وسوف يبقوا معه الفترة السعيدة ، وهي التي سوف يحكم منها المسيحُ الأرض لمدة ألف سنة » .

وتضيف أيضًا الكاتبة الأمريكية « جريس هالسل » في كتابها «النبوءةُ والسياسة»: « .. أن تاريخ الإنسانية ينتهي بمعركة أو بكارثة نووية تُدعى «أرمجدون Armageddon » وأن هذه المعركة سوف تُتَوَّج بعودة

المسيح الذي سيحكم بعد عودته على جميع الأحياء والأموات على حدٍ سواء » .

بل وهناك أكثر من ثمانين ألف قسيس إنجيلي بروتستانتي يدينون بهذه العقيدة ، وينشرون معتقدهم هذا ورسائلهم تلك عبر مئات المحطات الإذاعية والتلفزيونية .

ومن أشهر هؤلاء القس الأمريكي « جيمي سواجارت » الذي يقول : « كنت أتمنى القول : إننا سنحصل على السلام ولكني أؤمن بأن « هرمجدون » مقبلة .. إنها قادمة ، وسيخاض غمارها في وادي « مجيدو » إنها قادمة .. إنهم يستطيعون أن يوقِّعوا على اتفاقيات السلام التي يريدونها ، إن ذلك لن يتحقق شيئًا .. إنني لا أخطط لولوج جهنم القادمة .. إن الإله سوف يهبط من عليائه .. يا إلهي إنني سعيد من أجل ذلك .. إنه قادمٌ ثانية .. إنني لا أكترث لمن تسبب « هرمجدون » القلق والمتاعب .. إنها تنعش روحي » .

وفي حديث للرئيس الأمريكي « رونالدريجان » نشرته صحيفة «Jerusalem post» بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٣ مع المدير التنفيذي للوبي الصهيوني « الإيباك » قال ريجان : « حينما أتطلع إلى بنوءاتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلاقات المنبئة عن معركة « الأرماجدون » أجد نفسي متسائلًا عما إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك واقعًا ، ولا أدرى إذا كنت قد لاحظت مؤخرًا أيًّا من هذه النبوءات ولكن صدقني

إنها قطعًا تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه .. »

أقوال كثيرة ـ ولا أريد إطالة النفس أكثر من هذا ـ تؤكد أن الأمر ليس مجرد كلمات أو أوهام ؛ بل هي عقيدة راسخة في أذهان وقلوب القوم !!

○ وأود أن أؤكد أننا نعتقد أيضًا اعتقادًا جازمًا أن كلمة « هرمجدون » ليست من كلام النبيِّ الصادق ﷺ ، ولا يستطيع عاقلٌ فضلًا عن عالم أن يقطع ويجزم بأنها هِيَ هِيَ الملحمة الكبرى التي أخبر عنها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى في حديثه الصحيح الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال الصادق المصدوق ﷺ :

« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بالأَعْماقِ أَوْ بَدابِق » .

مَنِ الرُّوم ؟ الرُّوم : هم بنو الأصفر .. امتدادهم الآن في العصر الحديث الأوربيون والأمريكيون .

وأين الأعماق ؟ الأعماق :هي قلب بلاد الشام .

ولقد تعمدتُ أن أرجع إلى قواميس اللغة القديمة لأقف على معنى هاتين الكلمتين النَّبويَّتين : «الأعماق » و«دابق» ؛ فوجدتُ في قواميس اللغة أن الأعماق : مكانٌ قُرْب دابق بين حلب (سوريا) وأنطاكيا (تركيا) [١] ،

---

(١) راجع «معجم البلدان» (٨٠٣، ٤٥٤٠) ؛ **وقد قال النوويُّ** رحمه الله **في** «**شرح مسلم**» (٩/ ٢٤٨، ٢٤٩) : «الأعماق ؛ بفتح الهمزة ، وبالعين المهملة . **ودابق** ؛ بكسر الباء الموحدة وفتحها ، والكسر هو الصحيح المشهور ، ولم يذكر الجمهور غيره .. وهو اسم موضعٍ معروف و (الأعماق ودابق) موضعان بالشام بقرب حلب» .

وصلى الله وسلم على من لا ينطق عن الهوى الذي قال :

« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقَ ..» ، ثم قال : « فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ؛ فَإِذَا تَصَافُّوا للقتال ». أي: إذا استعد الفريقان والجيشان للنزال ، وللمقاتلة ، وللتلاحم ، ولبدء المعركة الفاصلة الحاسمة « قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا [١] مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ » .

○ ما معنى هذا ؟

● **قال الحافظ ابنُ كثير ـ رحمه الله تعالى**[٢] : « وفي هذه الكلمات النبوية دليلٌ على أن كثيرًا من أهل الروم ـ أي: من الأوربيين والأمريكيين بلغة العصر ـ سيُسْلمون لله تبارك وتعالى في آخر الزمان» ، ويؤمنون بمحمد ﷺ ، وينضمون إلى صفوف المسلمين ، ويقاتلون مع المسلمين ؛ لأنهم صاروا منهم .تدبر ـ أيها المسلم ـ حتى لا تتسرب الهزيمة إلى قلبك ولترفع رأسك لتعانق كواكب الجوزاء ؛ لأن الجولة القادمة بإذن الله ستكونُ لدين محمد ﷺ[٣] .

---

(١) قال النوويُّ في «شرحه لمسلم» (٩/ ٢٤٩) : «سبوا : على وجهين : فتح السين والباء ، وضمها ؛ قال القاضي في «المشارق» : «الضم رواية الأكثرين . قال : وهو الصواب» ؛ قلْتُ: كلاهما صواب ؛ لأنهم سُبوا أولاً ثم سَبَوْا الكفار» انتهى المراد .

(٢) في «النهاية في الفتن» (١/ ٥٦) .

(٣) ووددتُ أن أبين بالتفصيل كيف يكون التمكين لدين رسول الله ﷺ ؟ والحمد لله الذي قدر لنا أن نتطرق «لأحداث النهاية» لنبين لحضراتكم هذه الجزئيات التي يفكر فيها الآن كثيرٌ من إخواني وأخواتي مع هذا الواقع النازف، والأشلاء الممزقة للمسلمين في أنحاء الأرض ؛ بل=

« **قَالَتِ الرُّومُ :** » أي: للمسلمين « **خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا** » ، أي: أخرجوا لنا هؤلاء الذين هم من الروم ابتداءً ، ولكن الله شرح صدورهم للإسلام انتهاءً ؛ فانضموا لصفوفِ المسلمين بفضل الله ـ جلَّ علا ـ « **فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لاَ وَاللهِ! لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا فَيُقَاتِلُونَهُمْ** » يبدأ القتال ، انتبه إلى هذا الوصف الدقيق ، يقول ﷺ: « **فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا** » أي : لا يلهمهم الله التوبة ! ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ فأول ثلث في الجيش الإسلامي يُهزم ! لماذا وهم في الصفوف يحملون السيوف أو الأسلحة ـ على تفصيل سأبينه بإذن الله .

○ وفي رواية أخرى في «**صحيح مسلم**» [(١)] ـ سأذكرها فيما يأتي إن شاء الله ـ أن هذا الثلث من الجيش قد ارتدَّ أمام الفتنة ونكص على عقبيه ،

= ولهذه الحملة الإعلامية من رؤوسٍ كبيرة من غير المسلمين تتطاول الآن على الإسلام وعلى رسول الله ﷺ !! ويتساءل كثيرٌ من إخواننا وأخواتنا : كيف يُمَكَّن لهذا الدين ومتى ؟ وكيف يُنصر هذا الدين ؟ والكلُّ يحترق قلبه يريد أن يرى بعينه بشائر النصر، ويريد أن يسمع بأذنه أخبار العزة والتمكين ، ولكن الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يَعْجَل لعجلة أحد ، وليس أحدٌ أغير على الدين من الله تبارك وتعالى ، وليس أحدٌ أغير على الحق منه سبحانه ، وليس أحدٌ أرحم بالمستضعفين الذين يُقَتَّلون، وتُسفك دماؤهم ، وتمزَّق أشلاؤهم من الرحمن الرحيم تبارك وتعالى .

«**اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ رَحْمَةِ الأُمِّ بِوَلَدِهَا**» ولو غابت عنا الحِكَمُ ـ أيها الإخوة والأخوات ـ فلا تغيب أبداً عن أحكم الحاكمين ـ جلَّ جلاله.

وإلاَّ ؛ كيف تنسب لنفسك الحكمة في عطائك ، وفي منعك ، بل في أيِّ فعلٍ تفعله ، وتنفي الحكمة عمن وهبك ووهب الحكماء في الأرض الحكمة ، قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ١٦٩] .

(١) (برقم :٢٨٩٩) .

وترك الدِّين بالكلية ؛ نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحقِّ والدِّين حتى نلقاه، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

ولذلك أحذرك ـ أخي ـ أن تتمنى لقاء العدو ، أو أن تفتح صدرك للفتن وتقول : أنا أكبر من أن أُبتلى بفتنة تؤثر في قلبي !! وعلى ديني! لا . ورحم الله مطرف بن عبد الله ؛ حين قال [١]:« **لَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرِ** » ؛ لأنك لا تدري في وقت الابتلاء ولقاء العدو هل ستصبر أم ستنكص على عقبيك؟! .

● ولذلك قال الصادق ﷺ : « **لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ** »[٢] لكن إن قدر الله ﷻ اللقاء فاثبت ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[الأنفال:٤٥] .

فيهزم الثُّلُثُ الأول في الجيش الإسلامي في المعركة الأخيرة الفاصلة الحاسمة ؛ أما الثُّلث الثَّاني ؛ فيقول الصَّادق ﷺ : « **وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله** » .

يا الله !! انتبه .. الشهادة لها أصفياء .. الذي يموت شهيدًا هو المجتبى؛

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٩٤) ، ووكيع (٢٠١) ، وهناد (٢٥٤) ـ في الزهد ـ بسندٍ صحيح .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا تتمنوا لقاء العدو (٣٠٢٤ - ٣٠٢٦) ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب كراهية تمني لقاء العدو (١٧٤١ ، ١٧٤٢) .

لأنه ليس كلُّ مَنْ سقط في الميدان أو على أرض المعركة يكون شهيدًا .. فقد يُقتل في الميدان مَنْ هو مِنْ أهل النيران !! ماذا تقول ؟!!

أقول لك : قد يقتل الرَّجلُ في الميدان وهو عند الله من أهل النار ؛ لأن الأعمال بالنيات ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[البينة : ٥] .

● وقال ﷺ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[(١)] .

نعم .. له في الدنيا ما أراد .. يريد أن يكون بطلًا .. يريد أن يكون جريئًا .. يريد أن يكون شجاعًا .. يريد أن تشير إليه وكالات الأنباء ووسائل الإعلام .. يريد أن يُصوَّر هنا أو هناك !! هذا هو الذي يريده وقد أخذه في الدنيا، لكن لا شيء له عند الله تبارك وتعالى في الآخرة ! كما في «الصحيحين»[(٢)] من حديث سهل بن سعد الساعدي ﵁ : « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْـمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَـمَّا مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأيمان والنذور ، باب النية في الإيمان (٦٦٨٩) ، ومسلم ، كتاب الإمارة (١٩٠٧) عن عمر .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب لا يقول : فلان شهيد (٢٨٩٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه (١١٢) عن سهل .

لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً إِلاَّ اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالَ : مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ** ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : أَنَا صَاحِبُهُ، قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ ، قَالَ : فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالأَرْضِ ، وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ، قَالَ : « **وَمَا ذَاكَ ؟** ». قَالَ : الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ. فَقُلْتُ : أَنَا لَكُمْ بِهِ ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ :

«**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهْوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» .

فهذا الرجل يحمل السيف ، ويقاتل مع النبيِّ ﷺ في صفوف الموحدين ، ومع ذلك يحكم عليه الصادق الذي لا ينطق عن الهوى بهذا الحكم الخطير!

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة .

○ ولذلك قال النبيُّ ﷺ:

« **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ** »[(١)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ: كتاب القدر ، باب العمل بالخواتيم (٦٦٠٦) .

فقد يقتل الرجل في الميدان وهو من أهل النيران ـ كما ذكرت ـ فلترجع معي إلى الرواية : « **فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله** ».

○ **وماذا عن الثلث الثالث ؟**

● **والجواب فيما قاله ﷺ** : « **وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ** » أي: الثلث المتبقي ؛ فلقد ارتد الثلث الأول من الجيش الإسلامي ، وقُتل الثُّلُث الثاني ، وتبقَّى الثُّلُثُ الثالثُ والأخير .. وقال : «**لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا**» لا توجد أيُّ فتنة تؤثر في هذه الصفوة الكريمة ، هذه غربلةٌ شديدة جدًّا ؛إنها خلاصة الخلاصة !

● **والرواية الثانية التي وَعَدْتُ بها في «صحيح مسلم»** (١) : عن يُسَيْرِ ابن جابر قال : «هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ» ـ هل تتصور حين ترى ريحًا عاتية تملأ الجو من حولك بالغبار الأحمر.. رعب يخلع القلوب ، بمجرد أن تقوم الرياح فقط، وننظر لهذا الرماد الأصفر الذي نراه ولا نكاد نرى شيئاً فإنَّ القلب ينخلع ، والريح جنديٌّ من جنود الله تبارك وتعالى؛ فلقد أهلك الله ﷻ بالرِّيح أقوامًا كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾

[الحاقة : ٦ـ ٨]

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال (٢٨٩٩) .

فالرِّيح آية من آيات الله تبارك وتعالى ؛ ولذلك كان النبيُّ ﷺ إذا رأى الريح فزع فزعًا شديدًا ؛ ففي «الصحيحين» (١) عن عائشة ﵂ ، قَالَتْ: كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الْغَيْمَ فَرِحُوا رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عُرِفَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةُ؟

فَقَالَ : « **يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنِّي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ؟ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا** :﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف:٢٤].

إلى هذا الحدِّ ـ بأبي هو وأمي وروحي ﷺ وهو مَنْ هو ؟ هو الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !

○ **يقول يسير بن جابر** : « هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرِي» يعني: رجلٌ صوته عالٍ جدًّا ، غير مفهوم الكلام من الانفعال ، ومن القلق ، والخوف .. رجلٌ رأى هذا المشهد . أتى ليبحث عن صحابي من أئمة الصحابة ، فوجد عبد الله بن مسعود ﵁ هذا الحبر العالم ، فأتاه ليقول له :« يَا عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ ! جَاءَتِ السَّاعَةُ ، قَالَ : فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئًا» ؛ ولذلك في الفتن لا بد أن نراجع العلماء ؛ فهم الذين يرشدون إلى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف:٢٤] . (٣٢٠٦) و (٤٨٢٩) ، ومسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر(٨٩٩/ ١٦) .

الحق ؛ لأنهم يقولون : قال الله ، قال رسوله ﷺ ؛ وقد أخبره ابن مسعود أنه لم تحن الساعة بعْدُ ؛ فقال رضي الله عنه : « إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ ، وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا ـ وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّامِ ـ فَقَالَ : عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ ، وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ ».

● قال الله ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾ [البقرة : ٢١٧] فلم يقل الله : حتى يخرجوكم من أرضكم !

● وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠] .

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[آل عمران:١١٨] .

هذا هو القرآن الذي بين أيدينا أيها الموحدون، فَقَالَ: «عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ، قُلْتُ: الرُّومَ تَعْنِى؟ قَالَ :نَعَمْ» .

ثم انظر كيف تكون الملحمة ؟

○ قال رضي الله عنه : « وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ» ـ وهذا الثلث الأول؛ كما في الرِّواية التي ذكرتها آنفًا ؛ ارتدوا وخرجوا من الدِّين ، قال

رضي الله عنه : « فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً» .

أي : يقدم المسلمون مجموعةً من الأبطال الصادقين المخلصين ؛ ليكونوا طليعةً لهذه المعركة ، وليكونوا طليعةً لهذا الجيش الإسلامي ، ويشترط هؤلاء على أنفسهم ، ويعاهدون ربهم تبارك وتعالى ألا يعودوا إلى صفوف الجيش الإسلامي إلا وقد حققوا أمرًا من أمرين : إما النصر ، وإما الشهادة ، «فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ» ـ أي : يرجع المسلمون ويرجع غير المسلمين ، ولا يتحقق نصرٌ في هذا اليوم لا للمسلمين ولا لأعداء المسلمين ـ «وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ» ـ أي: يفنى هؤلاء الذين عاهدوا رب الأرض والسماء على النصر أو الشهادة ؛ قال : «فَإِذَا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي» ـ انظر إلى أيام المعركة كيف حدَّدها النبيُّ ﷺ إلى أيام ؟!

قال : «فَإِذَا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي : فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ؛ فَإِذَا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ : فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ ، لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ » ثلاثة أيام تستمر المعركة لا ينتصر فريقٌ من الفريقين ، وتفنى كلُّ الفرق ، و كلُّ الأعداد التي قدمها المسلمون ليكونوا طليعة لهذا الجيش الإسلامي .

يقول : « فَإِذَا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعِ : نَهَدَ [١] إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ فَيَجْعَلُ الله الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ـ وفي لفظٍ [٢] : « فَيَجْعَلُ الله الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ » ـ أي : على أعداء المسلمين ـ فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا » .

ثم قال : « حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنبَاتِهِمْ ، فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا» يعني من كثرة القتلى في أرض المعركة ، ومن كثرة الزهم والنتن ، وتغير الرائحة ؛ لا يكاد يمر بهم الطير في السماء حتى يسقط ويخر ميتًا ـ « فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ كَانُوا مِائَةً ، فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ . يقول : فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ ؟ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ؛ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ ، هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ».إنه رجلٌ يصرخ ؛ ماذا يقول؟ يقول : وقعت فتنة أكبر من التي كانوا فيها !.

وهل هناك فتنة أكبر من هذه ؟ نعم .. وسنتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله ـ يصرخ وينادي : «إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ» ـ أي : من الغنائم ؛ فلا حاجة لهم فيها ـ «وَيُقْبِلُونَ ، فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً» ـ ليستطلعوا الأمر، وليتحققوا من وجود الدجال بالفعل ؛ تدبر ما يقول الصادق المصدوق ﷺ :

---

(١) أي : نهض وتقدَّم .

(٢) عند ابن أبي شيبة (٧/ ٤٩١) ، والحاكم (٤/ ٥٢٣).

● قال النوويُّ في «شرحه لمسلم» (١٨/ ٢٤، ٢٥) : «رواه بعض رواة مسلم : «الدائرة» بالألف ، وبعدها همزة ، وهو بمعنى الديرة ، وقال الأزهري : الدائرة هم الدولة تدور على الأعداء . وقيل : هي الحادثة» .

«إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ أو مِنْ خيرْ فوارِسَ على ظَهْر الأرض يَوْمَئِذٍ» .

○ وأقولُ : قد يكون لهذا السلاح أكثر من معنى أو مراد ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراد نبيه ﷺ ؛ فقد يكون النبيُّ ﷺ قد عبر عن السلاح بسلاح زمانه ! هذا قولٌ . وقيل : قد تتعطل هذه الأسلحة !! كيف ذلك؟ تعلمون أن هذه الأسلحة ، وجلُّ ما في الكون يتحرك بالكمبيوتر ! ولعلَّكُم تذكرون أن نوعًا من أنواع الفيروسات قد أصاب جهازًا يُعرف بجهاز البيجر في ولايةٍ من الولايات الأمريكية ؛ فتعطَّلت الأجهزة في هذه الولاية بكاملها حين أصيب الكمبيوتر الرئيس بفيرس من هذه الفيروسات ! لكنني أقول :سيهيئ الله الكون لمراده ، ولِمَا قضى وقدَّر ودبَّر ـ سبحانه ؛ لأن الكون لا يتحكَّم فيه أحدٌ من الخلق ، ولا يحكم الكون قوةٌ من القوى ، ولا دولة من الدول ؛ بل الكون كلُّه يدبره رب العالمين .

● قال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فالأمر أَمْرُه ، والملك ملْكُه ، والتدبير تدبيره ، وهو القادرُ على كلِّ شيء: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] .

فالرسول ﷺ يتحدث عن الملاحم ، وعن الأشراط ، ومع ذلك لا يستطيع عاقل على وجه الأرض ، فضلا عن عالم أن يقطع بوقتٍ محدَّدٍ معلومٍ لنهاية العالم ، أو لقيام الساعة ؛ لأن هذا من الغيب الذي اختصَّ به ربنا تبارك وتعالى ، لم يُطْلع عليه ملكًا مقربًا ، ولا نبيًّا مرسلًا، ولو كان المصطفى ﷺ! .

● قال الله ﷻ: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

[الأنعام : ٥٩]

● وقال الله ﷻ يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣] .

● ويقول الله ﷻ : ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٦] .

● وفي **«صحيح مسلم»** [(١)] من حديث عمر بن الخطاب ﷺ وفيه: أن جبريل سأل النبيَّ الجليل ﷺ : مَتَى السَّاعَةُ ؟

فقال المصطفى ﷺ : « **مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** ».

فإذا كان أمينُ أهل السماء وأمينُ أهل الأرض لا يعلمان شيئًا عن وقت

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان حديث رقم (٨) .

قيام الساعة ؛ فلا ينبغي لعاقلٍ أن يجزم أن الساعة تكونُ في السنة الفلانية أو في الشهر الفلاني!! وقد حذرتُ من ذلك مرارًا وقلت : بأن هذا ضرب من المجازفة ، وجهلٌ مبين ، ورقةٌ في الدين!! فالله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي أخفى وقت قيام الساعة عن كلِّ خلقه ؛ بل عن الملائكة المقربين ؛ هو سبحانه الذي أطلع رسوله المصطفى ونبيه المجتبى ـ محمدًا ﷺ ـ على أمارات و علامات و أشراط الساعة ؛ كما في «**صحيح البخاري**»(١) من حديث ابن عمر أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

« **مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا الله** » وقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِى ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسٌ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدۡرِى نَفۡسُۢ بِأَىِّ أَرۡضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان : ٣٤] ».

فالله وحده هو الذي يعلم وقت قيام الساعة .

○ **أقول** : ومع ذلك أطلع الله نبيه على هذه الأمارات .. وعلى تلك العلامات والأشراط ؛ قال الله ـ ابتداءً ـ في حق نبيه ﷺ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[الجن:٢٦،٢٧].

● وقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡىٞ يُوحَىٰ﴾[النجم : ١ ـ ٤] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن:٢٦] (٧٣٧٩) ، وانظر رقم (٤٦٢٧) .

● وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

[البقرة: ٢٥٥]

● **وفي «مسند أحمد» و«سنن أبي داود» و«مستدرك الحاكم» بسندٍ صحيح** [(١)] من حديث عبد الله بن عمرو قال: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، وَقَالُوا: أَتَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ وَرَسُولُ الله ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ قال: فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَأَوْمَأَ بِأُصْبُعِهِ إِلَى فِيهِ؛ فَقَالَ: « **اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلاَّ حَقٌّ** ».

● **وفي «الصحيحين»** [(٢)] من حديث حذيفة رضي الله عنه: « لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلاَّ ذَكَرَهُ عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ».

● **وفي «صحيح مسلم»** [(٣)] من حديث أبي زيد عمرو بن أخطب رضي الله عنه قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢) وأبو داود، كتاب العلم، باب في كتاب العلم (٣٦٤٦) والحاكم (١/ ١٠٥، ١٠٦)، وصححه بمجموع طرقه الشيخ الألبانيُّ في «السلسة الصحيحة» (٢٠٢٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرًا مقدورًا (٦٦٠٤) وهذا لفظه، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبيِّ ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبيِّ ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢).

« صَلَّى بِنَا رَسُولُ الله ﷺ الْفَجْرَ ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ . فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ . فَخطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا» .

● وفي «صحيح البخاري» [(١)] من حديث عوف بن مالك ﷺ قال :قال النبيُّ ﷺ « **اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ** » .

نتعرف عليها بعد ذلك ـ إن شاء الله تعالى .

فالله أخبر نبيه ﷺ وأطلعه على كلِّ ما يقع في الكون بين يدي الساعة من علامات .

○ **والعلماء يقسمون العلامات إلى قسمين :**

علامات صغرى ، وعلامات كبرى .

وسأتعرض إلى ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى .

فما نعيشه الآن ، وما نراه بأعيننا ، وما نسمعه بآذاننا ، أخبرنا عنه حبيبنا ونبينا منذ أربعة عشر قرنًا .

● وصدق ربي إذ يقول : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة ، باب ما يُحْذَرُ مِنَ الغدر (٣١٧٦).

• وقال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:١ـ٧]

فكلُّ أمر متعلق بالدين إنما هو وحيٌ من رب العالمين ، لا يتكلَّم فيه رسول الله ﷺ من عند نفسه !.

• وقال تعالى : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن :٢٦ ، ٢٧] .

نعم .. عَلِم النبيُّ ﷺ العلامات الصغرى والكبرى التي وقعت وستقع بين يدي الساعة .

• وقد تقدَّم الحديثُ الذي رواه «البخاريُّ» (١) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ : مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الـمَقْدِسِ ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْـمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا » .

(١) تقدَّم موجزًا .

وها نحن نعود للحديث من أوله لنقف مع كلماتِهِ كلمةً كلمةً ، وعلامةً علامةً ـ وسيأتي ذلك بالتفصيل.

○ قال ـ عليه الصلاة والسلام : «**اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ..**» .

⑥ **العلامة الأولى : « مَوْتِي »** .

أي: موت الحبيب ﷺ ؛ فبموته ﷺ وقعت هذه العلامة ، وموت النبيِّ ﷺ كان ولا زال من أعظم المصائب التي منيت بها الأمة ؛ ففي «سنن الترمذي» و«ابن ماجه» و«مسند أحمد» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ (١) ، قال أنس رضي الله عنه : « **لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ. فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الأَيْدِي، وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا** ».

● ورضي الله عن ريحانةِ رسول الله ﷺ ـ فاطمة الزهراء ـ حين قالت لأنس: «**يَا أَنَسُ ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا التُّرَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ** » (٢) .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٢١، ٢٦٨) ، والترمذيُّ كتاب المناقب ، باب في فضل النبيِّ ﷺ (٣٦١٨) وقال : «حديث غريب صحيح» ، وابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣١) ، والدارميُّ في المقدمة (٨٨) ، والبغويُّ في «شرح السنة» (٣٨٣٤) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي وابن ماجه» .

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٦٢) .

فموت رسول الله ﷺ علامةٌ من العلامات ؛ لأن الله تعالى لم يرسل رسوله المصطفى ونبيه المجتبى ﷺ ليخلَّد في هذه الحياة .

● قال جلَّ وعلا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] .

أي : إذا كان النبيُّ ﷺ قد مات ، فهل يخلَّد أحدٌ بعده ﷺ ؟!!

● وقال جلَّ في علاه : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

لقد مات رسول الله ﷺ ، ونام على فراش الموت ، بل وذاق سكرات الموت ، فها هو ﷺ يُدْخِل يده في قَدَح فيه ماء ، ويمسح العرق عن جبينه الأزهر الأنور، ويقول : «لاَ إِلَـهَ إِلَّا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ» ؛ حتى قالت عائشة : مَاتَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي ، أَوْ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي ، فَمَا أَكْرَهُ شِدَّةَ المَوتِ لِأَحَدٍ بَعْدَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ (١) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب المغازي باب مرض النبيِّ ﷺ ووفاته (٤٤٤٦، ٤٤٤٩)، وانظر: الترمذيُّ كتاب الجنائز ، باب ما جاء في التشديد عند الموت (٩٧٨) وقال : «حديث حسن غريب» .

● **فالعلامة الأولى** : كما قال ﷺ : «**مَوْتِي**». وقد وقعت هذه العلامة .

● **العلامة الثانية** : « **ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ** » وقد وقعت ـ أيضًا ـ هذه العلامة ؛ فلقد فُتِح بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه .

فلقد مات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في العام الحادي عشر من الهجرة ، وفتح الله عز وجل على أصحابه ـ في عهد عمر ـ بيتَ المقدس ، في العام السادس عشر من الهجرة .

○ وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة إلى أرض فلسطين ، ليتسلم بيده مفاتيح بيت المقدس في موكب مهيبٍ جليل ؛ يزداد جمالًا وجلالًا بتواضعه ؛ أمير المؤمنين الفاروق الأوَّاب عمر بن الخطاب مع خادمه على ظهر دابة واحدة ، يركبها تارة ، ويركبها خادمه تارة ؛ فلما أقبل على أرضِ بيت المقدس ، ومرت به دابته في مخاضة ـ في بركة ماء ـ خشي أن يمرَّ المخاضة وهو على ظهر الدابة، فنزل ووضع حذاءه تحت إبطيه ، وجرَّ الدابة خلفه ؛ فلما رآه أبو عبيدة بن الجراح ـ قائد الجيوش المنتصر ـ قال: « يا أمير المؤمنين ، ما أحب أن القوم قد استشرفوك » ـ يعني : لا أحب أن يراك القوم وأنت في هذه الحالة ـ قال : « أوه يا أبا عبيدة ، لو قالها غيرك يا أبا عبيدة ، لقد كُنَّا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله » (١) ففي عهد هذا الأوَّاب عمر، وفي عهد أمين الأمة أبي

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ١٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١/ ١١٧).

عبيدة بن الجراح فتح الله بيت المقدس ؛ وأسأل الله ﷻ أن يردَّه من جديد إلى المسلمين ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

● **العلامة الثالثة: « ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ »** .

أي: ينتشر فيكم « **كَقُعَاصِ الْغَنَمِ** » أي : كالوباء الذي يصيب الغنم فيهلكها ، وهو شيٌ يسيلُ من أنوف الدواب ، فتهلك في الحال .

○ **وقد قال علماؤنا** (١) : بأن هذه العلامة قد وقعت أيضًا في طاعون عمواس (٢) في بلاد الشام ، وكان على الرَّاجح من أقوال جماهير أهل السير والتاريخ في الثامن عشر من هجرة النبيِّ ﷺ ، وقد قُتل في هذا الوباء ، وفي هذا الطاعون خمسةٌ وعشرون ألفًا من المسلمين وعلى رأسهم أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، بل وطعن فيه ـ أيضًا ـ ومات بسببه معاذ بن جبل حبيب رسول الله ﷺ .

● **والعلامة الرابعة :**

قال ﷺ : « **ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا** » ، واستفاضة المال : أي : كثرته .

● **فقد ثبت في «صحيح البخاري»** (٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ـ يعني : الفقر ـ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ؛ فقال النبيُّ ﷺ لعديِّ بن حاتم : «يَا عَدِيُّ ،

---

(١) « فتح الباري » (٦/ ٣٢١) .

(٢) وحديث الطاعون ؛ في «صحيح البخاري» (٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩) .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣) ، وانظر (٣٥٩٥) .

هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟» قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا ، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا ، فقال النبيُّ ﷺ : « **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ** ـ والظعينة : هي المرأة في الهودج الذي يوضع على البعير ـ **تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ الله** » قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي : فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ ؟ ـ أي : أين هؤلاء الذين قطعوا الطريق على المسافرين ؟ ـ « **وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى** ». قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ؟ قَالَ : «**كِسْرَى ابْنِ هُرْمُزَ ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ** ـ وهذا هو الشاهد ـ **يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ ، فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ** ».. قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلاَّ الله ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ـ صلى الله على الصادق ـ قال : « وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ : « **يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ** ».

● **قال بعض أهل العلم** [1] : وقد وقع ذلك بالفعل في عهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ ففي سنتين ونصف تقريبًا ؟ عادت الحياة مرة أخرى في عهده ، وكأنها تحاكي حياة النبوة الأولى ؛ لعدل هذا الرجل وورعه ؛ فهو من طراز عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

لقد عاش الناس في عهد عمر بن عبد العزيز في رخاء ، ونعيم ، واستفاض المال ؛ بل وأمر المنادي أن ينادي في الأمصار، وفي البلدان

(١) انظر «الفتح» للحافظ ابن حجر (٦/ ٧٤٣ ط الحديث) .

ويقول : « من كان عليه دين، فسدادُ دينه من بيت مال المسلمين ، من كان فقيرًا ويحتاج فحاجته من بيت مال المسلمين ، من أراد الحج ولم يجد النفقة فنفقة حجه من بيت مال المسلمين ، ومن أراد أن يتزوج فنفقة زواجه من بيت مال المسلمين » ، وأغنى القوم بفضل رب العالمين، حتى خرج المنادي بعد ذلك ينادي ، فلم يجد أحدًا يقبل منه العطاء ، أو يقبل منه الصدقة !

●● ومن أهل العلم **مَنْ قال** [(١)]: وسيقع هذا ـ أيضًا ـ في آخر الزمان بين يدي الساعة ، في زمن المهدي وعيسى ابن مريم ـ عليهما السلام ـ وسأبين ذلك بالتفصيل إن شاء الله تبارك وتعالى ـ حين تُخرج الأرضُ بركاتها ، فحين تنزل البركة سيفيض المال ، وقد يخرج الرجلُ بالمال ، فلا يجد ـ أيضًا ـ من يقبل الصدقة ؛ لأن الناس في عهد عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ يكونون على يقين بأن الساعة قد أقبلت ، وقد اقتربت ، وهم منشغلون في هذا الوقت ـ يقينًا ـ بطاعة الله سبحانه ، وبالعمل الصالح ، فلا تتعلق قلوبهم في هذه الأوقات بالدنيا .

قال ﷺ : « **حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا** » .

● **قال بعضُ أهل العلم** [(٢)] : إما لعدم القناعة والرضا . وإما لأن المال لا يكفي لسدِّ حاجته ، والإنفاق على ما يحتاج إليه من نفقات .

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر : «عمدة القاري» (١٥/ ١٠٠) لبدر الدين العيني .

● **أما العلامة الخامسة :**

قال ﷺ : « **فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ** ».

● **قال بعضُ أهل العلم** : ربما تكون هذه الفتنة هي وسائل الإعلام بصورها المختلفة ، وأشكالها المتعددة ، سواء كانت هذه الوسيلة مرئيةً أو مقروءة أو مسموعة ! لكنني مع ذلك لا أجزم بأن هذا هو المراد من قول رسول الله ﷺ ؛ فالله تبارك وتعالى أعلم بمرادِ نبيه في هذه العلامة [(١)] .

● **أما العلامةُ السادسة :**

قال ـ عليه الصلاة والسلام : « **ثُمَّ تَكُونُ هُدْنَةٌ** ». وهناك هدنةٌ الآن قائمة بين أكثر الدول الأوربية والأمريكية وبين المسلمين ؛ فالله أعلم بذلك. « **ثُمَّ تَكُونُ هُدْنَةٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ** »وهم : الروم [(٢)] ، «**فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً** » وهي الراية ، وسميت الراية بالغاية ؛ لأنها غاية الجيش ؛ فإن سقطت الراية سقطت الغاية، ودبَّت الهزيمةُ في قلوب أفراد الجيش « **تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا** ».

● **وفي «مسند الإمام أحمد» و«سنن أبي داود وابن ماجة» و«صحيح ابن حبان»** [(٣)] بسندٍ صحيحٍ من حديث رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ يقال له :

---

(١) وبعض أهل العلم أشار إلى أن هذه الفتنة ربما تكون ما وقع من فتن بين الصحابة رضوان الله عليهم ، بداية من مقتل عثمان ، واستمرت بعده . انظر: «فتح الباري» (٦/ ٣٣٨).

(٢) وبمفهوم العصر : هم أهل أوربا وأمريكا .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب ما يذكر من ملاحم الروم (٤٢٩٢ ، ٤٢٩٣) ، وابن ماجه كتاب الفتن ، باب الملاحم (٤٠٨٩) وقال البوصيري في «الزوائد» : « إسناده حسن» =

«ذو مخمر» وقيل: «مخبر» قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«سَتُصَالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا، فَتَغْزُونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عَدُوًّا مِنْ وَرَائِكُمْ، فَتُنْصَرُونَ وَتَغْنَمُونَ وَتَسْلَمُونَ، ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ ـ والمرج: المكان الذي يكثر فيه الماء والخضرة ـ فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ، فيقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَدُقُّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ».

● وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ ـ أي: ونحنُ نتكلَّم ونتناقش ـ فَقَالَ ﷺ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» ـ أي: ما الذي تتحدَّثون فيه؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ يَا رَسُولَ الله ـ انظروا إلى هَمِّ الصحابة وفيما يتحدثون ـ فقال ﷺ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ» فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ـ وفي رواية: «مِنْ قُعْرَةِ عَدَنٍ» ـ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ».

= وأحمد في «المسند» (٤/ ٩١) و (٥/ ٣٧١، ٤٠٩)، وابن حبان (٦٧٠٨، ٦٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٤٦٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٩٤٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦١٢)، و«المشكاة» (٥٤٢٨).

(١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١).

هذا نموذجٌ من العلامات الكبرى ، وقد ثبت في روايات أُخر أن النبيَّ ﷺ ذكر هذه العلامات بغير هذا الترتيب الوارد في رواية حذيفة بن أسيد الغفاريِّ ، لكن على أي حال ، فإن العلامات الكبرى إن وقعت منها علامة وقعت بقيةُ العلامات ؛ كالعقد إذا انفرط انفرطت بقية الحبات .

● ولقد قال النبيُّ ﷺ هذا ؛ كما في «**مسند أحمد**» و «**مصنف ابن أبي شيبة**» من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو **عند الحاكم** من حديث أنس ، وثمَّ طرق أُخرى صححها بمجموعها الألبانيُّ [(١)] أن النبيَّ ﷺ قال : «**الْأَمَارَاتُ خَرَزَاتٌ**» أي: حبات « **مَنْظُومَاتٍ فِي سِلْكٍ** » ـ انظر إلى التعبير النبوي ممن آتاه الله جوامع الكلم : «**فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا** » يا رب سلِّم .. علامات متلاحقة متتابعة . . إن وقعت علامة تبعتها بقية العلامات ؛ أسأل الله أن يختم لي ولكم بالإيمان .

أحداث كثيرة . . فماذا عن الواقع الذي نحياه ؟ هل تحدث عنه النبيُّ ﷺ ؟ نعم !! فحالة التبعية المهينة ، وحالة الضعف والمذلة التي تمرُّ بها أمتنا في هذه السنوات تكلَّم عنها رسول رب الأرض والسماوات !!.

ألم أقل لكم : إن النبيَّ ﷺ لم يترك شيئًا سيقع في الكون إلى أن تقوم الساعة إلا وذكره ، عِلمَه مَنْ علمه من الصحابة ، وجهله من جهلهُ ؛

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩) ، وابن أبي شيبة (٣٧٢٧٤) ، والحاكم (٤/ ٥٢٠) ط العلمية عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، ورواه الحاكم عن أنس رضي الله عنه (٤/ ٥٨٩) ، ورواه ابن حبان (٦٨٣٣) ، والطبراني في «الأوسط» (٤٢٧١) عن أبي هريرة ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٧٥٥، ٣٢٢٧) و«الصحيحة» (١٧٦٢، ٣٢١٠) .

فلقد نقلوا إلينا ما شاء الله تبارك وتعالى أن يصل لنا . فماذا قال النبيُّ ﷺ في مثل هذا الواقع الأليم ؟

•روى البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال : « لَتَتَّبِعُنَّ » ـ انظر منذ متى يقول تلك المقالة ؟ منذ أربعة عشر قرنًا ـ «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ » قالوا : يَا رَسُولَ الله ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قال : « فَمَنْ؟» ، أي: فمَنْ غيرُ هؤلاء ؟! هذا تعبيرٌ نبويٌّ بليغٌ ، وتشخيصٌ دقيقٌ لحالةِ الأمة الأليم من تلك التبعية والمهانة التي تمرُّ بها في هذه الآونة ؛ لأن الأيام دُوَل .

• قال الله ﷻ : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١٤٠] .

وليس معنى ذلك ـ أيها الأفاضل ـ أن نُجرِّد الأمة من خيريتها ، لكن النبيَّ ﷺ يتحدث عن حالة من حالات الضعف والتبعية التي ستمرُّ بها الأمة في مرحلة من مراحل تاريخها الطويل ؛ فإن كانت الأمة تمر الآن بهذه المرحلة، فلطالما مرت الأمةُ بمراحل أخرى من مراحل التمكين ، ولسوفَ تُمكَّن بإذن رب العالمين، وبموعود سيد المرسلين ـ كما سأبين إن شاء الله ـ جلَّ وعلا .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٤٥٦) ، ومسلم كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى (٢٦٦٩) .

• وروى أحمد في «مسنده» ، وابن ماجة في «سننه» بسندٍ صحيح [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال :

« سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ » قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يَا رَسُولَ الله ؟

قَالَ : « الرَّجُلُ التَّافِهُ » .

وفي لفظٍ : « الرَّجُلُ السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ » .

فكلُّ شيء نراه الآن بأعيننا ، ونستمع إليه اليوم بآذاننا ، تكلَّم عنه المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

وأنا أُذكِّر بهذا دوْمًا لأسكُبَ في القلوب الأمل ، في وقت قلَّ فيه الأمل ، وكثر فيه القنوط ، وخيَّم فيه اليأس ، وهبَّت ريح الإرجاف على كثير من القلوب ، فالذي أخبر عن الواقع الذي تحياه الأمة ــ الآن ــ في صورةٍ ناصعة واضحة هو هو ـ بأبي وأمي وروحي ونفسي صلى الله عليه وسلم ـ الذي أخبر عن نصر الله ـ جلَّ في علاه ـ لهذه الأمة ، وهو الذي أخبر عن التمكين لأمته الميمونة المباركة.

وسوف أبشركم بذلك من كلام الصادق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١ ، ٣٣٨) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان (٤٠٣٦) ، والحاكم (٤/ ٥١٢ ، ٥٥٧) ، وقال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٨٤) : «سنده جيد» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٨٨٨ ، ٢٢٥٣) .

فأنا أقول بملء فمي : لو اجتمع أهل الكفر على وجه الأرض في أنحاء الكون ، ليستأصلوا شأفة المسلمين ، أو ليبيدوا خضراءهم من هذه الدنيا ، ما استطاعوا ولن يستطيعوا ـ أبدًا ـ ولو اجتمعوا .

فلقد بشَّر النبيُّ ﷺ بهذه البشرى ؛ كما روى **الإمام مسلم في «صحيحه»** [(١)] من حديث ثوبان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« **إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا** » .

فربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ زوى الأرض لنبيه ﷺ فرأى مشارق الأرض ومغاربها ؛ كما جلَّى له المسجد الأقصى بعد عودته من رحلة الإسراء والمعراج ، فقد نقله الله ﷻ له أمام عينيه في صورته فما سأله المشركون عن شيء إلا ونظر ونعت ووصف [(٢)]! وما ذلك على الله بعزيز ! .

ثم قال المصطفى ﷺ : « **وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا** » .

فرسول الله ﷺ يبشِّر الصحابة وهم في مكة !! والسياط على ظهورهم ، والدماء تنزف من أجسادهم ، والمشركون يعذبونهم على الرمال والرمضاء !! يبشرهم بماذا؟ بالنصر والتمكين ! ؛ فيقول ﷺ : « **وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ** ».

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

(٢) انظر : البخاري (٣٨٨٦) ، ومسلم (١٧٠) من حديث جابر ﷺ ، ومسلم (١٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ .

وهو مُلْكُ كسرى وقيصر ؛ كما في «الصحيحين»[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:

« إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلاَ كِسْرَى بَعْدَهُ ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلاَ قَيْصَرَ بَعْدَهُ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ ».

○ أخي في الله: لا يصدق هذا إلا من ملأ الله قلبه باليقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب:٢٢] .

هذا شعارُ المؤمنين الصادقين ؛ أما المنافقون فقولتهم الخبيثة ـ كما حكى الله عنهم : ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[الأحزاب:١٢].

● يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم:

« وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ـ أي بقحطٍ عام ـ وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب الحرب خدعة (٣٠٢٧) ، ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٨) ، وروي عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عند البخاري (٣١٢١) ، ومسلم (٢٩١٩)

يا لها من بشرى!!

● وفي الحديث الذي رواه أحمد والحاكم [(١)] وغيرهما بسندٍ صحيح على شرط مسلم من حديث تميم الداريِّ أنه ﷺ قال: « **لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ** ـ أي: هذا الدين ـ **مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ** » ـ هل ترك الليل والنهار مكانًا لم يصل فيه ؟ لا والله ـ « **وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ** » .

○ تعالوا بنا ـ أيها الأفاضل ـ بعد هذه المقدمة العلمية ، وبعد هذا التأصيل المُجْمَل عن العلامات التي ستكون بين يدي الساعة ، تعالوا بنا لنتعرف بالتفصيل على « أحداث النهاية » تلك السلسلة المنهجية التي تجمع بين التأصيل العلمي والمنهج التربوي ، والأسلوب الدعوي ، والتي أقدمها في عصر طغت فيه الماديات والشهوات . وانحرف فيه كثير من الناس عن ربِّ الأرض والسموات ، وتراكمت فيه الذنوب على الذنوب ، وقلَّ فيه الخوف من علام الغيوب .. لا أقدمها هروبًا من الواقع !! بل أقدمها تصحيحًا للواقع ، لتعلم البشرية التي تهذي كالسكران ، وتضحك كالمجنون وتجرى كالمطارد ، وتفعل ببعضها ما تستحي الوحوش الضارية

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣) ، والحاكم (٤/ ٤٣٠ ، ٤٣١) ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١) من حديث تميم ، وله شاهد عند أحمد (٦/ ٤) ، وابن حبان (٦٧٠١) ، والحاكم (٤/ ٤٧٦) ط العلمية ، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ٢٥٤) ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٨١) من حديث المقداد بن الأسود ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣).

أن تفعله ببعضها البعض في عالم الغابة !! لتعلم يقينًا أن الموت ليس نهاية الحياة .. كلا كلا .. بل بعد الموت بعثٌ ، وبعد البعث حشرٌ ، وبعد الحشر حسابٌ ووقوف في ذلٍ وخشوع بين يدي جبّار السموات والأرض للسؤال عن القليل والكثير ، والصغير والكبير .

● قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] .

● وقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وبعد الحساب جنة أو نار .. سعادة لا شقاوة بعدها أبدًا .. أو شقاوة لا سعادة بعدها أبدًا « يا أهل الجنة خلودًا فلا موت .. ويا أهل النار خلود فلا موت !! »

● قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨ ﴾ [هود:١٠٥-١٠٨] .

ولتكن بداية « **أحداث النهاية** » بالنهاية !! نعم .. إنها النهاية الحتمية الحقيقية لأي إنسان على وجه الأرض مهما علا قدره ، وارتفع أو اتضع

شأنه !! إنها « الموت » !!

أسأل الله أن يجعل في هذه السلسة العبرة والعظة ، وأن يجعلها بداية أوبة وعودة صادقة إلى الله ـ جلَّ وعلاَّ ، وأن تكون سببًا لعودة الأمة إلى مكانتها وريادتها وكرامتها وسعادتها في الدنيا والآخرة ؛ وذلك بالتخلص من الوهن واليأس والهزيمة النفسية القاتلة ، وحالة الإرجاف الخطيرة التي أصابتها بالتقاعس عن العمل والإبداع ؛ بسبب سوء الفهم لمراد الله ورسوله ﷺ ، كما أسأله سبحانه أن تكون سببًا لعمل جادٍ مبدع للدين والدنيا معًا .

فلن تستطيع الأمة أن تشق لنفسها طريقًا من العزَّة والكرامة وسط أحجار النظام العالمي الجديد ؛ بل ولن تسعد في الآخرة بجنات العزيز الحميد إلا بالعلم والعمل .

وما أرخص الدَّعاوى التي تزعم أن شيئًا لن يتغير حتى يخرج المهدي آخر الزمان ، فلتكف الأمة عن العلم والعمل ، ولتنتظر مهدي آخر الزمان !! .

ولو كان ذلك كذلك ما تحمل رسول الله ﷺ الأذى ، وما مشى على شوك الأسى ليبلِّغ دين الله ـ جلَّ وعلا .

فهيَّا لننهض معًا لسعادة الدنيا والآخرة ، وأسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه ، وألا يجعل حظنا من ديننا قولنا ، وأن يحسن نيَّاتنا وأعمالنا ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان

شوال ١٤٢٨هـ

سكرة الموت

سكرة الموت

ليعلم الجميع أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ؛ لأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ؛ ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر .

أيا من يدَّعي الفهم ... إلى كم يا أخي الوهم
تتبع الذنب بالذنب ... وتخطي الخطأ الجم
أما بان لك العيب ... أما أنذرك الشيب
وما في نصحه ريب ... أما نادى بك الموت
أما أسمعك الصوت ... أما تخشى من الفوت
فتحتاط وتهتم ... فكم تسير في السهو
وتختال من الزهو ... وتنفض إلى اللهو
كأن الموت ما عم ... كأني بك تنحط
إلى اللحد وتنغط ... وقد أسلمك الرهط
إلى أضيق مِنْ سم ... هناك الجسم ممدود
ليستأكله الدود ... إلى أن ينخر العود
ويمسي العظمُ قدْ رمَّ ... فزوِّد نفسك الخير
ودع ما يعقب الضير ... وهيئ مركب السير
وخَفْ من لُجَّةِ اليم ... بذا أوصيك يا صاح

وقــد بُحْتُــك مَــنْ بــاح فطوبى لفتًى راح بآداب محمدٍ يأتم

فالحياة تمضي مسرعة ! ومعظم أهلها في غفلة عما هو آت ـ إلا من رحم ربُّ الأرض والسماوات ـ فلوعدت إلى الوراء قليلًا،لَقُلْتَ : رمضان الماضي أستشعرُ أنه كان في الشهر المنصرم فقط !!

بل هذا اليوم الذي أنت فيه لوعُدْتَ إلى اليوم الذي كان يقابله في الأسبوع الماضي لاستشعرت أنه كان قبل ساعة ! فالأعمار تجري ، والأيام تمرُّ ، والأشهر تجري ورائها ،تسحب معها السنين ، وتجرُّ خلفها الأعمار ، وتُطْوى حياةُ جيلٍ بعد جيل بعد جيل ، وبعدها سيقف الجميع بين يدي الملك الجليل للسؤال عن الكثير والقليل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] .

فمعظم الخلق في غفلة عما هو آت ؛ مثلُهم كمثل أمواج البحر المتدفقة المتلاطمة ، كلَّما انكسرت على الشط موجة تبعتها موجة أخرى .

ومثلهم كمثل المياه المتدفقة في الأنهار والبحار والمحيطات . فالماء الذي وقعت عينك عليه اللحظة يختلف تمامًا عن الماء الذي وقعت عينك عليه قبل لحظة ، فالماء يجري ويتغير ، والحياة تجري وتتغير ، أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تبلع .. نساءٌ يلدن كلَّ ساعة على وجْه الأرض ، وأناس يُقْبرون كلَّ ساعةٍ على وجه الأرض ، وسيأتي اليوم الذي يتوقف فيه الوجود الإنساني كلُّه ، وتنطفئ نجوم السماء ، وتتوقف المياه ، وتجف مياه العيون والآبار ، وتتوقف المياه في الأنهار والمحيطات والبحار ؛ ليقوم الجميع بعد

ذلك للوقوف بين يدي العزيز الغفار ؛ قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٨] .

انتهى كلُّ شيءٍ في هذه الحياة الدنيا وتغير ، وتوقف الوجود الإنساني كلُّه ، قف مع هذه اللحظة ، فساعتك ـ أيها الحبيب اللبيب ـ تبدأ بموتك ، وساعتي تبدأ بموتي ، وقيامتك تبدأ بموتك ، ستنتقل من عالم الدنيا إلى عالمٍ آخر ، يختلف تمامًا عن عالمك الذي تعيش فيه ، وقد بيَّن لنا ربُّنا سبحانه وتعالى الغاية التي من أجلها خُلِقْنا ، وحقيقة الدنيا التي فيها وجودنا.

● فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]

هذه هي الغاية التي من أجلها خلقنا ، ومن أجلها خلقت السماوات والأرض ، والجنة والنار ، و من أجلها أنزل الله الكتب والصحف ، وأرسل جميع الأنبياء والرسل ، فالكون كلُّه خُلِق من أجل هذه الغاية .. من أجل أن يفرد الخلقُ الحقَّ تبارك وتعالى بالألوهية والعبادة ، وأن يُعبدُ اللهُ ﷻ وحده لا شريك له .

فَتَعَرَّفْ على هذه الغاية ، وإياك أن تقول كما قال هذا التائه : « جئتُ لا أعلمُ من أين ولكنِّي أتيتُ ، ولقد أبصرتُ أمامي طريقًا فمشيتُ ، وسأمضي في طريقي شئتُ هذا أم أبيتُ ، كيف جئتُ؟ كيف أبصرتُ طريقي؟ لست أدري !! ».

لكن المسلم يدري ؛ فمَنْ عرف الله ـ جلَّ وعلا ـ يدري أنه خُلِق ، خلقه الله في الدنيا لغاية، بل وحدَّد له المصير ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياكم من أهل الجنان ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

● فالغاية هي العبادة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

○ **وما هي حقيقة هذه الحياة الدنيا ؟**

● قال الله سبحانه : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد:٢] .

○ والمراد بالكفار هنا : الزُّرَّاع .

فانظر إلى حقيقة الدنيا لتعلم حقيقة الدار التي جعلها الحقُّ تبارك وتعالى لنا محطَّ ابتلاء ، وامتحان ، واختبار .

● قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء :٣٥] . للاختبار والامتحان .

• وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢]

فأنت هنا في بوتقة اختبار ، وفي دار ابتلاء وامتحان ، فالدنيا دارُ ممر ، وليست دار مقر .. الدنيا طريق إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومزرعة إما أن تحصد ثمارًا تكون سبيلًا لك إلى الجنة أو إلى النار . أعاذني الله وإياكم من النار .

• قال الله سبحانه : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:٤٥، ٤٦] .

○ ويبين لنا المصطفى ﷺ حقيقة الدنيا ؛ كما في « **سنن الترمذي** » **بسندٍ صحيح** [(١)] من حديث ابنِ عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « **لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ** ـ أي : ذبابة ـ **مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ** » .

انظر إلى الدنيا بزخارفها ، كم هي هينة على الله ﷻ ، واعلم أنها للكافر وللمؤمن ، كلٌّ يأخذ منها بقدر أخذه بالأسباب .

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب الزهد ، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ (٢٣٢٠) ، وقال : « حديث صحيح غريب من هذا الوجه » ، وابن ماجه كتاب الزهد ، باب مثل الدنيا (٤١١٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٢٩٢) ، و« الصحيحة» (٩٤٣).

فالله خلق الكون، وخلق الأرض ، وأودع فيها الأسباب ، والقوانين ، والنواميس ، وهو ـ سبحانه ـ ربُّ الكافر والمؤمن على السواء ؛ يرزق الكافر ويرزق المؤمن ؛ لو أخذ الكافر بالأسباب لأخذ ثمرة الأخذ بالأسباب ، ولو عطَّل المُؤْمِنُ الأسباب بقلبه وجوارحه ما أعطته الأسباب شيئًا على الإطلاق !

فلا ينبغي أن ترفض الأسباب لا قلبًا ، ولا باطنًا ، ولا ظاهرًا .

فالدنيا هينة على الله سبحانه ، لا تساوى عنده جناح ذبابة .

ولما علم الفطناء والعقلاء حقيقة الدار حرثوها وزرعوها ، وفي الآخرة تُجنى الثمار .

إن لله عبادًا فطنا طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لُجَّة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنًا (١)

ما أجمل هذه الكلمات وأروعها .. جعلوها لجة ، أي : ماء ، متخذين صالح الأعمال فيها سفنًا ؛ ليعبروا بهذه السفن وسط هذه الأمواج المتلاطمة من أمواج الفتن ـ فتن الشبهات والشهوات ـ ليعبروا بهذه الأعمال الصالحات إلى جنة رب الأرض والسماوات .

فالدنيا ليست مذمومة على الإطلاق ، وهذا من التأصيل العلمي الذي

(١) انظر: « رياض الصالحين » للنووي (ص٣٨) ط دار الذخائر .

أودُّ أن أركِّز عليه .

فليس هناك ذمٌّ في القرآن والسنة لذات الدنيا إطلاقًا (١) ؛ لا لزمانها ـ ألا وهو الليل والنهار ـ ولا لمكانها ـ ألا وهي الأرض ـ ولا لخيراتها وما أودع الله سبحانه وتعالى فيها .

كيف وهو القائل ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان:٦٢] ؟ ، فالليل والنهار آيتان من آيات العزيز الغفار .

● قال تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٧ـ٣٩] .

● والأرض آية أخرى ؛ يقول الله ﷻ : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ الآيات [يس:٣٣] .

● و قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠]

● وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك:١٥] .

---

(١) انظر : « جامع العلوم والحكم » لابن رجب (٣٦٩) ط الحديث .

والجبال ،و الأنهار ، والبحار ، والأشجار ،والثمار ، والخيرات كلُّها من نعم الله سبحانه وتعالى على عباده في هذه الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم:٤٣] .

إذًا الذمُّ الوارد في القرآن في شأن الدنيا إنما هو مُنصَبٌّ فقط على كلِّ ما يرتكب في الدنيا من معصية لا تُرْضي الحقَّ سبحانه وتعالى ، بدءًا من الشرك بالله ـ وهو أخطر المعاصي وأكبرها ـ إلى أقل معصية ، إلى أن تُلْقي حجرًا على الطريق يعوق حركة الناس .

○ لذلك يقول عليٌّ رضي الله عنه : « الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ نَجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، فَهِيَ مَهْبِطَ وَحْيِ الله ، وَمُصَلَّى أَنْبِيَاءِ الله ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ الله ، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الجَنَّةَ »[(١)] .

نعم .. أنت لن تُحصِّل الجنة في الآخرة إلا إذا غرستَ ـ هنا ـ في الدنيا .. إلا إن عبرت هذه القنطرة عبورًا : إما أن يوصلك لجنات النعيم ، أو إلى الأخرى ؛ أسأل الله أن يعيذني وإياكم من الأخرى .

● روى «البخاريُّ ومسلمٌ»[(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا ، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ ، إِلاَّ كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ ».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (١٠٨) ، و«ذم الدنيا» (١٤٧) بسندٍ فيه نظر ؛ كما قال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٣٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب المزارعة ، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (٢٣٢٠) ، ومسلم كتاب المساقاة ، باب فضل الغرس والزرع (١٥٥٣) .

انظر إلى حقيقة الدنيا ، و لا تنظر إليها نظرة خاطئة ، بل ابدأ الحياة ، ولا تيأس ، ولا تقنط ، ولا تحزن ، واعلم أنك هنا في أيام إن وظَّفتها توظيفًا صحيحًا لخيري الدين والدنيا ، فأنت في جنة ، و إن لم تدخل جنة الدنيا لن تدخل جنة الآخرة !!

فالمؤمن يعيش في سعادة ورضا ؛ لأنه يعلم تمامًا حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، ولا يوجد عنده تمزق داخلي ، ولا يوجد عنده تشتت؛ قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ هذه هي جنة الدنيا : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] وهذه هي السعادة الحقيقية.

فتعرَّفْ على حقيقة الحياة الدنيا.. إذا عرفت ذلك فاعلم يقينًا أن الحياة الدنيا محدودةٌ بأجل .. لا تنظر إليها من خلال نظرتك للأمم والقرون السابقة واللاحقة ! بل تعرَّف على زمنها المحدود من خلال حياتك أنت ؛ فحياتك هي مدةُ بقائك في هذه الأرض ، فالحياة بالنسبة لك وبالنسبة لي موقوتةٌ و محدودةٌ بأجل ، وكذلك بالنسبة للحياة الدنيا وإن طالت فهي موقوتةٌ محدودة بأجل ، وستنتهي هذه الحياة الدنيا حتمًا بصفة عامة وبصفة خاصة بالنسبة لي ولك ، فمهما طالت فهي قصيرة ، وإن عظمت فهي حقيرة ؛ لأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ؛ ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر .

فيموت الصالحون ، ويموت الطالحون .. يموت المجاهدون ، ويموت

القاعدون .. يموت المعتزون بالعقيدة ، ويموت المستذلون للعبيد .. يموت الشرفاء الحريصون على الحياة في عزة وكرامة ، ويموت الجبناء الحريصون على الحياة بأي ثمن .. يموت أصحاب الاهتمامات الكبيرة والأهداف العالية ، ويموت التافهون الذين لا يعيشون إلا من أجل شهواتهم الحقيرة ، ونزواتهم الرخيصة ؛ فالكلُّ سيموت ؛ قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

● وقال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] إنها الحقيقة الكبيرة .. التي تصبغ الحياة البشرية كلَّها بصبغة الذل والعبودية لقهار السماوات والأرض .. إنها الحقيقة التي تنادي في أذن كلِّ سامع وعاقل ، وكلِّ أديب ومفكر : أنه لا بقاء إلا للحي الذي لا يموت .. إنها الحقيقة التي شرب كأسها الأنبياء والمرسلون ؛ بل والعصاة والطائعون .. إنها الحقيقة التي تسربل بها طوعًا أو كرهًا كلُّ إنسانٍ على وجه هذه الأرض .

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينْسَهُ الملكان حين نسيتَهُ ... بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروح منك وديعة أودعتها ... ستردها بالرغم منك وتُسْلَب
وغُرورُ دنياك التي تَسْعَى لها ... دار حقيقتها متاع يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما ... أنفاسنا فيهما تُعَدُّ وتحسب

● لقي الفضيل بن عياض رجلًا ؛ فقال له الفضيل : «كم عُمُركَ ؟

قال الرجل : ستون سنة .

قال الفضيل : إذًا أنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تصل .

فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون .

قال الفضيل : هل تعرف معناها .

قال : نعم أعرف أنيِّ عبد لله وأني إليه راجع .

فقال الفضيل : يا أخي ، مَنْ عرف أنه لله عبد ، وأنه إلى الله راجع ، فليعلم أنه موقوفٌ بين يديه ، ومن عَلِم أنه موقوف بين يديه ، فليعلم أنه مسؤول ، ومن علم أنه مسؤول فليعدَّ للسؤال جوابًا .

فبكى الرجلُ وقال : وما الحيلة ؟

قال الفضيل : يسيرة .

قال : وما هي يرحمك الله ؟

قال : تُحسن فيما بقي ، يغفر الله لك ما قد مضى وما بقي ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخذت بما مضى وما بقي » [١] .

● وسأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم العالم الزاهد العابد [٢] وقال :

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣) ، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (٣٨٣) ، و«لطائف المعارف» (١٠٨) .

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٦/ ٦٩) ، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٢/ ٣٠، ٣٩) . وانظر: « صفة الصفوة » لابن الجوزي (٢/ ١٥٨) .

« يا أبا حازم ، لماذا نحب الدنيا ونكره الموت ؟

فقال أبو حازم : لأنكم عمَّرتم دنياكم ، وخرَّبتم أخراكم ؛ فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب .

فقال سليمان بن عبد الملك : فما لنا عند الله يا أبا حازم ؟

قال : اعرض نفسك على كتاب الله لترى ما لك عند الله ـ جلَّ وعلا .

فقال : وأين أجد ذلك يا أبا حازم ؟

قال في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣، ١٤]

قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟

قال : إن رحمة الله قريب من المحسنين .

فقال سليمان بن عبد الملك : فكيف العرض على الله تبارك وتعالى غدًا ؟

فقال أبو حازم : أما المؤمن فكالغائب يرجع إلى أهله ، وأما المسيء فكالعبد الآبق يرجع إلى سيده» .

تدبر هذه الحقيقة .. أعلَمُ أنك تعرفها، وأنا أعرفها ؛ لكننا نغفل عنها ونتناساها ولا نذكرها إلَّا ونحن نحمل جنازة ، بل وربما يتغافل عنها بعض من يسيرون في الجنازة ؛ فتراهم يتحدَّثون في أمر من أمور الدنيا ، وهم يرون الموت أمام أعينهم ؛ بل ويحملونه على أكتافهم وقد انشغلوا ـ حتى في هذه اللحظات ـ عن هذه الحقيقة التي ذكَّرنا بها ربُّ الأرض

والسماوات ، وذكَّرنا بها نبينا عليه أفضل السلام وأزكى الصلوات ؛ قال تعالى : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾ [ق:١٩] .

فالموت له سكرات ، وله كربات ؛ حتى قال رسولُ رب الأرض والسماوات ـ والحديث في « صحيح البخاري »[١] من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂ ـ كان النبيُّ ﷺ يمدُّ يده في قَدَح به ماء ، ويمسح العرق عن جبينه الأزهر الأنور ويقول : « **لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ** » .

وتقول عائشة ﵂ ـ **والحديث في البخاريِّ وغيره** : « مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي » ـ يعني : ورأسه على صدرها ـ « فَلاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ » .

لقد اشتد الموت على الحبيب ﷺ .

آهٍ ثم آهٍ لو وجدتَ شيطانًا عند رأسك ـ أعاذني الله وإياك من ذلك ـ يعرض عليك دينًا آخر غير دين الإسلام في هذه الكربات ، وفي هذه السكرات ، وفي هذه الغمرات !

وقد استدلَّ بعضُ أهل العلم على قضية عرض الأديان على بعض الناس أثناء الموت بما رواه مسلم[٢] من حديث جابر بن عبد الله : أنه ﷺ قال : « **إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ ..** » الحديث.

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الأشربة ، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة ، وأكل اللقمة الساقطة ، بعد ما يصيبها من أذى (٢٠٣٣) .

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قضية عرض الأديان على من يموت ـ وهو على فراش الموت ؛ فقال [١] : « من الناس من تُعرض عليه الأديان، ومنهم من لا تعرض عليه الأديان ، وهذا في الجملة من فتنة المحيا والممات التي أمرنا نبينا ﷺ أن نتعوَّذ بالله منها في صلاتنا .

منها : ما في الحديث الصحيح [٢] أَمَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَسْتَعِيْذَ في صَلاَتِنَا مِنْ أَرْبَع: « مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَمِنْ عَذَابِ القَبْرِ ، وَمِنْ فِتنَةِ المحْيَا وَالَمماتِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيْحِ الدَّجَّالِ» .

قال عبد الله ابن الإمام أحمد ـ إمام أهل السنة : حضرتُ وفاة أبي فسمعته يقول : لا بعد .. لا بعد .. لا بعد .

فلما أفاق قلْتُ له : يا أبي ماذا تقول ؟

قال : ماذا أقول يا بني ؟

قال : تشير بيدك ، وتقول : لا بعد .

قال : يا ولدي ، شيطان جالس بمحاذاة رأسي يقول لي : لقد فُتَّنِي يا أحمد، وأنا أقول : لا بعد ، حتى أموت على التوحيد» [٣] .

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٥٥) بتصرف ، وانظر: « التذكرة » للقرطبي (٣٣) وما بعدها .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨) من حديث أبي هريرة ؓ ، وهو في البخاري ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٧) بلفظٍ مختلف ، ورواه مسلم ، (٥٩٠) عن ابن عباس .

(٣) أخرج هذه القصة البيهقي في «الشعب» (٨٥٢) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٨٣) ، وابن عساكر (٥/ ٣٢٤، ٣٢٥) .

لحظةٌ من أشد اللحظات ، وهي : لحظة السكرات والكُربات ؛ قال تعالى :
﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ [ق:١٩].

هل تعلم ما هو الحق ؟ الحق أنك تموت ـ والكلُّ سيموت ـ والله حي لا يموت .. والحق : أن ترى عند موتك ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب .. والحق : أن يكون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران .

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي : ما كنت منه تهرب و تجري وتفر .. تحيد إلى الطبيب إذا جاءك المرض خوفًا من الموت ، وتحيد إلى الطعام إذا أحسست بالجوع خوفًا من الموت ، وتحيد إلى الشراب إذا أحسست بالظمأ خوفًا من الموت ، ثم ماذا ؟! أيها القويُّ الفتي .. أيها الذكي العبقري .. يا أيها الكبير، ويا أيها الصغير .. يا أيها الغني ويا أيها الفقير .. يا أيها الصحيح ، ويا أيها المريض.

كلُّ باكٍ فسيبكى وكل ناعٍ فسينعى
وكل مذخورٍ سيفنى وكل مذكور سينسى
ليس غير الله يبقى من علا فالله أعلى

انظر إليه لترى ضعفه في هذه اللحظات ؛ قال جلَّ وعلا : ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة:٢٦ـ٣٠] .

وفُتِح السجلُّ ، ونُشِرَ الكتاب ، وإذا به: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾

وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أعْرَض، وكذب بآيات الله ، وكذب بأحاديث رسول الله ﷺ .. أعرض عن الحق ، وحاد عن الطريق . ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ .

○ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴾ «إذا بلغت نفسه يرقى بها ، قالت الملائكة : من يصعد بها ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب؟»(١) . يا رب سلِّم سلِّم !!

● قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَٰخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

[فصلت : ٣٠- ٣٢]

فأهل الإيمان ، وأهل الاستقامة ، تتنزل عليهم ملائكةٌ من الله ـ جلَّ وعلا .

يرى المؤمن ملائكة التثبيت .. يا لها من لحظات! ربما يعاين ما أعده الله تعالى له في جنات النعيم في لحظاته تلك! .

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» لسورة القيامة : (آية ٢٦ ، ٢٧) ، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» لابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» ، وابن أبي حاتم ؛ وهو في «تفسيره» (القيامة :٢٦ ، ٢٧) من طريق : عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس .

○ يقول النبيُّ ﷺ كما في الحديث الصحيح الذي رواه ابن ماجه[1] وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « الْـمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْـمَلَائِكَةُ » أي : عند الموت .

« فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا ـ أي : قالت الملائكة لروحه : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الْـجَسَدِ الطَّيِّبِ ، اخْرُجِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ ، وَرَبٍّ رَاضٍ غَيْرِ غَضْبَانَ » اللهم اجعلْنا من هؤلاء الأصفياء الأتقياء .

و ستتعرف بالتفصيل على هذه الكلمات في الفصل القادم إن شاء الله ، أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يختم لي ولكم بالتوحيد والإيمان ، وأن يرزقني وإياكم حسن الخاتمة .

*****

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له (٤٢٦٢) وأحمد (٢/ ٣٦٤) وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح سنن ابن ماجه » .

خروج الروح

خروج الروح

توقفنا في الفصل السابق عند هذا المشهد المهيب الرهيب ، الذي يظهر فيه بجلاء ضعف الإنسان مهما كانت قوته ، ومهما كانت سطوته ، ومركزه ، ومكانته ، وهو على فراش الموت تَراه إنسانًا ضعيفًا جدًّا ، قد فقد كلَّ الأسباب ، وضاع منه كلُّ شيء .. ها هو هارون الرشيد الذي كان يخاطب السحابة في كَبِد السماء ، ويقول لها : أيتها السحابة في أي مكانٍ شئتِ فأمطري ، فسوف يُحمل إليَّ خراجُكِ إن شاء الله !!!

هل تعلم ـ أخي الحبيب ـ معنى هذه الكلمات ؟ إنه يريد أن يبين للناس سعة ملكه !

انظر إلى سعة ملك هارون الرشيد ، فلما نام على فراش الموت ، واقترب الأجل ، وأقبلت النهاية بكى ، وقال : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩] .

أيـن المال ؟! أيـن السلطان ؟! أيـن الملك ؟! ضاع كلُّ شيء ، وأصرَّ هارون الرشيد أن يحملوه ليرى قبره الذي سيدفن فيه .. بعد هذا الملك ، والسَّعة، والنَّعيم ، والتَّرف ، والخير ، يريد أن يرى الحفرة التي سينام فيها إلى ما شاء الله ! يريد أن يرى قبره ؛ فحملوه ، فنظر هارون إلى قبره وبكى ، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال:« يا من لا يزولُ مُلْكُه ، ارحمْ من قد

زال مُلْكُه»[١].

يا الله !! أين الملوك ؟ وأين السلاطين ؟ وأين الأغنياء ؟ وأين الفقراء ؟ أين الظالمون ؟ أين الجبابرة ؟ أين الأكاسرة ؟ أين القياصرة ؟

أين الظالمون وأين التابعون لهم في الغي ... بل أين فرعون وهامان ؟
أين من دوَّخوا الدنيا بسطوتهم ... وذكْرهُم في الورى ظلم وطغيان ؟
هل أبقى الموتُ ذا عزٍّ لعزته ... أو هَلْ نجا منه بالسلطان إنسان ؟
لا والذي خلق الأكوان من عدم ... الكلُّ يفنى فلا إنس ولا جان

*****

أيا عبد كم يراك الله عاصيًا ... حريصًا على الدنيا وللموت ناسيًا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى ... ويومًا عبوسًا تشيبُ فيه النواصيا
لو أن المرء لم يلبس ثيابًا من التقى ... تجرَّدَ عريانًا ولو كان كاسيًا
ولو أن الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيًّا وباقيًا
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى الذنوب والمعاصي كما هي

*****

يا نفسُ قد أزف الرحيل ... وأظلَّك الخطب الجليل

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٨١) . وقد روى ابن أبي الدنيا في «المحتضرين» (١١٧) عن عبد الله بن بساط قال : احتضر بعض الملوك ، فجعل يقول : « يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه».

فتـأهبي يـا نَفْـسُ لا يلعب بك الأمـل الطويـل
فلتنزلن بمنزل ينسى الخليل به الخليـل وليركبن عليك فيه من الثرى ثقل ثقيل
قُـرِن الفنـاء بنـا جميعًـا فـما يبقـى العزيـز ولا الـذليل

• قال جلَّ وعلا لحبيبه المصطفى ونبيه المجتبى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

• وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]

• وقال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنها وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وكم من مدائن في الأفاق قد بنيت أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التي كانت مسلطنة حتَّى سقاها بكأس الموت ساقيها
إن المكارم أخلاق مطهرة الدين أولها والعلم ثانيها والعقل ثالثها

والحلم رابعها والجود خامسها ... والفضل باقيها
لا تركنن إلى الدنيا ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدارِ غدٍ رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبن مصفًّى ومن عسل ... والخمر يجري رحيقًا في مجاريها
والطير تجري على الأغصان عاكفة ... تسبح الله جهرًا في مغانيها
فمن يشتري الدار في الفردوس ... يعمرها بركعة في ظلام الليل يحييها

قال سبحانه : ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾

[القيامة:٢٦-٢٧]

أي : من يرقيه، ومن يبذل له الدعاء ، ومن يقدم له العلاج ؟! التف الأطباء من حوله .. هذا متخصص في جراحةِ القلب ، والآخر متخصص في جراحة المخ والأعصاب ، والثالث أستاذ كبير في البنج ، وهذا في تخصص كذا ، والخامس في تخصص كذا .. التفوا من حوله وداروا ، وعجز الأطباء وحاروا .. انظر إليه وقد اصفر وجههُ ، وشحب لونهُ ، وبردت أطرافهُ ، وتجعَّد جلدهُ ، وبدأ يشعر بزمهريرٍ قارسٍ .. يزحف إلى أنامل يديه وقدميه في هذه السكرات ، وفي هذه اللحظات .. يحاول جاهدًا ــ وهو على فراش الموت ــ أن يحرك شفتيه، ولسانه بكلمة التوحيد

والجلال .. بكلمة لا إله إلا الله ؛ فيشعر أن اللسان والشفتين كالجبل لا يريد أن يتزحزح ، إلا لمن يسَّر الله له النطق بلا إله إلا الله .

وكأني به في هذه اللحظات ، والناس من حوله ، يقولون: فلان لا يستطيع أن يحرك لسانه ، ولا يقدر على أن يعرف إخوانه ، ولا يملك أن يرد أو أن يخاطب جيرانه وإخوانه.. لكأني به وهو يسمع الخطاب، لكنه عاجز عن الرد والجواب .. لكأني به إذا نظر إليهم في لحظة صحوة بين السكرات والكربات يرد عليهم بلسان الحال ، بل وربما بلسان المقال ، وهو يقول : يا أهلي ، يا أحبابي ، يا أبنائي، لا تتركوني وحدي ، ولا تفردوني في لحدي .. أنا أبوكم .. أنا حبيبكم .. أنا الذي بنيتُ القصور ، وأنا الذي عمَّرت الدور.. أنا الذي نمَّيت التجارة ، أنا الذي جمعت لكم هذه الأموال .. من منكم يزيد في عمري عامًا أو عامين .. شهرًا أو شهرين .. يومًا أو يومين .. ساعة أو ساعتين ؟!

● وهنا يعلو قولُ الحقِّ :

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا

﴿هُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة :٨٣ -٨٨] .

سبحانك ـ ولا تقالُ إلا لك ـ يا من ذَلَّلْتَ بالموت رقاب الجبابرة .. سبحانك! يا من أنهيت بالموت آمال القياصرة .. سبحانك ! يا من نقلتهم بالموت من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن مداعبة النساء والجواري والغلمان إلى مقاساة الهوان والديدان ، ومن التنعُّم في ألوان الطعام والشراب إلى التمرُّغ في ألوان الوحل والتراب ، ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

● قال الله ﷻ :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] .

○ متى تتنزل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة ؟

● لأهل العلم قولان [١] :

● الأول : قال علماؤنا : تتنزل الملائكة على أهل الإيمان ، والتوحيد، والاستقامة، وهم على فراش الموت في هذه اللحظات ؛ لحظات السكرات والكربات ، تتنزل الملائكة بالتثبيت .. نعم بالتثبيت ـ اللهم ارزقنا حسن الخاتمة ـ تجلس الملائكة عند رأس المؤمن الموحِّد الصادق ؛ لتثبته ؛ قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ

(١) انظر: تفسير الطبري ، وابن كثير عند تفسير سورة فصلت آية (٣٠) .

وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[إبراهيم:٢٧] .

ترى فلانًا على فراش الموت يبتسم ، وينظر وكأنه يخاطبُ أناسًا هو الذي يراهم وحده ، وكلُّ من يجلس معه بالغرفة لا يرى شيئًا ؛ لأنه بدأ ـ بالفعل ـ ينتقل أثناء الاحتضار إلى عالم الآخرة .. بدأ يعاين ملائكة الله ـ جلَّ وعلا ـ فتراه يتهلل وجْهُه ، ويردد بلسانِه كلمةَ التوحيد بيسر ، وسلاسة ، وسهولةٍ ؛ لماذا ؟

لأن الذي ينطق في هذه اللحظات هو مَنْ صَدَقَ ربَّ الأرض والسماوات ، وصَدَقَهُ ربُّ الأرض والسماوات .. هو من عاش طوال حياته على كلمة التوحيد ؛ فمن عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه .. إنك إن عشت على الطاعة ، ستموت على الطاعة ، وستبعث على نفس الطاعة.

وكذلك إن عاش الإنسان على معصية ، فسيموت على نفس المعصية ـ إن لم يتب إلى الله .

● يحدثني إخواني في أمريكا ـ وأنا في زيارة لهم ـ عن شابٍّ أمريكيٍّ يدخل على إخواننا في صلاة الفجر في مسجد من مساجد مدينة بروكلن في ولاية نيويورك ، وقال لهم بعدما انتهوا من الصلاة : أريد أن أكون من أتباع محمد بن عبد الله ﷺ .. أريد أن أدخل الإسلام . فدُلُّوني ماذا أصنع ؟

قالوا : من أنت ؟ وما هي حكايتك ؟ وما الذي جاء بك ؟

قال : دلوني ولا تسألوني ، ماذا أصنع ؟

قـالوا : اغتسِـلْ ، وردِّدْ الشـهادتين .. فاغتسـل وردد الشـهادتين ، ثـم علَّموه الصلاة ، فصلى الصبح .

قال : أريد أن أبقى معكم في هذا المركز أيامًا لأتعلـم الإسـلام ، فـأبقوه معهم ، ومضى اليوم الأول ، والثاني ، والثالـث ، وقـد لفـت أنظـار إخوانـه بطول سجوده بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ، وكثرة بكائه وحرصه على أن يسمع القرآن الكريم ؛ فبعدما انتهوا من صلاة المغرب ، جلس إلى جـوار أخٍ مـن إخواننا ليُسْمِعَهُ القرآن ؛ فقال هذا الأخ له : يا أخـي ، صرتُ أحقـر نـفسي إلى جوارك ، ما نظرتُ إليك إلا واحتقرت نفسي ، وأنا دخلْتُ هـذا الـدين من عشرات السنين ، وأنـت لم تـدخل إلا منـذ يـومين ، أراك باكيًـا خاشـعًا تريـد أن تسـمع القـرآن في كـلِّ دقيقـة ، يـا أخـي بـالله عليـك أخـبرني مـا حكايتك ؟ وما قصتك ؟

فقال له : بأنه منذ أربع سنوات لا تمضي عليه ليلة إلا وهو يبكي يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يدلَّه على الدين الحق .

يقول :وفي الليلة التي دخلْتُ عليكم صبيحتها، نمتُ باكيًـا ، وأنـا أسـأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يدلَّني على الحق ، قال: فرأيتُ عيسى ابن مريم ــ عـلى نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ في الرؤيا، وهو يشير بسبابته ويقـول : كن محمديًّا ! ـ كُنْ من أتباع محمد ﷺ.

قال : فخرجتُ فـدخلت علـيكم ؛ لأنـه أول مسـجد أَمُرُّ عليـه ، يقسـم

الأخوة بالله .. أذَّن المؤذنُ لصلاة العشاء ، ودخل هذا الشاب في الصلاة مع إخوانه، وفي الركعة الأولى سجد السجدة الأولى ، ولم يرفع رأسه ، وأكمل المصلون الصلاة ، وسلَّم الإمام ، ولا يزال الأخ ساجدًا ، نادى عليه الإمام:يا فلان ، يا فلان ، فلم يجبه ، فقام إليه ، ونادى عليه إخوانه الذين يصلُّون إلى جواره ، وإذا بأحدهم يحركه ، فوقع على الأرض، فنظروا إليه فوجدوا روحه قد فاضت إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ يا رب ارزقنا حسن الخاتمة ـ وهو ساجد بين يدي الله ﷻ ، يا لها من خاتمة !! فمن مات ساجدًا يُبعثُ يوم القيامة من قبره ساجدًا ، ويحشر إلى الله ﷻ وهو ساجدٌ ؛ كما قال الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ؛ كما في «صحيح مسلم»(١) من حديث جابر :

« يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » .

فمن مات على طاعة بُعث على ذات الطاعة .. من مات بلباس الإحرام في الحج والعمرة يُبعث يوم القيامة بلباس الإحرام ، وهو ينادي في أرض المحشر، يقول: « لبيَّك اللهمَّ لبَّيك».

• وهناك رجلٌ كان يعمل مؤذنًا ــ وهو رجلٌ ثريٌّ وسَّع الله عليه ــ وقبل الموت مرض مرضًا شديدًا ، فأقعده في الفراش ، كلُّ الذي يبكيه أنه حُرم من الأذان في آخر أيامه ، وفي اليوم الذي قدَّر الله عليه الوفاة يبكي لربه جلَّ في علاه ، ويقول : يا رب ، يا رب ، أيُّ ذنب هذا الذي ارتكبته

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب الأمر بحسن الظن بالله عند الموت (٢٨٧٨) .

فحرمني في آخر أيام حياتي من الأذان لأتوب إليك منه ؟ يا رَبِّ لا تحرمْنِي بذنوبي من الأذان الذي تعلَّق به قلبي ، والذي طالما حرصتُ عليه طوال حياتي . وحان وقت العصر قبل هذه الدعوات، فسمع الأذان يرفع من المساجد القريبة من بيته فبكى ، وهو في الفراش لا يقْدِر على القيام ، ولا على الحركة ، ولا على الخروج ، وإذ به يقوم ، ويقف على السرير الذي ينام عليه ، ويتجه إلى القبلة ويرفع الأذان في بيته : الله أكبر . الله أكبر .. إلى أن وصل إلى قوله : لا إله إلا الله ، وسقط على الفراش ، فأسرع إليه أهله وأولاده، فوجدوا روحه قد خرجت مع لا إله إلا الله . يا لها من خواتيم !!

قال ـ عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ »(١) .

اللهمَّ استرنا ، ولا تفضحنا يا أرحم الراحمين .

○○ تعال معي لنرى هذه الصورة الأخرى ـ أعاذني الله وإياكم منها ـ يدخل عليَّ طالبٌ وهو يبكي ، ويستحلفني بالله أن أدعو الله لوالده في درس الخميس الأسبوعيِّ لعلَّ الله ﷻ أن يستجيب دعوةَ رجلٍ صالح من هذه الجموع التي تحضر معنا الدرس ، ورأيت التأثر البالغ على أخينا هذا ، فقلت : أخي ؛ ما الأمر ؟ قال : توفي والدي .قلْتُ : أسأل الله أن يرحمه . قال : يا شيخ لكن الموتة كانت بشعة !

(١) تقدَّم ؛ وهو في «صحيح البخاري» .

قلْتُ : أخبرني؟قال : كان والدي قويًّا جدًّا ! لدرجة أن أخانا هذا لا يذكر أن والده اشتكى مرضًا أو ألَمًا قط ! رزقه الله صحة وعافية ؛ قال : وفي هذا اليوم شعر بألمٍ في بطنه بعد تناول الغذاء ، ورأى أنه بحاجةٍ إلى أن يخرج ما في بطنه ، قال: فدخل إلى دورة المياه ، ووقف على الحوض ، وظلَّ يصرخ ، ويُخرج ما في جوفه ، ويصرخ صرخات نسمعها ؛ قال : فلما طالت وقفته ـ وهو لا يزال يحتاج إلى هذا ـ برك على رُكْبَتَيْهِ من شدة الألم ، ووضع فمه قريبًا من المرحاض ـ أعزكم الله ـ لا يستطيع أن يقف على الحوض ، فبرك على ركبتيه أمام المرحاض ، وكلَّما أراد أن يتقيأ ، قرَّب فمه من المرحاض ؛ لأنه لا يستطيع القيام ؛ قال : وإذ بنا نسمع صرخة شديدة ، فدخلنا، فوجدنا وجهه في المرحاض بعد هذه الصرخة ، لقد فقد الحركة ، فرفعناه، فوجدنا روحه فاضت إلى الله ﷻ.

يا رب سلم !! قلْتُ : أعوذ بالله ، خرجت روحه ووجهه في المرحاض ؟! قال ابنه : داخل المرحاض !!قلْتُ : أخبرني يا أخي ، كيف كان حال الوالد ؟ قال ـ وهو يبكي: لم يصل لله صلاة واحدة .

يا الله . . أما زلتَ تضيع الصلاة ؟ هل مازلت تضيعين الصلاة يا أختاه ؟ أما زلت مشغولًا بالتجارة ؟ أمازلت مشغولاً بالمنصب ؟ لازلْتَ تقول : إنك مشغول ؟ لكنك سوف تظل كذلك دائمًا ؛ لو استسلمت لدوَّامة العمل، وركبت هذه الساقية ، فلن تستفيق إلا في القبور بين عسكر الموتى .

فهيا إلى الصلاة .. الصلاة هدية الله للأمة ، يحملها المصطفى ﷺ من فوق

سبع سماوات ؛ لتكون صلة لأمته برب الأرض والسماوات.. الصلاة صلة ، وهي آخر وصية له ﷺ ، وهو على فراش الموت ؛ فلقد قال :

« الصَّلاةَ الصَّلاةَ ، وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »[(١)].

○ أيها العبد :

تأتي للصلاة في فتور ... وكأنك قد دُعيتَ إلى البلاء
وإن أديتها جاءت بنقصٍ لِمَا ... قَدْ كان مِنْك من شرك الرياء
وإن تخلو عن الإشراك فيها ... تُدَبِّر للأمور بالارتقاء
ويا ليت التدبر في مباح ... ولكن في المشقة والشقاء
وإن كنت المصلِّي يومًا بين خلقه ... أطلت ركوعها بالانحناء
وتعجل خوف تأخيرٍ لشغلٍ ... وكأن الشغل أولى باللقاء
وإن كنت المجالس يومًا أنثى ... قطعت الوقت من غير اكتفاء
أيا عبدُ لا يساوي الله معك ... أنثى تناجيه بحبٍّ وصفاء

هيا الآن عاهد ربَّك ـ جلَّ وعلا ـ على أن تحافظ على الصلوات في أوقاتها ، وأنتِ يا أختاه عاهدي ربك على أن تحافظي على الصلوات في أوقاتها ، لا يشغلك عنها شاغل ، ولا يصرفك عنها صارف .

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الأدب ، باب في حق المملوك (٥١٥٦) ، وأحمد في« المسند » (١/ ٧٨) ، وابن حبان (٦٦٠٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (١٥٨) ، وأبو يعلى (٥٩٦) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع » (٤٦١٦) ، و«الصحيحة» (٨٦٨) من حديث علي رضي الله عنه .

يقول هذا الأخ : بأن والده ما صلَّى لله قط !!

قلت : يا أخي ، أَعْلَمُ خطَر تركِ الصلاة ؛ لكني أسألك بالله أن تسأل والدتك : ما الذي كان يفعله والدك ؟ قال : أفعل ؛ فذهب هذا الابن الكريم وسأل والدته : ما الذي كان يفعله والده حتى خُتم له بهذه الخاتمة المرعبة الفظيعة ؟ فبكت أمه ، وقالت له : يا بني ، إن والدك كان يتعامل بين الناس بالربا ! كان يخرج الألف ألفًا وخمسمائة !!

قلْتُ : آهٍ .. هذه .. هذه ، كان يأكل الحرام ، ويأكل أموال الناس بالباطل، فليأكل من أين ؟ من المرحاض !! فلتكن هذه الخاتمة : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٥] .

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
لا تجمع من الحرام فلا تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم وسوء الظن لا ينفع
فقير كلُّ من يطمع غني كل من يقنع (١)

*****

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خيرٌ من غنى يطغيها

(١) انظر : « عقلاء المجانين » لابن حبيب (٧٤ط ابن خلدون) .

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها

هي القناعة فالزمها تكن ملكًا لو لم تكن لك إلا راحة البدن

وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير الطيب والكفن

نعم .. لن تأخذ شيئًا معك في قبرك إلا الإيمان والعمل الصالح .

● وقد حدثني أخٌ آخر ، وأقسم لي بالله أن جارَه الذي كان يسكن في الطابق العلوي ، كان مدمنًا لسماع الأغاني الأجنبية وغير الأجنبية ، والموسيقى الصاخبة ؛ يقول : بعد أن ذَكَّرْتُهُ بالله تبارك تعالى مرارًا وتكرارًا ، فلم يتذكر، لكن الذي يزعجني أنه كان يصرُّ على أن يرفع صوت جهازه بصورةٍ مقززةٍ مؤذية بدعوى الحرية ـ وكأن الحرية لا حدود لها ـ يقول : عُدْتُ من عملي في يومٍ من الأيام ، فسمعْتُ بكاءً وصراخًا من النساء والأولاد ، قُلْتُ : ما هذا ؟قالوا : فلان يحتضر! يقول : و أنا أسمع الغناء بصوتٍ مرتفع وسط هذا البكاء والصراخ ؛ قال : فصعدتُ ، وقلْتُ : يا إخوة إن أباكم يحتضر ، ولازلتم تصرُّون على وضع الغناء في هذه اللحظات ؟! ضعوا القرآن الآن ؛ فالمكان الآن تحضره ملائكة الله ﷻ، قالوا : لو تكرَّمْتَ أَحْضِر لنا شريطًا من أشرطة القرآن ؛ قال : والله نزلْتُ بسرعةٍ، وأحضرت شريط قرآن ، ووضعته بيدي في الكاسيت ؛ يقول : وبعد لحظات ، وإذ بالرجل في لحظة صحوة بين السكرات والكُربات حين سمع القرآن قال : لا !، لا !. أنا لا أريد أن أسمع هذا الصوت .. أنا لا أريد سماع القرآن !! اتركوا الغناء ؛ لأن الغناء هو الذي يُسْعد قلبي !.

قال : خرجتُ ـ والله ـ وأنا أبكي ، ولم يتكلَّم الرجل بكلماتٍ إلا هذه !!

يا الله ! « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ » (١) .

وتدبر هذه الكلمات ؟ « الخواتيم ميراث السوابق » ، أي : من عاش على طاعة كانت خاتمته على الطاعة ، ومن عاش على المعصية كانت خاتمته على المعصية ـ كما تقدَّم.

هذا هو القول الأول لعلمائنا في الوقتين اللذين تتنزل فيهما الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة .

● أماالقول الثاني : قال علماؤنا : تتنزل الملائكة على أهل الإيمان والاستقامة عند الخروج من القبور ، يوم البعث والنشور ، ترى الناس أثناء الخروج من القبور في مناظر عجيبة .تخيَّل معي رجلاً يخرج من قبره ليمشي على وجهه .. أريد منك أن تعيش هذا المشهد ، وأنت ترى أناسًا ـ رجالًا ونساءً ـ يمشون على وجوههم ! ما هذا الذي تقول ؟!

○ أقول : ذكر ربُّ العزة في كتابه أن قومًا يمشون عندما يخرجون من القبور على وجوههم ! فقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء:٩٧] ، إنه لا يسمع ! لا يتكلَّم ! لا يرى! فهو يمشي على وجهه .. إلى أين ؟ إلى جنهم وبئس المصير ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ .

---

(١) سبق .

● وفي «الصحيحين» (١) من حديث أنس أنه ﷺ قال: «يُحْشَرُ الْكَافِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يُحْشَرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ فقال ﷺ: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ فِي الدُّنْيَا عَلَى قَدَمَيْنِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِ».

○ وفي لفظٍ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟».

قَالَ قَتَادَةُ: قلت: بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا.

وأنا أقول مع كلِّ مؤمن موحِّدٍ صادق: بلى وعزة ربِّنا إنه لقادر.

○ وفي رواية في سنن الترمذي ومسند أحمد بسندٍ فيه علي بن زيد أنه ﷺ قال:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفًا مُشَاةٌ، وَصِنْفًا رُكْبَانٌ، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ» (٢).

أما الذين يركبون؛ فهم المتقون ـ اللهم اجعلنا وإياكم منهم؛ قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٦]، أي: ركبانًا.

فتتنزل الملائكة على أهل الإيمان والتوحيد والاستقامة، وهم يخرجون

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب التفسير باب سورة الفرقان (٤٧٦٠)، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب كيف يحشر الكافر على وجهه (٢٨٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٤)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٢) وقال: «هذا حديث حسن». وضعفه الشيخ الألبانيّ في «ضعيف الجامع» (٦٤١٧) و«المشكاة» (٥٥٤٦)

من القبور .. يخرج المؤمن من القبر فيجد الملائكة في استقباله قد هيأت لـه من ركائب الآخرة ما لا يعلم جمالها وجلالها إلا من أعدَّها جلَّ وتعالى ؛ ليركب المؤمنُ التقيُّ .. لا تتركه الملائكة يمشي على الأرض ، وهي مع ذلك تبشره بتلك البشرى المباركة حين تستقبل أهل الإيمان جميعًا ، وتقول لهم :

﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢] .

فالمؤمن من أول لحظة عند خروجه من القبر يبشر ويكرم .

○ أقول : فإذا خرجت الروح ، مات العبد ، و انتهى الأمر ، وانتهى كلُّ شيء .. ربح من ربح ، وخسر من خسر .. يُقال: فلان الذي ملأ الدنيا علمًا ، ومكانة ، ووجاهة ، وسلطانًا قد مات ! فلان يُغَسَّل وقد تجرد من كلِّ سلطان ، ومن كل ثياب !! فلان يكفَّن وما خرج من الدنيا إلا بهذه الأكفان ! ترك كلَّ شيء .. فلان يُحمل على الأعناق ، إلى أين ؟ إلي القبر ؛ تلك الحفرة المظلمة .

وهذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله .

وأسأل الله جلَّ في علاه أنْ يختم لي ولكم بخاتمة التوحيد والإيمان .

*****

الجنـازة

الجنـــازة

انتهينا في الفصل السابق عند خروج الروح، حين ينزل الموت بالإنسان، وتنزل به الغمرات، وتحلُّ عليه السكرات، وتفارق الروح الجسد، وتُطوى حياةُ الإنسان، ثم يوضع بعد ذلك على خشبة الغسل، ثم يكفن وقد صار جنازة تُحْمَل على أعناق الرجال .. انتهت قصة حياتك يا ابن آدم .

● قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦- ٨].

فلان .. هو مَنْ هو!! صاحب السلطان، والملك، والجاه، والوجاهة .. والقلم، والفكر .. صاحب الأدب، والعلم .. صاحب القوة، والعافية، صار الآن محمولًا على الأعناق، إلى أين ؟ إلى القبر .

فالجنازة الآن ترفع على الأعناق .. عش هذا المشهد بقلبك وكيانك، هل تتصور أن الجنازة وهي محمولة على الأعناق بمجرد أن يرفعها الرجال على أعناقهم تتكلَّم ؟ ماذا تقول ؟ .

● روى الإمام البخاري [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال :

« إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب حمل الرجال الجنازة دون النساء (١٣١٤) .

صَالِحَةً ، قَالَتْ : قَدِّمُونِي ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ : يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ» .

فبمجرد حملها على الأعناق تتكلَّم ! إن كان هذا الرجل من الصالحين تقول : هيا أسرعوا لا تؤخروني .. «**قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي**» ؛ لأنه عاين مقعده في الجنة.. عاين ما هيأه وأعده الله ـ جلَّ وعلا ـ له من النعيم ، وإن كانت غير صالحة قالت: « **يَا وَيْلَهَا ، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا ؟** » و من رحمة الله بنا أَنْ حجب عنا صَوْت أصحاب الجنائز ؛ فلو أن الله ﷻ خلَّى بيننا وبين صوت كلِّ صاحب جنازة لفسدت الحياة ، كما أنه من حِلْم الله بنا ، ورحمته بنا وبضعفنا ، حجب عنا تسبيح الكون من حولنا !!

● قال الله سبحانه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾لماذا ؟ قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[الإسراء:٤٤] ، حليمًا بكم ﷻ إذ حجب عنكم تسبيح المخلوقات من حولكم ، وإلا فلو خلَّى بيننا وبين سماع تسبيح الكائنات من حولنا لطاشت عقولنا ! وما استقامت حياتنا ، تصور لو أن الله سبحانه أسمعك صوت تسبيح الثوب الذي تلبسه ! أو صوت تسبيح الطعام الذي تأكله ! أو صوت تسبيح البيت الذي تسكن فيه ! والله لطاش عقلك ؛ فالكون كلُّه لا يغفل عن ذكره وتسبيحه ، وقد طالت غفلتنا نحن ، وكثر انحرافنا وطال بعدنا عن ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾!!

○ وصلت الجنازة إلى القبر .. إلى بيت الغربة .. إلى بيت الوحشة .. إلى بيت الضيق .. إلى بيت التراب والدود ؛ فلان صاحب الجاه ، والوجاهة ، والسلطان ، سيُلْقى في هذه الحفرة .. في هذا المكان الضيق على هذا التراب ، لن توضع له الفرش الحريرية ! أبدًا .

رجعوا وتركوك .. وفي التراب وضعوك .. ولو ظَلُّوا معك ما نفعوك .. ولم يبق لك إلا العمل مع رحمة الحي الذي لا يموت .

● قال رسول الله ﷺ ؛ كما في «**الصحيحين**»(١) من حديث أنس رضي الله عنه :

« **يَتْبَعُ الـمَيِّتَ ثَلاَثٌ : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ ، يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ** ».

يقسَّم المال على الورثة ، ويبقى العمل الذي قدمه العبد بيده في هذه الحياة الدنيا .. لا يستطيع أحد من أهلك أن يبيت معك في قبرك ليلة واحدة ..لا ينفعك إلا ما قدمت يداك في هذه الدنيا .

○ قيل لحاتم الأصم(٢) : بما حققت التوكل على الله ؟

قال : « على خصالٍ أربع : عِلِمْتُ أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي ، وعلمْتُ بأن عملي لا يتقنه غيري فاشتغلتُ به ، وعلمت بأن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره ، وعلمت بأن الله مطلعٌ عليَّ فاستحييت أن يراني

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت (٦٥١٤) ، ومسلم كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٠) .

(٢) أخرجه البيهقيُّ في «الشعب» (١٢٧٤) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٧٣) .

على معصية» .

كلماتٌ تُكْتُب بالنور وبهاء العيون ، لا بهاء الذهب .

نعم .. يرجع الأهل ، ويرجع المال ، ويبقى العمل .

فاغرس لنفسك الآن ، ليومٍ تحتاجُ فيه إلى تسبيحةٍ واحدةٍ ، أو تهليلة واحدة ،أو تكبيرة واحدة ، أو ركعة في ظلام الليل بين يدي الله تبارك وتعالى .

● كنتُ في زيارة لإخواني في أمريكا ، فقالوا لي : إن فلانًا من إخواننا لا يساهم معنا بأي مبلغ من المال في مشروعاتنا الخيرية ، ولا يحضر معنا إلى الصلوات ، مع أن الله قد وسَّع عليه بهذه التجارة بالقرب من هذا المسجد الإسلامي ، فهلاَّ ذهبتَ إليه لتذكِّره بالله ، ولتذكره بالموت ، والقبر ، والدار الآخرة ؛ لعلَّ الله سبحانه وتعالى أن يقذف في قلبه القبول ، فذهبتُ مع بعض إخواني إليه ، فذكَّرتُ الرجل بالله فلَمْ يتذكر ! وقرأت عليه القرآن فلم يتأثر !! وذكَّرت الرجل بحديث رسولِ الله ﷺ فلم يتحرك قلبه بشيء !! ثم قال لي : لا تتعب نفسك يا شيخ ، قلْتُ : جزاك الله خيرًا أرحتني ؛ فلما رأى الحزن والألم ظهر على وجهي . قلْتُ : خيرًا ، أسأل الله أن يشرح صدرك للحق ؛ قال : أنا أودُّ أن أطمئنك إذا عدْتُ إلى بلدي ودولتي لأبنين لله مسجدًا ، ولأتفرغن للطاعة وللعبادة ! قلْتُ : أعطني ورقة وقلمًا ! قال: لماذا ؟ قلْتُ : أودُّ أن تكتب عقدًا ليوقِّعَ عليه ملك الموت حتى لا يأتيك ملك الموت إلا إذا عُدْتُ إلى بلدك ، وبنيت المسجد ، وتبت إلى الله ،

وتفرغت للطاعة والعبادة !فضحك وفطن إلى ما أريد ؛ فنظر إليَّ وقال : أنا ما أتيت هنا إلا لجمع الدولار ، ثم قال : إنني إن شعرت بحالة صداع في رأسي أخرجتُ ورقة الدولار من فئة المائة ، وأضعُ الورقة على رأسي، فيطير الصداع في الحال ! قلْتُ : أنت عبدٌ للدولار .

وصدق النبيُّ المختار ﷺ إذ يقول :

« تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الخَمِيْصَةِ : إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ » (١) .

والله لن ينفعك إلا ما قدمت يداك .

يقول رسول ﷺ للصحابة:

« أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ؟»

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ.

قَالَ : « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ » (٢) .

فمالُك الحقيقيُّ هو ما بذلْتَ بيدك في حياتك ، وفي دنياك ؛ فلا تبخل على نفسك فمالُك الذي شغلك عن ذكر الله ، وشغلك عن طاعة الله ، عن الصلاة ، عن عمل الآخرة ؛ بل وربما يكون قد جمعته من الحرام ، ولم تتق الله سبحانه وتعالى في أكل الحلال ، وفي أن تطعم أهلك وأولادك الحلال الطيب ، هذا المال ستسأل عنه بين يدي الله تبارك وتعالى: من أين اكتسبته ، وفيما

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب ما قدَّم من ماله فهو له (٦٤٤٢)من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ .

أنفقته ؟ وتَتْرُكِ المَالَ ـ يقسم على الورثة ـ إذا ذهبت إلى القبر ، ولا يبقى لك في قبرك إلا عملك .

أُغْلِقَ القبر ، و صِرْتَ وحْدَكَ يا مسكين ؛ اللهم آنس وحشتنا في القبر يا أرحم الراحمين .

● وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ وابن ماجة والحاكم بسندٍ حسن [(١)]: كَانَ عُثْمَانُ ﷺ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى ، حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ . فَقِيلَ لَهُ : تُذْكَرُ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلاَ تَبْكِي ، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا ؟ قال عثمان : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « **إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ ؛ فَإِنْ نَجَا مِنْهُ ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ** » . وقال رسُولُ الله ﷺ : «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قطُّ إِلاَّ والقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**» .

أنا أودُّ من كلِّ قلبي لكلِّ من يشعر الآن بقسوةٍ في قلبه ، وجمودٍ في عينيه ، أن يذهب مع جنازة ، وأن يتعمَّد أن ينظر إلى القبر قبل أن يُدفن الميت ، ومن ثمَّ أمرنا رسولُ الله ﷺ بزيارة القبور ؛ فقال :

« **نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا** » [(٢)] .

○ وفي رواية في « **صحيح مسلم** » : « **فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ** » [(٣)] .

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب (٥) رقم (٢٣٠٨) وقال : «حديث حسن غريب» . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر القبر والبلى (٤٢٦٧) ، وأحمد (٤٥٦) ، والحاكم (١/ ٣٧١) ، وحسنه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٦٨٤) ، و« المشكاة » (١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه (٩٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجنائز ، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه (٩٧٦) .

يا من تشعر بقسوة في قلبك ، وجمودٍ في عينك زر القبر ، وانظر إليه ، انظر إلى مساحته وتفكَّر في وحشته و ضيقه ، وانظر إلى التراب الذي يوجد في قعره وقاعه ، ثم بعد ذلك تصوَّر هذا الذي يوضع على وجهك وعلى جسدك كلِّه .. تذكَّر هذا التراب الذي يُهال عليك ، وتبقى وحيدًا في هذا المكان الضيق الموحش ! .

وأودُّ أن أقف وقفةً ـ من باب التأصيل العلمي ـ وأنا مضطرٌ إليها ، وإلا لوددتُ أن أواصل الحديث بهذه النبرة ، وبهذه الكلمات الرقراقة الرقيقة عن رسول الله ﷺ ، وعن سلفنا الصالح لأخاطب القلوب ؛ لكنني ـ كما ذكرت ـ لا أخاطبُ القلب فحسب ، ولا أخاطب العقل فحسب ، وإنما أخاطب قلبك وعقلك في آنٍ واحد ؛ نعم .. لأن بعض الناس وقف أمام القبر ، ومع القبر، وقال : ما يُذْكر من نعيمٍ ، وعذاب القبر ، إنما هو مُجَرَّد خرافات وخزعبلات ؛ لأن هذا أمر لا يقبله العقل ! فلا يعقل أن القبر يتسع ، أو يضيق ، أو ينعم صاحبه أو يعذب ؟! هذا أمر لا يستوعبه ، ولا يصدقه العقل السليم السوي !!

○ إخواني : لا أقلِّل من شأن ولا قدر العقل ، بل أؤكد أن نور الوحي لا يطمس نور العقل أبدًا ، بل يباركه ويزكيه ويقويه ، بشرط أن يسجد العقل وأن يذعن مع الكون كلِّه لله رب العالمين ، فلقد زكَّى الله العقل في القرآن ، وبين كرامته ، ومكانته .

● فقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾[يس:٦٨] ،وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾

[محمد:٢٤] ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:١١]، وقال : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٠] ، لأصحابِ العقول النيرة ؛ فما أعظم العقل، وما أشرف العقل ، وما أكرم العقل ، بشرط : ألا يتعدَّى العقل دَوْرَهُ ؛ وألا يتخطَّى العقل حدَّه ؛ وألا يتجاوز العقل قدْرَهُ ، وأن يذعن العقل مع الكون كلِّه لله رب العالمين .

فمستحيل أن يتعرَّف العقلُ على حقائق الوحي ، أو على هذه الحقائق الكبيرة بغير الوحي ، وأنا أسأل إخواني وأخواتي : مَنْ صاحبُ أزكى وأشرف وأطهر عقل عرفته الأرض ؟ إنه محمَّد بن عبد الله ﷺ ، ومع ذلك لم يستطع نبينا محمد ﷺ بعقله الأزهر الأصفى الأنور أن يتعرف على حقائق الإيمان ، وحقائق الكتاب إلا بعد وحي الله ﷻ له ؛ كيف تقولُ هذا الكلام ؟ الرسول ﷺ نفسه لم يعرف حقائق الإيمان بعقله النير الذكي إلا بعد نزول الوحي عليه ؟ نعم .

- قال الله ﷻ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢].

- إذًا ؛ الرسول ﷺ نفسه لم يستطع قبل الوحي أن يتعرف على حقائق الإيمان .

فالعقل له مجاله فليبدع في مجاله ، وما أحوجنا إلى أن تبدع العقول في ميادينها، أما أن نجعل من العقل حاكمًا على دين الله تبارك وتعالى، والله لتحوَّل الدينُ إلى ألعوبة بين عقول البشر ؛ وإلا فأنا أسألك: أيُّ دينٍ هذا الذي سنقبله ؟ الدين الذي يقره عقلك أنت ، أم الدين الذي يقره عقلي أنا ، أم الدين الذي يقره عقل فلان . أو عقل فلان . أي دين؟ !!.

● يقول عليٌّ ـ رضوان الله عليه : « لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرأي ، لَكَانَ المَسْحُ عَلَى بَاطِنِ الخُفِّ أَوْلَى مِنَ المَسْحِ عَلَى أَعْلَاهُ »(١) .

إن أردت أن تمسح على الخفين ، فالسنة هي أن تمسح على ظهر الخفين ، لا على الباطن الذي تطأ به الأرض ؛ فلو كان الدين بالعقل ؛ لكان المسحُ على باطن الخف أولى من المسح على أعلاه ، لكن الدين تكليفٌ وتشريعٌ ، ليس معنى ذلك أن نلغي العقول ؛ فلنتدبر بعقولنا أوامر ربِّنا ، و نبينا ﷺ ؛ فأنا لا أقلل من قَدْر العقل ، ولا من شأن العقل ، وإلا فلو تحدَّى العقلُ نور الوحي، وانحرف العقلُ عن المنهج النبوي المحمدي ، أو عن منهج الرسل بصفةٍ عامة ، والله الذي لا إله غيره سيغرقُ في مستنقع الرذيلة ، وفي مستنقع الضلال والهوى ، هل تتصور أن عقلاً يعبد البقرة ؟ بل هناك عقلٌ يعبد الفئران ! وهل تصدق أن البقرة في عصرِ الذرة ، وفي عصر الفضائيات ، وفي عصر الإنترنت لا زالت إلهًا ! يُعْبَدُ من دون الله ـــ جلَّ

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الطهارة ، باب كيف المسح ؟ (١٦٢ - ١٦٤) ، والدارقطني في « السنن » (١/ ١٩٩، ٢٠٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (١/ ٢٩٢) ، وصححه الألبانيُّ في « الإرواء » (٣) .

وعلا ـ وكذلك الفئران في عصر الذرة ، تعبد في المعابد الفخمة الضخمة من دون الله ـ جلَّ وعلا ـ بل هناك عقلٌ يعبد عضو الذكورة عند الرجل ، وعضو الأنوثة عند المرأة ، وعقلٌ يعبد الأشخاص ؛ فلقد عُبد عيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وعُبِد العزير !! وعقلٌ يقتل ابنته وهي حية خشية الفقر والعار ! وعقلٌ يدافع عن مصارعة الثيران ، وعقلٌ يدافع عن العنصرية اللونية البغيضة ، وعقلٌ يبيد ـ لا أقول بيوتًا ـ دولًا وأممًا عبر الصواريخ ، والقاذفات ، والطائرات ، والراجمات ، والدبابات ، باسم الحرية والديمقراطية! عقلٌ يقول صاحبه:

هِبُونِي عيدًا يجعل العُرْبَ أمَةً وسيروا بجسماني على دين برهم
سلام على كفرٍ يُوحد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم

عقلٌ يقول صاحبه : وآخِرُ ديكٍ صَاح قد ذبحناه ، لم يَبْق سِوى الله ! يعدو غزال آخر تطارده كلُّ كلاب الصيد ، سنطارده سنصيد له الله !! عقلٌ يقول صاحبه : بأنه لا يعبد الله ، ولا يعبد الشيطان ، ثم يقول : كلاهما جدار يغلق لي عيني ، فهل أبدل جدارًا بجدار ! عقلٌ تقول صاحبته : حتى التوحيد قد ظلم المرأة ؛ قيل لها : كيف ذلك ؟ فقالت : كلمة التوحيد لا إله إلا هو ؛ فلماذا لا تكون لا إله إلا هي ؟ أهذه عقولٌ يا سادة !!.

○ ورحم الله العلامة ابن القيم حين قال :

لا يستقلُّ العقلُ دون هداية بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلا
كالطرف دون النور ليس بمدرك حتى يراه بكرة وأصيلا

أنت مبصر وأنا مبصر ، ولكن هل نرى في الظلام ؟ لا نرى شيئًا في الظلام ، مع أنك تملك حاسة الإبصار ، لا بد من نور لكي ترى ، لابد لعقلي ولعقلك من نور النبوة ؛ ليبصر هذا العقلُ الحقَّ على حقيقته ، وإلا ظلَّ غارقًا في الضلال والظلام ، عقولٌ تبدع في جانب الدنيا ــ لا أنكر إبداعها ـ لكن انظر إليها في جانب العقيدة والأخلاق في الوحل والطين بلا منازع !

لا يستقل العقل دون هداية بالوحي تأصيلًا ولا تفصيلا
كالطَّرْف دون النور ليس بمدرك حتى يراه بكرة وأصيلا
نور النبوة مثل نور الشمس للعين البصيرة فاتخذه دليلا
فإذا النبوة لم ينلك ضياؤها فالعقل لا يهديك قط سبيلا
طرق الهدى محدودة إلا على مَنْ أمَّ هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدلت عن الطريق تعمُّدًا فاعلم بأنك ما أردت وصولا
يا طالبًا دَرْك الهدى بالعقل دون النقل لن تلقى لذاك دليلا [(١)]

*****

علم العليم وعقل العاقل اختلفا مَنْ ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا
العلم قال : أنا أحرزتُ غايته والعقل قال : أنا الرحمن بي عُرِفا

---

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ٩٧٩) ط دار العاصمة .

فأفصح العلم إفصاحًا وقال له بأنَّنا الله في قرآنه اتصفا

فأيقن العقلُ أن العلم سيدُه فَقَبَّلَ العقلُ رأس العلم وانصرفا

فهذا أصلٌ لا بد منه في قضية عذاب القبر ونعيمه ؛ حتى لا نحْكُم على دين الله تبارك وتعالى بعقولنا .

• ثم الأصل الثاني: يقولون : لم يثبت عذاب القبر في القرآن الكريم ؛ حتى وإن ورد في السنة يكفي فقط أن نأخذ ما في القرآن !!

شنشة خطيرة جدًّا ، بل في منتهى الخطورة ، وربما يستدلون على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٣٨] وهذا حقٌّ لكن لا يقال: لسنا في حاجة إلى السنة ، وإنما فقط نكتفي بالقرآن الكريم !! فهذا خطرٌ عظيم ؛ فبنصِّ القرآن الكريم قال رب العالمين : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

[الحشر:٧]

هل نسي هؤلاء أن الله لم يُنْزِل وحيًا واحدًا ، وإنما أنزل الله وحيين هما القرآن والسنة ـ تدبروا أيها المسلمون ، فأنا أخاطب الأمة كلَّها في جميع الأرض ، وأنت مأمور بالأخذ بسنة النبيِّ الحبيب ﷺ ؛ بل لقد حسم القرآن هذه المسألة؛ فقال جلَّ جلاله : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء:٨٠] .

• وقال ـ جلَّ جلاله : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا

مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦] .

● وقال ـ جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

[النور:٥١]

● وقال الله ﷻ : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢] .

● وقال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] .

● وقال الله ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾

[النساء:٥٦]

● بل لقد قال الله ﷻ عن نبينا : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:١ـ٥] .

● وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ

ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة:٢] .

● قال الله ﷻ لنساء رسوله ﷺ : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب:٣٤] والمراد بآيات الله : القرآن، والمراد بالحكمة باتفاق أهل السنة : هي السنة .

● وقال الإمام الشوكانيُّ رحمه الله [١] : « إن ثبوت حجية السنة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورةٌ دينية ، ولا يخالف في ذلك إلا مَنْ لاحظَّ له في الإسلام» .

يستحيل أن نستوعب القرآن بدون سنة مَنْ أُنْزل عليه القرآن .. نعم .. لا بد أن نرجع إلى السنة ، و يجب علينا أن نتثبت من صحة الحديث ؛ لأن من كذب على النبيِّ ﷺ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ؛ كما في « صحيح البخاري» [٢] من حديث عبد الله بن عمرو أنه ﷺ قال :

« بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

فإن ثبتت صحة الحديث بالقواعد التي وضعها العلماء المتخصصون والجهابذة النقاد ، والصيارفة الحذاق من علماء الحديث ، وجب علينا أن نسلِّم بحديث رسول الله ﷺ ، سواء استوعب الحديث العقل أو لم يستوعبه .

---

(١) « إرشاد الفحول » (ص٥٣) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل (٣٤٦١).

● قال ابن القيم ـ لله درُّه [1] : « والسنة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

● الوجه الأول : « أن تكون السنةُ موافقةً للقرآن من كلِّ وجه» ما معنى ذلك ؟ معناه : أن يأمر الله في القرآن بالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ؛ قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] .. إلى آخره.

فتأتي السنة لتؤكِّد ، ولتأمر بما أمر به القرآن ؛ فيقول صاحب السنة ﷺ ـ كما في «الصحيحين» [2] من حديث ابن عمر :

« بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ » .

فيأمر بما أمر به القرآن ؛ فتتضافر أدلة السنة مع أدلة القرآن ؛ هذا هو الوجه الأول .

● الوجْهُ الثاني : أن تكون السنةُ مبينَةً ومفسرَة ومفصلةً لما أجمله القرآن ؛ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأنعام:٧٢] .

إن سألت : كيف أصلِّي ؟ وكيف أقيم الصلاة ؟ قلت لك : هيا افتح القرآن ، واستخرج لي الآن من القرآن الكريم كلِّه آية واحده تخبرنا بأن

---

(١) « إعلام الموقعين » (٢/ ٢٧١،٢٧٠) ط الإيمان (بتصرف) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب : دعاؤكم إيمانكم (٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) .

الظهر أربع ركعات ؟ هيا استخرج لي من القرآن أركان الحج ؟وكذا مبطلات الصلاة ، وكذا مقادير الزكاة !! إلخ .

لا تجد ذلك إلا في السنة ... يأتي القرآن فيأمر بالأمر المجمل: ﴿ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ فيأتي صاحب السنة ، ويصلِّي أمام أصحابه ، ويقول : « **صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي** »(١) .

يأمر القرآن: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦] فيحج النبيُّ ﷺ، ويؤدي المناسك كاملة أمام أصحابه ، ويقول لهم ، وللأمة من بعدهم : « **لتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ** »(٢) .

فالسنة تفسر وتفصِّلُ ما أجمله القرآن الكريم .

●●● الوجْهُ الثالث : وهو من أَهَمِّ أوجه السنة مع القرآن : أن تكون السنةُ موجبةً لِمَا سكت القرآنُ عن إيجابه ، أو محرمةً لِمَا سكت القرآنُ عن تحريمه ، فالرسول ﷺ يُشَرِّع ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ؛ ففي « **سنن أبي داود والترمذي**»(٣) **بسندٍ صحيح** من حديث المقدام بن معد يكرب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة (٦٣١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر (١٢٩٧) ، وأحمد (٢/ ٣٦٦).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة (٤٦٠٤) ، والترمذيُّ، كتاب العلم ، باب ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ (٢٦٦٤) ، وصحَّحهُ الشيخ الألبانيُّ في «المشكاة» (١٦٣) .

« أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ ـ يعني: القرآن ـ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ـ يعني: السنة ـ أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ ، يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ - يعني : يكفينا هذا القرآن! ـ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ » ، « أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ ، وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ ، وإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا حَرَّمَ الله» .

هيا بنا بعد هذا التأصيل المهم من العلّامة ابن القيم رحمه الله لنتكلَّم عن قضية عذاب القبر ونعيمه ؛ فأنا تعمَّدت أن أؤصل هذه الأصول العلمية المهمة ؛ لأني أخاطب العقل والقلب في آنٍ واحد .

○ **أقول لك** ـ أخي الحبيب وأختي الكريمة : حياةُ القبر تسمَّى : بحياة البرزخ ، وحياة البرزخ لا يعلم حقيقتها ملكٌ مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، هذا أصلٌ مهمٌ في غاية الأهمية ؛ فما معنى البرزخ ؟

○ إخواني : بعد الموت حياة ثانية ودار أخرى ، والحياة في هذه الدار تختلف تمامًا عن حياتنا في دار الدنيا .

● قال الله ﷻ : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٧-١٠٠] .

○ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ[1] : «إن الله تعالى قد خلق الدور ثلاثًا وهي : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، الجنة أو النار» دار الدنيا نعرفها جميعًا، وماذا بعد الدنيا ؟ بمجرد أن يموت الإنسان ، ويدفن في قبره ، ينتقل إلى الدار الثانية بعد دار الدنيا ألا وهي دار البرزخ ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي : إلى يوم القيامة .

والدار الثالثة : دار القرار إما جنة أو نار ـ أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلني وإياكم من أهل الجنة، وأن ينجيني وإياكم من النار .

انتبه لهذا التأصيل ؛ لأنك حينما تستوعبه ، ستزولُ عنك كلُّ الإشكالات التي سوف تسأل عنها .

○ **يقول ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ :

« وجعل الله الأحكام في دار الدنيا تسري على الأبدان والأرواح تبع لها » ـ هذا كلامٌ غالٍ ونفيسٍ .. فأنت تصلي بالبدن وتتأثر الروح .. تصوم بالبدن وتزكو الروح والنفس .. تحج بالبدن وتزكو الروح والنفس .. تتصدق بالبدن وتزكو الروح والنفس .. قال : « وجعل الله الأحكام في دار البرزخ تسري على الأرواح ، والأبدانُ تبع لها » ، هل حُلَّ الإشكال ؟ تقول لي : كيف يُعَذَّب أو ينعم من مات غريقًا ومن مات حريقًا ؟ أقولُ لك : لقد جعل الله الأحكام في دار البرزخ تسري على الأرواح، ما هي

---

(١) كتاب « الروح » (ص٦٣، ٦٤) ، وانظر: « العقيدة الطحاوية » (ص٣٩٠) .

الروح ؟ صَلْبَةٌ كالحديد ؟! سائلةٌ كالماء؟! غازية كالدخان ؟! ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[الإسراء:٨٥]

فلا يعرف كُنْهَ الروحِ بشر ، ولا يعرف حقيقة الروح إنسان ، ولا يزال العلم الحديث ـ مع ما وصل إليه في عصر الذرة ـ عاجزًا عن معرفة كُنْه الروح .

فالروح تُنَعَّم و تعذَّب ، والبدن تابع للروح في النعيم أو في العذاب الأليم ؛ إذًا من مات حريقًا .. من مات غريقًا .. مَنْ صعقته الكهرباء .. من أكلته الأسماك ، يناله نصيبه من نعيم أو عذاب البرزخ ، لا تُحكِّم العقل في هذه الحفرة الضيقة التي تراها وتقول : أنا لم أر الحفرة اتَّسعت ولم أرها ضاقت !

○ يا أخي : خذ الأصل الرابع وهو في غاية الأهمية ؛ **يقول ابن القيم**[(١)] :

«وسرُّ المسألةِ أن نور القبر ، وناره ، وسعة القبر وضيقه ، ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا» ، تكون أحيانًا في صحراء مترامية ، أو تكون في قصر شاسع ، وقد هيئ بأفخم الأساس ، ومع ذلك تستشعر فعلًا أنك تختنق ، وأن المكان من حولك يضيق عليك ، وكأن روحك أو نفسك تخرج من ثقب إبرة ، و هذا في الدنيا ، فما يحدث في عالم البرزخ أعجب ، فنور القبر يختلف عن نور الدنيا ، ونار القبر تختلف عن نار الدنيا ، وسعة القبر تختلف عن سعة الدنيا ، وضيق القبر يختلف عن ضيق الدنيا ، فسرُّ المسألة

---

(١) «الروح» (٧٢ ، ٧٣ بتصرف) .

هو أن نور القبر وناره ، وسعة القبر وضيقه ليس من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا .

○ **وضَرَب ابنُ القيم مثالًا رائعًا :**

قال : « ينام الرجلان في فراش واحدٍ ، في حجرة واحدة ، وفي وقتٍ واحد ، فيستيقظ الأول وعليه آثار النعيم ، ويجلس وقد تهلَّل وجهه ، وانشرحت أساريره ، وهو يقصُّ عليك رؤيا من أجمل ما رأت عينه يخبرك» فيقول ـ مثلًا : لقد كنتُ مع النبيِّ ﷺ ؛ بل وربما يقول : لقد رأيتني في الجنة ، ورأيت كذا وكذا ، ويبدو عليه أثر النعيم الذي كان يراه في الرؤيا من لحظات ، والآخر يصرخ ، ويتألم ، ويتضجر في الفراش ، ويستيقظ وآثار العذاب بادية على وجهه ، بل وربما على جسده ، ويقول : بأنه كان في كابوس يُحطِّم أضلاعه ، ويخنق أنفاسه .. كان يصرخ ، ولكنه لا يستطيع أن يُسْمع أحدًا لينتشله من هذا الكابوس!!

○ الشاهد :

أن الأول كان في نعيم ؛ وروحه في نعيم ، بل صارت إلى الجنة، وهو في فراشه لم يتحرك ولم ينتقل ، ولم يشعر بأخيه الذي كان في عذاب إلى جواره ، وأخوه هذا لم يشعر بما كان يحياه الأول من نعيم . هذا يحدث في الدنيا ؛ فما ظنك بما يحدث في حياة البرزخ ؟!

أعتقد أنني خاطبت عقلك ؛ لتعلم يقينًا أن الأمر لا ينكره عقل العقلاء ،

فضلًا عن الأدلة من كتاب رب الأرض والسماء ، والأدلة من كلام إمام الأنبياء ، وسيد الأتقياء الأصفياء ، والله لو لم أحدثك بمثل ما ذكرت من تلك الأدلة العقلية ، وذكَرْتُ لك آية واحدة من كتاب الله ، وحديثًا واحدًا صحيحًا من أحاديث الصادق رسول الله ﷺ لوجب عليك أيها الحبيب أن تقول ما قاله المؤمنون الأولون الصادقون :

﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

لكنني تعمَّدت أن أخاطب كلَّ العقول وكلَّ القلوب ، وأسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ في هذه اللحظات أن يُحرِّك العقول والقلوب في آنٍ بالتوبة والأوبة إليه.. بالعمل لهذه الحفرة الضيقة ، وأسأل الله أن يجعلها علينا وعليكم نعيمًا ، وأن ينجينا وإياكم من عذاب الآخرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

تقول : أريد آية من القرآن ؟

نعم .. أقدم لك من القرآن آية صريحة واضحة ، اتفق علماء أهل السنة على أن هذه الآية في عذاب القبر ؛ بل لقد ترجم إمام الدنيا في الحديث ، صاحب أصحِّ كتابٍ بعد كتاب الله ـ جلَّ وعلاـ ألا وهو الإمامُ البخاري في كتاب الجنائز [1] من «صحيحه» قال : «باب ما جاء في عذاب القبر» [2] ـ

(١) رقم (٢٣) .
(٢) رقم (٨٦) .

والترجمة وحدها تكفي ـ ولذلك يقول علماؤنا : «فقه البخاري في تراجمه»[(١)] ؛ بمعنى : الترجمة وحدها مليئة بالفقه ، فالبخاريُّ أثبت هذه الحقيقة في هذه الترجمة البليغة ، وذكر الآيات الكريمة من كتاب الله، والأحاديث الصحيحة من حديث رسول الله ﷺ .

○ تدبر معي قولَ الله تعالى ـ في سورة غافر ـ في شأن آل فرعون :

﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

[غافر:٤٥،٤٦]

وهذه الآية صريحةٌ واضحةٌ ؛ فلقد ذكر الله في الآية عذابين : عذاب البرزخ وعذاب الآخرة : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ أي:صباحًا ومساءً ، هذا في البرزخ ، بدليل قول الله بعدها في نفس الآية : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٦].

○ **قال الحافظ في «الفتح»**[(٢)] :

« قال القرطبيُّ : الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ ، وهو حجةٌ في تثبيت عذاب القبر . وقال غيره : وقع ذكر عذاب الدارين في هذه الآية مفسرًا مبينًا ، لكنه حجة على من أنكر عذاب القبر مطلقًا ، لا على مَنْ خصَّه بالكفار .

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٣، ٢٤٣) .
(٢) (٣/ ٢٧٦) .

واستدل بها على أن الأرواح باقية بعد فراق الأجساد ، وهو قول أهل السنة» .

ثم هاهي السنة ـ صلَّى الله وسلم وبارك على صاحب السنة ـ ففي «الصحيحين» [(١)] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال : قال ﷺ : « **إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ** » كيف يجلس في القبر ؟ أنا قلْتُ لك قبل ذلك : وسرُّ المسألة أن نور القبر وناره ، وسعة القبر وضيقه ، ليست من جنس المعهود للناس في عالم الدنيا ، فلا تستكثر ذلك على قدرة الله سبحانه ، وعلى عظمة الله سبحانه؛ لقد روى «البخاريُّ ومسلم» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« **كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ: قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ،ثم ذَرُّونِي فِي الرِّيح** » .

وفي رواية في الصحيح : « **فَاذْرُوا نِصْفِي فِي الْبَرِّ ، وَنِصْفِي فِي الْبَحْرِ** » .

وصية غريبة . قال : « **فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ ، فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ : فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ** » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب في عذاب القبر (١٣٦٩) ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب (٥٤) ، (٣٤٨١) ، وكتاب التوحيد (٧٥٠٦) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) . وانظر : صحيح البخاري (٧٥٠٨) ، ومسلم (٢٧٥٧) .

فقال الله سبحانه : «مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فقال : يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ».

وفي لفظٍ : « مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ » « فَغَفَرَ اللهُ لَهُ » .

أي : بخوفه من الله تبارك وتعالى .

○ بل في رواية في الصحيح : « فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ » ، وبدأ النبيُّ ﷺ بلفظة البحر :

« فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ» .

أتستكثر شيئًا على قدرة الله ، وعلى عظمة الله ، وعلى إرادة الله سبحانه .

○ ارجع معي للحديث السالف الذكر:

« إِذَا أُقعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ ، أُتِيَ ثُمَّ شهِدَ أَنْ لاَ إِلَه إِلَّا الله ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله ؛ فذَلِك قَوْلُ الله تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[إبراهيم:٢٧] .

● وفي رواية مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

« نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ ؛ فيُقَالُ لَهُ : مَنْ ربُّك ؟ فيقُولُ : ربِّي الله ، ونَبِيِّي مُحَمَّد ﷺ فذلكَ قولهُ ﷻ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾[إبراهيم:٢٧]» .

كلماتٌ صريحةٌ وواضحةٌ في غايةِ الوضوح من الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

وقد تقدَّم معنا حديث عثمان ﷺ أنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ » .

● وفي «الصحيحين» (١) من حديث ابن عباس ﷺ قال : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِقَبْرَيْنِ ، ثم قال ﷺ :

« إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ » .

وفي لفظٍ : « لَا يَتَنَزَّهُ مِنْ بَوْلِهِ » .

أمرٌ يسيرٌ جدًّا أن يتجنبه الإنسان ، حتى لا يكون سببًا من أسباب عذاب القبر ، وإلا فالنبيُّ ﷺ لا يقلِّل من خطر النميمة ، ولا من خطر عدم الاستتار ، ولا التنزه من البول .. لا . ليس هذا هو المراد ، وإنما يسيرٌ علينا أن نترك النميمة ، أن نستتر أثناء التبول ، وأن نتطهر بعد التبول . وسأعود إلى تفصيل معاني هذه الكلمات النبوية إن شاء الله تبارك وتعالى وأنا أتحدث عن أسباب عذاب القبر . لكن الشاهد من إيرادي لهذه الرواية أنها صريحة في عذاب القبر.

● وروى «البخاريُّ ومسلم» (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوضوء ، باب ما جاء في غسل البول (٢١٨)، وانظر طرفيه هناك، ومسلم ، كتاب الطهارة ، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر (١٣٧٧) ، ومسلم كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٨٨) .

كان يكثر من هذا الدعاء :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» .

• وروى الإمام مسلم في «صحيحه» [١] من حديث زيد بن ثابت ﷺ قال : بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ [٢] لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ ، وَنَحْنُ مَعَهُ إِذْ حَادَتْ بِهِ ، فَكَادَتْ تُلْقِيهِ ـ أي : كادت بغلة رسول الله ﷺ أن تلقيه على الأرض حين نفرت به فجأة ، يقول زيد : وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ ؛ فَقَالَ ﷺ : « مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟»

فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا أَعْرِفُهَا يَا رَسُولَ الله ! .

فقال له ﷺ : « فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ ؟» .

فقال الرجل : مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ ـ أي : في الشرك قبل الإسلام .

فقال ـ عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ هَـذِهِ الأُمَّـةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَـا ، فَلَـوْلاَ أَنْ لاَ تَـدَافَنُوا لَـدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ » .

بل ستعجب إذا علمت أن المصطفى ﷺ كان يُعلِّم الصحابة ﷺ هذا الدعاء المهيب ـ الذي سأذكره الآن ـ كما يعلمهم السورة من القرآن .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٦٧) .

(٢) حائط أي : بستان .

إلى هذا الحد ؟ نعم .. وأرجو أن نحفظ هذا الدعاء ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلمٌ في «صحيحه»[١] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ :

« قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ » .

وسأتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

○ وإليك حديثًا من هذه الأحاديث الناصعة الواضحة في عذاب القبر ـ وهو الحديث العمدة في هذا الباب ـ روى الإمام أحمد في «مسنده» وأبو داود في «سننه» والنسائي في «سننه» والحاكم في «مستدركه» وغيرهم[٢] من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى القَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ ، فَجَلَسَ ﷺ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ ، كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ ـ صمتٌ وسكونٌ وهيبةٌ وإجلالٌ للموت ؛ قال : وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ ـ أي: يضرب به في الأرض ـ فَرَفَعَ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب المساجد ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٩٠) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنن ، باب المساءلة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣) ، والنسائي كتاب الجنائز باب عذاب القبر (٢٠٥٨) مختصرًا ، وابن ماجه كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والبلى (٤٢٦٩) مختصرًا ، والترمذي كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر (١٠٧١) والحاكم (١/ ٣٧ـ٤٠) وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي ، وأحمد (٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (١٦٧٦) ، و« أحكام الجنائز » (١٩٨ ، ٢٠٢) .

رَأْسَهُ ﷺ ؛ فَقَالَ :

« اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ، ثم قال : « اللَّهم إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ثَلاثًا » ثم قال : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ » .

اللهم اجعلنا من هؤلاء الأصفياء الأتقياء الذين تنزل عليهم ملائكة بالتثبيت يا رب الأرض والسماء .

« مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اُخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضوان » .

وفي رواية أحمد [(١)] عن أبي هريرة قال :

« كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ اخْرُجِي حَمِيدَةً ، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ » .

يا الله !اللهم اجعلنا جميعًا ممن يُنَادى عليهم بهذا النداء العذب الحلو .

قال ﷺ : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِيِّ السِّقَاءِ » ـ أي : كما تصب الماء من قربةٍ فينزلُ بانسياب، وسلاسة ، وسهولة ، ويسر ، « فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا

---

(١) أحمد في « المسند » (٦/ ١٣٩، ١٤٠) .

فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ » .

ومِنَّا من شمَّ بأنفه، ورأى بعينه ، وسمع بأذنه العجب العجاب .. حينما يتوفى رجل من أهل الصلاح ترى رائحة طيبة كريمة انبعثت منه قد ملأت المكان كلَّه .

قال : « فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلاَّ قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ؛ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى ، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنَ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ : دِينِيَ الإِسْلاَمُ ؛ فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ » .

وهل عاش في الدنيا إلا على الإسلام ؟ وهل عاش في الدنيا إلا على التوحيد والإيمان بالله ورسوله ؟ وهل مات إلا على هذه النعمة ؟

لقد شاء ربُّنا وقدَّر أن من عاش على شيءٍ مات عليه ، ومَنْ مات على شيءٍ بُعث عليه .

«فَيَقُولاَنِ لَهُ : وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ ، فَآمَنْتُ بِهِ

وَصَدَّقْتُ ؛ فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ؛ فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ » .

أنا توحيدك ، وصلاتك ، وصيامك ، وزكاتك ، وحجك ، وبرُّك ، وقيامك بالليل ، وأمرك بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وصدقتك ، أنا حجابك أيتها المسلمة الفاضلة .

« فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي ، وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ ؛ اخرجي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ ، فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا ، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلأٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِلاَّ قَالُوا : مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ ؛ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ » ، وقرأ النبيُّ ﷺ

قول الله تعالى : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[الأعراف:٤٠] **فَيَقُولُ الله ﷻ :اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا** وقرأ قولَهُ تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج:٣١] ، قال : **فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ ، لاَ أَدْرِي ؛ فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ : هَاهْ هَاهْ ، لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي . فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ ،وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا ، وَسَمُومِهَا ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ ؛ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ ؛ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ : أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ ؛ فَيَقُولُ : رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَةَ »** .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعلني وإياكم من أهل النعيم ، وأن ينجينا جميعًا من العذاب والجحيم ، وأن يسترنا بستره الجميل في الدنيا والآخرة، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فالأمر ـ إخواني ـ فظيع ، والخطب شنيع ، ويكفي ـ فقط ـ أن ينظر الإنسان إلى القبر ـ حتَّى وهو بين الأحياء ـ لينخلع قلبه ، والله لا يستطيع

أحدنا أن يبيت في قبرٍ بين المقابر وهو حيٌّ ، ليلةً واحدة !.

فما ظنك بعدما فاضت روحه ،وفارقت جسده؟! ما ظنك وقد تركه كلُّ أحد ولم يبق له إلا العمل الصالح ؟!

○ أقول : قد يسألني أحبابي **ما هي أسباب عذاب القبر ؟** سؤال خطير في غاية الأهمية .

● والجواب كما يلي :

١ـ النميمة : وما هي النميمة ؟ **هي :** نقْلُ الكلامِ بين الناس على سبيل الإفساد .. كم وقع في النميمة كثيرٌ من الرجال والنساء ، أسأل الله أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة .. يتحرك النَّمام من بيتٍ إلي بيت ، ومن مكتبٍ إلى مكتب ، ومن مكانٍ إلى آخر بنقل الكلام !ألم تسمع أن فلانًا قال عنك كذا وكذا ؟! ثم تفتح الآذان لهذه الكلمات الخبيثة الخطيرة ـ لكلمات النميمة ـ التي تفرق بين الأحبة ،و التي تدمِّر البيوت والأسر ، فكلمةُ نميمةٍ واحدةٍ قد تفرِّقُ بين رجل وامرأته ، وبين الأخ وأخيه .. قد تسعد بكلمةٍ صادقة أسرة ، وقد تشقى بكلمةِ نميةٍ واحدةٍ أسرةٌ بكاملها ! .

○ أيها المسلمون: لا تستهينوا بالكلمة .. أخاطب الأمة .. أخاطب أصحاب الأقلام .. أخاطب أصحاب الألسنة : الكلمة خطيرة .. بكلمةٍ ينال الإنسان رضا الله ، وبكلمة ينال الإنسان سخط الله ، وبكلمة يدخل الجنة ، وبكلمة يدخل النار ، بل وبكلمة تستحلُّ فرج امرأة في الحلال ، وبكلمة يحرم

عليك فرجها ، إنها كلمة ؛ قال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨] .

● بل وقال النبيُّ ﷺ- كما في «الصحيحين» [١] من حديث أبي هريرة ﷺ :

« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

فاحذر من النميمة ! وهل أفسد العلاقة بين العلماء وبين الدعاة إلا هذه الكلمات ؟ يتحرك النَّمام من عالم إلى آخر ، ومن داعيةٍ إلى آخر ، و بين أخٍ وأخيه ، وبين زوجٍ وزوجته بكلمةٍ واحدةٍ يفسد بها الود، ويعكّر بها هذا الماء الصافي .

○ وتدبر هذا الحديث الذي يخلع القلب ؛ **روى أحمد في «مسنده» وأبو داود وغيرهما بسندٍ صحيح** [٢] من حديث ابن عمر ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان (٦٤٧٨) ، ومسلم كتاب الزهد والرقائق ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨) مختصرًا .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » (٢/ ٧٠) ، وأبو داود كتاب الأقضية باب فيمن أعان على خصومةٍ من غير أن يعلم أمرها (٣٥٩٧) ، والحاكم (٢/ ٣٢) ، وصححه ووافقه الذهبي، والطبراني في « المعجم الكبير » (١٢/ ٣٨٨) ، « والأوسط » (٦٤٩١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٩٠٥) والبيهقي في « الشعب » (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥) و (٦/ ١٢١) ، و« الكبرى» (٦/ ٨٢) و (٨/ ٣٣٢) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الإرواء » (٧/ ٣٤٩) ، و« صحيح الجامع » (٦١٩٦) ، و« صحيح الترغيب » (١٨٠٩) ، و« الصحيحة » (٤٣٧) .

« مَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ ، أَسْكَنَهُ الله رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ وَلَيْسَ بِخَارِجٍ » .

هل تعرف ما ردغة الخبال ؟ هي عصارة أهل النار !.

○ أخي : اتق الله في قولك ؛ فإن ترك الألسنة تلقي التهم جزافًا ، دون بينة أو دليل ، يترك المجال فسيحًا لكلِّ من شاء ، أن يقول ما شاء ، في أي وقت شاء ، ثم يمضي بعد ذلك آمنًا مطمئنًا ، فتصبح الجماعة المسلمة وتمسي ، وإذا أعراضها مجرَّحة ، وسمعتها ملوثة ، وإذا كلُّ فردٍ فيها متَّهم ، أو مهدَّد بالاتهام ، وهذه حالةٌ من القلق والشكِّ والريبة ، لا يمكنُ أن تُطَاق بحالٍ من الأحوال .

فإياكم والنميمة فإنها سببٌ كبير ، من أسباب عذاب القبر .

« إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ ».

والله لو تدبَّرت هذا الحديث لفكَّرت ألف مرة قبل أن تتكلَّم مرة .. وقبل أن تنطق مرة ، وأنت يا أختاه احفظي لسانك واحذري النميمة ، فالنميمة سبب من أسباب إتعاس كثيرٍ من المسلمين والمسلمات ، فالكلمة خطيرة ؛ أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصادقين .

● السبب الثاني : **عدم الاستتار من البول** !منظرٌ شنيعٌ لا حياء فيه أن ترى رجلًا في مكانٍ عام واقفًا يتبول دون أن يستتر .. انظر إلى هذه القيمة الرقيقة الثابتة في سنة النبيِّ ﷺ ، لكن أين الستر ؟ وأين الحياء ؟ وأين

العفة؟

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ الليالي ولم تَسْتَحِ فاصْنَع ما تشاء

فلا والله ما في العَيْشِ خَيْرٌ ولا الدُّنيا إذا ذهب الحياء

فهذا رجلٌ يعذب في القبر ؛ لأنه لم يستتر من بوله .. كشف عضوًا من أعضائه وهو يتبول ، فما ظنك بالذي يكشف كلَّ جسده ؟! أو بمن تكشف عن كلِّ جسدها ؟! أسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة .

● قال ﷺ : «و أَمَّا الآخر فكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ» .

○ وفي لفظٍ : «لَا يَتَنَزَّهُ مِنْ بَوْلِهِ » أي لا يتطهر بعد تبوله ؛ فديننا دين الطهارة ، والنظافة ، والجمال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]

○ أيها المسلم :

كُنْ طاهرًا في الظاهر، وفي الباطن على السَّواء؛ فطهارَةُ الباطن دليلٌ على طهارة الظاهر ، وطهارةُ الظاهر دليل على طهارة الباطن إن شاء الله تعالى ؛ لأن الظاهر والباطن عند أهل السنة والجماعة لا ينفصمان ؛ لأنه لو انفصم الظاهر عن الباطن صار هذا الإنسان منافقًا ، أعاذنا الله وإياكم من النفاق .

● السبب الثالث:

من أخطر أسباب عذاب القبر : أكل الحرام ـ اللهم جنبنا وإياكم الحرام ،

وارزقنا وإياكم الحلال الطيب ؛ فلقد ثبت في «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً مات ، فقال الناس : هنيئًا لَهُ الشَّهادَةُ ، إنه في الجنة فقال النبيُّ ﷺ :

« بَلْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ الشَّمْلَةَ [(٢)] الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ ، لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا».

يا الله! شملةٌ أخذها غلولًا قبل أن تقسم الغنائم ، أخذها بغير حق .

فأكْلُ أموال الناس بالباطل وأكل الحرام من أخطر أسباب عذاب القبر .

فإياك والحرام ؛ ففي «صحيح مسلم» [(٣)] من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال:

« أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ » .

فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾ [المؤمنون:٥١]

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة:١٧٢]

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر (٤٢٣٤) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب غلظ تحريم الغلول ، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٥) .

(٢) الشملة : قطعة قماش توضع على الرأس ، أو يَرْبِطُ بها الإنسان وسطه .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

«ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ » .

○ أخي الكريم : لا تأكل أموال الناس بالباطل .. لا تأكل الرشاوى.. لا تأكل أموال اليتامى ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء:١٠] .

وستترك ـ ورب الكعبة ـ كلَّ هذا المال للورثة يتنعمون به، ويتمتعون به ، وستسأل عنه أنت بين يدي الكبير المتعال : من أين اكتسبت ؟ وفيما أنفقت ؟!

● السبب الرابع من أسباب عذاب القبر :

الكذب ، والزنا ، والربا ؛ كما في حديث سمرة بن جندب الطويل وهو في «صحيح البخاري»[(١)] .

○ أما الكذب ؛ فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة :١١٩] .

● وفي «الصحيحين»[(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه ﷺ قال :

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٦) ، وانظر (٨٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة :١١٩] (٦٠٩٤) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧) واللفظ له .

وَمَا يَزَالُ الرَّجُلَ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلَ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» .

○ والربا ، يقول الله فيه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٧٨] .

○ وقال ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث ابن مسعود ﷺ ومن حديث جابر ﷺ قال :

«لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُؤْكِلَهُ ، وَكَاتِبَهُ ، وَشَاهِدَيْهِ ، وقَالَ : «هُمْ سَوَاءٌ » .

○ والزنا : كبيرةٌ من أبشع الكبائر ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٦٨ـ ٧٠] .

فمن أخطر أسباب عذاب القبر ، بل وعذاب الآخرة : الكذب والزنا والربا !!

(١) أخرجه مسلم كتاب المساقاة باب لعن آكل الربا ومؤكله (١٥٩٧) من حديث ابن مسعود ﷺ ، وفي (١٥٩٨) من حديث جابر ﷺ ، وهذا لفظه .

○ **وبالجملة** - أيها الأفاضل: المعاصي كلُّها من أسباب عذاب القبر؛ فما العلاج وما الدواء ؟

● والجواب في كلمات قليلة : أن تستقيم على منهج رب الأرض والسماء .. أن تمتثل الأمر ، وأن تجتنب النهي ، وأن تقف عند الحد ، وأن تبتعد عن النميمة ، والغيبة ، وأن تبتعد عن كلِّ ما يغضب الحق تبارك وتعالى .

وأذكِّرك أيها الحبيب اللبيب بقراءة سورة الملك كلَّ ليلة .

● **ففي الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه**(١) **وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : **«إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً ، شفعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ ، وهي سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»** .

● **وفي مصنف عبد الرزاق والنسائي في «الكبرى» و«مستدرك الحاكم» «وسنن البيهقي» موقوفًا . وعند ابن مردويه مرفوعًا بسندٍ صححه الشيخ الألبانيُّ**(٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن الحبيب النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب في عدد الآي (١٤٠٠) ، والترمذي كتاب ؛ فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة الملك (٢٨٩١) وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب ثواب القرآن (٣٧٨٦) ، وأحمد (٢/ ٢٩٩) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢٠٩١) ، و« المشكاة » (٢١٥٣) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦٠٢٤، ٦٠٢٥) ، والنسائي في « الكبرى » (١٠٥٤٧) ، والحاكم (٢/ ٥٤٠) والطبراني في « الكبير » (٩/ ١٣٢، ١٣١) ، و« الأوسط » (٦/ ٢١٢) ، و البيهقي في « الشعب » (٢/ ٤٩٤)، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٢٤٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (١١٤٠) ، و« صحيح الجامع » (٣٦٤٣) ، و« صحيح الترغيب والترهيب » (٢/ ٩١) .

« سُورَةُ الْمُلْكِ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » .

فاحرص على قراءة سورة الملك كلَّ ليلة ؛ فإن قدر الله عليك الموت مِتَّ على طاعة .

● ومن أعظم الأسباب المنجية من عذاب القبر : الشهادة في سبيل الله ؛ روى الترمذي وابن ماجة وأحمد (١) وغيرهم من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : « لِلشَّهِيْدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ : يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ (دَمِهِ) ، وَيُرى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّة ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ، وَيَأْمَنُ مِنْ الفَزَعِ الأَكْبَرِ ، وَيُوْضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ ، اليَاقُوْتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وَمَا فِيْهَا ، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِيْنَ زوجة مِنَ الحُورِ العِيْنِ ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينجيني وإياكم من عذاب القبر .

○ أيها الأحبة : ماذا بعد؟

هذا ما نعرفه في الفصل القادم بإذن الله تعالى ، وأسأل الله جل جلاله أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.



(١) أخرجه الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب في ثواب الشهيد (١٦٦٣) وقال : « حسن صحيح غريب » ، وابن ماجة ، كتاب الجهاد باب فضل الشهادة في سبيل الله (٢٧٩٩) وأحمد (١٦٧٣٠) والبيهقي في « السنن » (٩/ ١٦٤) وفي « الشعب » (١٠٨٢٣، ١٠٨٢٤) وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٥١٨٢) و« أحكام الجنائز » (٣٥، ٣٦) .

علامات الساعة الصغرى

علامات الساعة الصغرى

توقفنا في ما سبق مع القبر ، وها هو القبر قد أُغْلِق على صاحبه ! إلى متى ؟ إلى قيام الساعة .

أسأل الله أن يجعل قبورنا روضةً من رياض الجنة ، وأن لا يجعلها حفرة من حفر النيران .

فتعالوا بنا لنتحدَّث عن الساعة ، ولنبدأ في الكلام عن أشراطها ، وأماراتها ، وعلاماتها ؛ قبل أن أتحدث عن مراحل الساعة من بعثٍ ، وحشرٍ ، وميزانٍ، وحسابٍ ، وصراطٍ ، وجنةٍ ، ونارٍ ، إلى غير ذلك من هذه الأهوال .

وأضَعُ بين يدي الحديث عن أشراط الساعة مجموعةً من الأصول المهمة :

● **الأصل الأول : الساعة آتية لا ريب فيها:**

لابد أن يعلم هذه الحقيقة الظالم والمظلوم معًا؛ فليعلم الظالمُ أنه سيعرض على الله ـ جلَّ وعلا ـ للقصاص ، وليهنأ المظلوم الذي عجز ، ولم يستطع أن يستردَّ مظلمته في الدنيا بأنه سيقفُ إلى جوار ظالمه ؛ فعند الله تجتمع الخصوم ؛ ليوفيه الله تبارك وتعالى حقَّه كاملًا غير منقوص .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظُّلْمُ تَرْجِعُ عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ ... يَدْعُو عليك وعين الله لم تنم

وسأقف عند القصاص ـ بعد ذلك ـ وقفة طويلة ؛ أسأل الله أن يسترني وإياكم في الدنيا والآخرة .

● قال الله ـ جلَّ وعلا : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٦، ٧] ، يظلُّ الإنسانُ في قبره إلى أن يسمع النداء ؛ كما قال الله ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ [ق: ٤١، ٤٢] يأمر الله ـ جلَّ وعلا ـ إسرافيل بالنفخ في الصور وهي نفخة البعث ؛ فتتزلزل الأرض ؛ لتتخلَّص من حملها الثقيل ، ولتلفظ ما في بطنها وجوفها من بني البشر من لدن آدم إلى آخر رجل قامت عليه الساعة ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي : ألقت ما فيها من الموتى . ﴿ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٣] استنكر الإنسانُ المذعورُ المفزوع أمرها : مالها ؟ ما الذي غيرَّ سكونها واستقرارها ؟ لقد كانت ثابتةً مستقرةً هادئةً ، فصارت متحركةً مضطربةً ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعدَّهُ لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذٍ استنكر الناس أمرها ، وتُبدَّلُ الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار [(١)] .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٤).

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

منظر مهيب يخلع القلوب!

واعلم أن الساعة آتية قريبة ، فإن كنت تراها بمقاييسك البشرية أنها لا زالت بعيدة ؛ فإن الله ـ جلَّ وعلا ـ يخبرنا بأنها قريبة ، وقريبة جدًّا .

● قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج:٦، ٧] .

● وقال الله ﷻ: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:١]

● وتدبر قول الله ﷻ : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر:١] [١] .

● وقال ـ جلَّ وعلا ـ وهو يخبر عن القيامة بصيغة الماضي : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل:١] وقد عبَّر الله بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة [٢] ، بل وتدبر معي قولَ ربنا سبحانه : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب:٦٣] .

---

(١) قيل : إن انشقاق القمر هي الآية التي ظهرت على عهد النبي ﷺ ؛ كما ثبت ذلك في الصحيح . وقيل : بل المعنى : إنه ينشق ؛ كما في قوله : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل:١] أي : يأتي . وانظر : «التذكرة» للقرطبي (٦٣٨، ٦٣٩) .

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٤٣) .

• وقال ـ جلَّ وعلا : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٢ـ٤٦] ، أي : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أوضحى يوم [(١)] ، يستشعر أهل الأرض وكأنهم ما لبثوا في الأرض غير ساعة .

أخي : مهما طال الزمن ، فالساعة آتية ، وقيامتك بموتك ، فمهما طالت الحياة ، ومهما طال الليل ، فلابد من طلوع الفجر ، ومهما طال العمر فلابد من دخول القبر ، ومهما طال المكث في القبر فلا بد من الخروج للوقوف بين يدي الحق تبارك وتعالى .

إذًا ، إن نظرت إلى الساعة بمقاييسك البشرية على أنها لا زالت بعيدة ؛ فربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ يخبرنا بأنها قريبة ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل:٧٧] ، و لن تجد في قواميس اللغة تعبيرًا عن قرب الساعة بمثل هذه الكلمات القليلة الحاسمة ، بمجرد أن تغمض عينك ، ثم تفتحها ينتهي كلُّ شيء .

• الأصل الثاني : أشراط الساعة :

وهذا هو الأصل الثاني بين يدي الحديث عن أشراط الساعة ، وأكرِّر : علم قيام الساعة لم يطلع الله ﷻ عليه ملكًا مقربًا ، ولا نبيًّا مرسلًا ، ولو

---

(١) «المصدر السابق» (٤/ ٤٥٤) .

كان المصطفى ﷺ ! فعلم قيام الساعة غيب لا يعلمه إلا الله .

يقول نبينا ﷺ - كما في « صحيح البخاري » [١] - من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : «**مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله**» ، وقرأ قول الله - جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾

[لقمان:٣٤]

● ومن أجمل ما قرأتُ في هذا الباب ، ما رواه أحمد في «مسنده» وابن ماجة في «سننه» وقال البوصيري في «الزوائد» : «إسناده صحيح ، رجاله ثقات» والحاكم في «المستدرك» وصححه ، ووافقه الذهبيُّ ، و صححه العلامة أحمد شاكر [٢] - رحمه الله تعالى - من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **لَقِيتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى** — صلوات الله عليهم أجمعين — **فَتَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ** » يا الله !! الخليل ، والكليم ، وروح رب العالمين، وسيد البشر أجمعين إمامهم وسيدهم المصطفى مهتمين بالساعة ، انتبه لهذا الأدب ، قال ﷺ : « **فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى**

---

(١) سبق .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٩) ، وابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج (٤٠٨١) ، وقال البوصيري في « الزوائد » : «هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، ومؤثر بن عفارة ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد ثقات » . والحاكم (٤/ ٤٨٨ ، ٤٨٩) وقال : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ، ووافقه الذهبي وصححه الشيخ أحمد شاكر في « المسند » (٣٥٥٦) ، وضعفه الألباني في « ضعيف الجامع » (٤٧١٢)

إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : لاَ عِلْمَ لِي بِهَا » ـ انظر إلى الأدب مع الله سبحانه !! ـ «فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ: لاَ عِلْمَ لِي بِهَا ، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَى عِيسَى ، فَقَالَ : أَمَّا وَجْبَتُهَا ، فَلاَ يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلاَّ الله، وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي ﷻ أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ . قَالَ : وَمَعِي قَضِيبَانِ ، فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فَيُهْلِكُهُ اللهُ » .

○ وفي رواية ـ أذكرها بعد ذلك بالتفصيل إن شاء الله ـ « ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي الْمَاءِ » .

إذًا وقْتُ قيام الساعة لا يعلمه إلا الله ، علمها عند ربي تبارك وتعالى .

● بل في «صحيح مسلم» (١) أن جبريل سأل النبي الجليل ﷺ : متى الساعة ؟ فقال المصطفى ﷺ :

« مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ » .

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا.

قَالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ».

لكن الله الذي أخفى وقت قيام الساعة عن كلِّ خلقه ؛ قد أطلع سبحانه وتعالى نبيه المصطفى ، وحبيبه المجتبي ﷺ عن أمارات وأشراط وعلامات الساعة ، فلا مانع من كتمان وقت قيام الساعة ومعرفة أمارتها ؛ قال

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قَدَرِ الله سبحانه وتعالى (٨) .

تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد:١٨] هذه الأشراط أخبر بها ربُّنا نبيَّنا ﷺ ، فرسولنا لا ينطق عن الهوى ؛ فالقرآن وحيٌ ، والسنة وحيٌ ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[النجم:١-٥] .

● **وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي**(١) من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ** » يعني : السنة .

● **يقول تعالى :**

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[الجمعة:٢] .

والحكمة : هي السنة .

إذًا ؛ أيها الأفاضل أطلع الله النبيَّ ﷺ على أمارات الساعة ، وأخبر النبيُّ ﷺ أصحابه عن علاماتها ، حَفِظ من حَفِظ ، ونسي من نسي .

● **ففي «الصحيحين»**(٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال :

« لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، إِلاَّ

---

(١) سبق.

(٢) تقدَّم ، وهو في « صحيح البخاري » برقم (٦٦٠٤) ، ومسلم (٢٨٩١) .

ذَكَرَهُ ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ ».

● وفي « صحيح مسلم» من حديث أبي زيد عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال :

« صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظُّهْرُ ، فَنَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا ، حَتَّى حَضَرَتِ الْعَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ ، فَخَطَبَنَا ، حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا » (١) .

فهذا لا يتنافى مع قول ربنا تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان:٣٤] ، فوقْتُ قيام الساعة لا يعلمه إلا الرحمن الرحيم ، أما الأمارات والعلامات وما يحدث بين يدي الساعة من أحداث ؛ فقد أطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، قال ـ جلَّ وعلا: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [الجن:٢٦ ، ٢٧] .

◎ فما هذه الأمارات والعلامات والأشراط ؟

○ **العلامات تنقسم إلى قسمين** :علامات صغرى ؛ وعلامات كبرى.

● أما العلامات الكبرى : فقد ذكر النبيُّ ﷺ عشر علامات ؛ كما في

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٨٩٢) .

«صحيح مسلم»[١] من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: « اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ - أي ونحن نتناقش ونتحدث ؛ فقال ﷺ : « مَا تَذَاكَرُونَ؟ » - في أي شيءٍ تتكلَّمون وتتناقشون - قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ » . هذه هي العلامات الكبرى .

لكن تعالوا قبل أن نتحدث عن العلامات الكبرى لنتحدث عن العلامات الصغرى .

● **العلامات الصغرى :**

انتبه لهذا التأصيل المهم ؛ لأن الأمر قد التبس على بعض من تكلَّم في هذه المسألة .

○ أقول : من العلامات الصغرى ما قد يظهر مصاحبًا لبعض العلامات الكبرى ؛ كظهور المهدي ؛ فخروج المهدي وظهوره يكون في زمن عيسى ابن مريم ، وإذا وُجدَ عيسى ابن مريم فالدجال موجود ، بل

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٩٠١) .

سينطلق عيسى مع المهدي لقتل الدجال ـ كما سأبين بالتفصيل ـ إن شاء الكبير المتعال .

فمن العلامات الصغرى ما قد يظهر مع بعض العلامات الكبرى، وبعضها سوف يظهر بعد انتهاء العلامات الكبرى ؛ كالريح ؛ وما هي الريح ؟ سوف يأتي بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ لكنها الريح الباردة الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين على وجه الأرض حتى لا يبقى في الأرض من يقول : « الله ، الله » ، ولا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة ، وفي هذا الزمن تُهدم الكعبة ! حجرًا حجرًا .

فلنشرع في العلامات الصغرى .

بعثة النبي ﷺ وموته وفتح بيت المقدس

• **العلامة الأولى : بعثة النبي ﷺ :**

و هي أول علامةٍ من العلامات الصغرى .

•ففي «الصحيحين»(١) من حديث سهل بن سعد الساعدى ومن حديث أنس بن مالك ، واللفظ لمسلم ـ من حديث أنس قال ﷺ : « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ** » وضم النبيُّ ﷺ السبابة والوسطي. لماذا؟ لأنه لا يوجد بينهما أصبع ثالث ، أو لأن السبابة تلي الوسطى ، أو لأن الوسطى تلي السبابة بلا تفرقة ؛ كذلك النبيُّ ﷺ بُعث في نسم الساعة .

وأعمار الأمم تختلف عن أعمار الأفراد ـ حتى لا يلتبس الأمر عليك ـ ؛ فمبعثُ النبيِّ ﷺ أول علامات القيامة وأول علامات الساعة ؛ لأنه ليس بعد الرسول ﷺ نبي ؛ فهو خاتم الأنبياء .

•قال الله ﷻ : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[الأحزاب:٤٠] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب (١) (٤٩٣٦) ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قرب الساعة (٢٩٥٠) من حديث سهل . وأخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب قول النبي ﷺ : «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» (٦٥٠٤) ومسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ .

فهو بلا شك خاتم الأنبياء لا نبي بعده، ولا رسول بعده؛ بل تأتي بعده الساعة مباشرة.

• كما في «الصحيحين»(١) - واللفظ لمسلم - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**».

والشاهد من الحديث: «**وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»، فمهما ادعَّى المدعون الكذابون! فلا نبيَّ بعد المصطفى، ولا رسول بعد حبيبنا المجتبى، فرسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء، وخاتم المرسلين، وبمجرد بعثته، وظهوره تكون قد ظهرت أول علامة من علامات الساعة؛ كما قال ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**» وضم السبابة والوسطى.

•العلامة الثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة:

كلُّ ذلك في حديثٍ رواه الإمام البخاريُّ(٢) من حديث عوف بن مالك - وقد ذكرته كنموذج من نماذج الساعة في المقدمة - قال النبيُّ ﷺ: «**اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي** - أي: موت النبيِّ ﷺ - **ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى**

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**» (٢٩٧٧)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).

(٢) سبق وهو في البخاريِّ (٣١٧٦).

يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ ، ثُمَّ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ هُدْنَةٌ ، فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا ».

○ قف مع العلامات التي وقعت من هذا الحديث المبارك :

[١] **موته ﷺ** :

مات الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكان موته من أعظم المصائب التي وقعت بالأمة ؛ حتى قال أنس ـ رضوان الله عليه ـ والحديث في «سنن الترمذي» بسندٍ صحيح [(١)] : «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ» .

رضي الله عن هذا الحبيب المحب ـ ولِمَ لا ؟ وبموته ﷺ انقطع الوحي من السماء ، ويا لها من كرامة ! لا يستوعبها كثير من الخلق .

● ففي «صحيح مسلم» [(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه قَالَ : « قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ رضي الله عنه : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ ؛ فَقَالاَ لَهَا : مَا يُبْكِيكِ ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَالَتْ : مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ ،

---

(١) سبق تخريجه ، رواه أحمد (٣/ ٢٢١، ٢٦٨) والترمذي (٣٦١٨) ، وابن ماجه (١٦٣١) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (٢٤٥٤) .

فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ ، فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا » .

لأن الوحي قد انقطع من السماء ، لكن رسول الله ﷺ معنا بسنته .. معنا بشريعته .. معنا بأخلاقه .. معنا بهديه .. بل يحيا في قبره الآن حياة برزخية ،لا يعلم حقيقتها ملك مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل .

● ففي الحديث الذي رواه أحمد و الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة بسندٍ حسن [1] من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ يقولون : بليت [2] ـ أي : أكلت الأرضُ جسدك يا رسول الله ، قال : « إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ » .

فما ظَنُّكُمْ بجسدِ أطهر الأنبياء ، وإمام الأتقياء الأصفياء ، وحبيب رب الأرض والسماء ﷺ ؟!

نعم أيها الأحبة ! موتُ رسولِ الله ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت بهذه الأمة ؛ بل أنا أدين الله بأنها أعظم مصيبة ، لكن شاء الله وقدَّر ألا يخلد أحدٌ على وجه الأرض ، ولو كان المصطفى ﷺ !!

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٨)وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧) ، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٨٥) ، وكتاب الجنائز ، باب ذكر وفاته ودفنه (١٦٣٦) ، والنسائي (٣/ ٩١،٦٢) ، وفي « الكبرى » (١/ ٥١٩) ، وابن حبان في « صحيحه » (٩١٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح أبي داود ، وابن ماجة » وغيرهما .

(٢) انظر «لسان العرب» (مادة : أرم) .

• قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥] .

• وقال ربنا ـ جلَّ وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

فموْتُ رسولِ الله ﷺ علامة من علامات الساعة بأبي هو وأمي وروحي .

[٢] **فتح بيت المقدس :**

• قال ﷺ : « **ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ** » وقد فُتح بيتُ المقدس بعد موت رسول الله ﷺ بسنواتٍ قليلة ؛ فلقد تُوفي النبيُّ ﷺ في العام الحادي عشر للهجرة ، وفُتح بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على يد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في العام السادس عشر للهجرة ؛ جاء عمر بن الخطاب من المدينة النبوية إلى فلسطين ليتسلَّم مفاتيح بيتِ المقدس ، وأَعْطَى أهلها أمانًا على أنفسهم وأموالهم ؛ بل وكنائسهم رضي الله عنه وأرضاه.

[٣] **الوباء :**

« **ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ** » موتان ، بضم الميم ، طاعون ، ووباء ، وهو : طاعون عمواس . وعمواس : مدينة في فلسطين على بعد

ستة أميال ـ تقريبًا ـ من الطريق إلى بيت المقدس من مكان يقال له :الرملة .

وقتل في طاعون عمواس خمسة وعشرون ألفًا من المسلمين ، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما وعن جميع أصحاب رسول الله ﷺ ـ **«ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ»** أي : ينتشر فيكم كما ينتشر الوباء في الماشية أو في الأغنام . وقد وقعت هذه العلامة ـ أيضًا ـ كما قال علماؤنا .

[٤] استفاضة المال :

« ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ » أي يكثر المال ؛ وفي لفظِ البخاري : **« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْمَالُ »** .

○ وفي رواية في « **الصحيحين** »(١) من حديث أبي موسى الأشعري : **« لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنْ الذَهَبِ ثُمَّ لاَ يَجِدُ أَحَدًا يأْخُذُهَا مِنْهُ»**.

● وفي «**صحيح البخاري**»(٢) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : **بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ** ـ أي : الفقر ـ **ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ ، فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ** ؛ فقال النبيُّ ﷺ لعدي بن حاتم رضي الله عنه : **« يَا عَدِيُّ ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟»**. قال : **قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا** ؛ فقال ﷺ : **« فَإِنْ**

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٤) ، مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٠١٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣) ، وانظر (٣٥٩٥) .

طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلاَّ الله » يقول عديٌّ: قُلْتُ ـ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي : فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ ـ أي :أين قطاع الطرق الذين سعَّروا البلاد، وقطعوا على الناس سبلهم ـ يقول عديٌّ : وقال لي رسول الله ﷺ : « وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى » قُلْتُ : كِسْرَى بْن هُرْمُزَ؟ فقال الصادق : « كِسْرَى بْن هُرْمُزَ » قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلاَّ الله ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ : « لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ ، فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ».

هل وقع هذا ؟ نعم وقع في أي زمن ؟ في زمن عمر بن عبد العزيز ؛ كما يقول كثيرٌ من المحققين من أهل العلم [١] ؛ حتى كان الرجلُ في عهد عمر يخرج بالصدقة فلا يجد أحدًا يقبل الصدقة منه ؛ لأن الله ـ جلَّ وعلا ـ قد أغناهم من فضله ، ورزقهم إمامًا عادلًا ؛ فلقد أرسل مناديه لينادي في البلاد والأمصار : « ومن كان عليه دين فسداد دينه من بيت مال المسلمين» ، فسدد عمر بن عبد العزيز ديون المدينين . من أراد الزواج من الشباب، ولم يجد النفقة ، فزواجه من بيت مال المسلمين ، من أراد الحج ، ولم يجد النفقة ، فنفقة حجه من بيت مال المسلمين ؛ فكان الرجل يخرج

(١)انظر : « فتح الباري » (٦/ ٧٤٣ط الحديث) .

بالصدقة ليبحث عن فقير فلا يجد » !! سبحان الله .

أغناهم الله من فضله بالبركة التي بركت في بيت مال المسلمين ، ثم بفضل عَدْل هذا الإمام التقي الأمين ، إذ هو من طراز عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

● **وقال ـ أيضًا ـ بعض أهل العلم** [١] : وسيقع هذا في آخر الزمان ؛ في زمن عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ حين تنزل البركة مرة أخرى إلى الأرض ؛ لأن البركة قد نزعت الآن من الأوقات ، ومن الأطعمة ، ومن الأشربة ، ومن الأعمار ، ومن الصحة والعافية ، ومن الثمار ، لقد نزعت البركة ، وستعود البركة إلى الأرض مرة أخرى ، بإذن الله تبارك وتعالى ، في عهد عيسى ابن مريم ـ كما سأبين بالتفصيل إن شاء الله ـ حتى يخرج الرجل في هذا الزمن بالصدقة ، فلا يجد أحدًا يقبل منه هذه الصدقة ؛ لعلم الناس بقرب قيام الساعة ، ولعلمهم بأنهم ليسوا في حاجة إلى مثل هذا المال.

[٥] **الفتنة** :

قال عليه الصلاة والسلام: «**ثُمَّ فِتْنَةٌ لاَ يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلاَّ دَخَلَتْهُ**».

والله أعلم بمراد رسوله ﷺ بهذه الفتنة .. وما أكثر الفتن !! لكن ليس من العقل ، ولا من الإنصاف أن يجزم عاقلٌ يتكلَّم بالدليل من كتاب الله ، ومن سنة رسول الله بأن هذه الفتنة هي وسائل الإعلام ـ مثلًا ـ بصورها

---

(١) المصدر السابق .

المختلفة المرئية ، والمسموعة ، والمقروءة !؟ أقول : لا يجوز أن يسقط أحدٌ حديثَ رسول الله ﷺ على شيء بعينه ، وإنما الله أعلم بمراد نبيه ﷺ [1] .

[٦] **الهدنة بين المسلمين وبني الأصفر:**

وهي العلامة السادسة في هذا الحديث ؛ قال ﷺ : « **ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ** » وهم : الروم ؛ والروم ـ بلغة العصر ـ هم : أهل أوربا وأمريكا .

قال : « **فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً** » هي الراية التي ترفع للجيش ، وسميت الراية بالغاية ؛ لأن الراية غاية الجيش ، فإن سقطت الراية سقطت الغاية .

○ وقد ذكرت رواية أخرى رواها أبو داود وابن ماجة وابن حبان بسندٍ صحيح [2] من حديث رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ ـ يُقال له « ذو مخمر » وقيل : « مخمـ » أ... **ـصالِحُونَ الرُّومَ صُلْحًا آمِنًا**

ـنَ ، وَتَغْنَمُونَ ، وَتَسْلَمُونَ ،

يقال به في هذا الباب إن ما أخبر
مان في ذلك من سنة كذا يحتاج

ـروم (٤٢٩٢، ٤٢٩٣) ، وابن
: « إسناده حسن » ، وأحمد في
١٩٤٤٩) ، وابـن حبـان في
الشيخ الألبانيُّ في « صحيح

ثُمَّ تَرْجِعُونَ حَتَّى تَنْزِلُوا بِمَرْجٍ ذِي تُلُولٍ » ـ أي : مكان تكثر فيه المياه ، وتكثر فيه الخضرة ـ « فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ ؛ فَيَقُولُ : غَلَبَ الصَّلِيبُ ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقْتُلَهُ » يقول ﷺ : « فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ ، وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ » وفي حديثنا الذي نحن بصدده : « فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا » .

تدبَّرْ ، فهذا حديثٌ واحدٌ من أحاديث رسول الله ﷺ تكلَّم فيه عن ستِّ علاماتٍ من العلامات التي ستقع بين يدي الساعة .

ثم ها نحن نعرضُ العلامات علامةً علامةً في الفصول القادمة .



ظهور الفتن

○ والفِتَنُ : جمع فتنة ، والفتنة هي : الابتلاء والاختبار والامتحان ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[الأنبياء: ٣٥] .

● وقال الله ﷻ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٢٨] ، فالفتنة هنا بمعنى : الابتلاء والاختبار و الامتحان ؛ تقول : فتنت الذهب بالنار إذا امتحنته ؛ لتظهر جودته من رداءته[١] . فظهور الفتن ، وكثرتها من علامات الساعة ، وأظن أننا نرى الآن فتنًا ، أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن ينجينا وإياكم منها بمنه ورحمته وكرمه ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

ولقد وصف النبيُّ ﷺ هذه الفتن وصفًا دقيقًا ـ تدبَّرْ معي لتقف مع هذه الكلمات النبوية .

● ففي «صحيح مسلم»[٢] من حديث أبي هريرة ؓ أن النبيَّ ﷺ قال : « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا** » أي : سابقوا بالأعمال الصالحة قبل أن تحلَّ أو أن تقع الفتن بأحدكم ، « **كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا** » يكفر في يوم واحد ، أو في ليلة واحدة ، لماذا ؟! قال عليه الصلاة والسلام : « **يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا** ».

---

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٧٢) ، ولسان العرب مادة « فتن » .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) .

يكون معك في صلاة الفجر في بيتٍ من بيوت الله تبارك وتعالى ، تبحثُ عنه في صلاة المغرب أو في صلاة العشاء ؛ فلا تراه !! .

وفي اليوم الثاني غير موجود ، والذي يليه غير موجود ؛ أين ذهب؟ لقد باع الدين ، بعرضٍ من الدنيا حقير ! ربما يدخل في المساء غرفةً من غرف الشات ، أو غرف الدردشة أو موقعًا من المواقع الإباحية ، فلا يخرج ولا حول ولا قوة إلا بالله - إلا وقد باع دينه ، بعرض من الدنيا .. بكرسي زائل .. بشهوة محرمة .. بلذة فانية .. بمنصبٍ حقير تافه ، واقع خطيرٌ وقع فيه كثيرٌ من الخلْق على مستوى البشرية كلِّها، تجد المرء يفرط في صلاته ،أو في حجاب امرأته أو يأكل الربا والحرام ، أويأكل أموال الناس بالباطل من أجلِ شهوةٍ رخيصة !!.

فهل تصوَّرت بعد كلِّ هذا التعبير النبوي البليغ؟ « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْـمُظْلِمِ** » .

إنه تعبير نبويٌّ في غاية البلاغة ممن آتاه الله جوامع الكلم ، يعبر الحبيب ﷺ عن هذه الفتن بقوله : « **كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْـمُظْلِمِ** ».

نعم .. لا نجاة له في هذه الفتن الحالكة السواد التي لا يرى فيها بصيصًا من النور ، إلا بالعمل الصالح . فالرسول ﷺ يلفت أنظارنا بجلاء إلى الدواء ؛ فهو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة .. يشخِّصُ لنا الداء ، ولا يترك الأمة هكذا حَيْرَى ، وإنما يحدد الدواء بدقة وأمانة .

● و في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ :الصَّلاَةَ جَامِعَةً » .. هذه العبارة تلفت الأنظار وتحرك القلوب والمعنى : اجتمعوا أيها المسلمون إلى الصلاة لتسمعوا رسول الله ﷺ .. بيان نبويٌّ سيُلْقى .. خيرٌ ستؤمر الأمة به ، أو شر ستُنْهَى الأمة عنه .

وعندما يقال لك : قال الله ، قال رسوله ﷺ أَصْغِ السمع ، وافتح القلب ؛ فماذا قال الحبيب ﷺ ؟ قال :

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ » .

فالرسل رحمةٌ للخلق .. تَشْرُدُ البشريةُ كما يشرد القطيع ، ثم تتنزل عليها رحمة الله ـ جلَّ وعلا ـ بإرسال الرسل؛ فلا ينبغي أن تتصور البشرية ـ حتى في عصر الفضائيات ـ أنها صارت غنية عن منهج الرسل ، الذين بعثهم ربُّ العالمين ليدلُّوا تلك البشرية الشاردة التائهة الضالَّة على طريق الحق والهدى ، على طريق رب العالمين ؛ لأن هناك الآن من ينفخ في عقول البشر ، ويقول : إن اتِّباعَ الرسل يشكِّلُ حَجْرًا على العقل البشري الذي وصل إلى ما وصل إليه ؛ فَحوَّل العالم كلَّه إلى قرية صغيرة عن طريق هذا التقدم العلمي المذهل في عالم الاتصالات والمواصلات ... إلى آخر هذه الكلمات !! والله لا غنى للبشرية أبدًا عن الرسل و الأنبياء ، وعلى رأسهم

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (١٨٤٤) .

إمامهم الأعظم محمد ﷺ، الذي لو وُجِد في أيِّ عصر لوجب عليهم جميعًا أن يذهبوا إليه، وأن يؤمنوا به، وأن ينصروه، وأن يعزروه، وأن يوقروه - صلَّى الله وسلم وبارك عليه.

● قال ﷺ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا».

انظر إلى القرن الأول قرن الخير والبركة؛ كما قال النبيُّ ﷺ؛ كما في «الصحيحين»[1] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

فالنبيُّ ﷺ يتكلَّم عن القرون الخيرية الأولى؛ يتكلم عن عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر تابعي التابعين؛ فيقول:

«وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا».

أي: تأتي فتنة تراها شديدةً جدًّا، فتقول: أنا لا أتحمل هذا البلاء، ولا أطيق هذه الفتنة، فتنكشف هذه الفتنة، وتأتي فتنة أخرى ترقِّق الفتنة السابقة؛ أي حينما تنظر إلى هذه الفتنة الثانية ترى أن الفتنة التي سبقتها لا

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا (٦٤٢٩)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة (٢٥٣٣/ ٢١٢).

شيء بجوارها ؛ قال ـ عليه الصلاة والسلام : « وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ؛ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ؛ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ـ هذه هي المهلكة حقًّا ـ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » .

فالنبيُّ ﷺ يحدِّد الدواء للفتنة في كلماتٍ قليلة في غاية البلاغة والوضوح ؛ فالواجب على المسلم في هذه الفتن أن يحقق الإيمان ؛ فالإيمان طوق الأمان ، وسُلَّم النجاة ، في بحور هذه الفتن المتلاطمة الهائجة .. الإيمان حصن الأمان من هذه الرياح الهوجاء رياح الفتن ، والإيمان يحتاج إلى تجديد بالطاعات ؛ فالإيمان قول واعتقاد وعمل .. يزيد بالطاعة ؛ وينقص بالمعصية ؛ فحال قلبك وأنت تسمع : قال الله ، وقال رسوله ، وتتذكر الآخرة ، وتعقد النية على التوبة والأوبة ؛ محالٌ أن يكون حال الإيمان في قلبك في هذا الحال كحال الإيمان في قلبك وأنت تشاهد فيلمًا من الأفلام الساقطة ، أو مسلسلًا من المسلسلات الهابطة !! ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الفتح:٤] .

فالإيمان يزيد بالطاعة .. يزيد بالذكر .. يزيد بمجالس العلم ، وينقص بالبعد عن الله تبارك وتعالى فوق أي أرض وتحت أي سماء .

○○ واللفتة العملية الأخرى ؛ هي : قوله ـ عليه الصلاة والسلام :

« وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » فهناك حقٌّ لله ، وحق للخلق ؛ ومن هنا قال النبيُّ ﷺ - كما في «الصحيحين» [١] من حديث أنس رضي الله عنه : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

لو عاملْتَ الناس بهذا المنطلق ، فلن تؤذي أحدًا قط .. فكِّر في الكلمة قبل أن تتلفظ بها في حق فلان من الناس ؛ هل تحب أن يخاطبك فلانٌ هذا بنفس اللهجة ، وبنفس اللغة ، وبنفس الكلمات التي تخاطبه بها أنت الآن ؟

هل تحبُّ أن يفعل بك ما تفعله بإخوانك ؟

○ يا أخي ؛ إن كنت قادرًا فتذكَّر قدرة الله تبارك وتعالى عليك ؛ وإن كنت غنيًّا فتذكَّر فقرك إلى الله سبحانه ؛ فمن عرف ربَّه عرف نفسه .. من عرف ربه بالغِنَى المطْلَق عرف نفسه بالفقر المطلق ؛ ومن عرف ربه بالعزِّ التام عرف نفسه بالذُّل التام ، ومن عرف ربَّه بالعلم التام عرف نفسه بالجهل التام .

○ يا أخي ؛ إن كنت عالمًا فمنْ علَّمك ؟ إن كنت غنيًا فمَنْ أغناك ؟ إن كنت قويًا فمَنْ قوَّاك ؟ لا تغترّ ؛ بل تعرف على ربك - جلَّ وعلا - لتتعرف على قدر نفسك ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

[فاطر:١٥- ١٧]

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان : أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

و أنا أتصور لو أن الأمة لو لم تطبق إلا هذه الوصية لانضبطت المعاملات بين الخلقِ .. لو امتثلنا أمر النبيِّ ﷺ في هذه الكلمات ، لنجانا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

● وأقول : تزداد الفتنة خطرًا إذا تولَّى كبرها ، وأشعل نارها **أُنَاسٌ مِنْ جِلْدَتِنَا ، يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا ، وَيَلْبَسُونَ مَلَابِسَنَا**.. الفتنة تكون أعصف وأعنف .

ورضي الله عن حذيفة بن اليمان ، أمين السر النبوي ، وكأن الله ﷻ قد مَنَّ عليه في نقل أحاديث الفتن !

● يَقُولُ حُذَيْفَةَ بْنُ الْيَمَانِ :« كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[(١)] .

انظر إلى هذا الفقه وإلى هذا الفهم العالي ؟ حذيفة يضع أيدينا على بابٍ من أخطر الأبواب ، لأن الخير معلوم للجميع ، لكن توجد فتن تحتاج إلى بصيرة ..وإلى علم .. وإلى فهم ، وتحتاج إلى توفيق وإخلاص .

انتبه إلى هذا الحوار الرائع ؛ يَقُولُ حُذَيْفَةُ : « يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ـ يعني : قبل الإسلام ـ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟» .

قال ﷺ : « **نَعَمْ** » ، يا رب سلِّم ! قَالَ حُذَيْفَةُ: « وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٠٦) ، ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين (١٨٤٧) .

مِنْ خَيْرٍ؟ » سؤال بديع ، لو قال لـه : نعـم بعـده شر وصـمت حذيفـة ، ولم يسأل سؤاله الثاني ، لكانت فتنـة كبـيرة ؛ لكـن حذيفـة قلـق ــ رضـوان الله عليه ــ ؛ فقال : « وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ فقـال ﷺ : « **نَعَـمْ ، وَفِيـهِ دَخَنٌ** » ، ليس خيرًا صافيًا ، خير فيـه شبهات ، وشـهوات ، إذن لابـد مـن بصيرة في السير ، قال حذيفة ــ رضوان الله عليه : قُلْتُ : وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ : « **قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ** » قُلْتُ : فَهَـلْ بَعْـدَ ذَلِـكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ ــ أي هل بعد هذا الخير الـذي شـابه الـدخن مـن شر ، وانتبـه معـي للجواب القادم ؛ قَـالَ : « **نَعَـمْ ، دُعَـاةٌ إِلَى أَبْـوَابِ جَهَـنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَـا قَذَفُوهُ فِيهَا** » .

وحذيفة ما زال يسأل رسول الله ﷺ فقال له : صِفْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ الله ؟ فَقَالَ : « **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا** » .

ــ المرة الأولى يقول : وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ : « **قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَـيْرِ هَـدْيِي تَعْـرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ** » .

ــ والمرة الثانية يقول : صِفْهُمْ لَنَا يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ : « **هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا** » ، دعاة وقفـوا عـلى أبـواب جهـنم يـدعون النـاس إلى جهنم بأقوالهم وأفعالهم !!

أو أنهم «يدعون الناس إلى الجنة بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعـالهم ، فكلَّما قالت أقوالهم للناس هلمُّوا . قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم »؛ كـما

قال ابن القيم[(١)] رحمه الله ، ولذلك ترى الناس في حيرة شديدة .

○ وهناك رواية فيها كلمات عجيبة ، وهي قوله ﷺ : « **رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ** »[(٢)] .والمعنى : أن الشكل شكل إنس ، ولكن القلب قلب شيطان ـ والعياذ بالله ـ تراه يتكلم بالعربية ، ويلبس ملابسنا ، وهو يقول : «أعطوني قلمًا أحمر لأصحِّح لكم أخطاء القرآن» !

ـ ستسمع إليها ، وستقرأ لها ، وهي تقول : « حتى التوحيد ظلم المرأة ؛ لأن كلمة التوحيد « لا إله إلا هو » ولِمَ لا تكونُ « لا إله إلا هي » ؟!

ـ ستسمع إليه ، وستقرأ له ، وهو يقول : «إن مجتمع الصحابة كان مجتمعًا متحللًا مشغولًا بالرذائل والهوس الجنسي ، ولَمْ تكن التجاوزات الجنسية مقصورة على مشاهير الصحابة ، بل تعدتهم إلى صحابيات معروفات ! ولَمَّا كان التقاء الذكر بالأنثى، والأنثى بالذكر طقسًا يوميًا من الطقوس الاجتماعية المعتادة في مجتمع يثرِب ، فقد اضطر محمدٌ رفعًا للحرج أن يبيح لأصحابه أن يمروا بالمساجد وهم جنب » !!

ـ ستسمع إليه ، وستقرأ له ،وهو يقول : «لا أختار الله ، ولا أختار الشيطان ، كلاهما جدار ، يغلق لي عيني ؛ فهل أبدل جدارًا بجدار ؟» !

اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل وقال السفهاء

---

(١) الفوائد (٦١) .

(٢) وهي في « صحيح مسلم » برقم (٥٢/ ١٨٤٧) .

منا، أنت وليٌّ ذلك والقادر عليه .

● نرجع إلى الحديث قَالَ حُذَيْفَةَ: يَا رَسُولَ الله ، فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ أي : ماذا أفعل وقت الفتن ؟ فقال ﷺ : « **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ** » فهذا طريق من طرق النجاة ، في زمن الفتن ، ولا تضيق على نفسك ما وسَّع الله ! لا تقل : أنا جماعتي هي الجماعة الفلانية ، وحزبي الحزب الفلاني .. لا تكن حزبيًّا ، ولا تكن عصبيًّا ، ودعْكَ من هذه العصبية البغيضة المنتنة ، وتعصَّبْ لجماعة الحق على وجه الأرض ؛ ألا وهي : جماعة المسلمين ؛ كما قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج:٧٨] . فالله ـ جلَّ وعلا ـ هو الذي سمانا بهذا الاسم ، فالزم جماعة المسلمين ؛كما أرشد النبيُّ ﷺ حذيفةَ بقوله :

« **تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ** » .

ومازال حذيفة يسأل ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ ؟

قال ﷺ : «**فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**» .

فالمحنة والفتنة تزداد إذا تولَّى كبرها ، وأشعل نارها أناسٌ من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا؛ كما أخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

وتزداد المصيبة أكثر ، إذا علمنا أن الفتن تعرض على القلوب .

وبعض الناس يتصور أنه لو ابتعد عن مكان الفتنة بعدما عرَّض نفسه

إليها ، فرآها بعينه ، واستمع إلى كلماتها بأذنه ، بل وربما شارك فيها بجوارحه ، بل وتعلَّق بها قلبه ، يتصَّور بعد ذلك أنه إن ابتعد عنها فإنها قد انتهت! فيذهب إلى فراشه لينام ، فيرى مشاهد الفتنة تتقلب أمام عينيه صورةً صورةً ، ويسمع كلمات الفتنة تتردد على أذنيه كلمة كلمة ! لماذا ؟

لأن النبيَّ ﷺ قال ـ كما في «صحيح مسلم»[1] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : « **تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا** » أي : فتنةً فتنةً . « **فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ** » يا الله !! فأيُّ قلب تَشرَّب الفتنة فإنها تترك في القلب أثر سواد « **وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا** » لا يوجد به مكان للفتنة ؛ لأنه مليء ـ بفضل الله ـ بمواد الإيمان.. بالقرآن، وبالصلاة ، والتسبيح ، والاستغفار ، وبالأمر بالمعروف ، والدعوة إلى الله ، وحب الفقراء والمساكين ، فهو قلب مليء بالخير ، تأتي الفتنة تبحث عن مكان لها بهذا القلب المنير بالطاعة ، فلا تجد ، فتخرج ! نعم .. هي تُعْرض لكن لا تستقر في القلب ، فلا يتشرب القلب منها شيئًا ؛ لأنه أنكرها .

ألم أقل قبل ذلك : لابد من التخلية قبل التحلية ، لابد وأن تطهر القلب أولًا لكي تَنْزل فيه موادُّ الإيمان ؛ فإذا عَرَضت بعد ذلك موادُّ الفتن على القلب ردَّها « **وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا ، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ،**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٤) .

وعلى أَسْوَد مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ » فهو قلب مليءٌ بالهوى ! .

والهوى مَلِكٌ ظلومٌ غشومٌ جهولٌ ، يصم الآذان عن سماع الحق ، ويُعْمي الأبصار عن رؤية الدليل والخير ، ولو كان كالشمس في ضحاها ، والنهار إذا جلَّاها ، فصاحبُ الهوى لا يمكن أن يقبل أبدًا قولًا عن الله ولا عن رسول الله ﷺ . تقول له : الخنزير حرام ، يقول لك : كان حرامًا ؛ لأنه كان مريضًا وموبوءًا بالأمراض ! أما الآن فالخنازير تربَّى في المراعي الصحية ، وتحت الرعاية الطبية ؛ فما الداعي لتحريمها ؟! تقول له : الذهب حرام ، يقول : لماذا ؟ ما الذي حرَّم الذهب على الرجال ؟!

تقول له : الخمر حرام ؟ يقول : نعم ، ولكنها الآن لا تُسمَّى خمرًا ، وإنما اسمها مشروبات روحية !! سمَّوْها بغير اسمها مجاراةً للعصر الذي نعيشه !

إن قلْتَ قال الله قال رسوله همزوك همز المنكر المتغالِ
أو قلت قال الصحابة والأولي تبع لهم في القول والأعمالِ
أو قلت قال الشافعي وأحمد وأبو حنيفة والإمام الغالِ
صدُّوا عن وحي الإله ودينه واحتالوا على حرام الله بالإحلالِ
يا أمةً لعبت بدين نبيها كتلاعب الصبيان في الأوحالِ
حاشا رسول الله يحكم بالهوى تلك حكومة الضلالِ

● قال جلَّ وعلا : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم

بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

[ص:٢٦]

○ يقول حذيفة (١) :

« **الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سَرَاجٌ يُزْهِرُ ـ أي : ينير ـ وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ فَمَثَلُ الإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ** » .

نعم أيها الأفاضل ، فالفتن علامة من علامات الساعة وقد كثرت وزادات واشتعلت كاشتعال النار في الهشيم .

○ وقبل أن أختم هذا الفصل أقول : **الفتن بالجملة تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما** : فتن الشهوات ، وفتن الشبهات .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١/ ٣٦) عن أبي البختري عن حذيفة ، قال أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٨٥) : « وأرسله » وقد رُوي مرفوعًا ؛ أخرجه أحمد (٣/ ١٧) ، وأبو نعيم (٤/ ٣٨٥) عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا ؛ وفيه علتان : ضعْفُ ليث ، والانقطاع بين أبي البختري وأبي سعيد ، وضعفه الشيخ شعيب في تحقيق المسند (٢٩/ ١١) ، وانظر : « مجمع الزوائد » (١/ ٦٣) .

● **فتن الشهوات:**

وهي كثيرة ؛ قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤] فهذه صورة من صور فتن الشهوات .

● وقال ﷺ ـ كما في «**الصحيحين**» [١] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ ـ وفيه: « **وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ** » .

انظر إلى فتنة المال و إلى فتنة الدنيا ، فالمال فتنته شديدة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥] أي : اختبار وابتلاء؛ فالأولاد فتنة ؛ نعم ستسأل عنهم ، فهم لك محط امتحان واختبار !

وقد جعل الله الخير فتنة ، كما جعل الشر فتنة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء ٣٥] .

وسأضع بين يديك ترمومترًا دقيقًا جدًّا تستطيع أن تتعرف به على ما بين يديك من النعم ؛ هل هي نعمة أم نقمة ؟ تنظر إلى المال الذي مَنَّ الله به عليك هل هو نعمة أم فتنة؟ الأولاد هل هم نعمة أم فتنة ؟ الكرسي

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب : ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٤٢٥) وفي (٣١٥٨) ، ومسلم كتاب الزهد والرقاق باب (٥٣) (٢٩٦١) .

والمنصب الذي أنت فيه .. مركزك الاجتماعي ؛ هل هو نعمة أم هو فتنة ؟

○ **كيف أعرف ذلك؟دلني وبسرعة كيف أستطيع أن أفرق ؟**

● **الجواب** ـ وعُضَّ عليه بالنواجذ ولا تضيعه ؛ فما أغلاه ! أقول: إذا كان المال ـ مثلًا ـ بين يديك يقربك إلى الله تبارك وتعالى فهو نعمة ،كذلك إن جمعت المال من الحلال ، وأدَّيْتَ فيه حق الكبير المتعال فهو نعمة ، وإن جمعت المال من الحرام ـ ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى يزيد مالك ـ فاعلم بأنه الفتنة في ثوب النعمة ؛ فكلُّ خير بين يديك في الظاهر إن قربك إلى الله فهو نعمة ، وإن أبعدك عن الله فهو الفتنة في ثوب النعمة .

والمنصب إن كان يقربني من الله ؛ فإنني أوظف هذه المكانة لله سبحانه ، ولدينه ـ جلَّ وعلا ـ ولخدمة المسلمين ، ولا أوظف هذا الكرسي أو المنصب لظلم الفقراء أو الضعفاء ، أو للحصول على الشهوات الحقيرة الرخيصة ،والنزوات الزائلة !! إن قرَّبك من الله سبحانه وتعالى فهو النعمة التي تستوجب الشكر ، وإن أبعدك عن الله ـ جلَّ وعلا ـ فاعلم بأنها فتنة ، وإن لبست أمام عينيك ثوب النعمة ، فإنها الفتنة الحقيقية .

○ تدبَّر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

[الأنعام: ٤٤، ٤٥]

والشهوات كثيرة جدًّا ؛ لكنني أقول : مهما كانت الشهوة إن تاب منها العبد إلى الله تبارك وتعالى تاب الله عليه ، وإن وقع في الزنا ؛ وإن وقع في عمل قوم لوط ؛ وإن شرب الخمر ، وإن سرق ؛ فمهما كانت الكبيرة ومهما كان خطر الذنب إن تاب العبد إلى الله فأقلع وندم وعمل صالحًا تاب التواب الرحيم عليه ؛ فأهل السنة لا يكفرون بالكبائر ؛ إنه فضل الله ـ جلَّ وعلا .

● قال سبحانه ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الفرقان: ٧٠] .

●● أما فتن الشبهات:

فهي أخطر؛ لأن القلب إذا تشرب الشبهة ، تصبحُ عقيدةً عند صاحبها ، ربما يَقْتُلُ من أجلها ، أو يُقْتَلُ هو من أجلها ؛ لأنه يتصور أنه على عقيدة صحيحة ، وأنه ينصر بذلك الدين ، وهي في الحقيقة شبهة !! .

● **روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والدارمي وغيرهم (١) بسندٍ صحيح من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب شرح السنة (٤٥٩٧) ، والدارمي (٢٥١٨) ، والحاكم (١/ ١٢٨) بسندٍ حسن عن معاوية ﷺ .

● قال الحاكم : « هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي .

● وقال شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ١٢٢) : «هذا حديث محفوظ من حديث معاوية» وأصل حديث الافتراق ثابت من طرق أخرى ؛ كما عند أبي داود (٤٥٦٦) ، والترمذي (٢٦٤٠) ، وابن ماجه (٣٩٩١) ، وأحمد (٢/ ٣٣٢) ، من حديث أبي هريرة مرفوعًا . وسنده حسن .

« افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ ». قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! مَنْ هُمْ ؟ قَالَ : « الْجَمَاعَةُ ».

○ وفي لفظٍ عند الترمذي [(١)] : « عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً » قَالُوا : مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » .

وهذه الشبهات الخطيرة ، أفرزت فرق الضلال ، وكما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ [(٢)] : « وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والروافض وسائر طوائف أهل البدع فيما وقعوا فيه إلا سوء الفهم عن الله ورسوله» .

هل تعلم أن الخوارج كفَّروا عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وهو مَنْ هو ؟! هو الذي تربَّى في حجر المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفى .. كفروه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسبب شبهة ! ولا يتسع الوقت لذكرها؛ وقد فصَّلت ذلك تفصيلًا في كتابي «الفتنة بين الصحابة» لمن أراد الرجوع إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١) وقال : « هذا حديث حسنٌ مفسر غريب» ، والحاكم في «المستدرك » (١/ ١٢٨، ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا ؛ وفي سنده الأفريقي وهو ضعيف ؛ لذا ضعفه من هذا الوجه الحاكم ، ورمز السيوطي لضعفه في «الجامع الصغير» (٧٥٣٢ـ فيض) .

● وقال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ١٦٥) : « إسناده غريب» .

(٢) «الروح» (ص٦٣ دار الكتب العلمية) .

لكنني أودُّ أن أختم بوضع بعض النقاط العملية ، كدواءٍ لهذا الداء الخطير ، لاسيما وقد انتشرت الفتن ؛ فتن الشهوات ، وفتن الشبهات ؛ فأنا لا أعرف زمانًا ـ من خلال قراءتي ـ كثرت فيه فتن الشهوات والشبهات كهذا الزمان ؛ فما هي الخطوات العملية لسبل النجاة ؟

● النقطة العملية الأولى على الطريق:

الصدق في طلب العون من الله ، والله لا نجاة لي ، ولا نجاة لك ، إلا بصدق الاستعانة بالله سبحانه وتعالى ؛ لا تغتر بعلم ، ولا بطاعة ، ولا بعبادة ؛ بل الجأ إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ إذ لا منْجا ولا ملجأ منه إلا إليه ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦] فلا حول لنا ولا قوة على فعل طاعة ، أو على ترك معصية ، أو على هروب ونجاة من فتنة إلا بتوفيقه سبحانه وتعالى .

○ قال ابن الجوزيُّ [(١)]: « سأل شيخٌ من أهل العلم تلميذًا عنده في حلقته، وقال : يا بنيَّ ، ماذا تصنع لو مررت على غنم فنبحك كَلْبُ الغنم ؟ قال : أدفع الغنم ما استطعت ، قال : فماذا تصنع لو نبحك الثانية؟ قال : أردُّ الكلب ما استطعت ، قال: فماذا تصنع لو نبحك الثالثة ؟ قال : أفعل مثل ما فعلت ، فقال : يا بنيَّ ، ذاك أمر يطول ، لكن إن أردت النجاة

(١) في «تلبيس إبليس» (٤٧) بتصرف .

والعبور فاستعن بصاحب الغنم يَكُفُ عنك كلب الغنم ، وإن أردت النجاة ، فاستعن بالله ، يكف عنك كيد الشيطان » . لا مخرج لك من الفتن إلا بصدق الاستعانة بالله الرحيم الرحمن .

● الخطوة الثانية : لزوم الاستقامة ، وقت الشدائد .

فبعد ما لجأت إلى الله ، وأديت العبادة ، والصلوات في أوقاتها ، وقراءة القرآن ، والمحافظة على الأذكار ، والاستغفار ، و التذلل ، و الدعاء ، و التسبيح ، والتحميد ، و التهليل ، و التكبير .. إلى آخر هذه الأنواع من أنواع العبادة.

اسمع ماذا يقول النبيُّ ﷺ ـ والحديث في «صحيح مسلم» [1] من حديث معقل بن يسار: « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ »، وما الهرج ؟ إنها الفتن « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ» ، أي : مَنْ عَبَد الله في زمن الفتن والقتال فأجره كأجر من هاجر إلى النبيِّ ﷺ من مكة إلى المدينة ؟ فحافظ على العبادة في وقت الفتن .

● الخطوة الثالثة : حضور مجالس العلم .

لا تضيع تلك المجالس الطيبة ؛ لتتعرف فيها على الله ، وعلى رسول الله ﷺ ، وعلى الحلال والحرام ، وعلى السنة والبدعة ؛ فمن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب فضل العبادة في الهرج (٢٩٤٨) .

● الخطوة الرابعة: الصحبة الطيبة؛ لا تترك الأخيار؛ فهم الذين يذكِّرونك بالعزيز الغفار، ويحذرونك من النار، ويبعدونك عن الشر والأشرار .. داوم على صحبة هؤلاء.

● وفي الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسندٍ حسنه الشيخ الألبانيُّ من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال:

« لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ »[(١)].

● وأختم بهذه، ويا لها من خاتمة! لا تغفل عن الذكر؛ لأن الذكر حياة للقلب؛ كما قال حبيب القلوب محمد ﷺ.

● ففي « الصحيحين »[(٢)] من حديث أبي موسى الأشعري ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال:

« مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، كَمَثَلِ الحَيِّ وَالمَيْتِ ».

أسأل الله باسمه الأعظم الذي إن سئل به أعطى، وإن دعي به أجاب أن يعصمنا وإياكم من الفتن، ما ظهر منها وما بطن؛ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

● **ومن علامات الساعة: أن يُسْنَدَ الأمرُ إلى غير أهله!** هذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في كراهية المراء (٤٨٣٢)، والترمذي كتاب الزهد، باب ما جاء في صحبة المؤمن (٢٣٩٥)، وابن حبان في « صحيحه » (٥٥٤، ٥٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٣٤١)، و« المشكاة » (٥٠١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد (٧٧٩).

ومن العلامات: ضياع الأمانة

ولا زلنا أيها الأكارم الأفاضل نتحدث عن أشراط الساعة الصغرى، وحديثنا في هذا الفَصْل - بفضل الله جلَّ وعلا - أستهلُّه بهذه العلامة التي إذا استمعْتَ إليها بإنصات، أتصور أن قلبك سيمتلئ بالحب لله - جلَّ وعلا - ولرسوله الصادق الأمين.

وهذه العلامة قد استشرت وانتشرت على مستوى البشرية؛ وعلى مستوى العالم بصفة عامة، وفي الأمة - كذلك - بصفة خاصة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

● تدبَّر - معي - قَوْلَ رسول الله ﷺ؛ كما في «**صحيح البخاري**»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ - أي: متى تقوم القيامة؟ - فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ، فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ؛ قَالَ: « **أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟** » قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ الله، قال: « **فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ** ». فقال الأعرابيُّ - الفقيه - كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ الله؟ فذكر النبيُّ ﷺ صورةً من صور ضياع الأمانة، فقَالَ ﷺ: « **إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى**

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب العلم، باب فضل العلم (٥٩).

غَيْرِ أَهْلِهِ ، فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ ».

○ وفي لفظٍ : « إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ » (١) .

ألم أقل لكم : إنه ﷺ لا ينطق عن الهوى .

ألم يوسَّد الأمر إلى غير أهله ؟ بلى - ورب الكعبة - أسند إلى غير أهله في مجالات الحياة بلا استثناء تقريبًا - إلا من رحم رب الأرض والسماء - أنا لا أتكلَّم فقط عن صورة من صور الأمانة ألا وهي : الولاية أو الحكم - فهذه الصورة سأتحدَّثُ عنها - لكن أودُّ منذ البداية أن نعْلَم أن للأمانة صورًا كثيرة .

وهنا يجعلُ ﷺ إسناد الأمر إلى غير أهله تضييعًا للأمانة ، ويجعل تضييع الأمانة علامةً من علامات الساعة ، وأظنُّ أنَّ هذه العلامة قد وقعت وانتشرت ، وصارت واضحة لكلِّ ذي بصر وبصيرة .

و الرسول عليه الصلاة والسلام يتحدَّث عن رفع الأمانة في حديثٍ آخر في غاية الدقة ، فهيا - أيها المسلم - تعرَّف كيف تقبض الأمانة ؟ و كيف تُرفع ؟ وكيف تضيع ؟ ثم بعد ذلك نتعرف على صور الأمانة بالتفصيل ، إن شاء الله - جَلَّ وعلا - وكما ذكرت لكم - أيها الأفاضل - أنا لا أودُّ أن أذكر العلامة وأمضي ، لا .. بل أقف مع العلامة لأشخِّصَ الداء ، ولأحدِّد الدواء ، لعلَّ رب الأرض والسماء أن ينجينا وإياكم من هذه الفتن ما ظهر منها وما بطن ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه . فالرسول ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة(٦٤٩٦) .

يبين لنا كيف ترفع الأمانة فيقول ؛ والحديث رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَيْنِ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ ، حَدَّثَنَا : « **أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ** ـ والجذر : هو الأصلُ من كلِّ شيء ـ **ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ** » [(٢)] .

انظر إلى صورة نزول الأمانة .

ثم يقول حذيفة : وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا ، قَالَ :

« **يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ ، فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ** [(٣)] » .

صلى الله على من آتاه الله جوامع الكلم ، ينام الرجل الليلة من الليالي ؛ فيصبح وقد نزعت الأمانة من قلبه ، وقد صار خائنًا ! « **فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ** » ـ انظر إلى نقطة السواد اليسيرة في الموضع الذي رفعت منه الأمانة . ثم قال :

« **ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ** ـ ليلة أخرى ـ **فَتُقْبَضُ ، فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ** [(٤)] ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٣) .

(٢) وأسوق لطيفة سريعة فقط لأحبابنا وإخواننا من طلبة العلم بأن البداية الحقيقية الصحيحة للطلب تكون ـ بنص هذا الحديث : القرآن ثم السنة !

(٣) قال ابن منظور في « اللسان » (مادة وكت) : « الوكْتُ : الأثر اليسير في الشيء » .

(٤) المجل : أثر العمل في الكف (اللسان مادة مجل) .

كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ » .

فيظلُّ أثرها كالمجل ؛ وهي قطعةٌ من الجلد منتفخة ، لكنها فارغة خالية ؛ كجمر ـ أي : قطعة من النار ـ دحرجته على رجلك فنفط ، أي : فارتفع ، وانتفخ، فتراه منتبرًا ، أي : مرتفعًا منتفخًا ، وليس فيه شيء ، إذا ضغطه انضغط .

«فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ ، فَلاَ يَكَادُ أَحَدُهُمْ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ ، فَيُقَالُ : إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلاً أَمِينًا » يا الله ! رجلٌ يشارُ إليه بالبنان في بني فلان . « **وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ مَا أَعْقَلَهُ ؟ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ ؟** ـ يمدح في وجهه ويكال له المديح بالباطل ـ **وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ** » .

يقول حذيفة : « **وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيُّكُمْ بَايَعْتُ** » أي : ما كنت أبالي ـ يومًا ـ أن أبيع لفلان أو أن أشتري من فلان « **لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمُ** » أي : أنا أتعامل مع الجميع ، إن كان هذا الرجل الذي أتعامل معه من المسلمين عصمهُ إسلامه من أن يقع معي في صورة الخيانة « **وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ** » أي: إن كان هذا الرجل الذي أتعامل معه ـ في زمن حذيفة ـ ليس من المسلمين لن يخون ؛ لأن الساعي أو الوالي سوف يعاقبه إن خان ، أو سوف يردُّ عليه خيانته « **فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا** » أي : أنه كان في عهد النبيِّ ﷺ ، وفي عهد الصديق ، وفي عهد الراشدين يبايع ، أي : يبيع ، ويشتري ، ويتعامل مع أيِّ أحدٍ ، سواء كان من المسلمين ؛ أو من غير المسلمين ؛ أما اليوم ـ في آخر عهد

حذيفة ـ يقول : « فَمَا كُنْتُ أُبَايِعُ إِلاَّ فُلاَنًا وَفُلاَنًا » يقصد أهل الأمانة فحسب! إلى هذا الحد ؟! نعم أيها الأفاضل .

○ **ومن صور تضييع الأمانة** : أن يسند الأمر إلى غير أهله ، و الأمة الخائنة هي التي تقدِّم مَنْ ليس أهلًا لأن يتقدَّم .. هي التي تؤخر الأكفاء .. هي التي تؤخر من يصلح للزمان والمكان .

و سرُّ عظمة المصطفى ﷺ في أن يُخرج للدنيا جيلًا لَمْ ولَنْ تعرف البشرية له مثيلًا : لأنه ـ بأبي وأمي وروحي ـ وضع كلَّ صحابيٍّ في المكان الذي يتناسب مع قدراته وإمكاناته .

فمصعب بن عمير : انطلق إلى المدينة .

و معاذ بن جبل : انطلق إلى اليمن .

وأبو عبيدة بن الجراح : إلى اليمن أيضًا أو إلى أهل نجران .

و خالد بن الوليد : في فنون الحرب والقتال .

و زيد بن ثابت : في جمع القرآن وكتابته .

كلُّ رجلٍ في تخصصه ، و مجاله ، فالأمة الأمينة هي التي تقدِّم الأكفاء ، وهي التي تقدِّم الرجل المناسب للمكان المناسب في الوقت المناسب ؛ فإن وجدت الأمة أن فلانًا قد تقدَّم للمنصب الفلاني ، أو للمركز الفلاني ،أو للكرسي الفلاني أيًّا كان هذا الموقع ، وأيًّا كان هذا المنصب ـ كما سأفصل الآن حتى لا يتصوَّر أحدٌ أن الأمر مقتصر على الولاية العامة فحسب !

حين ترى الأمة الأمينة أن فلانًا ليس كفؤًا لهذا المكان ، فواجب على هذا الرجل ابتداءً إن كان من الصادقين المتجردين أن يتراجع ، وأن يتأخر ؛ لأن القضية أمانة سيسأل عنها بين يدي الله تبارك وتعالى ، إن وجد من هو أكفأ منه ، فليتقدم ولتدفعه الأمة دفعًا .

لقد ذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ والحديث في « **صحيح مسلم** »(١) ـ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ ـ أي: ألا تعطيني وزارة أو ولاية أو إمارة ؟ ـ قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ :

« **يَا أَبَا ذَرٍّ ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا** ».

إنها أمانةٌ كبيرة ، ومسؤوليةٌ عظيمة ، ستسأل عنها بين يدي الله تبارك وتعالى أيًّا كان حجم مسؤوليتك ، وأيًّا كان حجمُ منصبك ، وحجم الأمانة التي ائتُمِنْتَ عليها .

- **و في «سنن الترمذي» وأبي داود بسندٍ صحيح**(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

« **أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ** » .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة (١٨٢٥) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الإجارة ، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٥) ، والترمذي ، كتاب البيوع ، باب (٣٨) (١٢٦٤) ، والدارمي (٢٥٩٧) ، والحاكم (٢/ ٥٣) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٤٢٣) .

○ هذا أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة بشهادة الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ .. ولَّاه أبو بكر رضي الله عنه قيادة الجبهة في بلاد الشام، ورأى الصديق رضي الله عنه أن خالد بن الوليد رضي الله عنه أكفأ منه في هذا الوقت، وهو أهل الميدان، وأهل الساعة؛ فماذا صنع الخليفة الأول الراشد صدِّيقُ الأمةِ الأكبر؟ عزل أبا عبيدة وقدَّم خالد بن الوليد مكانه !! هذه رؤيةُ الصديق، رأى أن رجل الساعة هو خالد؛ فليتقدم خالد، وليتأخر أبو عبيدة، وهذا التأخير لأبي عبيدة لا يقْدَح فيه أبدًا، ولا يقلِّل من قدره، ولا من شأنه، ولا من مكانته؛ فيرسلُ الصديق رضي الله عنه رسالةً جميلة رائعة إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه؛ فيقول ـ بعد ما حمد الله، وأثنى عليه، وصلَّى على نبيه ﷺ ـ أما بعد: «فمِنْ أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة إلى أبي عبيدة بن الجراح: سلام الله عليك، وبعد؛ فإني قد عزلتك، وولَّيْتُ خالد بن الوليد على قيادة الجبهة في بلاد الشام؛ فاسمع له وأطع، ووالله ما ولَّيتُ خالد بن الوليد الإمارة إلا لأني ظننت أنَّ له فطنةً في الحرب ليست لك، وأنت عندي يا أبا عبيدة خيرٌ منه، أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام»(١).

صلَّى الله وسلَّم وبارك على مَنْ ربَّى وعلَّم؛ ما هذه القلوب المتجردة الجميلة؟ خالد رجل الساعة؛ فليتقدم خالد، ويتنازل أبو عبيدة بن الجراح عن إمارة الجيوش وقيادة الجبهة !!

---

(١) «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة» (٣٩٢، ٣٩٣) لمحمد حميد الله. نقلاً عن كتاب د. الصلابي (أبو بكر الصديق) (٢٩٩، ٣٠٠).

ليصبح أبو عبيدة جنديًّا مطيعًا بعد أن كان بالأمس القريب قائدًا مطاعًا ! ألم يفكِّر أن يقوم بانقلاب على الصدِّيق ؟ لا ، ولا على خالد رضي الله عنه ، فهؤلاء لا يعملون من أجل دنيا ؛ لا تحرِّكهم الكراسي ولا المناصب ؛ يودُّ أحدهم أن يبذل روحه لدين الله ، أيًّا كان موقعه على الساحة وفي الساحة .

● ففي «صحيح البخاري»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « **طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ** » .

رجلٌ لا يريد طبلًا ولا زمرًا بالباطل ؛ لأنه يريد أن يقدِّم لله ابتغاء وجهه سبحانه وتعالى ؛ ولا يعنيه أن يكون في الصدارة مع القادة ؛ أو في المؤخرة مع الجند ؛ ما دام هو على الطريق يعمل لله سبحانه وتعالى .. قمةُ التجرُّد والإخلاص ؛ وإن شئت فقُلْ : قمة الأمانة .

ويتوفى الصديق رضي الله عنه ، ويتولَّى الخلافة من بعده فاروقُ الأمة الأوَّاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وها هو عمر له رؤية أخرى : يرى أنه لا يتقدم البتة أحدٌ على أمين الأمة أبي عبيدة بن الجراح ، فعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ، وولَّى أبا عبيدة مرة أخرى ؛ فماذا كانت النتيجة ؟

يتنازل خالد بن الوليد عن القيادة لأخيه الأمين أبي عبيدة بن الجراح ؛ ليصبح خالد بن الوليد نفسه جنديًّا مطيعًا بعد أن كان بالأمس القريب

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧) .

قائدًا مهابًا مطاعًا .

هذه هي الأمانة ، وذاك هو التجرد والصفاء ؛ يا أخي ؛ أنا أرى ـ في نفسي ـ أني لستُ أهلًا ، ولست كُفأً لأن أكون في هذا المكان فأتنحَّى ؛ لأني سَأُسأل عن هذا الكرسي الذي سأجلسُ عليه ! وسأسأل عن الأمانة التي سأتحملُها بين يدي الله تبارك وتعالى.

فالأمانة ليست مجردَ كلمة ـ إطلاقًا ـ ولا تقتصر على الولاية فحسب ، مع أنني أؤكد أن الولاية من أعظم الأمانات ، أن يُؤمَّن الرجلُ على حكم المسلمين، وعلى ولاية المسلمين ؛ إنها أمانة عظيمة، ومسؤولية خطيرة !

● ففي «الصحيحين» [(١)] من حديث معقل بن يسار أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إِلاَّ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** ».

● **وفي «الصحيحين»** [(٢)] من حديث **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما **أن النبيَّ** ﷺ قال : « **كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ** » أي: الحاكم والوالي ، وهذه هي المسؤولية الكبيرة « **الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ** » ألم أقل لكم : إن المسؤولية على الجميع ؛ فلا تتصور أنك لست مسؤولًا أيًا كان مركزك ، وأيًّا كان منصبك ـ وسأبين ذلك الآن إن

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأحكام ، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٧١٥٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٩٣) ، ومسلم كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩) .

شاء الله تعالى بالتفصيل . « **وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** » فها هو النبيُّ ﷺ يؤكِّدها في أول الحديث وآخره ، ويكرر ويقرر : « **وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ** » .

إذًا ؛ الأمانة معنى كبير ، لا تقتصر على الولاية فقط ، ولا تقتصر على الأمانات التي توضع عند قوم من أهل الأمانة فحسب ؛ فهذه صورة أخرى أيضًا من صور الأمانة ـ كما سبق بنا : « **أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ** » فمن صور الأمانة أن يودع أحدُ الناس عندك أمانة أيًا كانت صورتها سواء وضع عندك مالًا ، أو استأمنك على أهله أو على أولاده ، أوعلى سرِّه ، لكن ! آهٍ من صور الخيانة لكلِّ هذه الصور من صور الأمانة ! لقد فاحت الخيانة ، وفاح عفنها ونتنها في الحقبة التي تولَّى القيادة فيها هذا النظامُ الغربيُّ الجاف !

سفكت الدماء ، ومزقت الأشلاء بدعوى الحريَّة ، وبدعوى الديمقراطية .. إلى آخر هذه الشعارات المكذوبة ، المزعومة ، الخائنة !

سفكت الدماء على أرض العراق ، وعلى أرض فلسطين ، و على أرض لبنان ، أفغانستان ، الشيشان ، وفي كثيرٍ من الأماكن ـ كما سأبين إن شاء الله بعد ذلك بالتفصيل .

فالأمانة حملٌ ثقيلٌ كبير . تصوَّر أن السماوات والأرض والجبال..هذه

المخلوقات الضخمة القوية أشفقت من حمل هذه الأمانة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

يا الله ! كلُّ هذه المخلوقات العظيمة أبت أن تحمل هذا الحمل الثقيل .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب:٧٢] .

تصوَّر .. تشفق السماء ! وتشفق الأرض ! وتشفق الجبال من حمل الأمانة! ويتقدَّم الإنسان القصير العمر ، الضعيفُ الحَوْل ، الذي تتحكَّم فيه الشهوات والرغبات .. يتقدَّم هذا الإنسان ليحمل الأمانة ؛ فمن أدَّاها كاملة على مراد الله فهو الأمين ، ومن خانها فهو الظلوم الجهول ، ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

○ والسؤال : ما هي الأمانة :

● والجواب في هذه المعاني :

● قال ابن عباس رضي الله عنهما : «الأمانة هي : الفرائض التي افترضها الله على عباده» (١) ، وورد مثله عن سعيد بن جبير .

● وقال أبو العالية : « الأمانة هي : ما أمروا به وما نهوا عنه» (٢) .

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» لسورة الأحزاب (٧٢) .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٩١).

● وقال قتادة : « الأمانة هي : الدين »[١] ، فالدين كلُّه أمانة ، و الأمانة هي الدين .

إذاً ؛ الأمانة ـ أيها الأفاضل ـ ليست مجرد كلمة !! بل هي تطبيق وعمل .

○ أقول : فالناظر إلى الواقع يعلم يقينًا أنه يحكم العالم الآن ، ويدمر البشرية تدميرًا من أسند ووسِّد إليه الأمر ، وهو ليس أهلاً لذلك !.

وسأقف مع حديث رسول الله ﷺ الذي رواه أحمد في «مسنده» والحاكم في «مستدركه» بسندٍ صحيح[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ » .

قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ ؟

قَالَ : « الرَّجُلُ التَّافِهُ ».

● وفي لفظٍ : « الرَّجُلُ السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ » .

بل ؛ واتخذ القرارات كثيرٌ من السفهاء الذين سفحوا الدماء بصورة مؤلمة

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» لسورة الأحزاب .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١ ، ٣٣٨) ، وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب شدة الزمان (٤٠٣٦) ، والحاكم (٤/ ٥٢١) ، وصححه ، ووافقه الذهبيُّ ، وحسنه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٨٨٧) .

في أنحاء الأرض ، صارت الدماء أرخص شيء ، واستبيحت الدماء بصورة تخلع القلب بقرارات تنفذ ، وبكلمات تتخذ ، وتسير الجيوش من أقصى الأرض لتأتي إلى قلب بلاد المسلمين ! وصلى الله على الصادق الأمين .

فالأمانة هي الدين ، والدين كلُّه أمانة .

● أنت مسؤول ، وأنا مسؤول ، والنظرةُ التبريرية لوضْع الأخطاء والتقصير الشخصي ، والتعليقُ على الحكام ، أو على الأعداء ، أو على العلماء نظرةٌ مرفوضةٌ بنصِّ القرآن الكريم ، لا ينبغي أن تجعل من غيرك مشجبًا لتعلق عليه أخطاءك ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾[آل عمران:١٦٥] .

○ يا أخي ، أنا أرى القذاة الصغيرة ـ التي قَدْ لا تُرى إلا بالميكروسكوب ـ في عينك ، وأغضُّ الطرف عن العود الضخم في عيني ، وأنت ترى القذاة في عيني، وتغضُّ الطرف عن العود الضخم في عينك ، صار كلُّ واحدٍ منا يجعل من غيره مشجبًا ليعلق عليه أخطاءه وتقصيره في حق ربه ، ثم في حق نبيه ، ثم في حق دينه ، ثم في حق نفسه ، ثم في حق أهله ، ثم في حق وظيفته ، ثم في حق الناس القريبين ، ثم في حق الآخرين !!!

○ أخي : الدين أمانة .. العبادة أمانة .. الفرائض أمانة .. فالصلاة أمانة ؛ هل تؤدي هذه الأمانة على مراد الله ـ جلَّ وعلا ؟ هل تؤدي الصلوات في أوقاتها كما أمرك ربك ونبيك ﷺ ؟ وكذلك الصيام أمانة ، فهل تؤدي

هذه الأمانة بأمانة ؟ أم أنك تطلق لبصرك العنان لينظر إلى ما حرَّم الله أثناء الصيام ؟ وتطلق للسانك العنان ليتكلَّم بما لا يرضي الله ﷻ في نهار رمضان ؟ وتطلق لسمعك العنان ليسمع ما حرم الله ﷻ في نهار وفي ليل رمضان ؟ هل أديت ـ بحق ـ هذه الأمانة ؟!

و **كذلك الزكاة** : هل أديت فيها الأمانة ؟ هل جمعت المال من الحلال ، واتقيت الكبير المتعال ، وأخرجت حقَّ الفقراء والمساكين ؟

و الحج أمانة ؛ إنْ وسَّع الله عليك، فلِمَ لا تؤد الحج ؟

يقول لي أحد الناس ـ وقد رأيت أن الله قد وسع عليه ـ وقلْت: لِمَ لا تحج إلى الآن يا أخي ؟ قال : يا شيخ أتريد أن أذهب وأنفق ستين ألفًا لأُقبِّل حجرًا في الكعبة !! هكذا ـ عياذًا بالله ـ فهذه صورة من صور الخيانة ؛ فالفرائض أمانة ، وجوارحك أمانة ، و بصرك أمانة ، و سمعك أمانة ، و لسانك أمانة ، وَفَرْجُك أمانة .. رجلك .. يدك .. كلُّ جوارحك أمانة .

● تدبر معي قول ربك ـ جلَّ وعلا: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

ستسأل عن كلِّ هذه الجوارح ؛ فهذه أمانات عندك ، هل وظَّفت هذه الأمانة بأمانة ، أم أنك قد وقعت في الخيانة .

● قال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

[الأنفال:٢٧]

هل يمكن لعبدٍ أن يخون الله والرسول؟ نعم ، كيف ذلك ؟ **قال ابن عباس** رضي الله عنهما[(١)] : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ ﴾ بترك فرائضه، و(الرسول) بتضييع سنته ، وارتكاب معصيته ، و﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾ لا تنقضوها بتضييعها فيما بينكم » .

هل عرفْتَ كيف يخون العبدُ ربه ؟ وكيف يخون نبيه ؟ فهيا ـ يا أخي ـ : لتكون من أهل الأمانة ؛ كُنْ أمينًا بامتثال الأمر .. كن أمينًا باجتناب النهي .. كن أمينًا بالوقوف عند حدود الله سبحانه وتعالى .. كن أمينًا مع حبيبك المصطفى باتباع سنته .. بالذب عن شريعته .. بتبليغ دعوته والتحرك لدينه بين الناس ؛ بقولك ، وتصديقك، وأخلاقك ، وسلوكك ، وعملك .

وهنا لابد من لفتةٍ مهمةٍ أحب أن أنبه عليها وهي : أنه ليس معنى أن يخونك فلان أن تقع أنت في الخيانة !. لا .. بل إن خان غير المسلمين فأهل الإسلام لا يقعون في الخيانة ، وإن غدر غير المسلمين فلا يغدر المسلمون ؛ لأن لنا دينًا يضبط أقوالنا وأفعالنا ومشاعرنا وأخلاقنا ، لا ينبغي لأيِّ أحدٍ أن يفعل ما شاء في الوقت الذي يشاء ، ولا ينبغي لأيِّ أحدٍ أن يقول ما يريد في الوقت الذي يريد ! لا .. لك دين يضبط لك تصرفك حتى الحب ، والبغض ، والعطاء ، والمنع ، فعليك بالأمانة في كل أحوالك في ذهابك وإيابك ، وفي دخولك وخروجك ؛ قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (لسورة الأنفال :٢٧) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» . وانظر : «الدر المنثور» (٤/ ٤٥، ٤٦) .

مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾[الإسراء:٨٠] .

لابد وأن يكون مدخلك مدخل صدق ، ومخرجك مخرج صدق ، ليكن قولك وفعلك قول وفعل صدق .

هذا هو المؤمن الأمين ؛ فالمؤمنون أمناء ، والمنافقون خونة ـ و أعتذر عن شدة اللهجة لكنها الحق ؛ فالمنافق خائن ، ولخيانته علامات :

● ففي «صحيح البخاري ومسلم» (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ » ـ أي : علامة المنافق ـ « ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ـ اللهم نجني وإياكم من الكذب ، واجعلنا من الصادقين ـ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » .

نعم .. فالخيانة خصلة من خصال النفاق .

● و في « الصحيحين» (٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال :

« أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافق (٣٣) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، بيان خصال الإيمان (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب علامات المنافق (٣٤) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب خصال الإيمان (٥٨) .

إذًا ؛ المؤمنون أمناء ، والمنافقون خونة ؛ فأد الأمانة ، ولا تتشبه بالمنافقين في أيِّ خصلة من خصالهم .

● **وكذلك فاعلم أن الكلمة أمانة** .. لا تستهن بالكلمة ؛ سواءٌ كانت مسموعة ، أو مرئية ، أو مقروءة ، أو مرسومة ، أو مكتوبة ؛ فبكلمةٍ واحدة قد تنال رضوان الله ، وبكلمةٍ واحدةٍ قد تنال سخط الله .

وأنا أذكِّر نفسي وإخواني من أهل العلم ، وإخواني من أهل الأدب ، والصحافة ، والفكر ، والتربية ، والتعليم ، و أقول للجميع : الكلمة أمانة ! أسأل الله أن يجعلني وإياكم أهلًا لهذه الأمانة ، ولكل صور الأمانة ، فراقب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أيها المسلم قبل أن تنطق هذه الكلمة ، وقبل أن تتكلَّمَ بها .

● **ففي «الصحيحين»** [1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لاَ يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِى بِهَا فِي جَهَنَّمَ » .

● و تدبر معي قول ربي سبحانه : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

[ق:١٨]

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان (٦٤٧٧) واللفظ له ، ومسلم كتاب الزهد والرقاق ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨) .

●وكذلك السرُّ أمانة : فإن ائتمنك أحد إخوانك على سرٍّ فكُنْ أهلًا للأمانة ، ولا تفش لأخيك سرًّا ، وأنتِ يا أختاه إن ائتمنتك أختٌ من أخواتك على سرٍّ فكوني أهلًا للأمانة بحفظ هذا السر ؛ فلا تضيعي هذه الأمانة .

●ومن أبشع صور الخيانة : أن يخلو الرجل بامرأته في الفراش ، وأن يفضي إليها، وأن تفضي إليه ، فإذا أصبح وجلس بين إخوانه أو أقرانه أو زملائه في الوظيفة أو في المكتب أو هنا أو هناك أفشى سرَّ امرأته ، فهذه خيانة نتنة !!

○ أرجو أن تتدبر معي هذا الوعيد ؛ ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم [(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« **إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ـ وفي رواية : **إنَّ أَعْظَمَ الأمانة عنْد الله يَوْمَ القِيَامَةِ : الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا** » ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ويزداد الألم حينما أسمع ، وحينما أقرأُ بعضَ الرسائل التي ترسل إليَّ ، والأسئلة التي تُعرض عليَّ من هذه الكلمات التي تُقَال بلا أدنى ضابطٍ في بعض المكاتب في الوظائف ؛ فقد تجلس الأخت الفاضلة لتتحدث في العمل مع رجل ـ بدعوى الزمالة ـ عن أسرار الفراش ! أو يجلس الرجل ليحدث زميله في العمل عن أسرار الفراش مع امرأته ! إنها خيانة نتنة .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب النكاح ، باب تحريم إفشاء سر المرأة (١٤٣٧) .

● ومن أرق ما قرأْتُ في هذا الباب ؛ أن رجلاً من العقلاء الصالحين الأمناء أراد أن يطلق امرأته لخلافٍ حدث بينهما ؛ فذهب إليه بعضُ الناس ، وقالوا : لماذا تريد أن تطلقها ؟ ما الذي يريبك فيها ؟ فردَّ هذا الرجل الأمين ، وقال : العاقل لا يهتك ستر امرأته ! وقدَّر الله ـ جلَّ وعلا ـ فطلَّقها ، فذهبوا إليه ـ بعدما طلقها ـ وقالوا : لقد طلَّقتها فلماذا طلقتها ؟ فقال : هذا الرجل الأمين: مالي ولامرأة غيري ! أيُّ أمانة هذه ؟! هؤلاء هم الأمناء .

● **وكذلك العلم عند العالم أمانة** ؛ فإن اتقى الله تبارك وتعالى ، وأدَّى الذي عليه لله ﷻ بأمانة .. بفهم دقيق ، ووعي عميق .. بكلمات صادقة ، ولم يزوِّر هذا العلم ، ولم يقدم هذا العلم من أجل هوى ، أو من أجل دُنْيا ، أو من أجل مال ، أو من أجل منصب ؛ فهو الأمين ، ومن كتم العلم وهو يَعْلم أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار ؛ لأنه خائن قد ضيَّع الأمانة ؛ أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل الأمانة .

● **والدَّيْن أمانة** : يجب عليك ـ أيها المسلم ـ يا من أخذت الدَّيْن من أخيك أن تكون أمينًا ، وأن تؤدي له حقه في الأجل المعلوم ، إن كنت قادرًا على سداد الدين ، أما أن يوسِّع الله عليك ، فتروغ منه روغان الثعالب ، فهذه صورة من صور الخيانة ؛ فالدَّيْن أمانة ، ويجب عليك أن تكون أمينًا في هذه الأمانة .

○ ومن أَرقِّ ما قرأْتُ في هذا الباب ؛ ما رواه الإمام البخاريُّ ـ تعليقًا

بصيغة الجزم[1] - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ :

« أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ ؛ فَقَالَ :كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ. قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً. قَالَ : صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً فَقُلْتُ : كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً ، فَرَضِيَ بِكَ ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، فَرَضِيَ بِكَ ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا ، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا ، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَ : وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ ، قَالَ : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الكفالة ، باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها (٢٢٩١) معلقًا .

الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا » .

● انظر إلى أمانة الدائن والمدين . « فَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذ أَمْوالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ »[١] ؛ كما قال الصادق ﷺ.

● والتجارة أمانة ؛ روى «البخاريُّ ومسلم»[٢] من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » .

● و الزوجة عندك أمانة ؛ ستسأل عنها بين يدي الله ـ جلَّ وعلا ـ واعلم بأن خصمك دون زوجتك إن ظلمتها هو رسولُ الله ﷺ ؛ كما في « مسند أحمد» ، و« سنن ابن ماجة » ، و« مستدرك الحاكم » ، و« صحيح ابن حبان » وغيرهم[٣] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اللهم إِنِّي أُحَرِّجُ عَلَيْكُمْ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ » .

● وزوجك عندكِ أيتها المرأة أمانة ، ستسألين عن هذه الأمانة ، إن غاب

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس ، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها (٢٣٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع ، باب إذا بيَّن البيعان ، ولم يكتما ، ونصحا (٢٠٧٩) ، ومسلم كتاب البيوع ، باب الصدق في البيع والبيان (١٥٣٢) .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٩) ، وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب حق اليتيم (٣٦٧٨) ، والنسائي في « الكبرى » (٩١٤٩) ، والحاكم (١/ ١٣١) ، وابن حبان (٥٥٦٥) ، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٠١٥) .

عنك فكوني أمينة ؛ احفظي ماله .. احفظي عرضه.. احفظي شرفه.. احفظي كرامته .. احفظي مكانته .. احفظي أولاده وربِّيهم تربية كريمة على القرآن والسنة ، وعلى القول الصادق ، وعلى العمل الفاضل ؛ فأولادك أمانة ، وستسألين عن هذه الأمانة بين يدي الله تبارك وتعالى .

● قال ـ جلَّ وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:١٢] .

أسأل الله أن يطهرني وإياكم من الخيانة .

○ أيها الأفاضل : ما أحوجنا إلى الأمانة ، وأنا تعمَّدْتُ أن أطيل النفس في صور الأمانة ؛ لأننا في أمس الحاجة إليها ؛ فكلُّ واحدٍ منا مستأمنٌ على شيء ، فأذكِّر نفسي وإخواني وأخواتي بأن نكون أهلًا للأمانة أيًّا كان حجم الأمانة ؛ فأنت في مركزك الذي أنت فيه يجب أن تكون أمينًا ، وإن أيَّ التواءٍ في ممارسة العمل أو الوظيفة بأخذِ الرشاوى ، أو بأكل أموال الناس بالباطل ، أو بتضييع مصالح الجماهير، إنما هي صورةٌ من صور الخيانة ، وإنَّ إهدار المال العام بدعوى أنه مال سايب ليس له صاحب ، لا رقيب عليه ؛ فإن إهداره صورةٌ بشعةٌ من صور الخيانة .

فلنتق الله ﷻ ولنراقب الحقَّ تبارك وتعالى ، فالله سبحانه يسمع ويرى .

وإن تضييع الأمانة قد وقع ، وقد جعله النبيُّ ﷺ علامة من علامات

الساعة ، وها نحن نرى ذلك قد استشرى وانتشر على مستوى البشرية بلا نزاع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الله أسأل أن يجعلني وإياكم من أهل الأمانة ، وأن ينجينا وإياكم من الخيانة ، وأن يقر أعيننا جميعًا بنصرة الإسلام وعز المسلمين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .



ومن العلامات: كثرة القتل وانتشار الزنا والسرقة

وحديثنا في هذا الفصل - بإذن الله تعالى وتوفيقه ومدده - في علامةٍ خطيرةٍ انتشرت بصورةٍ مروعةٍ ، وكلّما قرأْتُ ، وطالعت ، ورأيت تلك المشاهد التي تخلع القلوب في نشرات الأخبار عبر الفضائيات ، أو من خلال الإذاعات ، أو الجرائد والمجلات ، والله الذي لا إله غيره يزداد حُبِّي لرسول الله ﷺ ، ويزداد إيماني ويقيني في أن المصطفى ﷺ ما مِنْ شيءٍ وقَعَ ، أو هو واقع ، أو سيقَعُ في الكون بين يدي الساعة إلَّا وأخبر عنه ؛ فوقع بمثل ما أخبر عنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى .

ولقد تحدَّث النبيُّ ﷺ عن صور القتل البشعة التي نراها الآن في أي نشرة بلا استثناء من نشرات الأخبار! ولا أكون مبالغًا إن قلْتُ : لا تخلو نشرة أخبار ، ولا تخلو جريدة سياسية ، إلا وقد تحدثت عن هذه الجريمة النكراء ! عن هذه الدماء التي تسفح والتي تسفك ، وعن هذه الأشلاء التي تمزَّق في كلِّ بقاع الأرض .

○ تدبَّر معي ، وأعرني قلبك ، وكيانك .

● روى الإمام مسلم في « صحيحه» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (١٨/ ١٥٧).

ﷺ قال :

« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الْـهَرْجُ ».

قَالُوا : وَمَا الْـهَرْجُ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ : « الْقَتْلُ الْقَتْلُ ».

● وفي رواية أخرى لمسلم[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ وتدبر هذه الرواية ـ أن النبيَّ ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ » وهو الصادق الذي لا يحتاج إلى قسم ، ولكنه ﷺ يقسم ! على ماذا ؟! يقول : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ» .

وأنا أطالع بعض الحوارات التي أُجريت مع بعض الجنود الذين جاؤوا من أقصى الأرض من أمريكا إلى قلب العراق ، أو من بريطانيا ، أو إيطاليا ، أو استراليا إلى قلب العراق ، أجرت بعضُ الجرائد بعض الحوارات مع بعض الجنود ، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ لا يدري ، لا يعرف ! ثم هذا الذي يركب طائرته أو دبابته ويبيد ـ لا أقول : بيتًا ؛ بل مدينة بأكملها ؛ بل دولة بأكملها ، يُلقي أطنانًا هائلةً من الأسلحة ، بل من الأسلحة المحرمة والمجرَّمة دوليًّا ! هذا إن كان أولئك يحترمون القوانين الدولية . يلقون بآلاف الأطنان من الأسلحة الفتَّاكة المحرَّمة المجرَّمة التي تُفْني في

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن و أشراط الساعة ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٥٦/ ٢٩٠٨) .

التو واللحظة المئات ؛ بل الآلاف ، و التي تبيد المدن والمدارس والمصانع والمزارع ، والتي تحوِّل الأجسام البشرية إلى أشلاء ، وإلى أكوام من اللحم المتمزق ، وإلى بحور من الدماء ، حتى صارت الدماء الآن أرخص من التراب ، لا يدري هذا القاتل الذي ألقى هذه الحمولة الثقيلة لتبيد هذه الآلاف من البشر ، لا يدري لماذا قتل ؟ وهذا المسكين الذي لا ناقة له ، ولا جمل ، و هذا الشيخ الكبير الذي مزقت أشلاؤه ، وهذا الطفل الرضيع الذي نام على أحلامه فتفجَّر جسده ، بهذه الأطنان من القاذفات ، والراجمات ، والصواريخ ، والطائرات، الذي سمع الرعب ، ومات قبل أن يموت حقًّا ، مات بالفزع قبل أن يموت ! وقبل أن تفارق روحُه بدنَهُ ، وهو الطفل الصغير الوديع ، بل وهو الرضيع الذي لا زال في لفائفه ، ما ذنبه ؟ لماذا قتل ؟ هو لا يدري !!

و هذه المرأة المسكينة التي لا تحمل سلاحًا وهي تجلس في بيتها بين أولادها ، وفجأة ترى أولادها يُمزَّقون أمام عينيها وبين يديها ، وربما تتمزق أشلاؤها هي الأخرى ، لا تدري لماذا قتل أولادها ؟ ولماذا قتل زوجها ؟ ولماذا قتل أبوها ؟ ولماذا قتلت هي ؟ « لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ » .

جريمة بشعة تحرق الفؤاد ، فما من نشرةٍ من نشرات الأخبار تراها العين إلا وتدمع ، وتبكي .. يراها الإنسان فيتمزق فؤاده ويتفتت كبده على هذه الدماء الرخيصة ، التي تسفح كلَّ يوم ، بل ــ ورب الكعبة ــ لا

أبالغ لو قلْتُ : التي تسفح كلَّ ساعة ، في العراق في هذه السنوات القليلة الماضية بالآلاف من القتلى للرجال والنساء والأطفال ! لماذا هذه الجثث التي تطفو على المياه ؟ التي قطعت رؤوسها، وألقيت في الغابات ، وعلى جوانب الطرقات ؟ لماذا هذه الدماء التي خضبت الأرض في العراق ، و في لبنان ، و في فلسطين ، و في أفغانستان ، و في الشيشان ، و في الصومال ، و في السودان ، و في كل مكان !! لماذا صارت الدماء رخصيةً إلى هذه الحدِّ ؟ والذي يُدْمي القلب أن تسفح الدماء ، وأن تمزق الأشلاء باسم الديمقراطية ! و باسم الحرية ! أو باسم هذه الدعاوى والشعارات الخدَّاعة الكاذبة ! صارت الدماء أرْخَصَ شيءٍ في الوجود و صار الإنسان أحقر شيء ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله .

○ أيها المسلمون ـ بل أيها العالم كلُّه : الدماء لها حرمة ، وتمنيت أن لو ترجمت هذه الكلمات ؛ لتستمع إليها البشرية كلها على اختلاف معتقداتها ولهجاتها ولغاتها ؛ فدماء أيِّ إنسان لها حرمة ، و الله ـ جلَّ وعلا ـ هو الذي خلق الإنسان ، وكرَّمه ، وأسجد له ملائكته ، ونفخ فيه من روحه ، وأنزل من أجله الكتب ، وأرسل من أجله الرسل ، بل ووضع له شريعةً محكمة تضمن له السعادة في الدنيا والآخرة ، وتضمن له حقَّهُ ، ومن أعظم هذه الحقوق : حق الحياة ، ذلكم الحقُّ الذي ليس من حق أيِّ أحدٍ أن ينتهك حرمته ، أو أن يستبيح حماه ؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ وحده هو واهب الحياة ، ولا ينبغي البتة لأحدٍ من الخلق أن يَسْلُب هذه الحياة بهذه

الصورة القميئة الرخيصة الحقيرة ! فهذا الحق لله تبارك وتعالى وحده ، وفي حدود شريعته التي شرعها لعباده ، فهو وحده الذي يَعْلَم من خلق ؛ قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤] .

لا يجوز أن تنتهك الحياة إلا في حدود شريعة الله تبارك وتعالى ، وعلى يد ولي الأمر ، ليس الأمر متروكًا هكذا لأيِّ أحد ليقتل من شاء ، في الوقت الذي يشاء ، ثم يمضي بعد ذلك آمنًا مطمئنًا بدعوى أنه يقيم حدًّا لله !! لا .. الأمر ليس متروكًا لأي أحد ، فالدماء لها حرمة ، والحياة لها حرمة .

فليسمع أولئك الذين أشعلوا نار الحرب ، وسفكوا دماء الأبرياء ومزَّقوا أشلاء الأطفال و النساء ؛ فليسمع هؤلاء وعيدَ ربِّ الأرض والسماء ، في قوله ـ جلَّ وعلا ـ في سورة النساء : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

هل هناك وعيد في القرآن كلِّه من أول سورة الفاتحة إلى سورة الناس كهذا الوعيد العظيم ؟ لا . وددتُ أن لَوْ صرخت بأعلى صوتي لأسمعه قادة العالم ، الذين يسفكون الدماء الآن باسم الحرية ، وباسم الديمقراطية ، وأصبحت الدماء عند هؤلاء الناس أرخص شيء في الكون ، وفي الوجود ، ثم بعد ذلك يُتَّهم ديننا ، ويتهم إسلامنا بأنه دين سفك الدماء ، ودين التطرف ، والإرهاب ! ثم يتهم نبيُّ الرحمة المصطفى ﷺ بأنه ما جاء إلى

البشرية إلا بالعنف ، وإلا بالإرهاب ، وما نشر دينه إلا بحدِّ السيف !! إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة الباطلة التي يُغْني بطلانها عن إبطالها ، ويغني فسادها عن إفسادها ، وتزداد المصيبة والكارثة أن تأتي على لسانِ رجلٍ كان من المفترض ـ كما يقال ـ أن يكون حمامةً هو الآخر من حمائم السلام ، يتهم رسول السلام ﷺ بأنه ما جاء للبشرية إلا بالإرهاب ! وهو نبيُّ الرحمة ؛ فهذا دين محمد بن عبد الله ﷺ ، يقرأ علينا فيه قولَ ربنا ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ وعيدٌ مرعبٌ في كتاب الله ﷻ.

○ فماذا قال نبيُّ الرحمة ، الذي جاء ليضمن وليؤكد للبشر هذا الحق حق الحياة ، وجاء ليبين حرمة الدماء ؛ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما في « صحيح البخاري » (١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

« لَنْ يَزَالَ الْـمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » .

● **وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول :**

« إِنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الأُمُورِ ، الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا : سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ » (٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الديات ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [النساء:٩٣] (٦٨٦٢) .

(٢) المصدر السابق (٦٨٦٣) .

• وفي الحديث الذي رواه أحمد والنسائي وغيرهم [(١)] من حديث معاوية رضي الله عنه ، ورواه أبو داود من حديث أبي الدرداء [(٢)] رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ ، إِلاَّ مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا » .

• فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ، وقال تعالى :﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان:٦٨] ؛ فهنا جعل اللهُ القتلَ الكبيرة التي تأتي بعد كبيرة الشرك بالله ثم قال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

[الفرقان:٦٨- ٧٠]

• وقال ﷺ ـ كما في سنن النسائي [(٣)] وغيرها بسندٍ صحيح من حديث

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٩٩) ، والنسائي كتاب تحريم الدم (٣٩٨٤) ، وفي « الكبرى » (٣٤٤٦) ، والحاكم (٤/ ٣٩١) وقال : «صحيح الإسناد» ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في « الكبير » (١٩/ ٣٦٤، ٣٦٥) « والأوسط » (٥/ ٢١٩) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٤٥٢٤) و« الصحيحة » (٥١١) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الفتن والملاحم ، باب تعظيم قتل المؤمن (٤٢٧٠) ، وصححه الشيخ الألباني هناك . وهذا لفظه .

(٣) أخرجه النسائيُّ ، كتاب تحريم الدم ، باب تعظيم الدم (٣٩٩٠) ، وفي « الكبرى » (٢/ ٢٨٥) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٤٣٦١) .

بريدة ﷺ: «قَتْلُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا».

انظر إلى حرمة الدماء في دين الله، وفي دين محمد بن عبد الله ﷺ، لكلِّ بني الإنسان، و الرسول ﷺ لم ينس هذا الحقَّ لغير المسلم ما لم يكن محاربًا للمسلمين، وما لم يكن معلنًا للكفر، رافعًا للسيف عليهم.

• فقال ﷺ - كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ في «التاريخ - تعليقا» والنسائي في «السنن» (١) من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ: «مَنْ أَمَّنَ» أي: أعطى الأمان «مَنْ أَمَّنَ رَجُلاً عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَانَ الْـمَقْتُولُ كَافِرًا».

فلتسمع الدنيا، فلتسمع الفاتيكان، فلتسمع أوروبا، فلتسمع أمريكا، فليسمع أولئك الذين يتهمون رسول الله بأنه ما جاء للبشرية إلا بالعنف، والإرهاب، والتطرف، فلتسمع الدنيا كلُّها، ماذا قال محمد بن عبد الله ﷺ ؟!

والله ما عرفت الأرضُ أَرْحَم، ولا أصدق، ولا أوفى، ولا أطهر، ولا أشرف منه ﷺ، فمن أعطى رجلًا عهدًا بالأمان، ثم بعد ذلك غدر به، فليس هذا من خلق محمد ﷺ، ولا من دين الله تبارك وتعالى.

وقد قُلْتُ - أيها الأفاضل: إن خان غير المسلمين، فالمسلمون لا

---

(١) أخرجه البخاري - معلقًا - في «التاريخ» (٣/ ٣٢٢)، والنسائي في «الكبرى» - بلفظ قريب - (٥/ ٢٢٥)، وابن حبان (٥٩٨٢)، والطيالسي (١٢٨٥)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩٦٧٩)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٤٢)، والبزار في «مسنده» (٦/ ٢٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٠٣) و«الصحيحة» (٤٤١).

يخونون ، وإن غدروا فهم لا يغدرون .. فالمسلمون أوفياء أمناء صادقون ؛ لأن لهم دينًا يضبط أقوالهم وأفعالهم ومشاعرهم ، وحبهم وبغضهم ، وعطاءهم ومنعهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، بفضل الله ـ جلَّ وعلا .

○○ وأؤصل هنا من باب التأصيل العلمي الذي اتفقنا عليه ؛ لأنني أخاطب العقل والقلب معًا ؛ فأقول : غير المسلمين ينقسمون إلى أربعة أقسام ـ حتى لا تختلط الأوراق بين يدي إخواننا :

● **كافر محارب** ؛ اعتدى على المسلمين في أرضهم ، و في بلدهم فهذا يُحارَبْ ، ويُدْفع بكلِّ سبيل ، وهذا ما يُعْرف عند علمائنا بجهاد الدفع ، وهو فرضُ عينٍ على أهل هذا المكان الذي داهمه هذا العدوُّ الصائل . و هذا تراه إجماعًا في كتب الفقه، بفضل الله ـ جلَّ وعلا .

● **وكافر معاهد** ؛ له عهد ، لا ينبغي أن تقتله حتى ترد عليه عهده .

● **وكافر مستأمن** ؛ فمن أظهر لكافرٍ أمانًا لم يجز قتله بعد ذلك لأجل الكفر ؛ بل لو اعتقد الكافر الحربي أن المسلم آمنه وكلمه على ذلك صار مستأمنًا [١] . لا يحل لك أن تقتله .

● **وكافر ذميٌّ** ؛ لا يجوز لك أن تقتله ما دام في وقت الذمة [٢] .

○**أخي الفاضل** : تعال معي وانظر إلى عظمةِ هذا الدين ؛ لقد ذَهَبَتْ أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ ،

---

(١) «الصارم المسلول» (١/ ١٩١ ، ٢٧٣ دار ابن حزم) لشيخ الإسلام .

(٢) انظر في هذه الجزئية : الصارم (١/ ٩٤) ، و«المغني» لابن قدامة (١٢/ ٦٥٥ دار الحديث) .

وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ : فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ : « **مَنْ هَذِهِ؟** ». فَقُلْتُ : أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ ؛ فَقَالَ : « **مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئ** » . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي ـ تقصد أخاها عليًّا ﵁ ـ أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ ـ فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ ـ فعليٌّ ﵁ يريد أن يقتله ؛ لأنه مشركٌ ، ولا يريد أن يُقرَّ عليٌّ لأم هانئ بأمانها الذي أعطته لهذا الرجل ، تقول: فقال الوفيُّ الأمين ﷺ لأمِّ هانئ : «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئ**[(١)] » صلَّى الله على مَن علَّم الدنيا حلاوة الوفاء.

● بل وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث أبي هريرة وفيه أنه ﷺ قال : « **وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ. فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا** ـ أي : نقض عهده ـ **فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ** » أي : لا يُقبل منه فرض ولا نفل ؛ هذا هو كلام النبيِّ ﷺ ؛ فهل عرفت الدنيا أصدق وأوفى منه ؟ لا ـ والله ـ بل ليس عند النبيِّ ﷺ خيانة حتى بنظرة العين ! .

● روى أبو داود و النسائيُّ والحاكم وغيرهم[(٣)] بسندٍ صحيح بشواهده

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الصلاة» ، باب «الصلاة في الثوب الواحد ملتحفًا» (٣٥٧٠) ، ومسلم، كتاب «الحيض» ، باب «تستر المغتسل بثوب ونحوه» (٣٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الحج» ، باب « فضل المدينة ودعاء النبيِّ ﷺ فيها بالبركة » (١٣٧١/٤٧٠).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب «الجهاد» ، باب «قتل الأسير ولا يعرض عليه الإسلام» (٢٦٨٣) ، (٤٣٥٩) والنسائي كتاب «تحريم الدم» ، باب «الحكم في المرتد» (٤٠٦٧) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٩١٣) والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥) ، وقال : « صحيح على=

أن عثمان بن عفان ﷺ أتى يوم فتح مكة بعبد الله بن سعد بن أبي السرح ـ وكان النبيُّ ﷺ قد أَهْدَر دمه ـ أي : قال للصحابة إذا رأيتموه معلقًا بأستار الكعبة فاقتلوه ـ وسأترك لك أنت أن تتصور ماذا صنع هذا الرجل حتى أهدر النبيُّ ﷺ دمه ولو كان معلقًا في أستار الكعبة ! وإذ بالنبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُفَاجَأُ بعبد الله بن سعد يقف أمام عينيه ، وبين يديه ، وعثمان بن عفان ﷺ ـ وهو الحيي الذي كان يستحي منه رسول الله ﷺ ـ يقول له : بايعه يا رسول الله! ؛ فنظر النبيُّ ﷺ لعبد الله بن سعد وأشاح بوجهه عنه ـ لم ينظر إليه النبيُّ ﷺ ثم أعرض عنه ـ ؛ فقال عثمان ـ للمرة الثالثة : بايعه يا رسول الله ؛ فمد النبيُّ ﷺ يده ، فبايعه ، فلما انصرف عبد الله بن سعد قال النبيُّ ﷺ لأصحابه : « **أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلَهُ؟** » قَالَوا : وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ الله ! مَا فِي نَفْسِكَ ، هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ ـ يعني : أعطنا إشارة بعينك لنقتله ـ فقال الصادق الوفي : « **إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ** » .

هذه حرمةُ ومكانةُ الدماءِ عند رسول الله ﷺ ؛ من أجل ذلك في يوم عرفة ـ وهو يقف على جبل عرفات ، في هذا اليوم المهيب العظيم الجليل الكريم ـ يقف النبيُّ ﷺ ليخطب خطبته العصماء ؛ ليبين فيها للصحابة وللبشرية جمعاء حرمة

= شرط مسلم ولم يخرجاه » . وأبو يعلى (٧٥٧) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٢٣).

الدماء، ومكانة الدماء؛ فيقول ـ كما في رواية جابر بن عبد الله الطويلة في «صحيح مسلم» (١) يقول ﷺ:

«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

○ وفي رواية ابن عباس ـ في «صحيح البخاري» (٢)، ورواية أبي بكرة ـ أيضًا في «الصحيحين» (٣): أن النبيَّ ﷺ خطب الصحابة يوم النحر؛ فقال: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؛ فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ؛ قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ؛ فَقَالَ: «أَلَيْسَ ذا الْحَجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟». قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْست بِالْبَلْدِة الْحَرَامِ». قُلْنَا: بَلَى ـ فقال الصادق بعد هذا التشويق في هذا الأسلوب البليغ ـ قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا،

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٧٣٩) عن ابن عباس.
(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (١٧٤١)، ومسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) عن أبي بكرة.

فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا » .

○ من أجل ذلك ـ أيها الأفاضل ـ كانت الدماءُ أولَ شيءٍ يَقْضي الله ﷻ فيه بين خلقه يوم القيامة ؛ هذه لفتةٌ لكن كيف ذلك ؟ وقد علمنا أن أول شيء يُحاسَبُ عليه العبد يوم القيامة الصلاة ؟ والجواب أنه : لا يوجد تعارض بين الحديثين ؛ فالحق يخرج من مشكاة واحدة ؛ فكيف نجمع بين قوله ﷺ : « **إِنَّ أَوَّلُ شَيْءٍ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ** » والحديث في «الصحيحين» (١) ، وبين ما رواه أصحاب السنن:« **إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاَةُ** »(٢) .

فنقول : الصلاة حق الله ـ جلَّ وعلا ـ والدماء حق العباد ؛ فأول شيءٍ يُقْضى فيه **من حقوق العباد** يوم القيامة في الدماء .. يا الله !! إذا دنت الشمس فوق الرؤوس ، وأتي بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ، تزفر وتزمجر غضبًا منها لغضب ربها ـ جلَّ وعلا ـ فإن الله سبحانه في هذا اليوم يغضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ! في هذه اللحظات يرى القاتلُ كلَّ مَنْ قتلهم في الدنيا ، وربما لا يعرف أعدادهم ! يراهم جميعًا في هذه الساعة في أرض

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣) ، ومسلم ، كتاب القيامة ، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨) من حديث ابن مسعود ﷺ .

(٢) أخرجه الترمذيُّ في أبواب الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة (٤١٣) ، والنسائيُّ كتاب الصلاة ، باب المحاسبة على الصلاة (١/ ٢٣٢) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب أول ما يحاسب به العبد الصلاة (١٤٢٥) ، وأحمد (٢/ ٢٩٠، ٤٢٥) ، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٣٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

المحشر ، بين يدي الملك الحق ، وقد اجتمعوا حَوْله يجرونه جرًّا ليوقفونه بين يدي ملك الملوك ، وكلُّ قتيلٍ ـ أريد منك أن تعيش هذا المشهد بقلبك ـ كم قتل ؟ قتل عشرة ، قتل ألفًا ، قتل أمة ، تأتي كلُّها ، وكلُّ قتيل قُتِل يأتي وأودَاجُه ـ أي : عروق رقبته ـ تشخُبْ دمًا .. يا الله! مائة حوله ، أو ألفٌ يحيطون به ويحاصرونه ، وقد تعلَّقوا بالقاتل يسوقونه سوقًا ، ويدفعونه دفعًا ؛ ليوقفونه بين يدي الملك الحق ـ جلَّ وعلا ـ وكلُّ قتيل يقول لربه : يا ربِّ ، سل هذا فيما قتلني ؟ هو لا يدري ! وكثير من هؤلاء القتلة لا يدري ، وكثير من المقتولين لا يدرون لماذا قُتلوا ؟! لماذا قُتل هؤلاء ؟ ولماذا قَتل هؤلاء ؟ مِنْ أجل النفط تُسفح الدماء ؟ أو من أَجْل عصبية عقدية بغيضةٍ منتنة تسفح الدماء، وتُمَزَّق الأشلاء ، وتباد حضارات ، وتهدم مدن ، وتدمر مصانع ، وبيوت ، ومزارع ؟ لماذا يفعل الإنسان بأخيه الإنسان هذه الأفعال الشنيعة ؟ لماذا لا يفشي الإنسانُ السلامَ بحق ؟ لماذا لا يحرصُ العقلاء في العالم على إفشاء السلام بالحق ؟ على أن يعيش الناسُ في سلام ؛ كما أمر رسول السلام محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال :

« أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » (١).

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة ، باب (٤٢) (٢٤٨٥) وقال : «حديث صحيح» ، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤) ، وفي الأطعمة (٣٢٥١) ، وأحمد (٥/ ٤٥١) ، والدارمي (١٤٦٠ ، ٢٦٣٢) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٨٤٧) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٥٦٩) من حديث عبد الله بن سلام ﷺ.

نعم ..كلُّ ديننا سلام ؛ فتحية المؤمنين السلام ، ولا تخرج من الصلاة إلا بالسلام ، ولا تدخل الجنة إلا وتستقبلك ملائكة الله بالسلام ؛ قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب:٤٤] فاللهم أنزل السلام على أهل الأرض . ثم بعد ذلك يُتهم بالإرهاب رسولُ الرحمة الذي أرسله الله رحمة للعالمين ـ ليس للمسلمين فحسب ـ كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

● فالقتل جريمةٌ من أبشع الجرائم ؛ يقول عليه الصلاة والسلام كما في «سنن النسائي» بسندٍ حسن[١] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « **يَجِيءُ الْمَقْتُولُ مُتَعَلِّقاً بِالْقَاتِلِ وَأَوْدَاجُهُ تَشْخُبُ دَمًا، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي** » .

ماذا سيكون جوابك أيها القاتل ؟ وأنت يا من تسترخص الدماء ، وتنطلق لتقتل أيَّ إنسان أخذًا بالثأر الأعمى ؟

احذر ! فأبشع كبيرة ، وأفظع جريمةُ ترتكب على وجه الأرض بعد الشرك : قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق .. وما هو هذاالحق ؟

● ففي «الصحيحين»[٢] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول

---

(١) أخرجه النسائيُّ ، كتاب «تحريم الدم» ، باب «تعظيم الدم» (٣٩٩٩) ، وفي «الكبرى» (٣٤٦٨) ، والترمذيُّ كتاب «تفسير القرآن» ، باب «ومن سورة النساء» (٣٠٢٩) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي والنسائي» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الديات» ، باب « قول الله تعالى : ﴿ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ [المائدة:٤٥] » (٦٨٧٨) ، ومسلم ، كتاب «القسامة» ، باب «ما يباح به دم المسلم» (١٦٧٦) .

ﷺ : « **لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ ، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ** » أي : القاتل يُقتل ويقام عليه الحد ، وولي الأمر هو المسؤول ، وإلا لتحوَّل مجتمع المسلمين إلى فوضى ، فليقتل كلٌّ من شاء من شاء في الوقت الذي يشاء ! فالدماء لها حرمة كما سبق بيانه ، «**النَّفْسُ بِالنَّفْسِ**» ؛ قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩].

« **وَالثَّيِّبُ الزَّانِي**» ـ وسأعود إليها إن شاء الله تعالى في علامة أخرى من علامات الساعة « **و التَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ** » .

فالإسلام لا يُكْرِه أحدًا على الدخول فيه ؛ لا بد من تأصيل هذا ؛ فنحن نبلِّغ ونبين للناس بحقٍّ وحكمة ورحمة وأدب وتواضع ؛ فمن قال بعد البلاغ وبعد الدعوة والبيان : لا لن أدخل هذا الدين ، نقول له ـ كما قال الله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦] و نقول ـ كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:٢٩] ، ونقول كما قال ربنا ـ جلَّ وعلا: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦] ، وذلك بعد الدعوة والبيان ؛ لكن ـ تدبَّر ـ إن دخل في دين الله برغبته ، واختياره ، وإرادته ، فليس من حقِّه أن يخرج من دين الله في الوقت الذي يشاء ؛ ليزلزل قواعد المجتمع المسلم زلزلةً !! لا .. ليس من حقه هذا على الإطلاق ؛ لكن من حقه بعد البلاغ

أن يقول : أنا سأدخل هذا الدين ، أو لن أدخل هذا الدين ، أما أن يدخل ويخرج منه في الوقت الذي يشاء ؛ فهذا أمر مرفوض في دين الله ـ جلَّ وعلا ـ وائتوني بدستورٍ على وجه الأرض يقر هذا لأهله ؛ بل إن من يخرج على دستور دولة من الدول يتهم بالخيانة العظمي ، والخيانة العظمى كلُّنا يعرف جزاءها ، إنه القتل ؛ فما ظنك بمن يخون دين الله ـ جلَّ وعلا ـ ويخون الله ورسوله ؛ قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنفال:٢٧] .

فالقتل ـ أيها الأفاضل ـ أبشع جريمة ترتكب على وجه الأرض بعد الشرك بالله .

وددتُ أن لو أطلْتُ النفس في الحديث عن هذه الكبيرة ، التي جعلها المصطفى الصادق علامةً من علامات الساعة ؛ فقال ـ عليه الصلاة والسلام : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الهَرْجُ** ».

قَالُوا : وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ : « **الْقَتْلُ الْقَتْلُ** » (١) .

○ وفي الرواية الأخرى التي تقدَّمت : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لاَ يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ ، وَلاَ الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ** » .

---

(١) تقدَّم في أول الباب .

⑥ ومن علامات الساعة :

● **كثرة الزنا :**

وهذه من العلامات الخطيرة التي ظهرت وانتشرت في هذا الزمان . لكن هل تكلَّم الرسول ﷺ عن هذه أيضًا ؟ و ذكر أن انتشار الزنا من علامات الساعة؟ نعم .

اللهم استر نساءنا وبناتنا ، واحفظ أولادنا ، وأصلح شبابنا ، وحصِّن فروجنا يا أرحم الراحمين .

○ أيها الأفاضل: الزنا جريمة خطيرة ، وكبيرة تخلع القلب ، و العِرْضُ شرفُ الإنسانية المتوارث ؛ فانتهاك هذا العرض أمر فظيع ؛ لذا عدَّ النبيُّ ﷺ الزنا علامة من علامات الساعة ؟

● فروى «البخاريُّ ومسلم» [١] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَثْبُتَ الْجَهْلُ ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا** » .

○ وفي رواية لمسلم : « **وَيَفْشُوا الزِّنَا** » .

○ وفي رواية عند البخاريِّ [٢] : « **وَيَكْثُرُ الزِّنَا** » .

لقد كثر الزنا وانتشر ، وكنت أودُّ أن أسطِّر لكم هنا إحصائية وقفت

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل ، (٨٠، ٨١) ، ومسلم كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه (٢٦٧١ ، ٢٦٧٢) .

(٢) عند البخاري ، كتاب النكاح ، باب يقل الرجال ويكثر النساء (٥٢٣١) .

عليها تبين حجم جريمة الزنا على وجه الأرض ؛ في أوربا ، وأمريكا ، وبعض البلدان الإسلامية !

والله ما منعني أن أسطر هذه الدراسة ، وهذه الإحصائية إلا أنني خشيتُ أن أصدِّع قلوبكم في هذه الوريقات ، وأظن أن كثيرًا من إخواننا ممن يطالعون مواقع الشبكة العنكبوتية ـ الإنترنت ـ يعلمون جيدًا خطر هذه الإحصائيات وحجمها ؛ إنه أمر بشع وخطير !

لقد صُوِّرت أفلام الزنا ، و نُقلت إلى كثيرٍ من بيوت المسلمين ، وصَارَ كثيرٌ من الناس يقيمون الليل ، لا مع الله ـ جلَّ وعلا ـ ولا مع الصلاة ، ولا مع سنة النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولكن مع هذه الأفلام الداعرة ، يقيم الليل مع الزنا ! لا أنسى حجم الاتصالات الهائلة ، و الأسئلة الرهيبة التي تأتي لتسأل كلَّ ساعة عن هذا الوباء الذي خرَّب كثيرًا من البيوت ؛ فلقد انصرف كثيرٌ من الأزواج عن نسائهم ، بسببِ هذه الأفلام والمجلات التي صورت أفلام الزنا في أوضاعه المختلفة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فالزنا جريمةٌ بشعةٌ إن زنت المرأة ـ وإن كانت بنتًا ـ وضعت رأس والدها، ورأس أمها ، ورأس إخوانها ، ورأس عائلتها في الوَحْل والطين والتراب ؛ فإن حملت البنت ، وخافت على ولدها من الزنا وقتلته ارتكبت كبيرتين من أبشع الكبائر ، ألا وهما : كبيرة الزنا ، وكبيرة القتل !!

وإن كانت المرأة متزوجة ، ووقعت في جريمة الزنا ، وسترها الله ـ جلَّ

وعلا ـ وأخفت ، وأدخلت ولد الزنا على زوجها ، وعلى بيتها ، وعلى أهلها وأولادها ، أدخلت أَجْنَبِيًّا عنهم ؛ فخلا بهم وهو أجنبيٌّ عنهم ، يرثهم وهو لا حقَّ له في ذلك . والرجل إن زنا ، انتهك حرمة إخوانه وأخواته .. كبيرة مُرَّة تستشعر بالمرارة وأنت تتحدث عنها فقط ! ولذا يقول ربنا تبارك وتعالى في آيات شديدة : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى ﴾[النور:٢] فبدأ بالزانية ؛ لأنها تمهد الطريق .. محال أن يُقْبل رجلٌ على امرأة ليصل معها إلى هذه الكبيرة البشعة إلا وقد مَهَّدت له هذه المرأة الطريق تمام التمهيد .. فيا أيتها المسلمة : اتقي الله في زيك .. في لبسك .. في كلماتك .. في كيفية خروجك ؛لا تخضعي بالقول .

○ أيتها المسلمة ؛ احذري ؛ فالشيطان له خطوات ، والله ـ جلَّ وعلا ـ يقول : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[البقرة:١٦٨] ، ربما لا تقع المرأة في الزنا من أول أمر ، ربما لا يزلُّ الرجل في الزنا من أول فعل ، فهناك خطوات ، إن خَطْوتَ الخُطْوة الأولى ـ إن لم يعصمك ربك ـ زللت ، وإن خَطْوتِ الخطوة الأولى ـ إن لم يعصمك ربك ـ هويتِ ، اللهم اعصمنا واحفظنا بحفظك يا أرحم الراحمين .

● قال تعالى:﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ ، الله الرحمن الرحيم اللطيف هو الذي يقول ذلك جلَّ وتعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ

تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢، ٣].

● و قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩].

يا هاتكًا حرم الرجال وتابعًا ... طرق الفساد فأنت غير مكرم
من يزني في قوم بألفي درهم ... في قومه يُزْن بربع الدرهم
إن الزنا دينٌ إذا استقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

إن كثيرًا من الناس يتصور أنه يستطيع أن يفعل ما يريد، أوأن يفعل ما يشاء، وأنه في مأمن من العقوبة! احذر.

فالزنا دينٌ لابد فيه من القضاء في الدنيا قبل الآخرة، والزنا يقول فيه نبينا ﷺ وهو يبين عقوبة الزناة ـ كما في حديث سمرة بن جندب الطويل في «صحيح البخاري» (١)؛ وفيه أن جبريل وميكائيل أتيا رسول الله ﷺ،

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٨٦)، وفي كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧).

وقالا له :

« انْطَلِقْ انطَلِقْ ، قال : فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ » والتنور هو: فُرْنٌ (أَعْلاَه ضَيِّقٌ ، وأَسْفَلُهُ واسِعٌ) ، هل تتصور معي هذا المشهد ؟ قال الصادق : « فَأَتَيْنا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ فاطَّلَعْنا فيه ، فإذا فِيهِ رِجَالٌ ونِسَاءٌ عُرَاةٌ ، يتوقد تحته نارًا فإذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا ، حَتَى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا (مِنَ التَّنُّورِ) ؛ فَإِذَا خَمَدَت رجَعُوا فيها» أي: إلى قاع وقَعْر هذا التنور ، فقال النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : وَأَمَّا الرِّجَالُ والنِّساء العُرَاة الَّذِين في مِثْل بِنَاء التَّنُّور ، فإنَّهم الزُّنَاة والزَّوَانِي » .

● وفي «الصحيحين» (١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال ﷺ :

« لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي » .

أي : مَنْ زنا ، وهو محصن ، وقد رزقه الله الحلال الطيب ، لكنه ترك الحلال ، وراح ليرتع في العفَنِ والحرام ، «والتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ للْجَمَاعَةَ».

● وفي «الصحيحين» (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ

(١) تقدم .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «المظالم» ، باب «النُّهْبَى بغير إذن صاحبها» ، (٢٤٧٥) ، ومسلم كتاب «الإيمان» ، باب «نقصان الإيمان بالمعاصي» (٥٧) .

مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

● وفي لفظ ابْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (١) أنه ﷺ قال : « لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن ، وَلَا يَسْرِق حِين يَسْرِق وَهُو مُؤْمِن ، وَلَا يَشْرَب حِين يَشْرَب وَهُو مُؤْمِن ، وَلَا يَقْتُل حِين يَقْتُل وَهُوَ مُؤْمِن » . قَالَ عِكْرِمَة : قُلْت لِابْنِ عَبَّاس : كَيْف يُنْزَعُ الْإِيمَانُ مِنْهُ ؟ قَالَ هَكَذَا : وَشَبَّكَ بَيْن أَصَابِعِهِ ، ثُمَّ أَخْرَجَهَا ، فَإِنْ تَاب عَادَ إِلَيْهِ هَكَذَا ، وَشَبَّكَ بَيْن أَصَابِعِهِ .

● وروى البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم (٢) عنه أنه قال : « يُنْزَعُ مِنْهُ نُورُ الْإِيمَانِ فِي الزِّنى » .

● وروى الطبريُّ في «تهذيب الآثار» وابن عساكر في «التاريخ» بإسنادٍ منقطع (٣) عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه كان يقول : « إن مثل الإيمان مثل قميصك ، بينما أنت وقد نزعته إذ لبسته ، وبينما أنت قد لبسته إذ نزعته » .

وسئل أبو هريرة عن قوله : «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فأين يكون الإيمان منه ؟ قال : «سيكون عليه هكذا» ، وقال بكفه ، فإن نزع وتاب رجع

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الحدود » باب « إثم الزناة » (٦٨٠٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الحدود» ، باب «الزنى وشرب الخمر» ، قبل حديث (٦٧٧٢) ، ووصله ابن أبي شيبة في «كتاب الإيمان» (٩٤) ولفظه أن ابن عباس قال لغلمانه : «من أراد منكم الباءة زوجناه ، لا يزني منكم زان إلا نزع الله منه نور الإيمان ، فإن شاء رده ، وإن شاء أن يمنعه منعه» ، وحسنه الشيخ الألباني هناك .

(٣) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» (٩٦٦) مسند ابن عباس ، وابن عساكر في «تاريخه» (٢٨/ ١١١، ١١٢)

إليه الإيمان»[(١)] .

وهذا مصداق حديث النبيِّ ﷺ كما روى أبو داود[(٢)] والحاكم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْه الإِيمانُ كَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ ، فَإِذَا انْقَلَعَ رَجَعَ إِلَيْه الإِيمانُ».

وسيأتي التفصيل والتوضيح لهذه المسألة ـ بإذن الله ـ ألا وهي :

○ هل لمن زنى توبة ؟ وهل للقاتل توبة ؟

● والجواب في الفصل القادم إن شاء الله تعالى ، أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ باسمه الأعظم الذي إن سُئِل به أعطى ، وإن دُعِي به أجاب ، أن يستر نساءنا وأبناءنا وأخواتنا ، وأن يصلح شبابنا ، وأن يهدي أولادنا ، وأن ينجينا ويعصمنا من الذلل ، وأن يجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب .

*****

(١) أخرجه المروزى في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٣٩) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب «السنة» ، باب «الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه» (٤٦٩٠) ، والحاكم (١/ ٧٢) ، وابن منده في الإيمان (٥١٩) ، والمروزي في «تعظيم قدرة الصلاة» (٥٣٦) ، والطبري في «تهذيب الآثار» (٢/ ١٥٤، ١٤٠٩، ١٤١٠) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٠٩) .

فَصْلٌ

هل للقاتل والزاني من توبة

○ أحبتي في الله :

لقد تحدَّثتُ في الفصل السابق في أشراط الساعة عن هاتين العلامتين الخطيرتين ، ألا وهما : كثرة القتل ، وانتشار الزنا ، وأنهيت الفصل بهذا السؤال ، وأتصور أن كثيرًا من أحبابي من إخواني وأخواتي في انتظار الجواب على هذا السؤال المهم ألا وهو :

○ **هل للقاتل والزاني توبة ؟**

● والجواب : نعم ، بدون مقدمات ؛ فلقد قال الله ﷻ - انتبه لصفات عباد الرحمن الجميلة : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان:٦٨- ٧١] يا له من فضل ويا له من كرم .

● وقال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[الزمر:٥٣] فالله - جلَّ وعلا - ينسب المسرفين على أنفسهم له ، فيجعلهم تبارك وتعالى عبادًا له ، ثم يقول لهم : ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ

ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

● وقال ربنا سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾[النساء:٤٨]، هذا هو الذنب الوحيد الذي لا يغفر ، ألا وهو : الشرك ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ حتى المشرك إن تاب ، تاب الله عليه ، و كيف يتوب المشرك ؟ بأن يخلع رداء الشرك على عتبة الإسلام والتوحيد والإيمان ، ويندم على ما مضى من شركٍ وعصيان ، ويشرع بعد ذلك في العمل الصالح الذي يقربه من الرحيم الرحمن ، حينئذٍ يقبل الله سبحانه وتعالى توبته ؛ بل يفرح الله ـ جلَّ وعلا ـ بأوبته ـ وهو الغني عن العالمين ـ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[فاطر:١٥-١٧].

فأقْبِل على الله ولا تخف يا من وقعت في كبيرة الزنا ، وأقبل ـ كذلك ـ يا من وقعت في كبيرة القتل ، ولا تخف ، والله ! سيفرحُ ربُّك بتوبتك وعودتك إليه ، لا تيأس ، و لا تقنط ما دمت توحِّد الله سبحانه وتعالى ، و ما دمت تتَّبعُ الحبيبَ رسول الله ﷺ ؛ فنحن بشر ، لسنا ملائكة بررة ، ولا شياطين مردة ؛ بل نحن نفوس بشرية فيها الإقبال والإحجام .. فيها الخير والشر .. فيها الحلال والحرام .. فيها الطاعة والمعصية .. فيها الفجور والتقوى .. فيها البعد والقرب . .

● قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ

أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧- ١٠] .

لا تقل : أنا وقعت في كبيرة كبيرة ؛ فالله ـ جلَّ وعلا ـ أكرم وأجل من أن تطرق بابه ثم يغلق الباب في وجهك !! فأقبل عليه ولا تقنط أبدًا من رحمة الله تبارك وتعالى .

○ أيها الحبيب اللبيب : ها أنت قد استمعت إلى شيء من كتاب الله تبارك وتعالى ؛ كأدلة واضحة ناصعة على أن الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يغلق باب التوبة في وجْهِ مَنْ أقبل إليه تائبًا ، ما دام ذلك قبل أن يغرغر ، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها ـ وسأتحدث عن هذه العلامة بالتفصيل إن شاء الملك الجليل .

لكن لا تسوِّف ؛ لأن الموت يأتي بغتة ، فعاهد ربك ـ الآن ـ على التوبة ، وعلى الأوبة ، وأنت على يقين مطلق بأن الله ـ جلَّ وعلا ـ سيتوب عليك ؛ بل وسيفرح بتوبتك وأوبتك وهو الغني عن العالمين .

فيا نادمًا على الذنوب أين أثر ندمك ؟ وأين بكاؤك على زلَّة قدمك ؟

واعلم أن ركن التوبة الأعظم هو الندم على ما مضى ، ليس كلَّما تذكَّرت الجريمة تكون سعيدًا ! بل يجب أن تتألم وتشعر بجُرْحٍ في قلبك ، وانكسار بين يدي ربك .

ولو كان الذنب متعلقًا بآدمي من إخوانك ؛ فعليك أن تجتهد بأن ترد هذا الحق لأهله ، لكن كيف يذهب من وقع في كبيرة الزنا إلى من ارتكب في حقه هذه الكبيرة ليقول له : قد فعلْتُ كذا وكذا ؟ لا يستطيع ، فلا عليه

فقط إلا أن يجدد الأوبة والتوبة ، ويبكي دمًا بدل الدمع ، وأن يجتهد في العمل الصالح حتى يرضي ربه تبارك وتعالى عنه ما لم يبلغ أمره إلى ولي الأمر ، ليقيم عليه حدَّ الله تبارك وتعالى .

وأزفُّ لك الآن هذه البشريات من كلام الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

● بالنسبة للقتل : فقد روى «البخاريُّ ومسلم» (١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ** ـ أي : على عابد ـ **فَأَتَاهُ ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ : لاَ ! فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً** » أعتذر لأقول كلمات قليلة جدًّا ، وسأرجع للحديث ـ بإذن الله .

فلقد قرأْتُ لأحدِ الأفاضل في عمود من الأعمدة الصحفية ، حين سمع هذا الحديث مرة من عالِمٍ أو من خطيبٍ في مسجد جامع ؛ فقال الكاتب : هذا كلام خطير ! وهذا كلام فاضي !! أنتم هكذا تفتحون الأبواب للقتل ، وبعد ذلك يقول القاتل : أنا أريد أن أتوب ! وأنا أقول له : أبدًا يا أستاذ ، ليس هذا هو المعنى ولا هو المراد ، وقَدْ بَيَّنَا حرمة الدماء ، وذكرتُ أنَّ الله لم يذكر في القرآن الكريم كلِّه وعيدًا في القتل أخطر من هذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٤٧٠) ، ومسلم ، كتاب «التوبة» ، باب «قبول توبة القاتل وإن كثر قتله» (٢٧٦٦) .

الوعيد ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:٩٣] فهذا وعيدٌ رهيبٌ للقاتل.

لكن هذا الحديث الصحيح يفتح الباب لهذا الصنف الذي تجرَّأ على سفك الدماء ، وعلى سفحها بلا مروءة ، ولا دين ، ومع ذلك نقول له : هيَّا ، طهِّر يدك من هذه الدماء ؛ فإنَّ باب التوبة مفتوح لا يغلق حتى تغرغر ، أو حتى تطلع الشمس من مغربها ؛ فما عليك الآن إلا أن تطهر قلبك من هذا المعتقد الفاسد ، وأن تقرع باب التوبة وأنت على يقين بأن الله سيقبل منك التوبة ، لكن هذا الراهب العابد الذي أفتى القاتل بفتوى لا تنضبط لا بالقرآن ولا بالسنة ، بأنه ليس له توبة ، قد أغلق باب الرجاء في وجهه ؛ وقنَّطه من الحياة ، والرجل يريد أن يبدأ صفحة جديدة ؛ فالحديث لا يفتح باب الجرأة على سفك الدماء ؛ بل يفتح باب الرجاء لمن لُطِّخت يَدَاه بالدماء ، وأراد أن يتوب إلى رب الأرض والسماء .. يفتح الباب لمن وقع في هذه الكبيرة البشعة المروعة .. يفتح الله ﷻ له باب التوبة والأوبة ، ولا تصح توبته إلا بالندم على ما جَنَتْ يداه ، والإقلاع عن هذه الكبيرة الكبيرة ، وعمل الصالحات التي ترضي رب الأرض والسماوات ؛ هذا هو مرادُ نبينا عليه الصلاة والسلام ـ أيها الأستاذ الفاضل !

● وهذا دليلٌ آخر في غاية الروعة والجمال من كلام سيد الرجال محمد بن عبد الله ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ وسأعود إلى

الحديث الأول مرة ثانية ، لكن أريد أن أدلِّل على ما أؤصله الآن ، لأنني أريد أن أخاطب القلب والعقل في آنٍ واحد .

● فقد روى البخاريُّ ومسلم [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ **قَالَ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ** ﷻ : « **أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا** » ـ وأنا وأنت ذلكم العبد ، أسأل الله أن يتوب علينا جميعًا لنتوب إليه ـ « **فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي** » وإلا فأين يذهب المذنب الحقير العاصي إلا إلى الرحمن الرحيم ـ جلَّ وعلا .

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمتُ بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فمَنْ ذا الذي يرجو ويدعو الآثم

أين يذهب المذنب إلاَّ إلى الله الحليم المنان ، وأين يذهب الفقير إلاَّ إلى الغني ، وأين يذهب الذليل إلا إلى العزيز تبارك وتعالى .. أين المفر ؟ وأين تذهبون ؟ لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ؛ فالأرض أرضُهُ ، والسماء سماؤه ، والملك ملكه ـ تبارك وتعالى .

قال : «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ؛ فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ** » ، و الربُّ ربٌّ ، والعبدُ عبْدٌ « **فَقَالَ: أَيْ رَبِّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي** » مرة ثانية ؟ نعم .. ثانية وثالثة ، طالما يرجع إلى الله بصدق ، وحرقة ندم ، ولا يظل حيث سقط ؛ فهنا يقبل الله منه « **فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التوحيد» (٧٥٠٧) ، ومسلم ، كتاب «التوبة» ، باب «قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة» (٢٧٥٨) ، واللفظ له .

فَعلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تبَارَكَ وَتَعَالَى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ؛ فَقَالَ تبَارَكَ وَتَعَالَى : اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ » وفي لفظٍ : «غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ».

● وفي الحديث الذي في« الصحيحين »[(١)] من حديث أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جزءًا وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا ، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلائِقُ ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ » .

لقد أنزل الله جزءًا واحدًا إلى الأرض من هذه الرحمة العظيمة منها : رحمة النبيِّ محمد .. رحمة الأم بولدها .. رحمة الوالد بولده .. رحمة الطبيب بمريضه .. رحمة الغني بالفقير .. رحمة القوي بالضعيف ، كلُّ صور الرحمة الرقراقة الجميلة التي تراها في الكون ، إنما هي جزءٌ من جزءٍ من مائة جزء من رحمة الرحمن الرحيم ـ جل جلاله .

والله مَنْ عرف الله و عرف رحمته لا ييأس أبدًا ، ولا يقنط أبدًا ، مهما ارتكبَ من الكبائر ، ومهما ارتكبَ من المعاصي ، لكن ـ أخي ـ من الآن اترك الذنب ، واندم على ما مضى ، وعاهد ربك سبحانه وتعالى على التوبة والأوبة والعمل الصالح ، ووالله الذي لا إله غيره سيفرح الله ـ جلَّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» ، باب «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته» (٦٠٠٠) ، ومسلم ، كتاب «التوبة» ، باب «في سعة رحمة الله» (٢٧٥٢) .

وعلا ـ بتوبتك وأوبتك، وهو الغني عن العالمين .

● ففي «الصحيحين»(١) من حديث عُمَرَ بْنِ الْـخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بِسَبْيٍ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إذا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ » ـ إذا ضاع ولدُ الأم ضاع مع ولدها عقْلُها تمامًا .. تفقد العقل ، ويطير صوابها ، ويطيش منها كلُّ شيء ، وربما تخرج لتبحث عنه وقد لا تلبس حجابها ، أو كامل ثيابها ؛ لقد طار عقلها، والعقلُ مناط التكليف ، ومع ذلك فإن النبيَّ ﷺ وهو يرى هذه الأم ، وقد وضعت طفلاً على صدرها وأرضعته يسأل الصحابة ، ويقول : « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْـمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟» قَالُوا : لاَ ، وَالله، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فقَالَ رسول الله ﷺ: « للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » .

● قال أحد الصالحين : «اللهم إنك تعلم أن أمي هي أرحم الناس بي ، وأنا أعلم أنك أرحم بي من أمي ، وأمي لا ترضى لي الهلاك والعذاب ، أفترضاه لي أنت وأنت أرحم الراحمين ؟» .

يا أخي ؛ أقبل على الله بقوة ولا تخف ؛كما قال تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] .

وكما قال تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص:٣١] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأدب» ، باب «رحمة الولد وتقبيله» (٥٩٩٩) ، ومسلم ، كتاب «التوبة» ، باب «في سعة رحمة الله» (٢٧٥٤) .

كلُّنا مقصرون ، وكلُّ بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون . حتى القتل ؟ نعم .

○ ارجع معي مرة أخرى لحديث قاتل التسعة والتسعين نفسًا [١] قال ﷺ :

« كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ؛ فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : لاَ ! فَقَتَلَهُ ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ - مرة أخرى؟ نعم - فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ - وهنا سترى فضل العلم ومكانة العلماء - فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ - وهذا هو نور العلم - « وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟!» هل هناك أحدٌ على وجه الأرض يستطيع أن يغلق باب التوبة في وجه أحد ؟ لا ..لا يحل لنا أن نتألى على ربِّنا جلَّ وعلا - وأن نحكم لفلان بجنة أو بنار ، لأن ذلك ليس من حقِّ العبيد ، إنما هو من شأن العزيز الحميد سبحانه وتعالى الذي يعلم خاتمة كلِّ إنْسان .

« فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ » .

○ لكن هناك شروطٌ للتوبة فما هي ؟ قال العالم البصير : « انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى

---

(١) وقد تقدم معنا قريبًا .

أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ » .

لابد وأن تغير بيئة المعصية ، والصحبة التي أَزَّتك أزًّا على الزنا ، وعلى الوقوع في القتل ، وعلى شرب الخمر .. لابد وأن تتخذ القرار بقوة ، ورجولة ، وهمة عالية .

وعلى قَدْر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قَدْر الكرام المكارم

وتَعْظُم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

*****

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

نعم .. لابد وأن تتخذ القرار برجولة ، وأن تُبدِّل الصحبة السيئة ، وأن تمتثل أمر حبيبك المصطفى ﷺ الذي قال : « **لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا ، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ** »[1] لا تصاحب إلا الأفاضل، الأتقياء ، الأخيار وفي «الصحيحين»[2] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« **مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً** ».

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب «الأدب» ، باب «من يؤمر أن يجالس» (٤٨٣٢) ، والترمذي ، كتاب «الزهد» ، باب «ما جاء في صحبة المؤمن» (٢٣٩٥) وقال : « حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه» ، وابن حبان (٥٥٤ ، ٥٦٠) ، وحسنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٣٤١).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الذبائح والصيد» ، باب «المسك» (٥٥٣٤) ، ومسلم «كتاب البر والصلة والأدب» ، باب «استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء» (٢٦٢٨) .

وهذا ليس تحريمًا لعمل الحدادين ! حاشا وكلّا ، ولكنه تشبيهٌ للجليس الصالح والجليس السوء ، فانتبه له أشد الانتباه ! لا تدخل بيتك إلا الأتقياء ، ولا تقدِّم طعامك وشرابك إلا لأهل الصلاح ، وأهل الفضل والتقى ، والدين ؛ فلابد من تغيير البيئة .

فهذا العالم يوصيه ، ويقول له : « انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ الله فَاعْبُدِ الله مَعَهُمْ ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ» ، فخرج و عقد العزم والنية ، وبدأ بالفعل يسير نحو أرض التوبة والعبادة .. لم ينو مجرد نية وفقط وترك التنفيذ ! لا ؛ بل نوى ، وتحرَّك بالفعل ، يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « فَانْطَلَقَ ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ » أي : وصل إلى منتصف الطريق ، بين أرضه أرض السوء والمعاصي ، وبين أرض الطاعة والتوبة والعبادة ، « فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله ، وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ » أي : حكمًا بينهم «فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ» أي: بين أرض التوبة وبين أرض المعصية ، « فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ ».

يقول ﷺ : «فَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي ، وَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي ، وَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا ، فَقَاسُوا الْمَسَافَةَ ، فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى أَرْضِ التَّوْبَةِ بِشِبْرٍ ، فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ» ـ بِرَحْمَةٍ مِنَ الله جَلَّ وَعَلاَ تاب عليه ، وفي

رواية : « **فغُفِر لَهُ** » .

هل من ارتكب الزنا وتاب إلى الله يتوب الله عليه ، و لا يعاقبه في أهله ، ولا في أولاده ؟ نعم ؛ لأن التوبة تجبُّ ما قبلها ؛ لكن بشرط أن يصدق مع الله سبحانه وتعالى ، وقد يقول قائل: أنا تبتُ لكنني أضعف أحيانًا ، فأقول : جدِّد التوبة ، والأوبة ، واعلم بأن الله لا يملُّ حتى تملَّ ، ولا تمضي علينا ليلة إلا ويتنزل ربنا ـ تبارك وتعالى ـ إلى السماء الدنيا ، تنزُّلًا يليق بكماله وجلاله ؛ فكلُّ ما دار ببالك، فالله بخلاف ذلك ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] ، لا تعطل صفةً من صفات الحق ، ولا تكيِّف ، ولا تشبه صفةً للخالق بصفةٍ للمخلوق ؛ جلَّ ربُّنا عن الشبيه و النظير و المثيل و الكفء ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه:٥] استوى كما أخبر ، على الوجه الذي أراد ، والمعنى الذي قال، استواءً منزهًا عن الحلول والانتقال ؛ فلا العرشُ يحمله ، ولا الكرسي يسنده، بل العرش وحملته ، والكرسيُّ وعظمته ، الكلُّ محمولٌ بقدرته ؛ مقهورٌ بجلال قبضته ؛ فالاستواء معلومٌ ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . فالله يتنزل .. لماذا ؟

● في «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **يَنْزِلُ الله إِلَى السَّماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلِ ، فَيَقُولُ: أَنَا**

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التهجد» ، باب «الدعاء والصلاة من آخر الليل» (١١٤٥) ، ومسلم ، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها» ، باب «الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه» (٧٥٨/ ١٦٩) . واللفظ لمسلم .

الـْمَلِكُ أَنَـا الـْمَلِكُ ، مَنْ ذَا الَّـذِي يَـدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَـهُ ، مَنْ ذَا الَّـذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَـهُ ، فَلاَ يَـزَالُ كَـذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ » .

● وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن الحبيبَ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله عز وجل يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

وهذه علامةٌ كبرى من العلامات التي سوف أتكلَّم عنها بالتفصيل ـ إن شاء الملك الجليل .

● وكذا من ارتكب كبيرة الزنا ، وأراد أن يتوب إلى الله ، فندم، وأقلع عن الذنب ، وعمل صالحًا فإن الله يقبله بموعوده جلَّ جلاله ، وبموعود الصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

● تدبَّر معي هذه الرواية الجميلة ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلم(٢) : جَاءَ مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! طَهِّرْنِي ـ فقال له النبيُّ ﷺ : « وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ الله ، وَتُبْ إِلَيْهِ » ـ صلى الله على الرحمة المهداة ، والنعمة المسداه ، فالإسلام ليس متعطشًا لسفك الدماء كما يفتري الأعداء ـ فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ جَاءَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! طَهِّرْنِي ـ مرة ثانية ؟ نعم ـ فماذا قال النبيُّ ﷺ ؟! قال : «وَيْحَكَ ارْجِعْ ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «التوبة» ، باب «قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة» (٢٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الحدود» ، باب «من اعترف على نفسه بالزنا» (١٦٩٥) .

فَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، وَتُبْ إِلَيْهِ» فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ جَاءَ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! طَهِّرْنِي ، فقال النبيُّ ﷺ للمرة الثالثة: « **وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ** » ثلاث مرات ، فالنبيُّ ﷺ كلُّه رحمة ، وكلُّه رقة ، وعطف وحنان .

والله لو رجع ماعز بن مالك ، واستغفر الله ، وتاب إليه ، لتاب الله عليه ، وربُّ العزة يقول في حق المصطفى ﷺ : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٢٨] وأنا أركِّز على هذه الجزئية ؛ لأَننا كثيرًا ما نسمع أن الإسلام دينٌ متعطشٌ للدماء ! لا ؛ فهو دين يقدِّر الدماء ، ويحترم الحياة ـ وقد ذكرت ذلك قبْلُ بالتفصيل ـ وأرجو الله ﷻ أن يوجد في الأمة مَنْ يُتَرْجم هذه الكلمات بلغات مختلفة ، مكتوبة أو مسموعة ؛ ليقرأها أهل الشرق ، وأهل الغرب ، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يدلَّ الخلق عليه ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فالنبيُّ ﷺ يقول لماعز بن مالك ـ ثلاث مرات : « **وَيْحَكَ ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ** » فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ جَاءَ ـ في الرابعة ـ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ! طَهِّرْنِي ـ الرجل يعترف ، والاعتراف سيِّد الأدلة كما يقولون ـ فقَالَ ﷺ: « **مِمَّ أُطَهِّرُكَ؟** » قَالَ : مِنَ الزِّنَا ! فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَبِهِ جُنُونٌ؟** » ـ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ ـ قالوا : لا يا رسول الله ـ إذًا يكفي هذا ، لكنه ﷺ سأل سؤالًا آخر ـ فَقَالَ : « **أَشَرِبْتَ خَمْرًا ؟** » ـ أي : لعبتِ الخمرُ برأسك ، فلا تدري ما تقول ؟ ـ فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ ـ أي : شم نكهة فمه ، فقال : لا يا رسول الله لم يشرب خمرًا ، وبعد كلِّ هذا ـ قَالَ النَّبِيُّ

ﷺ: «أَزَنَيْتَ ؟» قَالَ : نَعَمْ ، فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَرُجِمَ .

وَكَانَ النَّاسُ فِيهِ فِرْقَتَيْنِ : قَائِلٌ يَقُولُ : قَدْ هَلَكَ مَاعِزٌ عَلَى أَسْوَءِ عَمَلِهِ ، لَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ . وَقَائِلٌ يَقُولُ : مَا تَوْبَةٌ أَفْضَلَ مِنْ تَوْبَةِ مَاعِزٍ أَنْ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : اقْتُلْنِي بِالْحِجَارَةِ ! قَالَ: فَلَبِثُوا بِذَلِكَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَهُمْ جُلُوسٌ ، فَسَلَّمَ ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ : « اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ » .

هذا الرجل زنا ، وأقيم عليه الحد بأمر رسول الله ﷺ ، لكن رسول الله ﷺ نفسه يأمر الصحابة أن يستغفروا له ، نعم يا أخي ! أنا وأنت بشر ؛ فلا تنظر إلى الناس هذه النظرة الجامدة الجافة ، وكأنك مبرأٌ من كُلِّ عيب، ومطهر من كلِّ ذنب ، وقد ضمنت الخاتمة !! لا والله ، إن بيتي من زجاج ، وبيتك من زجاج ، ومَنْ كان بيته من زجاج لا يجوز له ـ إن كان عاقلًا ـ أن يقذف الناس بالحجارة ، لسنا ملائكة مقربين ، والله لا يدري أحدُنا بأيِّ حالٍ سيختم له ــ أسأل الله ﷻ أن يختم لي ولكم جميعًا بالإيمان ــ وأصحاب القلوب الكبيرة قلَّما تستجيشها دوافع الغلظة والقسوة والانتقام .. إنها قلوب مليئة بالرحمة واللين والرقة ، فلا تنظر إلى الآخرين نظرةَ غلظةٍ وقسوة ؛ قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت:٣٤] .

وها هم سحرةُ فرعون كانوا من لحظةٍ يقولون : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا

لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٤] وفي لحظةٍ واحدةٍ حين أضاءت القلوب بنور التوحيد والإيمان ، عادوا إلى الرحيم الرحمن ، وسجدوا لرب موسى وهارون ، وقالوا لفرعون كلمتهم الخالدة : ﴿لَا ضَيۡرَ﴾ [الشعراء:٥٠] ، أي : افعل ما تريد ؛ وفي لغتنا الدارجة : أعلى ما في خيلك اركبه ؛ فلقد ذاقت القلوب حلاوة الإيمان ، وزاد يقينها بموعود ربها ، فلم تعد تخشى أحدًا سواه .

وهنا النبيُّ ﷺ يقول لأصحابه الأطهار كأبي بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم : « **اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ** » فَقَالُوا : غَفَرَ الله لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ . فلم يقولوا : كيف نستغفر له وهو زانٍ يا رسول الله ؟! لا ، ما قالوا ذلك ، إنه أمرٌ نبوي ؛ ثم قال الحبيب ﷺ : « **لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهَا** » .

قَالَ : ثُمَّ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ مِنَ الأَزْدِ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ! طَهِّرْنِي ؛ فَقَالَ :« **وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي الله وَتُوبِي إِلَيْهِ** » فَقَالَتْ : لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ ؟ فَقَالَ :« **وَمَا ذَاكِ ؟** » قَالَتْ : إِنَّهَا حُبْلَى مِنَ الزِّنَا ؛ فقال الرحمة المهداة والنعمة المسداة :« **ارْجِعِي حَتَّى تَلِدِي** » فعادت المرأة حتى وضعت ولدها ، ثُمَّ جَاءَتْ بِوَلَدِهَا فِي خِرْقَةٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَقَالَتْ : « هَا هُوَ يَا رَسُولَ الله قَدْ وَلَدْتُهُ » ما زوَّرتْ جواز السفر! وما هربت خارج البلاد ! ؛ بل هي التي أتت بنفسها ؛ فماذا قال لها الرحمة المهداة ؟ قال : «**ارْجِعِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ**» إنها سترضعه

سنتين! فهل هذا هو الإسلام المتعطش لسفك الدماء ؟!! **اقرؤوا يا دعاة التشكيك** - فَجَاءَتْ بِهِ ، وَقَدْ فَطَمَتْهُ، وَفِي يَدِهِ شَيْءٌ يَأْكُلُهُ ، فَأَمَرَ بِالصَّبِيِّ ، فَدُفِعَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَرَ بِهَا ، فَحُفِرَ لَهَا، وَأَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ - فالمرأةُ وهي امرأة ! - لم تهرب بعد سنتين ؛ لأن المصطفى ﷺ ربَّى هؤلاء على مراقبة رب الأرض والسماء ، لا على مراقبة قانون هنا أو هناك أو هنالك ، أو على مراقبته هو - بأبي هو وأمي وروحي - أبدًا ؛ بل علَّمهم أن يراقبوا الحيَّ القيوم الذي لا يموت .

ما أحوجنا إلى هذا الدرس .. أريد من كلِّ مسلم أن يراقب ربه الذي يسمع ويرى ؛ فالله يسمعك ولو كنت وحدك ، ويراك ولو كنت وحدك ، فلا تراقب القانون ، وإنما راقب رب العالمين.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قُلْ عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يَغْفُل ساعة ولا أنَّ ما تُخْفي عليه يغيب

● قال جلَّ وعلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾[المجادلة:٧] .

فهو سبحانه معهم في أي مكانٍ كانوا بعلمه ، وببصره .. لا تُجسِّم ولا تشبه ولا تحيز ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] .

فجاءت المرأة الغامدية بعد سنتين ليقيم النبيُّ ﷺ عليها الحد ، وَأَمَرَ بِهَا ،

فَرُجِمَتْ ، وَكَانَ خَالِدٌ فِيمَنْ يَرْجُمُهَا ، فَرَجَمَهَا بِحَجَرٍ ، فَوَقَعَتْ قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهَا عَلَى وَجْنَتِهِ فَسَبَّهَا ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « **مَهْلاً يَا خَالِدُ ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ .. ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ** ».

نعم .. صلَّى النبيُّ ﷺ عليها ، و الدليل على ذلك ـ كذلك ـ ما ثبت في « صحيح مسلم »[١] ، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستفهم من رسول الله ﷺ ويقول : يَا رَسُولَ الله ! أَتُصَلِّي عَلَيْهَا وَقَدْ زَنَتْ؟! فقال النبيُّ ﷺ : « **لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لله تَعَالَى ؟** ».

و الأدلة في هذا الباب واضحة ، وقد أطلتُ النفس في هذا للجواب على هذا السؤال الخطير ؛ لأفتح باب الرجاء للمذنبين وللمقصرين ـ من أمثالي ـ للإقبال على رب العالمين ، فحتى لو وقعتَ في كبيرة القتل ، طهِّر يدك من هذه الدماء الحرام ، وطهِّر قلبك من هذا المعتقد الفاسد الباطل ، وكذا كبيرة الزنا طهر أعضاءك ، وحصِّن فرجك ، وعليك بالتوبة والأوبة والندم ، والعودة إلى الله سبحانه وتعالى . فلو عاد العبد إلى الله سبحانه و تاب توبة صادقة تاب الله عليه .

○ وأختم بهذا الموقف المؤثر ؛ فقد كنت في مكان عام ، وأقبل عليَّ شابٌّ، واستقبلني بحفاوة بالغة ، وأقسم لي بالله أنه يحبني ، ثم بكى ،

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٦) .

فقلْتُ له : أخي الحبيب ، لماذا البكاء؟ قال : والله يا شيخ ، لقد جعلك الله سبب هدايتي وتوبتي ، قلت : الحمد لله ، اللهم اجعل عملنا خالصًا لوجهك الكريم ، وتقبل منا وجنبنا الرياء والنفاق ، وارزقنا الصدق في الأعمال والأفعال والأحوال ، اللهم لا تجعل حظنا من ديننا قولنا وأحسن نياتنا وأعمالنا يا رب العالمين .

ثم قلْتُ : أَخْبِرْنِي ـ أخي الحبيب ـ فذكر بأنه لا توجد سُفْرةٌ توضع إلا ويضعون الخمر عليها قبل أن يضعوا الماء ! ثم قال : أنه ألحق بمكتبهِ الفَخم غرفةً خاصة للزنا ، وأخبرني بأنه عيَّنَ بالفعل موظفًا لهذا الغرض ، ليأتيه بأجمل الفتيات والبنات ـ اللهم استر نساءنا وبناتنا وأخواتنا ، وأصلح شبابنا ، واهد أولادنا ، وحصن فروجنا ، يا أرحم الراحمين ـ ويقول لي : تقريبًا ليلة الثالث من رمضان من الرمضانات الماضية سمع ناسًا في الخارج يصلون التراويح، يقول : وأنا أهزأ ، وأسخر من هؤلاء الدراويش ! وأقول لنفسي : ما هؤلاء الناس ؟ ما الذي جرى لها ، ماذا يفعلون ؟ ويقسم لي بالله أنه ما ركَعَ لله ركعة قط ! وأنا أتصوَّر أنه قد جاوز الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا ، وهو من أسرة مرموقة ومعروفة ـ أسأل الله أن يسترنا في الدنيا والآخرة ـ ؛ يقول لي : في هذه الليلة أحضروا له فتاةً حسناء، لكنه لم يستمتع بها بعدما فعل بها الفاحشة ـ لم يشعر بالمتعة كما يقول ـ فأمر هذا الموظف الذي خصَّصه لهذا الغرض أن يذهب ليأتي له بفتاةٍ أخرى أجمل ، قال: فخرج ، يخبرني بأنه أمسك بالريموت ، وظلَّ

يبحث في القنوات عَن فيلْم فاضح ! ليعيش معه بقية الوقت حتى تأتيه الفتاة ، يقول : سبحان الله ! وهو يقلِّب القنوات : رأيت وجْهَك على الشاشة ، قلْتُ : ما الذي أتي بهذا هنا خطأ ؟لكنني انتظرت ثانية ، ثانيتين ، عشر ثوانٍ ، و أنا أنظر إلى صورتك ، أرى المشهد : لحية وموعظة في التليفزيون ، وأقول لنفسي : لا ينفع أن يكون هذا هنا ! قال : فمر بي ربع دقيقة ، ثم نصف دقيقة ، والريموت في يدي ، بدأتُ أسمع فقلتُ له : أراد الله أن يسمعك ، و أراد بك الهدى والخير ـ يقول : بدأت أسمع دقيقة ، ثم ثلاث دقائق ، وضعت الريموت ، وبدأت أبكي ؛ يقول لي: و المحاضرة كانت بعنوان «خطر الزنا» ، يا الله ! تقديرٌ ربانِّي ، لا يستطيع أحدٌ ترتيبها ، والمحاضرة كانت في دولة من دول الخليج ، و كانت منقولة على الهواء ، فبينما هو يقلِّب فقط في القنوات أراد ربُّ الأرض والسماوات أن يُسْمعه تلك المحاضرة من العبد الفقير إلى الملك القدير ، يقول : أدركْتُ منها أكثر من أربعين دقيقة ، والمحاضرة مدَّتُها ساعة ، وكان يحدث نفسه ، ويقول : بكَيْتُ ، وكأني لم أبكِ في حياتي من قبل ! ودخل إلى مكتبهِ الخاصِّ به واغتسل ، ورفع جنابة الزنا ـ للمرة الأولى ـ وبعد فترة دخل عليه هذا الموظف بهذه الفتاة الحسناء ، ومعه موظفٌ آخر ، فنظروا على المكتب ، فلم يروا أحدًا ؛ فنظروا فوجدوا رجلًا ساجدًا بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ يبكي وينتفض من البكاء ، غير مصدقين! أين فلان ؟! لا يمكن أن يكون هذا هو! ألم أقل لك : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ

كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت:٣٤] .

○ يا إخواني ؛ روى الإمام مسلم [١] عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ . كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ** ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ** ».

القلب مثل الغرفة المظلمة ، تدخل فإذا هي ظلام دامس لا ترى شيئًا؛ تتحسس الجدران ، وبمجرد أن يلمس طرف أصبعك مفتاح النور ، وتضغط عليه ضغطة رقيقة جدًّا يحول نورُ المصباح الظلام الدامس إلى نورٍ مشرق ؛ كذلك القلب إن لامسَتْه أنوار الهداية تحوَّل ظلامُه الدامس إلى نور مشرق بفضل الله ـ جلَّ وعلا ـ بفضل من بيده القلوب ؛ فلما دخلوا على أخينا وهو ساجد قالوا : يا فلان ! ما الموضوع ؟ ما الذي حدث ؟ أنت كنت منذ قليل ...!! ، فبكي ! وقال لهم : والله حدث كذا وكذا وكذا .. سألوه عن تلك الفتاة التي أتوا بها إليه ! فقال لهم : لا .. انتهى. يا الله ! ذاق قلبُه حلاوة الإيمان ، وطعم الإيمان ؛ فانصرفت هذه الفتاة ، وما عاد بحاجة إليها ، ويقسم لي بالله في حديثه معي أن هذا الكلام كان ليلة الثالث من رمضان ، وفي اليوم الخامس من رمضان ذهبت أنا وزوجتي إلى مكة للعمرة ، ويقول : وصلَّيتُ من هذه الليلة ، ولم أترك الصلاة بفضل الله ـ جلَّ في علاه ـ ثم بشَّرني بشرى أخرى جميلة ، قال ـ وهو

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٢٦٥٤).

يقسم بالله بأن فرجه ما مسَّ إلا امرأته بعد هذه الليلة !! فهذا فضل الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ؛ فلا تيأس أبدًا ـ أخي ـ من رحمة الله ، ولا تقنط أبدًا من رحمة الله سبحانه ، من الآن اطرح قلبك بذلٍّ وانكسار بين يدي العزيز الغفار ، واعترف له بفقرك ، وضعفك ، واعترف له بعجزك وتقصيرك وأخطائك، وقل:

بك أستجير ومن يجير سواك ... فأجر ضعيفًا يحتمي بحماك
إني ضعيفٌ أستعين على قويٍّ ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك
أذنبت يا ربي وقادتني ذنوب ... مالها من غافر إلاك
دنياي غرتني وعفوك شدَّني ... ما حيلتي في هذه أو ذاك
لو أنَّ قلبي شكَّ لم يك مؤمنًا ... بكريم عفوك ما غوى وعصاك
ربَّاه ها أنا ذا خلَّصتُ من الهوى ... واستقبل القلبُ الخليُّ هداك
ربَّاه قلبٌ تائبٌ ناجاك ... أتردُّه وتردُّ صادق توبتي
حاشاك ترفض تائبًا حاشاك ... فليرض عني الناس أو فليسخطوا

أنا لم أعد أسعى لغير رضاك

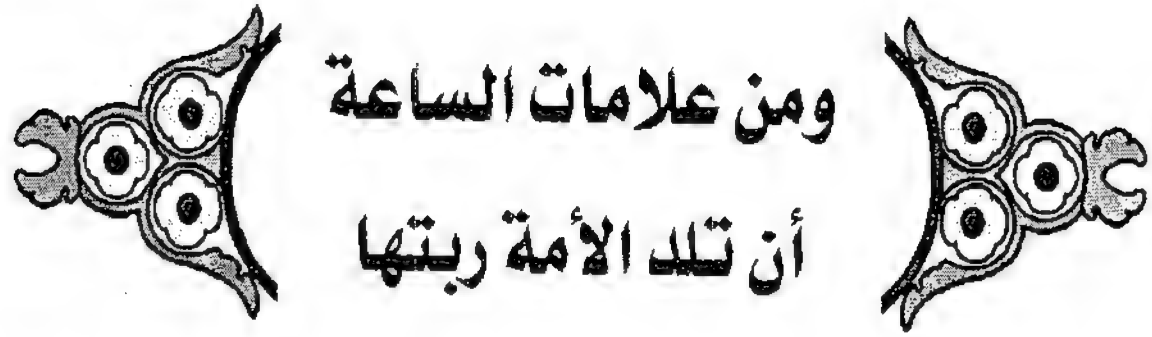
• قال سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨] .

○ أيها الأفاضل : ومن علامات الساعة: «**أن تلدَ الأمةُ ربتها**» وفي لفظٍ : « **أن تلد الأمة ربَّها** » ما معنى ذلك ؟ هذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يتوب علينا لنتوب إليه ، وأن يغفر لنا ذنوبنا وأن يستر علينا عيوبنا ، وأن يفرج كروبنا، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****



ومن علامات الساعة أن تلد الأمة ربتها

ما معنى هذه العلامة ؟ ما معنى أن تلد الأمة ربتها أو ربها ؟ تدبر معي هذا الحديث ، وهو جزءٌ من حديث جبريل الطويل في «**صحيح مسلم**»(١) ، وسأذكر الحديث بطوله لجماله وجلاله .. لدروسه وعظاته وعبره ، وما أكثرها ، ولِمَ لا؟ وهو حديثُ مَنْ آتاه الله جوامع الكلم ﷺ ؛ قال الإمام مُسلم ـ رحمه الله تعالى : حَدَّثَنِي أَبُو خَيْثَمَةَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ كَهْمَسٍ ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ (ح) وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله ابْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ ـ وَهَذَا حَدِيثُهُ ـ حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا كَهْمَسٌ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ : كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ ـ يعني: بنفي القدر ـ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ ؛ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلاَءِ فِي الْقَدَرِ ؛ قال : فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا دَاخِلاً الْمَسْجِدَ ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي ، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ . فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلاَمَ إِلَيَّ ـ يعني : سيتركني أسأل عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ فَقُلْتُ : أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب «بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى» (٨) .

الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ ـ يعني : يبحثون عن غوامض العلم وخوافيه ودقائق مسائله ـ وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ - وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لاَ قَدَرَ وَأَنَّ الأَمْرَ أُنُفٌ ـ يعني : لا يعلم الله الأشياء إلا بعد أن تحدث وتقع ـ فَقَالَ : عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﵄ : فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي . وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ الله مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ ؛ ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁ قَالَ : بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ ، لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« **الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** » قَالَ : صَدَقْتَ. قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ ؟ قَالَ ﷺ :

« **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »، قَالَ : صَدَقْتَ. قَالَ : فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** » ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟

ـ وهذا هو الشاهد ـ فقال الصادق ﷺ : « **مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ**

السَّائِلِ»، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟ ـ يعني : عن علاماتها وأشراطها ـ فقال ﷺ: « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا » وفي لفظٍ: « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ » ؛ قَالَ : ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي ﷺ: « يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ » قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ » .

○ والشاهد من الحديث الجميل : قوله ـ عليه الصلاة والسلام : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا »، وفي الأخرى: « رَبَّهَا » ، والسؤال : ما معنى ذلك؟

● قال بعض أهل العلم [1]: « يتزوج الرجل السيدُ الأمةَ» ، والأمة : امرأة من الإماء العبيد ؛ فيتزوج السيدُ الحرُّ أمةً من الإماء ، فتنجب له ولدًا ، فينسب هذا الولد من هذه الأمة إلى أبيه ، وينشأ سيدًا بانتسابه لأبيه ، في الوقْتِ الذي تبقى فيه أُمُّهُ أَمَةً من الإماء ؛ فقوله: « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا »؛ أي: سيدها ، أو « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا » أي: تُنجب هذه الأمة بنتًا فتُصبح البنتُ سيدةً بالانتساب لأبيها ، وتبقى الأُمُّ من الإماء ؛ فتلد الأمة ربتها أي سيدتها ، هذا قولٌ لبعض أهل العلم .

●● ومنهم من قال [2]: « أن تلد الأمة ربتها » أو « ربها » بمعنى : قد ينكح السيدُ أمةً من الإماء فتنجب ، ويكبر ابن هذه الأمة ، ثم تُباع هذه الأمة في سوق من الأسواق ، وتعود هذه الأمة لتكون أمةً عنده ، وهي في

(١) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٥٣) .

(٢) انظر: المصدر السابق.

الأصل أُمَّهُ ؛ هذا معنى .

○ وأوجه المعاني وأحسنها لقول رسول الله ﷺ : « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا** ـ أو ـ **رَبَّهَا** » .

● **قال الحافظ ابن حجر** (١) : « كثرة العقوق من الأولاد ، قال : وهذا أمرٌ يكون بالقُرب من قيام الساعة ؛ لأن الأمور تنعكس بين يدي الساعة ، فيصير المُرَبَّي مُرَبِّيًا ، والسافل عاليًا ، فيُعامل الولدُ أُمَّهُ معاملةَ السيد لأَمَتِهِ من الإهانة ، والضرب، والاستخدام، فأطلق عليها ربها مجازًا لذلك . أو المراد بالرب المربي فيكون حقيقة . قال: وهذا أوجه الأوجه عندي لعمومه » . اهـ. بتصرف.

○ قلْتُ : فهذا أقربُ الأقوال لكلام سيد الرجال ﷺ ، وأظن أن هذه العلامة بهذا المعنى قَد كَثُرت وانتشرت بصورةٍ تُدمي القلب ، كَثُر العقوق فأصبح المُرَبَّي مُرَبِّيًا .. أصبح الابن الذي يتربى على يدي والده وعلى يدي أمِّهِ أصبح مُرَبِّيًا يأمر الوالد ، ويأمر الأمَّ بصورةٍ لا تليق بمقام الأم الكريمة ، أو بمقام الوالد الكريم ؛ فكثرة العقوق علامةٌ من علامات الساعة ، بنصِّ حديث رسول الله ﷺ : « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا** » ، أن تعامل البنتُ أمَّها معاملة السيدة لأمتها ، وأن يعامل الولد أمه معاملة السيد لأمته ، وهذه الصورة انتشرت ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،

---

(١) المصدر السابق بتصرف.

انتشر العقوق بصورة مؤلمة تدمي القلب .

○ أَقُولُ : الوالدان نعمةٌ من أجلِّ النعم ، وقد لا يفطن كثيرٌ من أولادنا وإخواننا إلى هذه النعمة إلا إذا افتقدها ، أسأل الله أن يبارك في أعمار والدينا جميعًا ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

الوالدان يندفعان بالفطرة بالحب ، والعناية ، والرعاية ، والإحسان إلى الأولاد ؛ بل ربما يُضحِّي الوالدان بالذات .. بالعرق .. بالعافية .. بالراحة .. بالطعام .. بالشراب من أجل إسعاد الأولاد ، وتجد أسعد لحظة حين يُخْرِجُ الوالدُ الطعام من فمه ليُطعمه وَلَدَهُ ، وأسعد لحظة على الأم حين تسهر الليل كاملًا من أجل أن ينام طِفْلُها ، أو من أجل أن يستريح ولدُها ، أو أن تسعد ابنتها ، تلك أسعد اللحظات عند الوالد والوالدة ، وأنا أعلم أن كلَّ من رزقه الله الولد يَعْرِفُ قَدْرَ الوالدَيْن بعد ما أصبح مسؤولًا ، ويعلم يقينًا إلى أيِّ حَدٍّ قَدَّم الوالد الكريم ، وقدمت الوالدة الكريمة ؛ لأنه الآن في مرحلة عطاء ؛ فكما تمتصُّ النبتة الخضراء كلَّ غذاءٍ في الحبة ، فإذا هي كسرةٌ هَشة على سطح الأرض تَذْرُوها الرياح ، وكما يمتصُّ الفرخ كلَّ غذاءٍ في البيضة ، فإذا هي قشرة هشة ، كذلك يمتصُّ الأولاد كل رحيقٍ ، وجهدٍ ، وعطاءٍ ، وعافيةٍ في الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية ، وهما مع ذلك سعيدان ، فعطاء الوالدين لا ينفد ولا ينتهي .

لكن من الأولاد ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ من ينسى هذا العطاء والحب والحنان ! ويندفع في جحودٍ ووحشيةٍ وعصيان ونكران ، بالإساءة

إلى الوالدين ، بلا شفقة ، أو رحمة ، أو إحسان ! ويبلغ العقوق الأسود مُنتهاه ، حين يسيء الولد لأبيه ، أو حين يضرب الابنُ أُمَّه ، والله أقرأ أحداثًا تخلع القلب ، إن دلَّت فعلًا فإنما تدلُّ على قُرْب قيام الساعة ، يرفع الابن يده على أبيه ، أو أن ترفع البنت يدها على أمها ! إنها صورة بشعة من صور العقوق .

ولذلك فقد أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادته وتوحيده مباشرةً ، أريد منك أن تتصور كرامة الوالدين ، ومكانة الإحسان إلى الوالدين .

● تدبر معي قول الله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣] ؛ بل وجعل النبيُّ ﷺ الشرك أكبر الكبائر ، وجعل الكبيرة التي تلي كبيرة الشرك هي : العقوق ؛ فأين هذا الكلام ؟! فإنِّي خائفٌ وجلٌ ، فَأَرْشِدْني أرشدك الله.

● قال ﷺ ـ كما في «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه :

« **أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟** » .

قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله! قَالَ : « **الإِشْرَاكُ بِالله وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** »

وددت أن لو سمع هذا الكلام أبناؤنا جميعًا ، الشرك أكبر كبيرة ، وأظلم

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها (٧٨) .

الظلم ، وأبشع ذنبٍ يرتكب على وجه الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

● وقال الله ـ جلَّ وعلا ـ لإمام الموحدين ، وقدوة المُحققين ، وسيد المرسلين ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ ﴾ تدبَّر شدّة هذا الوعيد ؛ يقول الله لنبينا ﷺ : ﴿ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾

[الزمر:٦٥،٦٦]

ثم ترى خطورة عقوق الوالدين بعد خطورة الشرك ؟! نعم بعد الشرك .

تدبر ولدي الحبيب ، وانتبهي ابنتي الغالية الفاضلة ، وأنت أخي الكريم فالأمر جدٌّ خطير.

○ يقول ابن عباس رضي الله عنهما (١) : « ثلاثُ آياتٍ نزلت مقرونةً بثلاثٍ ، لا تُقْبل واحدةٌ بدون قرينتها :

● الأولى : قول الله ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة:٩٢] ، فمن أطاع الله ولم يطع الرسول فلا يُقبل منه .

● والثانية : قوله ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣] ، فَمَنْ أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فلا يقبل منه .

---

(١) ذكره الذهبي في الكبائر (٥٤) ، والهيتمي في الزواجر (٢/ ١٤٧) .

● والثالثة : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان:١٤] ، فَمَنْ شكر الله ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه » .

○ هل تعلم أن العقوق : سببٌ من أسباب الطرد من رحمة الله ، والحرمان من الجنة ، مهما تُقَدِّم فلا فائدة ؛ لأن الله لا يقبل منك صرفًا ولا عدلًا : أي فرضًا، ولا نفلًا يوم القيامة ، نعم .. العقوق كبيرةٌ بشعةٌ جدًّا ، وهي تنتشِرُ الآن بصورة مؤلمة.

● روى ابن أبي عاصم في كتاب «السنة» ، وكذلك الطبراني في «معجمه» وغيرهما بسندٍ حسن [1] من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « **ثَلاَثَةٌ لَا يَقْبَلُ الله مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً : عَاقٌ ، ومَنَّانٌ ، ومكَذِّبٌ بِالقَدَرِ** » .

● وفي الحديث الذي رواه الإمام النسائيُّ في «سننه» وأحمد في « مسنده » والطبراني في « الكبير » والبزار في «مسنده» وغيرهم [2] بسندٍ حسن من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **ثَلَاثَةٌ لاَ يَنْظُرُ الله إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ**» !

« **وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ** »: أي: المرأة التي تتشبه بالرجال في كلِّ شيء في

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٢٣) ، والطبرانيُّ في «الكبير» (٧٩٥) بسندٍ حسنه المنذري في «الترغيب» (٣/ ٢٢١) ، ووافقه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٧٨٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٤) ، والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب المنان بما أعطى (٥/ ٨٠) ، وابن خزيمة في التوحيد (٢٣٥) ، والطبراني في « الكبير » (٨٧٩) ، و (١٣٠٠٢) ، وابن حبان (٥٦) ، والبزار ؛ كما في « المجمع » للهيثمي (٨/ ١٤٧ ، ١٤٨) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٦٧٤) ، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٧١) .

كلامها وفي لبسها ، « وَالدَّيُّوثُ » : أي : الذي يُقرُّ الخبث في أهله ، ويقر الفحش والفاحشة في أهله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

○ تذكر جيدًا أن العقوق لا بد أن تجني ثمرته المُرة في الدنيا ـ هنا ـ قبل الآخرة ، خذها مِنِّي وابحث عنها ، انظر إلى أيِّ رجل موفَّق من المسلمين في تجارته .. في وظيفته .. في مكانته الاجتماعية ، فتش وابْحَث في حاله مع والديه .. مع أُمِّه على وجه الخصوص ؛ يقينًا أقولها ـ بملء فمي ، وأعلى صوتي : سترى هذا الرجل الموفق الناجح المسدَّد من أبرِّ الناس بأمِّه ، ائتني بنموذج واحدٍ كان بارًّا بأمِّه ، مُحسنًا إليها ، كريمًا معها ، كريمًا مع والده ، ولم يوفقه الله ـ جلَّ وعلا ـ ثم ائتني بنموذج واحدٍ عقَّ الرَّجلُ أباه ، وعقَّ أمَّه ، وقُلْ لي: هذا نموذجٌ كاسب في الدنيا ، رابح في تجارته ، يعيش السعادة بكلِّ معانيها ، بل دخل قصر السعادة من نوافذه قبل أبوابه ! مستحيل هذا ، والله لابد أن يشرب كأس العقوق في الدنيا قبل الآخرة ؛ ممن ؟! مِنْ ولده وابنته .

● **روى أحمد وأبو داود ، والترمذيُّ ، وابن ماجه وغيرهم**[(١)] من حديث أبي بكرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٦ـ ٣٨) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب النهي عن البغي (٤٩٠٢) ، والترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة ، باب (٥٧) (٢٥١١) ، وابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب البغي (٤٢١١) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩) ، وابن حبان (٢٠٣٩) ، والحاكم (٢/ ٣٥٦) و (٤/ ١٦٢ ، ١٦٣) ، وابن المبارك في الزهد (٧٢٤) ، وصححه الألبانيُّ في « الصحيحة » (٩١٨) .

يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِثْلَ البَغْيِ ، وَقَطِيْعَةِ الرَّحِمِ » .

● وفي الحديث الذي رواه البخاري في «التاريخ» والطبراني في «الكبير» ، بسندٍ صحيح بشواهده [١] من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال ﷺ : «**اثْنَتَانِ** ـ وفي رواية: **بَابَانِ** ـ **يُعَجِّلُهُمَا اللهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ : الْبَغْيُ** ـ أي : الظلم ـ وسأرجع له إن شاء الله تعالى ، كعلامة أخرى ـ **وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** » .

آهٍ !! فلا بد أن تشرب من كأس العقوق ، لا تظن وأنت في مالك ، وفي مكانتك ، وفي وجاهتك ، وفي قوتك ، تتصور أنك أقوى من هذا الوالد الضعيف المسكين ، أو تتصوري يا أختاه أنك أقوى من هذه الأم الضعيفة المسكينة التي حملتكِ في بطنها ، أو حملتكَ في بطنها تسعة أشهر ، وأرضعتك ؛ بل وكانت لا تنام حتى تنام أنت ، وتجوع من أجل أن تطعمك ، وتشقى من أجل أن تُسعدك ؛ لاحظ أن كثيرًا منَّا يفعل الآن مع الوالدين مثل هذه الأمور لكنه يتمنى لهم الموت ـ إلا مَنْ رحِمَ الله تعالى من أهلِ البرِّ ، جعلني الله وإياكم من أهل البر ـ يتمنى لوالده أو لأمه الموت ، لكن الوالد كان يصنع لك كل ذلك وأكثر من ذلك ، إنه يتذلل إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يبارك في عمرك ، وأن يراك كبيرًا ، وأن يسعد بك ، وتقوم الأم كذلك تتضرع إلى الله ، بل وتبكي بين يديه من أجلك .. من

---

(١) أخرجه البخاريُّ في «تاريخه» (تعليقًا ١/ ١٦٦) ، وأحمد (٥/ ٣٦) ، والطبراني في «الكبير» ، ومن طريقه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٩٩) عن أبي بكرة . وله شاهدٌ عند البخاري في « التاريخ الكبير » (١/ ١٦٦ تعليقًا) والحاكم (٤/ ١٧٧) عن أنس . والحديث صحيحٌ بشواهده كما في «الصحيحة» (١١٢٠) ، و«صحيح الجامع» (١٣٧) .

أجل أن تبقيك في سعادة غامرة .

لكن انظر إلى ثمرة العقوق ، لما كبر الوالد في السن ، وانحنى ظهره ، وسال لعابه ، وهو معه في منزله ، فلما وجد الابن الوالد يسيل لُعابه ، حمله وحمل الطعام ، وأدخله إلى حجرةٍ وحده ، وعزله ! عن الأولاد ، لكن الأولاد الصغار قالوا لوالدهم : لماذا تفعل ذلك ؟! لماذا عزلت جدَّنا في حُجْرَةٍ وَحْدَهُ ؟! فماذا قال؟! قال: حتى لا تشمئزوا من اللُّعاب الذي ينزل مِنْ فمه وهو يأكل ! فربُّك سبحانه وتعالى يشاء ـ وهو القادر سبحانه ـ أن ينطق طفلًا من الأطفال لهذا الابن العاق ، ويقول له : إذا كبرت فسوف نضعك في هذه الغرفةِ وحدك مثلما فعلت مع جدِّنا ، يا الله ! « بِرُّوا آبَاءَكُمْ تَبَرُّكُمْ أَبْنَاؤُكُمْ »[(١)] ، هنا في الدنيا ، انظر أخي الحبيب .. أيها البار .. أنت ترى ولدًا من أولادك لم يبلغ الثانية من عمره ـ مثلًا ـ لا يأكل شيئًا إلا إن أطعمك .. إلا إذا وضع الطعام في فمك ! طفلُك الذي لا يعقل ، ولا يعي شيئًا يُطعمك ! يطعمك قبل أن يأكل هو ، وكأن الله ـ جلَّ وعلا ـ يُريد أن يُطعمك ثمرة البر في الدنيا قبل الآخرة ؛ بل وستراها في حياتك كلِّها ، في انشراح صدرك ، واستقرار بالك ، وقوة بدنك ، وسعادتك مع زوجتك ، ومع أولادك ، ومع عُمَّالك وموظَّفيك .. ستعيش سعيدًا بالبر في الدنيا والآخرة .

(١) وقد ورد هذا في حديث ضعيف ؛ كما في «ضعيف الجامع» (٢٣٢٩) ، و«الضعيفة» (٢٠٣٩، ٢٠٤٣) .

أما الأب الثاني : ابنه يَجره جرًّا خارج البيت ، والأب يقول له : كفى يا بني ، اتركني عند الباب ، ثم بكى ، وقال له : والله يا بني ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا أنا ما صنعت مع والدي إلَّا أن جررته إلى باب البيت فقط !!.

لقد رأيتُ بعيني في ميدان عام أناسًا مجتمعة في حالة ضوضاء ، وبينهم رجل كبيرٌ جالسٌ يبكي ، فوقفتُ وسألت : ما هذا ؟ قالوا : هذا الولد ـ وأشاروا على ولدٍ جالس ـ صفع أباه على وجهه ! قلْتُ : أعوذ بالله ! وإذا بأحدهم يقول لي : يا شيخ هذا الرجل جالس يبكي ، وعندما هممنا بضرب الولد ، قال: لا.. اتركوه ، لا تضربوه ؛ قُلْنا له : لماذا ؟! قال : هذا ابني ؛ قُلْنا : إنه ولد عاق لابد أن يُؤدَّب ، قال : لا ، هذا دَيْنٌ أنا أُسَدِّدُه ، وقال : لقد ضربتُ والدي في نفس هذا المكان على وجهه !!

والله ستقضي هذا الدَّيْنَ حتمًا ـ تدبر: « **اثْنَتَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ : الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** » ، احرص ـ يا أخي ـ على دعوة من الأم ! يعني : إذا قبَّلْتَ يَدَها ، وأنت ذاهبُ إلى عملك صباحًا وقد دعت الله لك ، فهذا شيء جميل حسن ، و آهٍ لو انصرفْتَ وهي باكية تدعو الله عليك !! لا تقل: أنا رجلٌ تقيٌّ وملتزم . أقولها لك من كلِّ قلبي : اجعلها تدعو لك ، اجعلها تقول : يا رب ، أنا راضية عنك يا ولدي ؛ فوالله ستوفق إن شاء الله في حياتك.

هذا عابدٌ من عُبَّاد بني إسرائيل ـ وهو جريج ـ وقصته مشهورة ؛ كما في « **صحيحي البخاري ومسلم** » [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال الحبيب

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب في المظالم ، باب إذا هدم حائطًا فليبن مثله (٢٤٨٢) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠/٧ ، ٨) واللفظ له .

ﷺ : « لمْ يَتكَلّمْ فِي الْمَهْدِ إلاّ ثَلاثَةٌ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَم وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا » لم يكن فاسقًا ؛ بل كان عابدًا زاهدًا «فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً» أي: مكانًا بعيدًا منقطعًا عن أعين الناس وتفرغ للعبادة والطاعة . « فَكَانَ فِيهَا ـ أي: في صومعته ـ فَأَتَتْهُ أُمُّهُ ، وَهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ ، أُمِّي وَصَلاَتِي » ـ أي: أواصل الصلاة أو أجيب أمي ! «فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ »، فواصل الصلاة ، ولم يُجب أمه . « فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ ، وَهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ؛ فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ » إنه يصلي! كل أوقاته ـ تقريبًا ـ « فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ ، وَهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ ؛ فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ » ، لقد غضبت الأم ! ولماذا تغضب وولدها يصلي ؟! وهل من الشرع أن يواصل الابن الصلاة ولا يُجيب أمه؟

● والجواب : إن كان في صلاة الفريضة فعليه أن يواصل الصلاة ، أما إن كان في صلاة نافلة وسمع أمه تنادي عليه ، ويرى أن أمه في حاجةٍ مُلحة إليه ؛ فليقطع الصلاة ، وليجب أمه[1] .

○ أيها الأحبة: هذه هي مكانةُ الأم في دين الله تبارك وتعالى ، وفي دين محمد بن عبد الله ﷺ ؛ حتى لا يقال : بأن الإسلام ظلم المرأة !! لا! فإن الإسلام كرمها أمًّا ، وكرَّمها بنتًا ، وكرمها زوجة ؛ كرمها تكريمًا ما كُرِّمت إياه في أيِّ تشريعٍ على وَجْه الأرض لا في الشرق ، ولا في الغرب .

---

(١) انظر : « شرح مسلم » للنووي (١٦/ ١٠٥) .

وسبحان الله ! لقد انفعلت أم جريج انفعالا غريبًا ، ودعت على جريج الرجل الزاهد العابد التقي . انتبه ـ لم يَسُبَّهَا ، ولم يضربها ، ولم ينهرها ؛ لأنه رجلٌ في عبادة ! في طاعة ، فقط لم يستطع إجابتها ، إذ هو في صلاة ؛ فقالت أمُّه : « **اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ** » أي : الزواني أو الزانيات ـ أسأل الله أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة ! استجيبت دعوتها على جريج! وهي دعوةٌ غريبة في حق هذا الرجل الزاهد العابد ؟!

○يقول النبيُّ ﷺ : « **فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ، يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا ، فَقَالَتْ : إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا ، فَحَمَلَتْ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ ، قَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ ، فَاسْتَنْزَلُوهُ ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ ؛ فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ ، فَقَالَ:أَيْنَ الصَّبِيُّ ؛ فَجَاؤُوا بِهِ ، فَقَالَ : دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَصَلَّى ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ، أَتَى الصَّبِيَّ ، فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ ، وَقَالَ : يَا غُلاَمُ ، مَنْ أَبُوكَ ؟ قَالَ : فُلاَنٌ الرَّاعِي ؟** » .

هذا طفلٌ في المهد لم يزل مولودًا فكيف خاطبه ؟! انظر إلى اليقين عند الرجل كيف وصل إلى هذا الحد ؟! ومع ذلك تستجابُ فيه دعوةُ أُمِّهِ ، فيُنطق الله هذا المولود ، وهو في لفائفه ، ويقول : « **فُلاَنٌ الرَّاعِي** » ، ابتلي بدعوة أمه ، ونجاه الله تبارك وتعالى بعبادته ويقينه ، وصلاته ، حينئذٍ « **أَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ ، وَقَالُوا : نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ ؟ قَالَ : لاَ ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ** » .

○ الشاهد من الحديث : أن دعوة أم جريج استُجيبت في ولدها .

○ وانظر إلى هذه الصورة الثانية المُشرقة الجميلة ؛ كما في «**صحيح مسلم**»(١) من حديث أسير بن جابر قال : كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِذَا أَتَى عَلَيْهِ أَمْدَادُ أَهْلِ الْيَمَنِ(٢) سَأَلَهُمْ : أَفِيكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ حَتَّى أَتَى عَلَى أُوَيْسٍ ـ انتبه لهذا الحوار ـ يقول عمر : أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ : نَعَمْ ، يقول عمر : مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ ـ مراد وقرن قبيلتان في اليمن ـ يقول عمر : فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ : نَعَمْ ـ يحدد عمر المرض ! وأنه برئ منه إلا موضع درهم ، يقول عمر : لَكَ وَالِدَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قال عمر: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ** » .

والنبيُّ ﷺ لم ير أويس بن عامر حتى يصفه بهذه الدقة ؛ فلقد وصف المرض الذي كان بجسده ، ولا زال أثره باقيًا بمقدار الدرهم في جسده ! ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٤،٥] قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ** » انظر إلى البر ، وإلى ثمرة البر « **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**».

والعجيب أن عمر يطلُبُ من تابعيٍّ الاستغفار له ، وعمر من هو ؟ هو

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أويس القرني (٢٥٤٢) .

(٢) الأمداد : هم الأنصار والأعوان .

الصحابي الكبير الذي دعا رسول الله ﷺ يومًا ربه أن يُعزَّ به الإسلام؛ فقال كما في الترمذيِّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ »[(١)].

فهنا يقول النبيُّ ﷺ لعمر: « فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ » هل استطعت أن تعيش هذا المعنى أخي الحبيب وأنتِ يا أُختاه ؟!

قال عمر : فَاسْتَغْفِرْ لِي ؛ فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ! نعم .. البر يرفع أويسًا إلى هذه الدرجة السامية ! وهذه مكانةُ أويس بن عامر بالبرِّ ؟! نعم .. ببره لأمه.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ ، قَالَ : أَلاَ أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ : أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ ـ الرجل لا يريد رياسة ولا شهرة ولا شيئًا من ذلك ؛ بل يريد وجه الله سبحانه وتعالى والدار الآخرة .

قَالَ : فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، فَوَافَقَ عُمَرَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيْسٍ ؛ قَالَ : تَرَكْتُهُ رَثَّ الْبَيْتِ ، قَلِيلَ الْمَتَاعِ ، فقال عمر ـ رضوان الله عليه ـ لِهَذَا الرَّجُلِ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ ، فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ » . فعاد الرجل إلى اليمن يبحث عن

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب المناقب باب (١٦) (٣٦٨١) وقال: «حديث حسن صحيح غريب» ، وابن حبان (٢١٧٩) ، وأحمد في «فضائل الصحابة» (٣١٢) ، وعبد بن حميد (٧٥٧) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح سنن الترمذي » .

أويس بن عامر ؛ فَأَتَى أُوَيْسًا ؛ فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لِي ، فقال أويس: أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ فَاسْتَغْفِرْ لِي ـ وقد كان الرجل عائدًا من الحج ـ فقال له الرجل : اسْتَغْفِرْ لِي ؛ فقال أويس : لَقِيتَ عُمَرَ؟ قَالَ : نَعَمْ ـ يعني : لا يعلم بهذا الأمر أحد غيره ؛ فهل لقيته فأخبرك ؟ ـ قَالَ : نَعَمْ ، اسْتَغْفِرْ لِي ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ ، انظر إلى فضل البر ـ أيها الفاضل ـ فما أجمله وأحلاه !

● **وفي الحديث الذي رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم وغيرهم [1] بسندٍ صحيح** من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال :

« دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ فِيهَا قِرَاءَةً قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ ـ يعني : من هذا الذي يقرأ القرآن في الجنة ؟ قَالُوا: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ ؛ **فقال ﷺ : كَذَاكُمُ الْبِرُّ كَذَاكُمُ الْبِرُّ»** وكان حارثةُ أبر الناس بأمه رضي الله عنه.

لو استطعت أن تُقبِّل رِجْل أبيك فهيا قبِّل ولا تتقاعس ، والله إن أبويك طريقٌ إلى الجنة ، وأنت ـ يا أختاه ـ لو استطعت أن تقبِّلي قدم أمك فافعلي ، ولا تتأخري .. إنها طريقٌ لك إلى الجنة إن ظفرت به. فالنبيُّ ﷺ **قَالَ : « وَيْحَكَ ! الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ »** [2] ، وأنا أدين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنني لا

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧) ، وفي « فضائل الصحابة » (١٥٠٧) ، والنسائي في « فضائل الصحابة » (١٢٩) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (١١/ ١٣٢) ، وأبو يعلى (٧/ ٣٩٩) ، والحاكم (٣/ ٢٠٨) ، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (٧٠١٤ ، ٧٠١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٥٦) ، والبغوي في « شرح السنة» (٣٤١٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٣٧١) ، و«الصحيحة» (٩١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب الجهاد ، باب الرجل يغزو وله أبوان (٢٧٨١) ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٤٨) ، و«الإرواء» (٥/ ٢١) .

أجدُ عملًا ألقى الله سبحانه وتعالى به إلا بري بأمي ، كلُّ الأعمال أسأل الله أن يتقبلها ، وأن يرزقنا الإخلاص فيها .

لكن برك بأمك مستور .. تقبل يدها .. تقبل رأسها .. وتضمها إلى صدرك وتُطعمها .. تُنفق عليها .. تُكرمها .. تسعدها بكلمة .. بعطاء... إلى آخره ؛ كل هذا لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .

والنبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ قدَّم بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله ؛ كما روى البخاريُّ ومسلم في « صحيحيهما »[1] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قُلْتُ : يا رسول الله! أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ : « الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا »، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ : « ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » ، قَالَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» .

فبر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله! نعم ، حقيقةٌ يجب علينا أن نعلمها وأن نتعلمها .

● وثبت في « الصحيحين »[2] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَقَالَ : أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهِ ؛ فقال له المصطفى ﷺ : « فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟» فقال الرجل : نَعَمْ ، بَلْ كِلاَهُمَا ؛ فقال له ﷺ : « فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللهِ؟ ». قَالَ :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل الصلاة لوقتها (٥٢٧) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب بإذن الأبوين (٣٠٠٤) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب (٢٥٤٩) .

نَعَمْ ؛ قَالَ : « ارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا ».

○ وفي لفظ : « أَحَيٌّ وَالِدَاكَ » . قال : نَعَمْ . قال : « فَفِيْهِمَا فَجَاهِدْ » .

○ وفي لفظٍ : « قال الرجل : جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ ، وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ! فقَالَ ﷺ : « فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا ، وَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا »[1] .

وهناك لطيفة نبوية ، لفت أنظارنا إليها سيدُ البشرية ﷺ ، يقع فيها كثيرٌ من الناس - إلا مَنْ رحم ربي - جلَّ وعلا - كما في «الصحيحين»[2] من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ » لما سمع الصحابة ذلك قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، هَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟

○ وفي لفظٍ: « أَيَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ »فقال النبيُّ ﷺ : « نَعَمْ ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ ».

هل انتبهْتَ لهذا الكلام النبوي ؟ رجلٌ تسبُّه أنتَ بأمِّه فيسبُّ أمك ؛ فتكون قد وقعت في كبيرةِ العقوق في حق أمك أنت ، كذلك تسبُّ أبا رجلٍ آخر فيسب أباك ، فتكون بذلك ارتكبت كبيرة العقوق في حق والدك !!

ربما الآن يبكي أحدنا ويتأثر ، ويقول : سامحك الله ! لقد نكأت علينا

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب الرجل يغزو وله أبوان (٢٧٨٢) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح ابن ماجه » .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب باب لا يسب الرجل والديه (٥٩٧٣) ، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠) .

الجراح فمنَّا مَنْ تُوفِّي والده ، ومِنَّا من توفيت والدته ؛ ماذا نصنع الآن ؟ أما زالت هناك فرصة أستطيع بها فعل شيء قبل أن أموت مع أن الوالدين قد رحلا إلى الله سبحانه وتعالى ؟!

● والجواب : نعم .. لا تيأس ، فالله يبشرك بالخير ، واعلم أنَّ الأمل في الله لا ينقطع ، وباب الرجاء لا يُغلق ، حتى ولو كنت عاقًّا في حياة الوالدين ما عليك إلاَّ أن تجدد ، وأن تغيِّر العقوق إلى بر .. إن مات الوالدان ، فلا زال باب البر مفتوحًا ، ولازال طريق البر لك وممهدًا ، لكن المهم أن تشرع وتخطو بسرعة على طريق البر ؟ كيف ذلك ؟

● **اسمع للجواب** ـ المباشر ـ من رسول الله ﷺ على هذا السؤال ؛ كما في الحديث الذي رواه **الإمام أحمد** في « **مسنده** » ، **وأبو داود** في « **سننه** » ، **والترمذي وابن حبان وغيرهم** [(١)] ، ومن باب الأمانة العلمية ففي سنده علي بن عُبيدٍ الساعدي لم يوثقه إلا ابن حبان ، وبقية رجال الإسناد ثقات ـ من حديث أبي أُسيدٍ الساعدي رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ إِذ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! هَلْ بَقِيَ مِنْ بِرِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ ـ سؤال مباشر ، تدبر الإجابة ـ فقال النبيُّ ﷺ : « **نَعَمْ ، الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا ، وَالاِسْتِغْفَارُ لَهُمَا ، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ،**

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب «الأدب» باب «في بر الوالدين» (٥١٤٢) ، وابن ماجه كتاب «الأدب» باب «صل من كان أبوك يصل» (٣٦٦٤) ، وأحمد (٣/ ٤٩٨) ، وابن حبان (٤١٨) ، والحاكم (٤/ ١٥٤) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود وابن ماجه» .

وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا ، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا » .

○ أولاً : « الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا » ما معنى ذلك ؟ ليس المراد بالصلاة هنا الصلاة المعهودة ، إنما المراد بها هنا الدعاء للوالدين ! ربما يقول لي أحد الناس : من أين أتيت بهذا الكلام وهنا يقول : « الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا »؟

فأقول : هذا المعنى ؛ كقوله تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة:١٠٣] ، وفي دعاء النبيِّ ﷺ حين كان يتصدق أحدُ الصحابة ؛ فكان يقول : «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى » [(١)] فالصلاة عليهما بمعنى الدعاء لهما .

○ ثانيًا : « وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا »؛ أي : استغفر لوالديك كما ربياك صغيرًا .

○ ثالثًا: «وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا» : يعني : إنفاذ الوصية التي يوصي بها الوالدان مادامت الوصية شرعية ليست محرمة .

○ رابعًا : «وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ تُوصَلُ إِلاَّ بِهِمَا ، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا » وقد كان ابن عمر يقول ـ كما في « صحيح مسلم » [(٢)] : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ ».

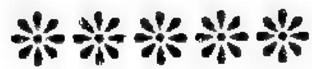
● أيها الأفاضل : العقوق كبيرة من الكبائر ، وعلامة من علامات

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (١٤٩٧) ، ومسلم كتاب الزكاة باب الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما (٢٥٥٢).

الساعة ؛ كما قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى : « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا** » ، أو : « **أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا** »، بأن يُعامل الولد والديه معاملة السيد للعبيد ، وأن تُعامل البنتُ أمها معاملة السيدة للأمة ؛ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك في والدينا جميعًا ، وأن يرحمهما في الدنيا والآخرة ، اللهم إن كان من والدينا بين يديك فتغمدهم برحمتك ، وأسكنه فسيح جناتك ، ومن كان منهما حيًّا فأحيه على طاعتك ، وتوفنا معه على سنة نبيك وعلى ملتك يا أرحم الراحمين .



ظهور الفحش وقطع الرحم

أتحدَّثُ عن علامةٍ ظهرت وانتشرت بصورة يزداد بها المؤمن إيمانًا وتصديقًا لمن لا ينطق عن الهوى ﷺ .

● فتدبَّرْ معي هذا الحديث الصحيح الذي رواه أحمد في « مسنده » والحاكم في « مستدركه » وغيرهما [١] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ» .

هيا بنا جميعًا لنقف مع العلامة الأولى التي وردت في هذا الحديث ألا وهي قوله عليه الصلاة والسلام : «حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ».

○ **ما هو الفُحْشُ والتفاحش؟**

● **قال ابنُ منظورٍ وابنُ الأثيرِ وغيرهما [٢] من أهل اللغة : « الفُحْشُ والتفاحش هو القبيح من الأقوال والأفعال »**. لقد انتشرت الأقوال والأفعال القبيحة القميئة بصورة يزداد المؤمن بها إيمانًا وتصديقًا لكلام النبيِّ ﷺ الذي قال هذه الكلمات ، إذ هي كلماتٌ خرجت من مشكاة النبوة .

ولقد كثرت الآن الكلمات القبيحة الدنيئة ـ وسامحوني إنْ قُلْتُ : في

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٩٩) ، والحاكم (١/ ١٤٧) ، وصححه ووافقه الذهبي، وفي (٤/ ٥٥٨) ، والبزار في « مسنده » (٢٤٣٥) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٥٢) ، وصححه الشيخ أحمد شاكر والشيخ شعيب .

(٢) «لسان العرب» (٦/ ٣٢٥) مادة : «فحش» .

كثير من البيوت ، وفي وسائل الإعلام : في الأفلام ، والمسلسلات ، والفضائيات ؛ بل خصصت قنواتٌ كاملةٌ ، لتصوير الفاحشة !

● **قال ابن الأثير**[(١)] : « وكثيرًا ما تَرِدُ الفاحشة بمعنى الزنا ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ [النساء:١٩] » .

○ أقول : صُوِّرت الفاحشة ، ودخلت إلى كثيرٍ من بيوت المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ بل خصصت مجلات وقنوات لتصوير الفاحشة ـ كما ذكرتُ ـ وأنت تسمع الآن من ابنٍ من أبنائك كلمة غريبة جدًّا تستغرب لها ، وتقول : كيف تكلَّم ابني بهذه الكلمة ؟ الولد لم يسمع هذه الكلمة في البيت ، فمن أين جاء بها ؟! ربما من وسائل الإعلام ، أو استمع إليها في الشارع ، أو في المدرسة ، أو في وسيلة من وسائل المواصلات.. إلى غير ذلك؛ فظهرت ـ الآن ـ الكلمات الفاحشة ، والأقوال البذيئة في كثير من الأماكن ، والأفعال التي تخدِشُ الحياء ؛ بل تقتلع الدين من جذوره .. تملأ القلوب بالفسق ، ويُحَوِّلُ هذا الفعلُ الفاحش البذيء العُبَّادَ الزهَّاد إلى فُسَّاق فُجَّارٍ إن لم تدركهم رحمة العزيز الغفار .. نعم ظهر القول الفاحش ، وظهر الفعل الفاحش بصورةٍ واضحةٍ فاضحةٍ .. انحدرت الأخلاقيات ، وصدقوني إذا قلت : أزمةُ الأمة ـ الآن ـ أزمة أخلاق ، قد يقول قائل : نريد المال .. نريد السلاح .. نحن نريد الاقتصاد ؛ نعم .. أنا لا أنكر ، ولا أقلل من قَدْر ذلك ؛ لكن أنا أسألك ـ أخي الحبيب ـ ما قيمة الاقتصاد ، وما قيمة

---

(١) « النهاية » (٣/ ٧٩٠) .

العلم ، وما قيمة ، وما قيمة ... إن ضاعت الأخلاق ؟ والله كلُّ هذا لا قيمة له .

إنـما الأمـم الأخـلاق مـا بقيـت   فإن هموا ذهبت أخلاقهـم ذهبوا

عالِمٌ بلا خُلُقٍ فتنةٌ على أمتـه ، طبيـبٌ بـلا خُلُـقٍ فتنة عـلى المـرضى وعـلى الأمة ، مهندسٌ بلا خُلُقٍ فتنةٌ على الناس وعلى الأمة .

وأضرب لكم مثالًا واحدًا : تصوَّر لو أَنَّ مهندسًا ما ـ ولو كان كبيراً ـ بـين يديـه عشرات الملايـين مـن الجنيهـات و الـدولارات ، كُلِّـف برصـفِ مجموعةٍ مـن الطـرق ، أو ببنـاءِ مجموعـةٍ مـن الأبـراج ؛ لكنـه ابـتلي بمـرض الغِشِّ .. لا أخلاق عنده .. فقَدَ خُلُقَ الأمانة ! ما هي النتيجة ؟ انهيارٌ لهـذه العمارات ، وإزهاق العشرات ومئات الأرواح .. طرق ترصـف وفي نفـس العام الذي رُصِفت فيه تحتاج إلى إعادة رصف من جديد !!

ولنعلم بأن هذه الأخلاقيات لا تحتاج إلى توجيهٍ من أحد .. هـذا الـذي يلقي بالمخلَّفات والقمامة من السيارة في الطريـق العـام .. هـذا الـذي يـترك مخلفات في متنزهٍ جميل أُعِدَّ له ولغيره .. يترك طعامه وشرابه بصورةٍ مؤلمة ، هذا لا يحتاج إلى توجيهٍ من أحد .. هذا الذي وقف ـ أعـزكم الله ـ ليتبـول في مياه النيل ، أو لـيسيء إلى شـاطئ النيـل الجميـل بـأيِّ صـورةٍ مـن صـور الإساءة .. هذا فُحْشٌ في الأقوال والأفعال لا يحتاج هذا الخلق البـذيء إلى توجيه من أحد .

فالأصل أنه ينبغي أن نراقب ـ نحـن ـ ربَّنـا سـبحانه وتعـالى .. مصـيبة

كبرى أن نسرب الصرف الصحي إلى مياه النيل ، أو إلى مياه البحار ، أو إلى مياه الترع التي نسقي منها الحقول والزروع والثمار ، كلُّ هذه الأخلاقيات لا تحتاج إلى توجيهٍ من أحد ؛ لأنني مسلم لَسْتُ في حاجةٍ إلى أن يذكرني مسؤولٌ أو أحدٌ من الناس ؛ ليقول : لا تفعل هذا ، أو افعل هذا ؛ بل أنا أراقب ربي سبحانه وتعالى .

○ تدبر معي ؛ لكي تعلم أن هذه القضايا التي قد يستهين بها كثيرٌ من إخواننا وأخواتنا قد تكون سببًا من أسباب غضب الله على العبد ، فأيُّ فُحْشٍ في القول أو في الفعل قد يكون سببًا لسخط الله علينا . إي والله ، « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ** » أي : القبيح من الأقوال والأفعال ، وقد ظهر وانتشر قبيح القول وقبيح الفعل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

● **وفي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وابن حبان وغيرهما** (١) **بسندٍ صحيح** من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ الْفَاحِشَ وَالْمُتَفَحِّشَ** » .

لا تستهن بالكلمة ، فقد تسمع كلماتٍ تزلزلُ القَلْب في وسيلةٍ من وسائل المواصلات تخدشُ حياء كلِّ امرأة .. يستحيي الإنسانُ إن كانت

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٢) ، وابن حبان (٥٦٩٤) ، والطبرانيُّ في «الكبير» (١/ ١٦٥ ، ١٦٦) ، و«الأوسط» (١/ ١٠٦) ، وصححه الألبانيُّ في «الإرواء» (٧/ ٢١٠) ، و«الصحيحة» (٨٧٦).

معه زوجته أو ابنته أن يسمعنها .. قد تسمع كلمات خبيثة جدًّا في سوق من الأسواق .. في وسيلة إعلام .. قد تقرأ كلمات تخدش الحياء في مجلة ؛ بل أحيانًا حتى في جريدة رسمية ! . وآهٍ لو أبغض الله - عزَّ وجلَّ - عبدًا ، يا لها من خسارة ! شقي - والله - في الدنيا والآخرة من أبغَضه ربه سبحانه وتعالى ، ومن أحبه الله سعد في الدنيا والآخرة.

○ بل ؛ **في الحديث الذي رواه الإمام أبو داود والترمذيُّ** (١) وغيرهما بسندٍ صحيح من حديث أبي الدرداء ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ** » .

لا تستخدم هذه الألفاظ ، لا مع امرأتك ، ولا مع أولادك ، ولا مع مرؤوسيك في العمل ، ولا مع أي أحدٍ من إخوانك من المسلمين أو المسلمات في أيِّ مكان عامٍّ أو خاصٍّ ، فوالله إن الأزمة التي ينخلع القلب الآن لأجلها أزمة خلق ؛ لأنني - كما ذكرت - لا أحتاج إلى أن يوجهني أحد ؛ بل يجب عليَّ أن أراقب الله سبحانه وتعالى .. لماذا أسبُّ امرأتي ؟ لماذا أسب ولدي بأفظع الألفاظ وأقذع العبارات ؟ لماذا أسبُّ دابتي ؟ تَعَقَّل وتخلَّق مع دابتك بالخلق الفاضل . وانظر إلى خلق المصطفى ﷺ .. إلى مَنْ

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق (٤٧٩٩) ، والترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وأحمد في « مسنده » (٦/ ٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨) ، والبخاريُّ في «الأدب المفرد» (٤٦٤) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٨٧٦) و«صحيح الجامع» (٥٦٣٢) .

علَّم الدنيا الأدب ﷺ ، وتعلَّم منه الأخلاق والصفات الكريمة .

○ **بل ؛ تدبر معي هذا الحديث الرقراق الجميل** ، لكنني أقدم لك بمقدمة قبل أن أتحفك بهذه الكلمات النبوية ، وأقول لك هل تحب النبيَّ ﷺ ؟ أنا أعرف أنك تحبه ، وتتضرع إلى الله في الليل والنهار أن تكون معه ، لكن هل تتصور أو تتخيل أنك تستطيع أن تكون مع الحبيب ﷺ ، وأن تكون من أقرب الناس إليه في منزلته وفي مجلسه يوم القيامة ؟ نعم ؛ لكن بماذا ؟ بحسن الخلق تدركُ هذه المنزلة .

تدبر ماذا قال حبيبنا ﷺ ؛ **كما في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره**[(١)] **بسندٍ صحيح** من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال : « **إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ** » .

والله إن الإسلام كلَّه جمال ، وأدب ، ورقة ، ومحمدٌ ﷺ هو مَنْ علَّم الدنيا الخلق ، والأدب ، لم يأت للدنيا بالإرهاب ، ولا بالتطرف ، ولا بالبذاءة ، ولا بالفحش ، ولا بسوء الأقوال ، ولا بسوء الأفعال ، حاشا وكلاَّ ، وكلُّ جاهلٍ على وَجْه الأرض أيًّا كان مركزه ، وأيًّا كان منصبه هو الذي يتطاول على المصطفى ﷺ ؛ لأنه لم يعرف شيئًا عنه ؛ لم يقرأ شيئًا عن سيرته ، لقد أعاد التلفزيون الدانمركيُّ مرة أخرى هذه الصور البذيئة التي تسيء إلى طُهْر الطهر ، وشرف الشرف ، وكرامة الكرامة ، ووفاء الوفاء ،

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب باب في حسن الخلق (٤٧٩٨) ، وأحمد (٦/ ٦٤ ، ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٨٧) ، والحاكم (١/ ٦٠) ، وابن حبان (١٩٢٧) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٣٢) ، و«الصحيحة» (٧٩٥) .

ودُرَّة تاج الجنس البشري كلِّه ؛ لأن هؤلاء جهلاء لا يعلمون شيئًا عن نبي ربِّ الأرض والسماء ﷺ ؛ لا يعلمون شيئًا عن من علَّم الدنيا الأدب والخلق والوفاء ﷺ ، آهٍ لو درسوا سيرته ، وعرفوا أخلاقه ومنهجه، والحقيقة أقول : المشكلة هي مشكلتنا نحن ؛ مشكلة الأمة ؛ لأننا إلى الآن لم نشهد لرسول الله ﷺ شهادة خلقية ، أوشهادة سلوكية ، أوشهادة عملية ، فلو أن رجلًا من أهل الكفر أتى إلى مكانٍ عامٍّ من المنتزهات على شاطئ النيل الجميل الذي هو آية من آيات الجمال ، ونعمةٌ من نعم الله علينا: لو أتى ليمشي على شاطئ النيل ، فرأى مثل ما نراه نحن ! رأى رجلاً مع أسرته في هذا المكان الرائع الجميل يجلس معهم يأكل هنيئًا مريئًا ـ أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعله عونًا لنا على الطاعة ؛ لكن بعد الانتهاء من الطعام ترك المخلفات في مكانه ، ولم يسمح لأحدٍ آخر بأن يجلس في هذا المكان بما فعله ! إن رأى هذا المشهد ، مستحيل بعد ذلك أن تقول له : إن الإسلام حض على النظافة ، وحض على الجمال ، سيردُّ عليك قولك ، ويقول لك : دعك من هذا ؛ لأن القول إن خالف العمل بذر بذور النفاق في القلب .

● قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾[الصف:٢،٣] .

كيف أطلب من ولدي أن يكون على خُلُقٍ مهذَّب جميل ، وهو يراني أتلفَّظ جُلَّ كلامي بألفاظ بذيئة قبيحة لا تمتُّ إلى الأخلاق الكريمة ، ولا إلى الصفات النبيلة بأدنى صلة ، فحش في الأقوال والأفعال ، وكل ذلك

سببٌ من أسباب غضب الرب على العبد ؛ كما أن حسن الخلق تدرك به درجة الصائمين القائمين بالليل لرب العالمين.

فهل تريد فضيلة أخرى لحسن الخلق ؟هل تريد أن تكون قريبًا من النبيِّ ﷺ ؟ نَعَمْ هذه أمنية ، إذًا فلنتدبر معًا هذا الحديث الذي **رواه الترمذي** (١) **وغيره بسند صحيح** من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ** » مَنْ هذا الذي سيكونُ حبيبًا للنبيِّ وقريبًا إليه يوم القيامة؟ قال : « **إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا** » .

رجلٌ لا يستطيع أن يتفوَّه بسفاسف الكلام ، وإن خرجت منه ، فتراه يستحي ، ويخجل من نفسه ، ويظل يعتذر ، ويستغفر ربه سبحانه وتعالى ؛ لأنه لا يحب أن تخرج منه البذاءة ، ولا يحب أن يُخْرِجَ لفظةً جارحة ليجرح بها أيَّ أحدٍ ، هذا هو الحبيبُ لرسول الله ﷺ القريب من رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ومن ولاه .

وهذا عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضوان الله عليه وعلى أبيه ـ انظر ماذا يقول ؟ يقول ؛ كما في « **الصحيحين** » (٢) : « **لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ** ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨) وقال : « حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، والخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٦٣) ، و« مساوئ الأخلاق » للخرائطي (٥٩، ٥٥٢) و « مكارم الأخلاق » للطبراني (٦) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٠١) و«الصحيحة» (٧٩١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٩) ، ومسلم كتاب الفضائل باب كثرة حيائه (٢٣٢١) .

فَاحِشًا ، وَلاَ لَعَّانًا ، وَلا سَبَّابًا » .

وفي لفظٍ : « **لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا** ».

أليس هو القدوة والأسوة ؟

● قال تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

ولذلك ترى هناك ـ أحيانًا ـ وسائل إعلام من حيث لا تدري ، أو من حيث تدري ، تُحْدِثُ انفصامًا عند كثيرٍ من أبنائنا ، يجلس ولدي وولدك ليرى مُمَثِّلًا من الممثلين في فيلم من الأفلام يتلفظ بألفاظ بشعة جدًّا ، ثم بعد ذلك يأتي هذا الممثل نفسه ليقوم بدَوْر آخر متدين في مسلسلٍ من المسلسلات الدينية !!فيسأل الولد أمه أو أباه : أليس هذا هو نفس الممثل الذي كان يقول كذا وكذا في الفيلم الفلاني ؟ فيحدث حينئذٍ عند الولد انفصام في الشخصية ، ويحدث عنده استواء للرذيلة مع الفضيلة ! أليس هو الذي كان يقول كذا وهو الآن يقول كذا ، ويفعل كذا ؟

إخواني ؛ كلُّ هذا لا يليق ، فأسوتنا رسول الله ﷺ الذي لم يكن يومًا فاحشًا ولا متفحشًا .

وأريد منك ـ في هذه العجالة ـ أن تتصور مواقف حرجة ، يتعرض فيها المصطفى ﷺ للحرج ، ومع ذلك لم يقع منه فحشٌ في القول ولا رذيلة في الفعل .

فلنبدأ من بيته ـ عليه الصلاة والسلام : عَنْ عَائِشَةَ ﵂[١] قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا ، فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَلى : أَيَّتُنَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقُلْ لَهُ: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ ، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ. قَالَ : « **لاَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ ، وَقَدْ حَلَفْتُ ، لاَ تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا** » .

دبت الغيرة في قلب عائشة وحفصة فتواطأتا على رسول الله ﷺ ؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يدخل بيت زينب بنت جحش ـ رضوان الله عليها ـ فيطيل المكث عندها ، فلما خرج النبيُّ ﷺ من عند زينب ، ودخل على حفصة ابتعدت عنه ! ماذا حدث ؟ قالت : « إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ» ، أي : أشم منك رائحة ليست طيبة!! وهل كان النبيُّ ﷺ كذلك ؟! لقد كان عرق النبيِّ ﷺ أطيب من الطيب .

وإذا كنت ـ أخي الحبيب ـ تريد أدلة ، فعندنا أدلة كثيرة جدًّا .

● **ففي « الصحيحين »**[٢] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ :

« خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ وَالله مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ ، وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا ؟ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير باب سورة التحريم (٤٩١٢) و (٥٢١٦)و(٥٢٦٨) ، ومسلم كتاب الطلاق باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق (١٤٧٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٨) ، ومسلم كتاب الفضائل باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩) .

● وعنه أيضًا[(١)] يقول : « مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلاَ دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ ، وَمَا شَمِمْتُ رِيحاً قَطُّ ـ مِسْكاً وَلاَ عَنْبَراً ـ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ .

دَخَلَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ ـ أي : نام وقت القيلولة ـ عِنْدَنَا ، فَعَرِقَ ، وَجَاءَتْ أُمِّي بِقَارُورَةٍ ، فَجَعَلَتْ تَسْلُتُ الْعَرَقَ فِيهَا ، فَاسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ؛ فَقَالَ : «**يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ، مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟**». قَالَتْ : هَذَا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ فِي طِيبِنَا ، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ » .

فتأتي حفصة رضي الله عنها تبتعد ! وتقول لرسول الله ﷺ : « إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ » ـ والمغافير : نبتة كانت تنبت في أرض الجزيرة رائحتها ليست طيبة ـ فقالَ المربي والقدوة بأبي هو وأمي ﷺ : « **لاَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ** » ثم يخرج ، فيدخل على عائشة ، فتبتعد ، وتقول: « إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ » ، فيقول : « **لاَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَلَنْ أَعُودَ لَهُ** » .

○ أخي الحبيب : تصوَّر لو أن الزوجة قالت لك يومًا: رائحتك غير طيبة ، وربما يكون حقيقة ، فقد يرجع من العمل ورائحته متغيرة ، والزوجة تصارحه بهذا ؟ فكيف يكون ردُّ الفعل ؟ وكيف يكون الجواب ؟ أقول : انظر إلى النبيِّ ﷺ وهو يقول دون انفعال : « **لاَ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ** ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦١) ، ومسلم كتاب الفضائل ، باب طيب رائحة النبي ﷺ ولين مسه والتبرك بمسحه (٢٣٣٠، ٢٣٣١) واللفظ له .

هذا هو خُلُق المصطفى ﷺ، لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا .

وهناك موقف قد يسبب حرجًا للنبيِّ ﷺ، ومع ذلك يرد النبيُّ ﷺ بهذا الأدب العالي، وبهذا الخلق الجميل؛ فلقد حدث شيءٌ بين النبيِّ ﷺ وعائشة فاستدعى النبيُّ ﷺ أبا بكر، ليحكم بينه وبين عائشة .

● **روى عبد الرزاق في « مصنفه »، وأحمد في « فضائل الصحابة » وابن حبان في « صحيحه » بسند صحيح بشواهده** [(١)] من حديث عائشة أن النبيَّ ﷺ استعذر أبا بكر من عائشة، ولم يظن النبيَّ ﷺ أن ينال منها بالذي نال منها، فرفع أبو بكر يده فلطمها، وصكَّ في صدرها، فوجد من ذلك النبيُّ ﷺ وقال: « **يَا أَبَا بَكْرٍ ! مَا أَنَا بِمُسْتَعْذِرِكَ مِنْهَا بَعْدَ هَذَا أَبَدًا** » .

○ **وفي رواية عند عبد الرزاق** [(٢)] **بسندٍ معضل بلفظ**: « أن النبيِّ ﷺ دعا أبا بكر فاستعذره من عائشة، فبينا هما عنده، قالت: إنك لتقول: إنك لنبيٌّ ! فقام إليها أبو بكر. فضرب خدَّها، فقال النبي ﷺ: « **مَهْ يَا أَبَا بَكْرٍ ! مَا لِهَذَا دَعَوْنَاكَ** » .

ما أساء النبيُّ ﷺ لعائشة ولا بكلمةٍ واحدة، هذا هو المصطفى ﷺ الذي لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا؛ وأنا أردد هذه العبارة وأكررها، لأنني أريد أن أؤصل هذا المعنى في قلوب إخواني وأخواتي .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٩٢٣)، وأحمد في « الفضائل » (١٦٢٩)، وابن حبان (٤١٨٥) عن عائشة. وله شاهدٌ عن النعمان بن بشير عند أحمد في « المسند » (٤/ ٢٧١،٢٧٢) وأبي داود (٤٩٩٩)، وصححه الألباني في « الصحيحة » برقمين :(٢٩٠٠، ٢٩٠١).

(٢) في « مصنفه » (٢٠٩٢٤) .

● ولقد ثبت في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قِيلَ: يَا رَسُولَ الله ادْعُ عَلَى الْـمُشْرِكِينَ ، قَالَ : « **إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً** » .

تمنيت أن لو عرفت البشريةُ ـ بما فيها غير المسلمين ـ تلك المعاني الرقراقة ، ممن علَّم الدنيا الأخلاق النبيلة الفاضلة .

● وها هي أم المؤمنين عائشة ﷺ تقول له[(٢)] : يا رسول الله ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ قَالَ : « **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ** ـ من أشراف أهل الطائف ـ **فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ** » انظر ما فُعِلَ بالنبيِّ ﷺ في الطائف : قذفوه بالحجارة ، وسبوه ، وطردوه ، وشتموه ، ونهروه ، وسالت الدماء الزاكية من قدميه الداميتين المتعبتين ؛ فهو يسير من مكة إلى الطائف على قدميه ، والله لم يجد دابة ليركبها ، بل يمشي على قدميه قرابة سبعين كيلو ، وهو ما ذهب إليهم ليطلب مالًا ، أو جاهًا ، أو دنيا ، أو وجاهة ؛ بل ذهب إليهم لينتشلهم من ظلام الشرك والوثنية إلى أنوار التوحيد والإيمان برب البرية ـ جلَّ وعلا ـ ومع ذلك فعلوا به أخس ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان ، الدماء تنزف من رسول الله ﷺ ،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٥٩٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين (٣٢٣١) ، ومسلم كتاب الجهاد والسير ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥) .

يقول : « **فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ** » ـ مكان يبعد عن الطائف حوالي خمسة كيلو متر ـ يسير النبيُّ ﷺ وهو مهموم ، فالدعوةُ مطاردة ، وصاحب الدعوة مطارد ، وأصحابه مطاردون في الحبشة ، ومعذبون في مكة ، واقعٌ مرٌّ أليم ، ومع ذلك يقول ـ وتدبر : « **فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي ، فَقَالَ : إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ** » .

انظر ماذا عرض عليه ملك الجبال ؟ في الوقت الذي كانت الدماء تنزف منه ﷺ ، ورؤية الدم تثير الدم ، ولكن انظر ماذا فعل الأسوة ، والقدوة ، والمثل الأعلى للعالمين إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

يقول النبيُّ ﷺ : « **فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟** » ، والأخشبان: جبلان عظيمان ، يقال للأول: أبو قبيس ، ويقال للثاني : الأحمر ، والله لو كان المصطفى ﷺ ممن يثأر لنفسه ، وينتقم لذاته لأمَرَ النبيُّ ﷺ ملَكَ الجبال فلحطَّم هذه الرؤوس الصَّلْدة ، والجماجم العنيدة ، ولسالت بحورٌ من الدماء ؛ لا أقول : ليراها أهل الطائف بالطائف فحسب !، بل ليراها أهلُ مكة بمكة ؛ لكن ماذا قال صاحب الخُلُقِ ﷺ ؟ قال : « **بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** » .

○ لذا أقول : إن قضيةَ حُسنِ الخلُق تحتاج إلى دروس طويلة ، فما أحوجنا إلى الأخلاق ؛ فأنا أعتقد أن الأزمة الآن أزمة أخلاق .

ما قيمة المال بدون خلق ؟

ما قيمة المنصب بدون خلق ؟

ما قيمة الجاه والسلطان بدون خلق ؟

كلُّ هذه المقومات لو جُرِّدت من الأخلاق صارت وبالًا على البشرية ، كما ترون الآن في ظلِّ هذه الحضارة الغربية المادية الجافة ، التي فقدت الخلق ، وإلاَّ فأيُّ حضارةٍ على وجه الأرض لا بد لها من ركنين :

● الأول : هو الركن المادي . وأنا لا أنكر ما وصلت إليه الحضارة الغربية في العصر الحديث في هذا الجانب المادي .. لن ندفن رؤوسنا في الرمال لننكر ما وصلت إليه حضارة الغرب ؛ لكن أين الركن الركين في الحضارة ؟ أين أخلاق هذه الحضارة ؟ ابنُ هذه الحضارة يفعل الآن بالإنسان ما تستحيِي الوحوش الضارية أن تفعله ببعضها البعض في عالم الغابات ! أين الإنسانية ؟ أين الرحمة ؟ أين الخلق ؟ أين الأدب ؟ أين العفو عند المقدرة ؟ .

لكنك تلحظ ـ الآن ـ خلق الظلم ، وخلق القسوة ، وخلق الانتقام ، وخلق الإبادة ، وخلق الإفناء !! تصنع في ركنها الأول المادي أروع ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث لتوظفه مرة أخرى لإفناء هذا الإنسان ، ولإبادته ، فالبشرية تهذي كالسكران ، وتضحك كالمجنون ،

وتجري تئن من الألم .. تجري كالمطارد ، تبحث عن أي شيء ، وهي في الحقيقة تملك كلَّ شيء ، لكنها حين انحرفت عن الله ورسوله قد فقدت كل شيء .

فالأزمة ـ الآن ـ أزمة أخلاق .

ثم قال ﷺ : « **وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ** »أي : من علامات الساعة .. قد يقطع الآن الولد رحم أبيه ، ورحم أمه ، ورحم خالته ، ورحم عمته . بل قد يقطع ـ الآن ـ الأخُ رحمه مع أخيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ بل وقد يقتل الولَدُ أخاه من أجل المال .. نعم قد يفقد الولد علاقته بأخيه من أجل الدنيا ، ويدوس على هذا الرحم بالنعل ! المهم عنده المال .

وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن قطيعة الأرحام قد انتشرت وعمَّت في هذه الأيام ، في عصر الماديات والشهوات على مستوى الغرب ، وعلى مستوى الأمة ، على مستوى الغرب الذي يتغنى بالحريات والديمقراطيات ، ويتغنى بمكانة المرأة ، وبتكريم المرأة .. إلى آخر هذا الكذب العريض ؛ فقد يترك الولد بيته في السادسة عشرة من عمره ، وربما لا يأتي لوالديه إلا في كلِّ عام مرة ، فيما يسمَّى عندهم باحتفالات أعياد الميلاد ، بل وأحيانًا قد لا يذهب ويكتفي بالاتصال ـ بالهاتف ـ على أمه أو على أبيه !!

وقعت قطيعة الرحم بصورة مؤلمة على مستوى الأمة ، ولا حول ولا

قوة إلا بالله .

● تدبر ماذا يقول الحبيب ﷺ ؟ روى «البخاري ومسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ** » نعم .. الرحم تستعيذ من القطيعة بملك الملوك .

فماذا قال ربنا سبحانه ؟ قَالَ : « **نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قَالَتْ بَلَى. قَالَ : فَذَاكَ لَكِ** » .

ولكن أية صلة سيصل الله بها واصل الرحم ؟ أنواع الصلات متعددة؛ كصلة البر ، والكرم ، والرزق ، والرحمة ، والعطاء ، والعفو ، والمغفرة ، والخير بكل أصنافه وأشكاله ، وألوانه ، كيف يكون حالك إن وصلك الله بتقواه ؟ إن وصلك الله بهداه ؟ إن وصلك الله بعزِّه وغناه ؟ والله ستسعد في الدنيا والآخرة ، وكيف يكون الحال إن قطع الله عبده ؟ يا ربِّ سلِّم سلِّم !! . نعم .. لا تجد ـ أيها القاطع ـ بركة في الرزق ولا المال ، وسيشتت شملك ، ويمزِّقُ أمرك ، كيف ذلك ؟ تريد أن تصلى ، ستقول : ليس عندي وقت لكي أصلي !! تريد أن تقيم الليل ، ستدَّعِي : لا أستطيع قيام الليل !! أريد أن أذهب لزيارة أمي ولا أستطيع ! أريد أن أصل أخي وأختي ولا أعرف ؛ لأني قطعتُ الرحم ، فقطعني الله سبحانه وتعالى ، ثم

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير ، باب : ﴿ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٤٨٣٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٤) .

قال النبيُّ ﷺ : « **اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى :** ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ [محمد:٢٢، ٢٣] ». أي : عن سماع الحق ، ﴿ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي : عن رؤية الهدى ، وعن رؤية الدليل ، وعن رؤية الخير، وعن رؤية طريق السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة .

○ أخي : أنت تبحث عن سعة الرزق ، والسبب بين يديك ! تبحث عن بركة العمر ، وأنت تملك ذلك ، لكن أنت لا تطبقه ، إذن ؛ فسوف تسألني : كيف أوسع رزقي ؟ وكيف يزيد عمري ؟

● والجواب في حديث النبيِّ ﷺ ؛ كما في « **الصحيحين** »[1] من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « **مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ** »! وكلُّنا يريد أن يبسط له في رزقه ، وأن يطيل له في عمره ، لكن ماذا يفعل ؟ قال ﷺ : « **فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ** » صِلْ أمك ، صِلْ أباك ، صِلْ عمَّك ، صِلْ خالك ، صِلْ عمتك ، صِلْ خالتك ، صِلْ أخاك ، صِلْ زوجتك ؛ بالبر .. بالكلمة الطيبة .. بالمعاملة الرقراقة المهذبة الراقية الجميلة الخالية من الفحش والتفحش ، صِلْ أرحامك أخي الحبيب وأنت أختي الفاضلة يزيد الله لكم في الأعمار ويوسع عليكم الأرزاق .

وأبشر بهذه البشرى لكل أهل مصر ، أسأل الله أن يحفظها بحفظه ، وأن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب البيوع باب من أحب البسط في الرزق (٢٠٦٧) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧) .

يكرمها بكرمه ، وأن يصل مصر بهداه وتقواه ورحماته وبركاته ، وأن يصل بذلك جميع بلاد المسلمين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

● **قال ﷺ** - **والحديث في « صحيح مسلم »** [(١)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه - قال - عليه الصلاة والسلام لأصحابه : « **إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ** » - بشر النبيُّ ﷺ بالفتح لمصر قبل أن يتم الفتح ! ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ - « **إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا ، فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا ، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا** » .

جزى الله عنا المصطفى ﷺ خير الجزاء . انظر إلى الشرف الذي شرفك الله إياه ، وانظر إلى الكرامة التي توَّجك إياها النبيُّ ﷺ .

○ وفي رواية : « **فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَصِهْرًا** » أما الرحم ؛ فلكون هاجر أم إسماعيل عليه السلام مصرية .

وأما الصهر ؛ فلكون مارية أم إبراهيم منهم [(٢)] .

فأهل مصر لهم رحم ولهم صهر ، أسأل الله أن يبارك فيكم يا أهل مصر ، وأن يثبتنا وإياكم على الحق ، وأن يبارك في أمتنا كلها ، وأن يقر أعيننا بنصرة الإسلام ، وعزِّ الموحدين ، وأن يقر أعيننا بإزالة هذه الحواجز والسدود بين دول أمتنا الإسلامية .

فيأيها المسلمون : ليست هناك حواجز ولا سدود ، الأصل أن الأمة أمةٌ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر (٢٥٤٣) .

(٢) « شرح مسلم » للنووي (٨/ ٣٣٨) ط الحديث .

واحدة ، أسأل الله ﷻ أن يقر أعيننا بهذا اليوم ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه وسيأتي ـ إن شاء الله ـ وأنا لا أتكلَّم من باب السياسة القاصرة ، ولا من باب الأحلام الوردية الجاهلة ، ولا أتكلَّم من باب ضغط الواقع وما فيه من دماء تنزف هنا وهناك وأشلاء تمزق ، ولكن أتكلَّم من منطلق القرآن والسنة .

○ ارجع معي إلى صلة الرحم ، التي تقطعت أوصالها ؛ فتدبر هذا الحديث ؛ كما في « **صحيح مسلم** »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونَ ؛ وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيؤُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ ، فقال له ﷺ : « **لَئِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ ، وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ** » .

○ أخي : اعلم أن النبي ﷺ قال كما في « **صحيح البخاري** »[(٢)] من حديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « **لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا** » ، فهيا صل وإن قطعت ؛ لأنك تبتغي بهذه الصلة وجه الله تبارك وتعالى . وأنا قلْتُ قبل ذلك ؛ بأنني لا أذكر العلامة فقط ، فليس الهدف عندي أن أذكر علامات الساعة فقط ، وإنما الهدف عندي أن نشخص الداء ، ونحدد له الدواء ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياكم ممن أخذ الدواء ، وسار على الدرب

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٨) .
(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١) .

ابتغاء مرضاة رب الأرض والسماء ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

• قال ﷺ : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ** » .

« **وَسُوءُ الْمُجَاوَرَةِ** » هذا أيضًا خلقٌ ذميم .. أصبح الجار اليوم لا يعرف جاره ! بل وأصبح يؤذي جاره بكلِّ صور الإيذاء ، لا يصح أن ترفع صوت التسجيل ؛ لأن البيت المجاور لك به رجل مريض ، أو فيه سيدة مريضة .. لا يصح أن تأتي بالقمامة وتتركها قريبة من باب جارك بل لو استطعت أنت أن تجمع القمامة من أمام بيت جارك فافعل ، وقم بذلك حبًّا لحبيبك المصطفى ﷺ .

إنَّ سوء المجاورة خلقٌ ذميم ليس من أخلاق الإسلام ، وليس من أخلاق مَنْ علم الدنيا الخلق ﷺ ، ألم أقل لك : آهٍ لو عُدْنا إلى المصطفى وإلى شرعه ودينه وهديه ، لسعدت البشرية في الدنيا والآخرة ، والله لحلَّت مشكلات الأرض، لكن فقط أن نرجع للمصطفى ﷺ وإلى سنته وشرعه .

• يقول ﷺ : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ** ». والحديث في « الصحيحين » [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه (٦١٣٦، ٦١٣٨)، ومسلم كتاب الإيمان ، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير (٤٧) .

● وقال ﷺ ـ كما في «الصحيحين»[(١)] ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ».

● ويقول ﷺ: «وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ» قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[(٢)].

أي: من لا يأمن جاره شروره، وأخلاقه السيئة والفاسدة.

● وروى أحمد وابن حبان والحاكم[(٣)] وغيرهم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاَتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلاَنَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاَتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ ـ أي القطعة من الأقط وهو شيء يتخذ من مخيض لبن الغنم ـ وَلاَ تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: «هِيَ فِي الْجَنَّةِ».

● وفي «الصحيحين»[(٤)] وهذا لفظ مسلم، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار (٦٠١٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٢٦٢٥)، ورواه البخاريُّ (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الأدب باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٦٠١٦) من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٠)، وابن حبان (١٣/ ٧٦) (٥٧٦٤)، والحاكم (٤/ ١٨٣)، وابن وهب في الجامع (٣١١)، وهناد في الزهد (١٠٣٤)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٣٧٣، ٥٨٥)، ومسند إسحاق بن راهوية (٢٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٦٠).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥) واللفظ له.

قال : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِجَارِهِ ـ أَوْ قَالَ: لأَخِيهِ ـ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ».

● وروى الترمذي وأحمد والدارمي وغيرهم (١) وهو حديث صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ ».

أسأل الله أن يردَّنا إلى الحقِّ والدِّين ردًّا جميلًا

*****

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حق الجار (١٩٤٤) وقال : « حديث حسن غريب » ، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٦٨) ، والدارمي (٢٤٣٧) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٣٤٤) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٥) ، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٥٣٩) ، وابن حبان في «صحيحه» (٥١٩) ، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٤٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٣) .

كثرة الكذب وشهادة الزور وموت الفجأة وظهور الكاسيات العاريات

من العلامات التي كثرت وانتشرت : الكذب .

● ففي الحديث الذي رواه مسلم (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : «سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي أُنَاسٌ يُحَدِّثُونَكُمْ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ » .

● وفي رواية عند أحمد بسند حسن (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْكَذِبُ ...» .

● وفي رواية في « صحيح مسلم » (٣) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ فَاحْذَرُوهُمْ » .

لقد انتشر الكذب ، وكثر ، وأنا لا أعلم زمانًا قد انتشر فيه الكذب ، وكثر فيه الكذابون ، وزيفت فيه الحقائق ، وضُيِّعت فيه الحقوق كهذا الزمان ؛ لو تدبرت ـ أخي الحبيب ـ ونظرت إلى حياة الناس نظرةً فاحصة مدققة ، لوجدت جُلَّ أحوال الناس كذبًا في كذب .. حاكمٌ يكذب على شعبه ، وشعب يدَّعي كذبًا أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء العزيز الغفار ، وأنهم أحبابه ، وأن لهم حقًّا تاريخيًا في فلسطين .. وعالم السوء يكذب على أمته ،

---

(١) أخرجه مسلم ، في المقدمة ، باب النهي عن الرواية عن الضعفاء والاحتياط في تحملها (٦) .
(٢) أخرجه أحمد (١٦/ ٤٢٢) ط الرسالة ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٧٢) .
(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٢) .

والتاجر يكذب على زبائنه .. والوالد يكذب على ولده .. والولد يكذب على والده .. والزوجةُ تكذب على زوجها ، والزوج يكذب على زوجته !!

ودِدْتُ أن أتعامل ولو لمرة واحدة ـ مع رجل يعمل في صنعة ما ويصدق ، لماذا لا تكون صادقًا ، ولماذا تكذب ؟ !

○ **يقول أحد الإخوة** : إن سباكًا يقول له: « إن الذي علَّمني الصنعة قال لي : لا بد أن تكذب من أجل أن تكسب » ! والله لن تكسب ولن تربح ، وإن ربحت في الدنيا فلن تربح في الآخرة . لماذا الكذب أيها المسلمون من أصحاب المهن من سباكة ، وتجارة ، وهندسة ، وطب ، وتجارة ، و .. إلى آخر هذه الأعمال ، وغيرها ؟! لو تدبرت حياة الناس لوجدت جل الأقوال ، والأفعال ، والأحوال كذبًا في كذب .. كم من دماءٍ سُفكت بسبب الكذب! كم من أعراض انتُهِكَتْ بسبب الكذب! كم من مقدسات دُنِّست بسبب الكذب! كم من دُوَلٍ احتُلَّت بسبب الكذب! والله ما احتُلَّت العراق إلا بالكذب ، وما احتُلت فلسطين إلا بالكذب ، وما احتلت الشيشان إلا بالكذب ، وما احتلت أفغانستان إلا بالكذب ، وما دُنست المقدسات إلا بالكذب !! بيتٌ هنا أو هناك يُدمَّر بسبب أخبار كاذبة .. إنسانٌ يُسجَنُ سنين عددًا بسبب كلماتٍ كاذبة ، وأخبارٍ كاذبة . لكن الناس فقدت الثقة في صدق هذه الكلمات ، وفي صدق أصحاب هذه التقارير ، لقد ملَّ الناسُ الكذب ؛ لأن رائحته النتنة ملأت البقاع ، ولو كان للكذب رائحةٌ ما استطاع أحدٌ على وَجْه الأرض أن يتنفس هواءً

نقيًّا ، أنا لست متشائمًا ، لكنني أشخِّصُ لك الداء لأحدد الدواء .

هل تُصدِّق أن الله ـ جلَّ وعلا ـ حرَّم الكذب وجرمه في أكثر من مائتي وثمانين آية في القرآن ؟ لقد كاد عقلي أن يطيش ، وأنا أتتبع الآيات التي حرم الحقُّ تبارك وتعالى فيها الكذب ، إن دلَّ هذا فإنما يدلُّ على خَطَرِ هذا الخُلُق الذميم القبيح ، ولا بد أن نعلم أن الكذب خِسة ونذالة ، وأنا أعتقد أن الرجل الذي يعتز برجولته ، ويعتز بمكانته وكيانه لا يكذب أبدًا ؛ فما ظنك بالمؤمن الصادق الذي يُراقب ربَّهُ تبارك وتعالى ؟ لماذا يكذب الرجل على امرأته ، وتكذب المرأة على زوجها ؟ ولماذا يكذب التاجر على زبائنه ؟ لماذا لا يصدق المؤمن مع ربه سبحانه وتعالى ؟ لماذا لا يصدق المؤمن مع نفسه ؟ لماذا لا يصدق المؤمن مع الناس في كلماته ، وأفعاله ، وأحواله ؟ والله ثم والله إنَّ مَنْ وقع في الكذب ، ويتكلَّم به ، فإنه يتقلَّبُ في النفاق ، ومع المنافقين وهو لا يدري ! تصوَّرْ أن الكذب صفةٌ من صفات المنافقين ، والكذاب من المنافقين!

● قال ربُّنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة:٨-١٠] .

● وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا

يُفۡلِحُونَ ﴾ [يونس:٦٩] .

● **فالكذب على الله** أبشع أنواع الكذب ؛ يتجرأ الإنسانُ على الفتوى بدون علم ، أو دليل ، أو بينة ؛ وفيما حرَّمه الله تعالى على عباده ؛ ما قاله في كتابه : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

فأصبح الدين ألعوبة في أيدي كثير ممن يعطي لنفسه حق الفتوى ؛ فيهذي بما لا يدري ، ويهرفُ بما لا يعرف ، ويقبل هذا بعقله ، ويردُّ هذا بعقله ؛ وعليٌّ رضي الله عنه يقول : « **لَوْ كَانَ الدِّينُ بالرَّأْيِ ، لَكَانَ المسْحُ عَلَى بَاطِنِ الخُفِّ أَوْلى مِنْ المسْحِ عَلَى أَعْلاه** »(١) .

قضية من أخطر القضايا أن يستعمل الشخص عقله في ردِّ نصٍّ ثابت لأنه لا يوافق هواه ! أو أن يتكلَّم الإنسان في قضية لا يحسنها ؛ والله سبحانه يقول : ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

● **وأيضًا : من صور الكذب القبيحة : الكذب على رسول الله** ﷺ ، قال ﷺ : « **إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** »(٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الطهارة ، باب كيف المسح (١٦٢ ـ ١٦٤) ، وصححه الألبانيُّ في صحيح سنن أبي داود .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الجنائز باب ما يكره من النياحة على الميت (١٢٩١) ، ومسلم في المقدمة ، باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين ، والتحذير من الكذب على رسول الله ﷺ (٤) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

لماذا تنسب لرسول الله ﷺ ما لم يقله ؟ لماذا تُحل وتُحرم ما لم يُحله ويُحرمه رسولنا ﷺ ؟!!

● ثم كذب على الخلق:

● روى أحمد في «مسنده» والترمذي في «سننه» (١) من حديث الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « **دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ** ».

● وتدبر معي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[الصف:٧]

وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] .

نعم .. المنافق كذاب ، ويوم القيامة له سِمَةٌ وعلامة معروف بها بَيْن أهل المحشر ، ما هو الدليل على هذا الكلام الخطير ؟!

● قال الله جلَّ وعلا : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر:٦٠].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة باب (٦٠) (٢٥١٨) وقال: «حديث حسن صحيح» ، والنسائيُّ كتاب الأشربة ، باب الحث على ترك الشبهات (٥٧١١) ، وأحمد (١/ ٢٠٠) ، وابن خزيمة (٢٣٤٨) ، والحاكم (٢/ ١٣) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٣٣٧٧ ، ٣٣٧٨) ، و«الإرواء» (٢٠٧٤) .

● وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾

[الأعراف:٤٠]

لن يدخل الكذاب المستكبر الجنة إلاَّ إن دخل الجملُ في ثقب الإبرة ! إلا إذا تاب إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فهيا أيها المسلمون ، فلنطهر أنفسنا من هذه الخصلة الذميمة ، ومن هذا الخلق القبيح الدنيء !

● وفي «الصحيحين» [(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ : «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» .

○ وفي رواية عبد الله بن عمرو ﷺ في « الصحيحين » [(٢)] :

« أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » .

○ إخواني : والله ما نجا من نجا في الدنيا والآخرة إلا بالصدق .

● الصدق : هو الطريق الأقوم الذي من لَمْ يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق (٣٣) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الإيمان باب علامة المنافق (٣٤) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (٥٨) .

● الصدق : هو سيفُ الحق في أرض الله ، الذي ما وضع على شيء إلا قطعه ، وما واجه باطلًا إلا أرْدَاهُ وصرعه ، مَنْ صال به لا تُرَدُّ صولته ، ومَنْ نطق بالصدق عَلَتْ على الخصوم كلمته .

○ أتذكرون الثلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تبوك ؟! هذا كعب بن مالك ﵁ يقول [1] : « فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلاً ـ أي النبي ﷺ ـ حَضَرَنِي هَمِّي ، وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ ، وَأَقُولُ : بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا ، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي » ـ ظَلَّ يفكِّر كيف يخرج من سخط رسول الله ﷺ وغضبه ، ماذا سيقول للنبيِّ ﷺ بعد عودته من غزوة تبوك ؟ ! ـ قال : فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِمًا ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَيَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَلَهُمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى الله ، فَجِئْتُهُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ؛ ثُمَّ قَالَ : « تَعَالَ ». فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَقَالَ لِي : « مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » ـ أي : ألم تشتر الدابة التي ستخرج بها إلى القتال ـ يقول كعب بن مالك : فَقُلْتُ : « بَلَى ، إِنِّي ـ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوصايا ، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز (٢٧٥٧) ، وانظر أطرافه هناك وراجع (٤٤١٨) ، ومسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩) .

وَالله ـ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً » ـ أي : عندي قدرة فائقة على أن أخرج من كل أزمة كما تخرج الشعرة من العجين : « وَلَكِنِّي وَالله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ » ـ أي : لو كذبتُ عليك الآن ورضيتَ عني ، فسيطلعك اللهُ على كذبي ، وستسخطُ عليَّ ما حييت ـ قال : « وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ الله ، لاَ وَالله مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، وَالله مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ» . فقال النبيُّ ﷺ : «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِي أَمْرِكَ** » .

انظر إلى ثمرة الصدق ، نجاةٌ في الدنيا والآخرة ، حاول أن تخوض تجربة الصدق مع أي بشر . ومع أي أحد ، في أي جهة ، لقد علمنا نبينا ﷺ الصدق في كل شيء ؛ الصدق في النظرة ، وفي الكلمة ، وفي النيات ، وفي الأفعال ، وجميع الأحوال .

وسنعود لكعب بن مالك بعد هذه اللطيفة الجميلة ، حتى تعلم أن الصدق منجاة في كلِّ المواقف .

● ففي « **مسند الإمام أحمد** » و «**سنن أبي داود** » **بسندٍ حسنٍ** عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : أَتَانَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِنَا ، وَأَنَا صَبِيٌّ ، فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لأَلْعَبَ ؛ فَقَالَتْ أُمِّي : يَا عَبْدَ الله ، تَعَالَ أُعْطِكَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ ؟** » قَالَتْ : أُعْطِيهِ تَمْرًا . قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَمَا**

إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذِبَةٌ » (١) .

ترى الأم تكذب على ولدها ؛ من أَجْل أن يكُفَّ عن البكاء ، والأب يكذب على ولده من أجل أن يُرضيه ! كيف تُعلم ولدك بعد ذلك الصدق ؟ كيف تُعلمين ابنتك بعد ذلك الصدق يا أختاه ، وابنتُكِ تراك تكذبين على أبيها ! فهذا من المحال .. يقول الأب لولده الصغير حين يطرق عليهم الباب أحد الناس : اذهَبْ فقُلْ للطارق : أبي غير موجود ؛ فيذهب الولد ببراءة ، ويفتح الباب يقول له : أبي يقول لك: هو غير موجود !! لأن الطفل صفحة بيضاء جميلة ، يقول النبيُّ ﷺ : « **كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ...** » (٢) .

وبالتالي إما أن يُربي الوالدان الولد على الصدق ، أو على الكذب ، أو على الفضيلة ، أو على الاستهتار ، أو على حسن الخلق ، أو على سوء الخلق ؛ ولذلك فتربية الطفل مسؤولية عظيمة ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦] .

● وفي « **الصحيحين** » (٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال :

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب في التشديد في الكذب (٤٩٩١) وأحمد (٣/ ٤٤٧) وحسنه الشيخ الألبانيُّ في صحيح سنن أبي داود .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلي عليه (١٣٥٨) ، وانظر (١٣٨٥) ، ومسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (٢٦٥٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٩٣) ، ومسلم كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩) .

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهْوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ... » الحديث .

● وفي « الصحيحين » [١] من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إِلاَّ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » .

أرجعُ للصحابي الجليل كعب بن مالك الذي تخلَّف عن غزوة تبوك ؛ فلقد قال ﷺ : « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي أَمْرِكَ » ، فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ ، فَاتَّبَعُونِي ، فَقَالُوا لِي : وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لاَ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَكَ ، فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، رَجُلاَنِ قَالاَ مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ ، وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي ، وَنَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الأَرْضُ ، فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الأحكام ، باب من استُرْعيَ رعية فلم ينصح (٧١٥٠ ، ٧١٥١) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (١٤٢) وفي كتاب الإمارة بنحوه (٢١) .

ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ـ هجرهم المجتمع الإسلامي كلُّه خمسين ليلة ! ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ فَأَمَّا صَاحِبَايَ ، فَاسْتَكَانَا ، وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاَةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلاَمِ عَلَيَّ أَمْ لاَ ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ ، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ ، حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهْوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلاَمَ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا قَتَادَةَ ، أَنْشُدُكَ بِاللهِ : هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ ، فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ ؛ فَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَفَاضَتْ عَيْنَايَ ، وَتَوَلَّيْتُ ، حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ ، قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ ، يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ . قال : فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ؛ فَإِذَا فِيهِ : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ ؛ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا : وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا ، التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ ، إِذَا رَسُولُ

رَسُولِ الله ﷺ يَأْتِينِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ ؛ فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ : لاَ ، بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلاَ تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي : الْحَقِي بِأَهْلِكِ ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ ، حَتَّى يَقْضِيَ الله فِي هَذَا الأَمْرِ ، قَالَ كَعْبٌ : فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ الله ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ! إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « **لاَ وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبْكِ** » قَالَتْ :إِنَّهُ وَالله مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ ، وَالله مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ؛ فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ الله ﷺ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ . فَقُلْتُ : وَالله لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ الله ﷺ ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ ، فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ ، حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينِ نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا ؛ فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي ، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ـ ويأتي البشير ، وتنزل براءتهم من السماء من عند الملك القدير ، انظرا إلى الحب ، والإخاء ، ليس مثْلَما يتمنَّى اليوم الأخُ لأخيه أن يَزِلَّ ، وأن يسقط !! فبمجرد أن سمع الصحابيُّ البشرى والبراءة خرج لإخوانه يجرى وينادي : يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، قَالَ : فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ ،

وَآذَنَ رَسُولُ الله ﷺ بِتَوْبَةِ الله عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الْفَجْرِ ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِى سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي ، نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ ، فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ ، وَالله مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ ، يَقُولُونَ : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ. قَالَ كَعْبٌ : حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ ، حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي ، وَالله مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، وَلاَ أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ - وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ : « **أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ** » فقال كَعْبٌ : أَمِنْ عِنْدِكَ يا رَسُولَ الله أَمْ مِنْ عِنْدِ الله؟ قَالَ : « **لاَ ، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله** » يقول كَعْبٌ : وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ بَرَاءَتَهُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٨، ١١٩] .

اللهم ارزقنا الصدق في أقوالنا ، وأعمالنا ، وأحوالنا .

فالصدق في الأقوال ، والأفعال ، والأحوال له جمالهُ ، وله جلالُه ، أما الكذب ؛ فهو شؤمٌ ووبالٌ على صاحبه ، وأنا أعتقد اعتقادًا جازمًا أن الكذب قد انتشر في هذا الزمان بصورةٍ مؤلمة ؛ بل صدِّقني إن قلت لك : أزمة العالَم أزمةُ صِدْق ، ترى كلَّ يوم تقريبًا كذبًا فيما يخرج من تصريحات ، أو أخبار ، شأن هذه التصريحات كشأن جحا ، الذي صنع ساقية على النهر ، تأخذ الماء من النهر ، وتردُّ نفس الماء إلى نفس النهر ! فقال الناس : عجبًا لك يا جحا ! ماذا تصنع ؟ تصنع ساقيةً على النهر لتأخذ الماء من النهر ولتردَّ نَفْسَ الماء إلى نفس النهر؟ فقال جحا : يكفيني نعيرها !! كذلك الآن ، صراخ ، وهتافات ، وحرق أعلام ، وحرق ماكتات ، وتحطيم سيارات ، وتدمير مصانع ، وبيوت ، وممتلكات ، وهتافات ساخنة بحناجر ملتهبة !! وأنا أقول دائمًا : انفعالاتنا بكلِّ أسف انفعالات حماسية مؤقتة ، وهذا شيءٌ يُدمي القلب ؛ ولذلك أعداؤنا يتعاملون معنا بهذا المنطلق ، دعهم يصيحون فكلُّنا يصيح ، لكنك لا ترى شهادةً عمليةً لنبينا ــ عليه الصلاة والسلام ــ من امتثالٍ لأمره ، واجتناب لنهيه ، ووقوف عند حدوده ، ونصرة لدينه ودعوته وشريعته ، وتربيةٍ لجيل قرآنيٍّ فريدٍ على القرآن ، وعلى سنة النبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام ، وإبداع لهذه الأمة ؛ ليشهد العالم كلُّه أن محمدًا ما مات ، وما خلَّف بنات ؛ بل خلَّف أطهارًا أبرارًا يُبرزون الإبداع في كلِّ مناحي الحياة قولًا ، وفعلًا ، وخُلُقًا ، وسلوكًا ، هذه هي

الشهادة ، أما أن تكون هتافات ساخنة ، ومظاهرات رنانة وفقط ؛ ثم يصبح الأمر بعد ذلك عاديًّا ؛ بل ربما يؤذن للصلاة ، والناس في مظاهراتهم ؛ فتجدُ من أفراد هذه المظاهرة مَنْ لا يُصلي الظهر ، ومن الفتيات من ترفع العلم ، وهي تُحادُّ الله ورسوله بعُريها وتبرجها وسفورها ، كيف لهذه أن تنصر النبي ﷺ ؟

والله أنا أكلمك بحب ؛ لأنك أخي ، أكلِّمُكِ بكلِّ تقديري لك أيتها الفاضلة ؛ لأنك أختي ، وابنتي ؛ لا يمكن أن ننصر النبيَّ ﷺ بهذا الشكل ؛ فأنا أرى أن هذه صورةً من صور الكذب ـ سامحوني ـ فعلينا أن نشهد لرسول الله ﷺ بصدق .. بالاتباع .. بالامتثال .. بأن نحول بيوتنا إلى بيوت على منهج رسول الله ﷺ وصحابته الأطهار .

○ **أخي الحبيب** ؛ قد تنادي زوجتك الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، استيقظ ! لأن الولد حرارته عالية جدًّا ؛ لتذهب به إلى الطبيب ، وربما تخرج بملابس النوم ، وتحمل ولدك في صدرك ـ جزاك الله خيرًا على هذه الرحمة الرقراقة ـ لكنني أقول : انظر إلى هذه الاستجابة لنداء الأم ولبكاء الطفل استجابةً عالية ، صادقة ، لكنك إذا رجعت ، ووضعت رأسك لتنام مرة أخرى بعدما عُدْت بولدك من عند الطبيب ، بعد ساعة أو ساعتين ، وسمِعْتَ : حيَّ على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة خير من النوم ؛ فماذا يكون حالك؟! ربما تضع على أذنك شيئًا ، كي لا تسمع هذا النداء ! فأنا أسألك : هل كانت استجابتك لنداء ربك كاستجابتك لنداء

ولدك ؟ أليس ذلك كذبًا؟ فأين الصدق مع الله ومع رسول الله ﷺ ؟ أنا لا أريد أن أطيل في هذه العلامات أكثر من ذلك ؛ لأن الموضوع ذو شجون ، أسأل الله أن يختم لي ولكم بخاتمة الإيمان ، لكن أؤكد وأقول : أزمة العالم أزمة صدق ، تُسفك الدماء بالكذب ! باسم الحرية ، والديمقراطية !!

ولكن ــ ورب الكعبة ــ لن تُحَلَّ مشكلات الأرض إلا بالصدق ؛ أن يصدق الحكام ، وأن يصدق العلماء ، وأن يصدق الرجل ، وأن تصدق المرأة ، وأن يصدق الشاب ، وأن يصدق الطفل ، وأن نربي أنفسنا ، وبناتنا على خلق الصدق .

○ **ومن علامات الساعة أيضًا : كثرة شهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق :**

● **ففي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده »** [1] **بسندٍ صحيح من حديث** عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ : ... شَهَادَةَ الزُّورِ ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ** » .

انتشرت شهادة الزُّور يقينًا ، ويستطيع أيُّ أحدٍ الآن بكلِّ أسف بمائة جنيهٍ أو بألفٍ أو بعشرةِ آلافٍ ـ إذا كانت القضية كبيرة ــ أن يأتي برجل ليبيع دينه ، فينطلق ليقف أمام قاضٍ في محكمةٍ بشهادةِ زورٍ ! كيف تبيع

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧) ، والحاكم (٤/ ١١٠) وقال : «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبيُّ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (١٠٤٩) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٦٤٧) .

دينك بألف جنيه ! ويُسجن هذا المظلوم ، ويقضي عمره في السجن بتلك الشهادة الآثمة ! كيف تستهين - أيها المسلم - بهذه الشهادة الخطيرة ! نعم .. شهادة خطيرة ، ومصيبةٌ كبيرة من أعظم الكبائر . ما الدليل على ذلك ؟

● تدبر ماذا قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ؛ كما في «الصحيحين»[1] من حديث أبي بكرة ﵁ أنه ﷺ قال : « **أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟**» ، ليست كبيرة عادية بل من أكبر الكبائر - قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله! قَالَ : «**الإِشْرَاكُ بِالله ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**» ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا - يعني : على جنبه فاعتدل - فَقَالَ : « **أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ** » قَالَ : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ .

● أقول لأحد أحبابنا من القضاة : ما هي أغرب قضية عُرضت عليك ؟! قال : رجلٌ سُجن بتهمة القتل بشهادةِ زُور وسُجن وهو متهم بالقتل ظلمًا وعدوانًا ! قال : حتى حُكم عليه في هذه القضية بالإعدام ، وبالفعل وُقِّعَتْ أوراقُهُ من فضيلة المفتي .يعني انتهى الأمر ، يقول : وفي الجلسة التي سيحكم فيها رئيسُ هذه المحكمة ؛ يقول : جلستُ ، والقاعة مملوءة ، والمشهد رهيب ، يقول : وقَرأْتُ الديباجة ، وفي نهاية القراءة : فقد حكمت المحكمةُ بناءً على كلِّ ما سبق - وهنا المفترض أن يقول : بإعدام المتهم - لكنه قال : وجدتني أنطق دون وعي وشعور بقولي : وبناءً على ما

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧) .

سبق ؛ فقد حكمت المحكمة ببراءة المتهم . سبحان الله !! ومن الناس ـ في تلك الجلسة ـ من يصرخ ، ومنهم من يبكي ، قلْتُ : لا يمكن ! وأنا لم أتمالك أعصابي ، فتركت منصَّةَ القضاء ، وعدت إلى مكتبي ، ووضعتُ رأسي بين يدي ، وظلْلتُ أبكي ؛ فقال له زملاؤه : يا فلان ، لا تقلق نريد أن نُعيد دراسة هذه القضية والبحث فيها ، يقسم لي بالله ويقول: توصَّلْنا قبل شهر بفضل الله ـ جلَّ وعلا ـ ثم بفضل رجال الأمن ، إلى القاتل الحقيقي ، واعترف تفصيليًّا بجريمته ، وبكيفية وقوعه في هذه الكبيرة البشعة الشنيعة ، وكأن الله سبحانه وتعالى قد برَّأ هذا المتهم الأول قبل أن تُبرئه ساحة المحكمة !

والذي أريد أن أقوله : إن هذا الرجل كان بالفعل قد حُكم عليه بالإعدام بسبب شهادة الزُّور لولا أن الله نجَّاه ؛ فشهادة الزور قد تحكم بها بالإعدام على رجل وأنت لا تدري .. قد يقضي عمره كلَّه ـ بسببها ـ في السجن وأنت لا تدري!.

○ قال المصطفى ﷺ : « **إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ شَهَادَةَ الزُّورِ ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ** » والذي يكتم شهادة الحق فقد أثم قلبه ؛ كما قال ربنا ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة:٢٨٣] .

فإن طُلبتَ للشهادة فاشهد بحق ، وإياك أن تحلف بالله كذبًا وأنت تعلم يقينًا أنك لست من الصادقين ؛ لأن هذا يمين غموس ، يغمس صاحبه في نار جهنم .

○ **ومن علامات الساعة** : أن يتمنى كثيرٌ من الناس الموت ؛ لشدة ما وقع بهم من البلاء في الدين ، أو في الدنيا .

● ففي « **الصحيحين** » [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ** » .

● وفي «**معجم الطبراني الأوسط والصغير**» ، و**الضياء المقدسي في «المختارة» بسندٍ حسنٍ** [٢] من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَوْ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ أَنْ يَظْهَرَ مَوْتُ الْفَجْأَةَ** » .

فموت الفجأة علامةٌ من علامات الساعة ، وأظن أن موت الفجأة قد كثر ، تُفاجأ بأن فلانًا الذي كنت تمشي معه قد مات ، وتستغرب وتقول : لقد كان معي بالأمس في المكتب ، أو في الوظيفة ! ! وقد مات في الصباح .. كيف ذلك ؟! إنه لم يكن قبل ذلك يشتكي مرضًا .. إنه مات بالسكتة القلبية ، أو أصيب بجلطة .

هذه الأمراض التي نستمع إليها الآن ما سمعنا عنها من ذي قبل ، نعم ..

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يُغْبطَ أهلُ القبور (٧١١٥) ، ومسلم كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٥٣/١٥٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٣٧٦) ، و«الصغير» (٢/ ١٢٩) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٦٧٨٠) ، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٩٥) ، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٧٠٥) ، وابن الجوزي في «الواهيات» (١٤٩١) ، ورواه أبو عمرو الداني في «الفتن» (٣٩٥ ، ٣٩٩) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٤٨) عن الشعبي مرسلاً ، وصححه الشيخ الألباني بشواهده في « الصحيحة» (٢٢٩٢) ، وعزاه للضياء (ق ١٦١/ ٢) .

نحن الآن نعيش عصرًا انتشرت فيه أمراض ما سمع بها أسلافنا ، ولو سألتني عن الأسباب ؛ فهي كثيرة ؛ ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه والحاكم بسندٍ صحيح [(١)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمُ » .

يا الله ! لم نسمع قبل ذلك عن الأزمة القلبية ، ولا عن جلطة المخِّ ، ولا عن سرطان الدم ، ولا عن مرض نقص المناعة « الإيدز » ، ولا عن الزهيمر .. إلخ .

أمراض كثيرة ؛ أسأل الله أن يشفي مرضى المسلمين .

● قال المصطفى ﷺ : « لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَؤُنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » .

أبقي شيءٌ لم يقله النبيُّ ﷺ ؟!

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب العقوبات (٤٠١٩) ، والحاكم (٤/ ٥٤٠) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٢٠) و (٨/ ٣٣٣، ٣٣٤) ، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٨٧) ، وصححه لشواهده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٦) .

أليس هذا هو الواقع الأليم ، أليس هذا ما تحياه الأمة الآن؟! إلا من رحم الله من أفراد .

● قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤]

● وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] .

● وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦]

فالنبيُّ ﷺ يصفُ لنا هذا الواقع بهذه الصورة النبوية المُبهرة الصادقة الواضحة الجلية لموت الفجاءة ؛ فلقد ظهر بصورة واضحة ، وعندنا أمثلة كثيرة على ذلك أكثرنا يعرفها ، وعندما تكثر الفتن والمحن في أماكن الحروب ، وأماكن الابتلاءات والأوبئة ، ترى كثيرًا من الخَلْق يتمنى الموت في كلِّ ساعة ـ أسأل الله أن يحفظ علينا وعليكم الأمن ، والأمان ، والنعمة ، والرخاء ، والاستقرار ، وأن يُفرج الكرب عن المكروبين ، وأن يكشف الهم عن المهمومين ، وأن يُزيل الغم عن المغمومين من أمة سيد المرسلين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

كم من أناسٍ لا تمرُّ عليهم ليلةٌ إلا وهم يتضرعون إلى الله ، ويسألون الله الموت ؛ فترى الرجل عنده أسرة وزوجتهُ كلَّ يوم تطالبه بمصروف الأولاد ، لا يملك قوت أولاده ، يُفكِّر ما الذي سيلبسه أولاده في يوم العيد ، وكثيرٌ ممن يعيشون في النعيم لا يشعرون بأحوال هؤلاء البائسين ؛

فكم من أناسٍ الآن في العراق ، وفي فلسطين ، وفي السودان ، وفي الصومال ، وفي أفغانستان ، وفي الشيشان ، وفي كثيرٍ من بقاع الأرض يتمنون الموت في كل لحظة بدون أدنى مبالغة .

وقع كلُّ ذلك بمثل ما قال المصطفى ﷺ بأبي هو وأمي وروحي ، فترى الرجل حين يمر بقبر الرجل يقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر لماذا ؟ ! لأن الفتن كثيرة ، وهو يُريد أن ينجو بدينه ، حتى يلقى الله تبارك وتعالى على طاعة .

● **وقال بعض أهل العلم** : يتمنى ذلك لشدة البلاء في أمور الدنيا ، رجل لا يجد لقمة الخبز التي يريد أن يُطْعم بها أولاده ، وقد يجد نفسه مضطرًا إلى الوقوع في الحرام ، فهو يلجأ إلى الله تبارك وتعالى أن يقبضه قبل أن تمتد يده إلى الحرام .

● لكن النبيَّ ﷺ قال - كما في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه : « **لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ ؛ فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً ، فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي** » [(١)] .

وركِّز - أخي - في تلك الدعوات النبوية التي تقرؤها الآن ، وتدبرها جيدًا .

○ **يقول سهل بن عبد الله التسترى** : « لا يتمنى الموت إلا ثلاثة : رجلٌ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب المرضى ، باب نهي تمني المريض الموت (٥٦٧١) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب كراهة تمني الموت لضر نزل به (٢٦٨٠) .

جاهلٌ ما بعد الموت ، ورجلٌ يفرُّ من قَدَرِ الله عزَّ وجلَّ ، ورجلٌ مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله ـ عزَّ وجلَّ » .

إما رجلٌ يجهلُ ما بعد الموت من أهوال ، وهو يريد أن يفر من الدنيا ، وهو لا يعي ماذا سيُقْدِمُ عليه ، أو ما الذي سيراه وسيعاينه ، ورجلٌ يريد أن يموت خوفًا من الفتن ، وخوفًا مما قدَّره الله سبحانه وتعالى ، ورجلٌ محبٌّ مشتاقٌ للقاء الله ـ جلَّ وعلا .

● وهنا يقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في «الصحيحين» [1] من حديث عائشة رضي الله عنها : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ » ، قالت عائشة : فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ الله ، أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ، فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ قَالَ ﷺ : « لَيْسَ كَذَلِكِ ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ الله وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ الله ، فَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ » .

● وفي « موطأ الإمام مالك » [2] وغيره بسندٍ صحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كَبُرَ سِنُّهُ قال : « اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي ، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي ، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلاَ مُفَرِّطٍ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (٦٥٠٧) ، ومسلم كتاب الذكر والدعاء ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (٢٦٨٤ ، ٢٦٨٥) .

(٢) أخرجه مالك في « الموطأ » (١٥٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٤) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١/ ١٠٧) .

دعواتٌ جميلةٌ من أمير المؤمنين عمر ﵁ .

○ وأختم هذا الفصل بعلامة أخرى انتشرت وكثرت في هذا الزمان ؛ أخبر بها الصَّادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وآله وسلم ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » والحاكم في « مستدركه » بسندٍ صحيح [(١)] من حديث عبد الله بن عمرو ﵄ قال: قال ﷺ : « **سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رِجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ يَنْزِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ، عَلَى رُؤُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْعِجَافِ** »! .

السُّروج في اللغة :جمع سرج ، وهو ما يوضع على ظهر البعير ، مثل الرحل أو الهودج ، وكذلك الرحال : شيءٌ كالهودج يوضع على ظهر البعير تركب فيه المرأة ، ويقال لمنزل الرجل : رحل .

وأنتم ترون الآن السيارة صارت كالمنزل تمامًا [(٢)] ، صارت فيها خصوصيات كاملة ؛ بل أعزك الله هناك سيارات فيها دورات مياه ، وقد يجلس الإنسان على كرسيه في السيارة ، وقد ينام ، وأنتم تعلمون السيارات التي تُشبه الكرافنات ... إلخ .

● وقوله ﷺ : « **نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ كَأَسْنِمَةِ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٧٥٣) ، والحاكم (٤/ ٤٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٦٨٣) .

(٢) ونحن لا نجزم بأن هذا هو مراد النبيِّ ﷺ ! لا ؛ فالجزم بذلك ضربٌ من التخمين والظن الذي لا ينبغي ولا يجوز بحال .

الْبُخْتِ الْعِجَافِ » ، البخْتُ: نوعٌ من أنواع الإبل الخُراسانية أعناقها طويلة للغاية ، والسنام : الجزء المرتفع على ظهر البعير .

فالنبيُّ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ يُشَبِّه المرأة الكاسية العارية بتسريحتها لشعرها المرتفعة التي تُسمَّى بقصة الأسد ؛ كالسنام الذي على ظهر البعير .

○ **وفي رواية في « صحيح مسلم »**[١] : من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا ـ يا رب سلِّم ! هذا كلام النبيِّ الرحمة المهداة ـ « قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ[٢] الْبَقَرِ ». أخي : احذر من الظلم ، لا تؤذ مسلمًا بدون وجه حق .

لا تظلمن إذا ما كُنْتَ مُقتدرًا فالظلمُ ترجعُ عقباهُ إلى الندم

تنامُ عيناكَ والمظلوم مُنتبهٌ يدعو عليك وعينُ الله لم تنم

فهذا الذي يُمْسِكُ هذا السوط ، ويضرب به الناس بدون وجه حق هو من أهل النار بشهادة النبيِّ المختار ، وذلك إن لم يتب إلى العزيز الغفار « وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ ، لاَ يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا ».

● **قال النووي** رحمه الله: « هذا الحديث من معجزات النبوة ، وقع ما أخبر

---

(١) أخرجه مسلم كتاب اللباس والزينة ، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨) .

(٢) جمع ذنب ، وهو عقبُ كل شيءٍ ،، والمراد به هنا : الذيل .

به النبيُّ ﷺ ، فأما أصحاب السياط فهم غلمان والي الشرطة .

● **أما الكاسيات ؛ ففيه أوجه :**

○ أحدها : كاسيات من نعمة الله ، عاريات من شكرها .

○ الثاني : كاسيات من الثياب عاريات من فعل الخير والاهتمام لآخرتهن، والاعتناء بالطاعات .

○ الثالث : تكشف شيئًا من بدنها إظهارًا لجمالها فهن كاسيات عاريات .

○ الرابع : يلبسن ثيابًا رقاقًا تصف ما تحتها كاسيات عاريات في المعنى .

●● وأما « **مائلات مميلات** » : فقيل : زائغات عن طاعة الله ، وما يلزمهن من حفظ الفروج وغيرها ، ومميلات : يُعَلِّمن غيرهن مثل فعلهن .

وقيل : مائلات : متبخترات في مشيتهن ، مميلات أكتافهن .

وقيل : مائلات يتمشطن المشطة الميلاء ، وهي مشطة البغايا معروفة لهن ، مميلات يُمَشِّطْنَ غيرهن تلك المشطة .

وقيل : مائلات إلى الرجال مميلات لهم بما يبدين من زينتهن وغيرها .

● أما « **رؤوسهن كأسنمة البخت** » فمعناه : يعظمن رؤوسهن بالخُمُر والعمائم وغيرها مما يلف على الرأس حتى تشبه أسنمة الإبل البخت ، هذا هو المشهور في تفسيره ، **قال المازري** : ويجوز أن يكون معناه : يطمحن إلى الرجال ولا يغضضن عنهم ولا ينكسن رؤوسهن .

واختار **القاضي** أن المائلات تمشطن المشطة الميلاء قال : وهي ضفائر

الغدائر وشدُّها إلى فوق ، وجمعها في وسط الرأس فتصير كأسنمة البخت .

وقال : وهذا يدل على أن المراد بالتشبيه بأسنمة البخت إنما هو لارتفاع الغدائر فوق رؤوسهن ، وجمع عقائصها هناك ، وتكثرها بما يضفرنه حتى تميل إلى ناحية من جوانب الرأس كما يميل السنام .

قال ابن دريد : يقال ناقة ميلاء إذا كان سنامها يميل إلى أحد شقيها ، والله أعلم .

قوله ﷺ : « **لَا يَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ** » يتأول التأويلين السابقين في نظائره :

أحدهما : محمول على من استحلَّت حرامًا من ذلك مع علمها بتحريمه ، فتكون كافرة مخلدة في النار لا تدخل الجنة أبدًا .

والثاني : يحمل على أنها لا تدخلها أول مرة مع الفائزين ، والله تعالى أعلم » ا.هـ .

○ **أختاه ، لماذا التبرج ؟ كيف تخرجين بهذا الزي الفاضح ؟!**

تدبر ذلك الوصف النبوي الجميل ، الذي لم يكن موجودًا على عهد النبيِّ - عليه الصلاة والسلام - امرأة ترتدي ملابس لكنها عارية !! كيف ؟ لأن الثوب ضيق يُظهر كلَّ مفاتن الجسد ، أو شفافٌ خفيفٌ ، أو مُفتَّح من جوانب عدة « **كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ** » تتمايل في مشيتها ، فيميل قَلْبُ الرجل إليها ! لماذا يا أختاه ؟! والله ما فَرَضَ اللهُ عليك الحجاب ، وما حرَّم الله ورسوله عليك الخلوة مع الرجل الأجنبي .. إلى آخر ذلك ؛ إلا لأنك دُرةٌ مصونةٌ ولؤلؤةٌ مكنونة ؛ فأنت أمٌّ ، وأنت زوجة ،

وأنت بنت ، وأنت عمة ، وأنت خالة .. أنت إن كنت تعطين للمجتمع نصفه ، فأنت تُشكِّلين النصف الآخر ؛ أنت مُجتمعٌ بأسره .

يـا دُرَّةً حُفظـت بـالأمسِ غاليـةً ... واليـوم يبغونهـا للهـو واللعـبِ

يـا حُـرةً قـد أرادوا جَعْلهـا أَمَـةً ... غريبـة العقـلِ غريبـةَ النسـبِ

هل يستوي من رسولُ الله قائدهُ دومًا ... وآخـر هاديـهِ أبـو لهـبِ

وأيـن مـن كانـت الزهـراءُ أسوتها ... مِـن مَـن تقفَّت خُطا حمالـةِ الحطبِ

فـلا تُبـال بـما يُلْقـون مـن شُـبهٍ ... وعنـدكِ الشرعُ إن تدعيـه يستجبِ ؟

سَليِه مَنْ أنا ؟ لمن أهلي ؟ لمن نسبي ؟ ... للغـربِ أم أنـا للإسـلام والعُـرْبِ ؟

لمن ولائي ؟ لمن حُبِّي ؟ لمن عملي ؟ ... لله أم لـدُعاةِ الإثـمِ والكـذبِ ؟

هما سبيلان يا أختاه ما لهما من ثالثٍ ... فاكسـبِي خـيرًا أو اكتسـبِي

سـبيلُ ربـك والقـرآنُ منهجـهُ ... نـورٌ مـن الله لم يُحجـب ولم يغـبِ

هيا ــ الآن ــ أيتها الفاضلة .. أيتها الجوهرة الغالية .. أيتها اللؤلؤ المكنون .. أيتها الدُرَّةُ المصونة .. هيا يا بنت التوحيد ، ويا بنت الإسلام .. هيا إلى الحجاب .. إلى الفضيلة .. إلى العفة.

● قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٩] .

فهيا أيتها الصائمة .. أيتها المُصلية .. أيتها المحجبة .. هيا الآن اتخذي

القرار طاعة لله ، وطاعةً لرسوله ﷺ ، بحُبِّ لله ، وبحُبٍّ لرسوله ، ألاَّ تخرجي من بيتك بعد هذه الساعة إلا بالحجاب الشرعي ، ولا ينبغي أن تنسي أيتها الأخت الفاضلة قول رسول الله ﷺ : « **صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ** » .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن لا تكُوني من هذا الصنف أبدًا ، إنُّه وليُّ ذلك والقادر عليه ، وأسأل الله أن يستركِ في الدنيا والآخرة .



تقارب الزمان ونقصان العمل ، وكثرة الشح

○ **فمن علامات الساعة : تقارب الزمان :**

● روى البخاريُّ في « صحيحه » [(١)] : من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ العِلْمُ ، وتَكْثُرَ الزَّلازِلُ ، ويَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ...** » ، وفي رواية : « **يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ ، وَيُلْقَى الشُّحُّ** » .

□ **العلامة الأولى ـ في هذا الحديث: « تقارب الزمان »** . ما معنى قوله : « **حتى يتقارب الزمان** » ؟ سوف أفسر هذا المعنى بكلام آخر للنبيِّ ﷺ ، وما أجمل وأروع أن يكون كلُّ كلامنا من كلام نبينا ﷺ .

● ففي « مسند » الإمام أحمد و« صحيح » ابن حبان وغيرهما بسند صحيح [(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ قال ﷺ : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، فتَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ ، وَيَكُونَ الشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ** ـ أي : كالأسبوع ـ **وَتَكُونَ الجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ ، وَيَكُونَ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ ، وَتَكُونَ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الاستسقاء باب ما قيل في الزلازل والآيات (١٠٣٦) ، وكتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧ ، ٥٣٨) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٨٤٢) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٦٨٠) من حديث أبي هريرة ﷺ .

○ وله شاهدٌ عن أنس ﷺ ، أخرجه الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في تقارب الزمان (٢٣٣٢) ، وصححه العلامة الألباني في « صحيح الجامع » (٧٤٢٢) .

السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعْفَةِ الـخُوصَةُ » أي : كاحتراق ورقة نخيل .. صلَّى الله على الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ؛ فلقد وقعت العلامة ، كنا نصوم رمضان من أيام قليلة ، والآن ننتظر رمضان الآخر ، وهكذا ، فتكون السنة كالشهر ! يخرج صَاحِبُ العمل ، أو صاحب المكتب ، أو صاحب الوظيفة بمجرد ما يخرج ، ويذهب إلى العمل يسمع أذان الظهر ، وبمجرد ما يفتح الأوراق ، ويبدأ بعمل أي شيء يجد الوقت قد انتهى ، والساعة قد مرت ، واليوم قد نفذ .. الله أكبر .

الأسبوع كأنه يوم ، واليوم كأنه ساعة ، والساعة لا شيء ؛ كأنها ورقةٌ سقطت من نخلة واحترقت .

○ **لماذا هذا التقارب المذْهِل ؟**

● **للعلماء أقوالٌ في ذلك** : وأهم هذه الأقوال التي يستريح لها قلبي وتطمئن إليها نفسي : نزع البركة من الوقت، أي: قَلَّتْ البركةُ في الأوقات ، وفي الأعمال ! وما ذنبنا في ذلك ؟ لا تقل ذلك .. نحن السبب ، كيف ؟! بذنوبنا ومعاصينا ، وما الحلّ وما العمل ؟ **بشيئين اثنين** : هما : الإيمان والتقوى .

○ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الأعراف:٩٦] .

فالأرض مليئةٌ بركات وخيرات ونِعَم ؛ فيها ذهب ، يوجد فيها

فوسفات، ومنجنيز، وبترول، كذلك هناك بركات تتنزل من السماء، من رحماتٍ، وأمطارٍ، وخيراتٍ، لكن نزعت البركة، وضعفت، وقلَّت.. تريد أن تقيم الليل فلا تجدُ بركةً في الوقت، تريد أن تَصِلَ رحمك فلا تجد وقتًا، تريد أن تؤدي وظيفةً معينةً لم يعُدْ هناك وقت، نزعت البركة بشكْلٍ مُلْفِتٍ للأنظار! وصدق النبيُّ المختار ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ** ».

لكن: كيف تعودُ البركة مرةً أخرى إلى أعمالنا، وأعمارنا، وكلماتنا، وأحوالنا، وبيوتنا، وأموالنا، وصحتنا؟

● والجواب كما ذكرتُ: بالإيمان والتقوى.

لكن الإيمان ليس كلمة ـ أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإيمان ـ فالإيمان: قول باللسان، وتصديق بالجنان ـ أي: اعتقاد بالقلب ـ وعمل بالجوارح والأركان. والتقوى: دينٌ ومنهج؛ لأنك لا تصوم إلا من أجل التقوى، ولا تحجَّ إلا من أجل التقوى، ولا تتصدق إلا من أجل التقوى؛ كلُّ العبادات كانت ولا زالت من أجل التقوى، لأن الغاية من خلق الخلق هي العبادة؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]

لكن هل تعلم أن الغاية من العبادة هي التقوى؟؛ نعم؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:٢١].

إذن بالإيمان والتقوى تنزل البركات إلى الأعمار والأموال والأقوات ، فالسبب في ذهاب هذه البركات إنما هي ذنوبنا ومعاصينا ، ولو عُدْنا وتبنا إلى ربِّنا ـ تبارك وتعالى ـ لفجَّر لنا البركات من تحت أرجلنا ، ولأنزل علينا البركات من فوق رؤوسنا .

وقد وجدوا في زمن من الأزمان حبة قمح في صندوق زجاجي بمقدار نواة التمرة ، وكُتِبَ تحتها : هذا كان ينبت في الأرض في زمن البركة ، وستنزل البركة ثانية إن شاء الله ؛ فلا تيأس ولا تقنط.

لكن هذه البركة سوف تكون في عهد نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ وسوف أتحدث عن هذه المسألة بالتفصيل وأنا أتحدث عن نزول عيسى ابن مريم ؛ لأن النبيَّ ﷺ وصف حتى الثوب الذي سينزل فيه عيسى من السماء ، وسأشرح ذلك بالتفصيل في مكانه إن شاء الله تعالى .

من هنا نقول : إن العلامة وقعت بصورةٍ تملأُ قلبك بالحبِّ والتصديق للنبيِّ ﷺ .

• يقول ﷺ : **« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ »** آهِ ، هذه هي المشكلة ..ترى أرفف المكتبات مليئةً بالمجلدات، فعندنا من الكتب ما لم يكن عند السلف الأوائل ، لكن القضية ليست قضية تنظيرٍ فحسب !فأين العمل ؟ قلَّ العمل ، ونقص ، وتلك علامة من علامات الساعة ، وصدق المصطفى ﷺ في كلِّ ما يبلِّغ عن رب العزة ـ جل وعلا ـ

فيما يتعلق بهذا الدين ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم:٣] ، فعندما تقارن بين أعمالنا وبين أعمال سلفنا الصالح ترى البون شاسعًا ، وترى الفارق كبيرًا جدًّا كما بين السماء والأرض ، فلقدكان كلامهم قليلاً ، وعملهم كثير ، وكلامنا نحن كثير جدًّا وعملنا قليل .

● قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف:٥٣] ـ أسأل الله أن يرزقني وإياكم الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال ، وأنا حين أعرض نفسي على سلفنا الصالح أشعر بحقارة وضآلة شديدة جدًّا ! .

لقد نقص العمل بصورة مزريةٍ مؤلمة !! والحقيقة أن هذا الانفصام النكد بين القول والعمل سببٌ خطير جدًّا من أسباب تخلُّف وهوان وذلِّ وضعف الأمة ؛ لأنه ـ كما ذكرتُ ـ لن يحكم العالم على أمتنا إلا من خلال عملها ، وإبداعها ، وسلوكها ، وإنتاجها ، وعطائها ، نعم .. فمستحيل أن يحكم علينا العالم من خلال محاضرة جيدة ، أو خطبة رنانة ، أو حتى عشرات المجلدات التي تُطْبع ، وإنما نريد أن نشهد لهذا الدين بالعمل ؛ لأن الإيمان بدون عمل ليس له قيمة ، فالعمل من الإيمان ، فسلفنا ـ رضوان الله تبارك وتعالى عليهم ـ لا يخرجون العمل من المسمَّى الإيماني أبدًا ؛ فالإيمان قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ، فلابد أن نترجم هذا القول وهذا التصديق ترجمةً عمليةً واقعية على أرض الواقع .

● قال ﷺ - كما في « صحيح مسلم »(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « **إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** » .

وتدبر معي آيات القرآن الكريم ؛ فدائمًا تأتي آيات القرآن الكريم لتقرن بين العمل والإيمان .

● قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥]

● وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف:١٠٧] .

بل وقدَّم الله - جلَّ وعلا - في آيةٍ فذَّةٍ فريدة العمل على الإيمان ؛ ليلفت الأنظار إلى أهمية العمل ؛ فقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] ، لابد من العمل ؛ بل وفي آية جميلة جدًّا في سورة الأعراف ؛ يقول الله تبارك وتعالى - في آخر الآية : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣] .

ليس بما كنتم تُنَظِّرُونَ أو تتفذلكون أو تتكلَّمون ! إطلاقًا ، ما أيسر التنظير ! وما أسهل الكلام ! لكن القضية أن تحوِّل هذا الكلام إلى عمل ؛ هذه هي

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) .

القضية .. لن تسعد الأمة في الدنيا والآخرة إلا إن حولت هذا الإيمان النظري ، والتصديق القلبيَّ إلى واقع عملي ، وإلى منهج حياة ، كلٌّ في مكانه ، وفي مجاله .

ونحن لا نريد من الأمة جميعها أن تتحول إلى دعاة على المنابر ، ولا إلى محاضرين عبر الفضائيات ، إطلاقًا ، وإنما نريد أن تتحول الأمة كلُّها إلى دعاة لدين الله بالقول ، والتصديق ، والعمل على منبر الإسلام الكبير العظيم ، كلٌّ في موقع إنتاجه ، وكلٌّ في موطن عطائه .. أنت طبيب فلتُبْدِعْ في مكانك .. أنت مهندس فلتبدع في مصنعك .. أنت تاجرٌ فلتبدع في تجارتك .. وهكذا ، بقدر ما مَنَّ الله عليك من قدرات ، وطاقات ، وإمكانات ، شهادةٌ مَنْ يكتمها ـ ورب الكعبة ـ آثم قلبه ؛ لابد أن يشهد بها الآن كلُّ مسلم لإسلامه ولدينه ، ولا بد أن تشهد بها الآن كلُّ مسلمة لإسلامها ولدينها بالأقوال ، والتصديق ، والأعمال ؛ قال تعالى : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ .

وأنا أسأل : هل تعرفون بلالاً ؟ بلالٌ هو مؤذن رسول الله ﷺ ، هذا العبدُ الحبشيُّ الذي رفعه الإسلام إلى هذه المكانة السامقة ، وإلى هذه المكانة العالية ؛ لنردَّ فقط على أولئك الذين يتغنون بالحريات والديمقراطيات ، لنقول لهم : إنَّ الإسلام هو الذي ساوى بين الناس ، ولم يُفَرِّق بين سيِّدٍ وعَبْدٍ ، وإنما جعل الكرامة للأتقياء ؛ فقال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ [الحجرات:١٣] .

انظر إلى بلال رضي الله عنه ، وماذا يقولُ له النبيُّ ﷺ ؛ كما في « **صحيح البخاريِّ**

ومُسْلم »[(١)] من حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: « **يَا بِلاَلُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ** ».

بلال بن رباح؟ نعم، الذي كان يُعَذَّب في أول أمر الدعوة على رمال مكة الملتهبة، وتوضع الصخور على صدره، وينادي بهذه الأنشودة العذبة الحلوة التي ملأت أسماع الزمان: « أَحَدٌ أَحَدٌ »، سمع النبيُّ ﷺ صوت نعله ـ حذائه ـ في الجنة؛ لكن بماذا كانت هذه المكانة؟ بالعمل. وما هو العمل الذي فعله بلال، والذي من أجله وصل إلى هذه الدرجة، وإلى تلك المكانة، لدرجة أن النبيَّ ﷺ سمع صوت نعله في الجنة؟ هذه القضية ـ والله ـ لو تدبرتها لطاش عقلك، انظر لِمَا سيقوله بلال، **عملٌ** قد لا يخطر لكثيرٍ من أحبابي وأخواتي على بال، ويا ليتكم تستوعبون هذا العمل، وتكون لديكم همة لتطبقوه؛ لأن القضية ليست قضية تنظير، وليست قضية كلام ـ كما ذكرتُ ـ أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص والقبول.

● قال بلالٌ: « **يَا رَسُولَ الله، مَا عَمِلْتُ عَمَلاً أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ** ».

فقط! كلَّما توضأ يصلي ما قدَّره الله له، هذا ما أَوْصَلَهُ لهذه المكانة؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ، أبواب التهجد « باب فضل الطهور بالليل والنهار » (١١٤٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة « باب من فضائل بلال » (٢٤٥٨).

نعم .. ففي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْـمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » ، فيمكن أن يكون العمل عند الناس عظيمًا ، وهو عند الله حقير ليس له وزنٌ ولا قيمة ؛ لأنَّ صاحبه لا يبتغي وجْهَ الله ، وقد يكون العمل عند الناس حقيرًا تافهًا وهو عند الله عظيم ؛ لأن صاحبه قد ابتغى به وجه ربه العظيم جل جلاله « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »[(٢)] .

القضيةُ قضيةُ صِدْق في النية ، ربما تتصدَّقُ بجنيهٍ واحدٍ يسبق ألف جنيه ، بل ويسبق مليونًا من الجنيهات ؛ لأن الله ـ جلَّ وعلا ـ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه صوابًا ، أي : على هدى نبيه المصطفى ﷺ .

وأنت تعلم أن امرأة دخلت النار في هِرَّة حبستها ؛ فلم تطعمها ، ولم ترسلها تأكل من خشاش الأرض[(٣)] ، وأن بغيًّا ـ أي زانية ـ من بغايا بني إسرائيل قد دخلت الجنة في كَلْب نزعت موقعها له ، فملأته ماءً ، فسقته ،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب « باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء» (٢٦٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١) ومسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » (١٩٠٧) .

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الخلق ، باب خمس من الدواب فواسق ، يقتلن في الحرم (٣٣١٨) وكتاب المساقاة « باب فضل سقي الماء » (٢٣٦٥) ، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب « باب تحريم تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان الذي لا يؤذي » (٢٢٤٢) وكتاب السلام « باب تحريم قتل الهرة » (١٣٣/ ٢٢٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٦١٩) .

فشكر الله لها ، فغفر لها [(١)] .

معاني لو عرفتها البشرية لأتت مذعنة إلى رب البرية ، ولأتت محبة إلى سيد البشرية ﷺ ، امرأة تدخل النار في قطة ، وزانية تدخل الجنة في كَلْب ، الله أكبر !! ما هذا ؟! ديننُا دين راقٍ .

وانظر إلى ربيعة بن كعب الأسلمي ﷺ ـ وحديثه في «**صحيح مسلم**» [(٢)] ـ يقول : « كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ـ أي : في بعض الليالي ـ قال : فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ ـ هل تتصور معي ، استيقظ النبيُّ ﷺ من النوم ، فوجد ربيعة قد أَعَدَّ له ما يحتاج إليه ، فكأن النبيَّ ﷺ أراد أن يكافئ ربيعة لفهمه وذكائه وفطنته ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام لربيعة : « **سَلْ يَا رَبِيعَةَ** » ؛ فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.! فقال النبيُّ ﷺ : «**أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟**» ـ أي : ليس لك أمنيةٌ ثانية ؟ ـ قال : قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ـ ليس لي أمنية غير هذه الأمنية ، وهل تركه النبيُّ ﷺ ؟ أبدًا ، وإنما قال له المصطفى ﷺ : « **فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ** » .

اعمل واجتهد لابد أن تكثر من السجود .. لابد أن تكثر من التضرع .. لابد أن تكثر من القيام ؛ فلا بد من العمل وترجمته إلى واقع .

● وهذا أبو بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ وهو الرجل الأول في

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الخلق « باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (٣٣٢١) و(٣٤٦٧) ، ومسلم كتاب السلام « باب فضل سُقيا البهائم المحترمة وإطعامها » (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة « باب فضل السجود والحث عليه » (٤٨٩) .

الأمة بعد المصطفى ﷺ ، ففي « صحيح مسلم »(١) من حديث أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ كان يسأل أصحابه بعد صلاة الفجر ويقول :« **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟** ». قَالَ: أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه :أَنَا .قَالَ : « **فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟** ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه :أَنَا . قَالَ : « **فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا ؟** » . قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه :أَنَا.قَالَ : « **فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟** ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه : أَنَا . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلاَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ** ».

انظر إلى العمل في يوم واحد ، وهذا هو الصديق لم يقل : أنا الرجل الأول في الأمة ، والمبشر بالجنة ، وركَنَ إلى الدَّعة والراحة ! لا ؛ فهو لم يصل لتلك المكانة إلا بالعمل ، مع ما وقر في قلبه من صدِّيقية لم يتبوأ ذروة سنامها إلاَّ هو رضي الله عنه .

● وقال ﷺ ـ كما في « الصحيحين »(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « **مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله ، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ : يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ. فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ** ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة « باب من جمع الصدقة وأعمال البر » (١٠٢٨) ، وهو في كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الصوم « باب الريان للصائمين » (١٨٩٧) ، ومسلم كتاب الزكاة « باب من جمع الصدقة وأعمال البر » (١٠٢٧) .

ﷺ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ ؛ فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ : « **نَعَمْ. وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ** ».

○ وفي رواية ابن حبان بسندٍ صحيح [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال له المصطفى ﷺ : « **نَعَمْ وَأَنْتَ هُوَ يَا أَبَا بَكْر** » .

فالقضية ليست قضية أماني ؛ قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣].

والنبي ﷺ يقول لفاطمة الزهراء ولثمرة فؤاده ولقرة عينه ، ولحبيبة قلبه وحبيبة قلوبنا نحن المسلمين جميعًا :« **يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، سَلِينِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا** » .والحديث في « **الصحيحين** » [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

○ وعند «مسلم» [(٣)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « .. **وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ** » .

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه» (٦٨٦٧) ولفظه : أنه ﷺ قال : « **يَدْخُلُ الجَنَّةَ رَجُلٌ فَلَا يَبْقَى أَهْلُ دَارٍ وَلَا أَهْلُ غُرْفَةٍ إِلَّا قَالُوا : مَرْحَبًا مَرْحَبًا إِلَيْنَا إِلَيْنَا** » ، فقال : أبو بكر : يا رسول الله ، ما ترى على هذا الرجل من ذلك اليوم ؟ قال : « **أَجَلْ وَأَنْتَ هُوَ يَا أَبَا بَكْر** » .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الوصايا « باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب » (٢٧٥٣) ، ومسلم كتاب الإيمان باب في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٠٤) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء « باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » (٢٦٩٩) .

وأنا أركِّزُ الآن على قضية العمل ـ أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الصدق ـ لأن الأمة لن تُفْلح، ولن تنجو لا في الدنيا بين أمم الأرض ولا في الآخرة بين يدي ربِّ السماء والأرض إلا بالعمل .. إلا بأن تحول هذا العلم الذي تسمعه وتتعلمه إلى واقع عملي، وإلى منهج حياة.

والحديث في قضية العمل حديثٌ طويل، ونحن في أمسِّ الحاجة إليه؛ لأن المشكلة الحقيقية أننا نرى انفصامًا رهيبًا جدًّا بين الأقوال والأفعال، ربما تنظر إلى إنسان، ويعجبك كلامه، وتنبسط إلى حديثه الشائقِ الحُلْو، لكن مع أول احتكاك عملي يسقط صاحبُ هذا القول المنمَّق، إن تعامل معك بالدرهم والدينار تعجَّبت؛ وقُلْت بلسان الحال والمقال: أين الكلام الذي كان يردِّدُه ؟! انفصام بين القول والعمل! وهذا يملأ القلوب بالنفاق!!

● قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف:٢،٣].

● وقال ﷻ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].

أين الصدق في القول؟ أين الصدق في العمل؟ أين الوفاء؟ أين الأمانة؟ أين الشهامة؟ أين الرجولة؟ أين المروءة؟ أين العمل؟ أين خلق المصطفى ﷺ في الأمة؟ نعم .. لابد من مطابقة القول للعمل.

● روى البخاريُّ ومسلم[١] من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ» أي: أمعاؤه - أريد منك أن تتصور معي هذا المشهد الذي يخلع القلب - «فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

● وفي الأثر عن عليٍّ رضي الله عنه - وإن كان من باب الأمانة العلمية في سند هذا الأثر ضعف[٢] - قال: «يَا حَمَلَةَ الْعِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، وَوَافَقَ عِلْمُهُ عَمَلَهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ الْعِلْمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، وَتُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ، يَجْلِسُونَ حِلَقاً فَيُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لَا تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى اللهِ».

○ ارجع معي مرة ثانية إلى الحديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَيَنْقُصَ الْعَمَلُ».

قضية العمل موضوعٌ طويل، لكن لا أريد أن أطيل؛ لأن العلامات

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب بدء الوحي «باب صفة النار وأنها مخلوقة» (٣٢٦٧)، وكتاب الفتن «باب الفتنة التي تموج كموج البحر» (٧٠٩٨)، ومسلم كتاب الزهد والرقاق «باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله» (٢٩٨٩).

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٣٢)، وفي الاقتضاء (٩)، والدارمي (١/ ١٠٦)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٢٣٧).

كثيرة، نسأل الله أن يرزقنا الصدق في الأقوال والأعمال والأحوال، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

● **والعلامة الثالثة في الحديث وهي**: قولُه ﷺ: « **وَيُلْقَى الشُّحُّ** ».

ما هو الشحُّ؟ هو أشدُّ من البخل وأبلغ في المنع منه [(١)]، والبخل: المرض الذميم الحقير الدنيء، والشحُّ أخبث منه، وأخطر منه! نعم .. وما الفرق؟ البخيل هو: من يبخل بما يجب عليه أن ينفقه من زكوات ونفقات .. رجلٌ بخيلٌ لا يخرج حق الله في ماله .. يمسك على نفسه، وعلى امرأته، وعلى أولاده .. معه الخير، وقد وسَّع الله عليه؛ لكن الأولاد يعيشون في ضيق، وفي فقر، هذا هو البخل، يقول: أنا أخاف إن أخرجتُ الزكاة أن يقلَّ مالي، والله لطالما سئلتُ: هل يجب عليَّ أن أخرج الزكاة عن المال كلَّ سنة؟! أخرج من كلِّ ألف خمسة وعشرين جنيهًا؟ نعم، يا أخي، مَنْ الذي تَكَرَّمَ عليك، وأنعم عليك، وتفضَّلَ عليك؟!

لقد رزقك الله بهذه الأموال لتزكِّي بها نفسك، ولتنمي هذا المال؛ قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[التوبة:١٠٣].

والله ـ جلَّ وعلا ـ لا يحتاج إلى هذا المال الذي أنفقه علينا؛ بل في الحديث الذي رواه «البخاريُّ ومسلم» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ

---

(١) راجع « اللسان » لابن منظور (٧/ ٤٢ مادة شحح) و « القاموس المحيط » (٢٨٩) للفيروز آبادي.

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ (٤٦٨٤)، ومسلم كتاب الزكاة « باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف » (٩٩٣).

النبيَّ ﷺ قال : « **قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ** » .

● وفي « **الصحيحين** »(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا** » .

فالبخيل هو الذي يبخل بما عنده بالواجب عليه ؛ إما بالزكاة المفروضة عليه في ماله ، وإما بالنفقة المفروضة عليه لزوجته وأولاده. والشحيح أخبث منه ! لماذا ؟ لأن الشحيح يبخل بما عنده ، ويطمع فيما عند غيره ، فهو بخيل وشحيح في نفس الوقت ، إنه لا يريد أن يُعْطي فقط ، ولكن يريد أيضًا ما عند غيره ، انظر ، ماذا يقول ربُّ العزة ؟ يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩] ، أي : من يقيه الله تبارك وتعالى شحَّ نفسه هذا هو الذي أفلح ونجح ونجا في الدنيا والآخرة ، فلا يجتمع الشحُّ والإيمان في قَلْب عبدٍ أبدًا ؛ **كما ثبت عند النسائي في « سننه » وأحمد في « مسنده »**(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « .. **وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ : الإِيمَانُ وَالشُّحُّ** » وفي لفظٍ : « **لَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ وَإِيمَانٌ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ** » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الزكاة ، باب قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ (١٤٤٢) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب في المنفق والممسك (١٠١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٦، ٣٤١، ٤٤١) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨١) والنسائي ، كتاب الجهاد ، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدميه (٦/ ١٢-١٤) وحسنه العلامة الألباني في « صحيح النسائي » ، وصححه في «الأدب المفرد».

فالفلاح والنجاح في أن يسلم المرء من الشح ، تلكم الخصلة الذميمة !!

● وفي « **الصحيحين** » [١] من حديث ابن عمر أنه ﷺ قال : « **لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ** » والحسد هنا بمعنى الغبطة [٢] ، وليس بمعنى تمني زوال النعمة عن الغير ، ولكن الغبطة هي أن تتمنى أن يرزقك الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من مثل ما رزق به غيرك من أصحاب هاتين النعمتين . ما هما ؟

● يقول ـ عليه الصلاة والسلام : « **لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ** » .

اللهم اجعلنا منهم يا رب ، هذا هو الذي يغبط ، رجلٌ أنعم الله عليه ، ووسعَّ عليه ، فهو ينفق في الليل والنهار .

○ لذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل:٥-٧] .

● **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله [٣] : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴾ أي : أعطى ما

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، « باب قول النبيِّ ﷺ رجل آتاه الله القرآن » (٧٥٢٩) ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، « باب فضل من يقوم بالقرآن » (٨١٥) .

(٢) ● **قال النوويُّ في « شرح مسلم »** (٣/ ٣٥٩) : « قال العلماء : الحسد قسمان : حقيقيٌّ ، ومجازيٌّ ؛ فالحقيقيُّ : تمني زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام بإجماع الأمة مع النصوص الصحيحة . وأما المجازيُّ : فهو الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عن صاحبها ، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وإن كانت طاعة فهي مستحبة ، والمراد بالحديث : لا غبطة محبوبة إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما » .

(٣) « التفسير » (لسورة الليل : ٥-٧) بتصرف يسير .

أُمر بإخراجه ، واتقى الله في أموره ، ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : بالمجازاة على ذلك ، وقيل : بلا إله إلا الله ، وقيل : بما أنعم الله عليه . ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ يعني للخير، وقيل: للجنة . وقال بعضُ السلف : « من ثواب الحسنة : الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة : السيئة بعدها ») ا.هـ .

● **وقال السعدي** رحمه الله [(١)] : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي : نسهل عليه أمره ، ونجعله ميسرًا له كل خير ، ميسرًا له ترك كلِّ شر ، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك ») ا.هـ .

فهذا الرجل ييسر الله له ـ بإنفاقه وعطائه وتقواه ـ كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق:٤] . كلُّ أموره ييسرها له ربه ، ويجمع عليه شمله .

● كما في « سنن ابن ماجه » **بسند صحيح** [(٢)] من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه وهو عند الترمذي ـ واللفظ له ـ من حديث أنس أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

« مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ ؛ جَعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ؛ جَعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ » .

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (الليل : ٥-٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) ، وابن ماجه (٤١٠٥) ، كتاب الزهد « باب الهم بالدنيا » ، والبيهقي في « السنن » (٧/ ٢٨٨) من حديث زيد بن ثابت ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » برقم (٩٥٠) . وأخرجه الترمذي ، كتاب صفة الجنة (٢٤٦٥) من حديث أنس بن مالك ، وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » برقم (٩٤٩) .

ثم انتبه ـ أخي الحبيب ـ للآية الثانية: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ بخل بما أُمر به ؛ فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله [١] ﴿ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴾ عن الله ، وعن فضل الله سبحانه وتعالى ، وعما أعدَّه الله للمطيعين ! وهذا خسران ـ والله ـ في الدنيا والآخرة . ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ بالجزاء والخلف في الدار الآخرة ، وكذب بالجنة ، وبما أوجبه الله على العباد من التصديق والإيمان به . فهل هذا سيوفق في حياته ؟ لا ؛ بل قال تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ [الليل:١٠] ، تجد الأمور ـ عنده ـ متعسرة ؛ ضيق في الصدر ، ضيق في القلب ، وفي المكان ؛ إنه الشقاء ، وإن كان يسكن في أجمل وأوسع القصور والدور ، يشعر بأنه يختنق ولو كان في بستان ، أو في حديقة غَنَّاء ! نعم ؛ لأن قضية السعة والضيق ليست في سعة المكان ؛ ولكن في الصدور ؛ ولذلك ربُّنا سبحانه وتعالى يمتنُّ على رسولنا ﷺ بهذه النعمة ، ويقول : ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴾ [الشرح:١] ، فمن أجلِّ نعم الله تبارك وتعالى على العبد أن يشعر براحة البال ، وطمأنينة النفس ، واستقرار الضمير، والهدوء ، وأن يشعر بالرضا ؛ ولذا قال الله في أهل الجنة : ﴿ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴾ [محمد: ٥] ؛ فهدوء البال ، وانشراح الصدر من نعم أهل الجنة ؛ فلا نكد ، ولا تنغيص فيها أبدًا بوجهٍ من الوجوه [٢] . فالسعةُ في الصدر ، لا في المكان .

---

(١) « تيسير الكريم الرحمن » (الليل : ٨) .

(٢) (« تيسير الكريم الرحمن » محمد : ٥) .

قد يكون هناك إنسان في غرفة واحدة أو في منزل متواضع مكوَّن من غرفتين ، ومعه زوجته وأولاده ؛ لكنه يعيش في رضا ، وفي نعيم ، وآخر يعيش في قصر لكنه يشعر بالاختناق والضيق والنكد والهم ، لا يشعر بالراحة ، ولا بالطمأنينة ، ولا بالسعادة.

أسأل الله أن يشرح صدورنا ، وأن يملأ قلوبنا ونفوسنا زكاة ورضا ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

فالبخلُ والشحُّ سببا الضيق والشقاء ؛ لذا يقول النبيُّ ﷺ كما في « صحيح مسلم »[1] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما :

« اتَّقُوا الظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » .

احذر الظلم ، واتق أسبابه .

واعلم أن النبيَّ ﷺ قال : **« لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ »**[2] .

ولنا وقفة ـ إن شاء الله تعالى ـ عندما نتحدث في مراحل الساعة عن أمر القصاص على أرض المحشر .

● والنبيُّ ﷺ يقول ـ كما في « صحيح البخاري »[3] ـ من حديث أبي

---

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٨) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري كتاب المظالم ، « باب قصاص المظالم » (٢٤٤٠) .

سعيد الخدري رضي الله عنه:

« إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الْجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا ».

○ ثم بعد أن حذَّر من الظلم يحذر النبيُّ ﷺ من الشح؛ فيقول: « وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ ».

الشحيح يظل دائمًا يطلب المزيد، ولا يكتفي بما معه؛ بل عنده طمع وجشع، وهذا يحمله على انتهاك الحرام، وعلى القتل كذلك. فالشحُّ سببٌ للهلاك والضياع.

○ أخي:

دع الحرص على الدنيا ... وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من الحرام ... فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسوم ... وسوء الظن لا ينفع
فقير كلُّ مَنْ يطمع ... غنيٌّ كلُّ من يقنع

● كنتُ في زيارة لأمريكا، فقال إخواني لي: بجوارنا رجلٌ وسَّع الله عليه إلى جوار مركز إسلامي في مدينة بروكلن في ولاية نيويورك، ولكن

هذا الرجل لم يصلِّ قط !ولم يساعد أبدًا ـ ولو بدولارٍ واحدٍ ـ في أيِّ عملٍ من أعمال الخير في المركز ؛ سألتهم عن المطلوب ؟ فقالوا : تعال معنا ، وذكِّره بالله لعلَّ الله سبحانه وتعالى أن يرقق قلبه على كلماتك ، فذهبت معهم إليه ، فقلت : السلام عليكم يا فلان ، قال : عليكم السلام ؛ فجلسنا ، وذكَّرناه بالله ، وظللت أقول له : قال الله ، وقال الرسول . لكنه قال لي : يا شيخ ، قلْتُ : نعم ، قال: لا تتعب نفسك !! قلْتُ : جزاك الله كلَّ خير ، ثم قال لي: عندما أعود إلى بلدي أَعِدُك أن أبني مسجدًا لله ﷻ وأتفرغ بعد ذلك للعبادة ، والصلاة ، والطاعة ؛ قلُتْ له : حَسَن ؛ لكن ، ائتني بورقة وقلم بسرعة ، فقال : لم ؟ فقلْتُ له : لا تخف ، فأتى بهما ، فقلتُ له : اكتب، قال : ماذا أكتب؟ قلْتُ : سنكتب عقدًا ليوقِّعَ عليه ملَكُ الموت ، فلا يأتيك إلا عندما تعودُ إلى وطنك وتبني مسجدًا ، وتتفرغ للطاعة وللعبادة ، فضحك وفطن إلى ما أريد أن أقوله له ، ثم قال لي : هل تُصدِّق أنه إذا انتابتني حالةُ صداع أُخْرِجُ الورقَة من فئة المائة دولار ، وأضعها على رأسي ، فيطير الصداع في الحال ؟ فقلُتْ له : أنت عبدٌ للدولار ؛ كما قال النبيُّ المختار ﷺ : « **تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ، تعس عَبْدُ الدِّرْهَمِ ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ** » (١) .

لقد جعل الدولار قِبْلَتَهُ وكعبته ، فهو يعيش من أجل الدولار ، ويحيا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٦ ، ٢٨٨٧) .

من أجل جمع المال .

○ أخي الحبيب : اجمع من المال ما شئت ، لكن بشرطين : أن تجمع من الحلال ، وتؤدي حق الكبير المتعال . أنا لا أقول : دع العمل ، لا ؛ بل أقول : يجب علينا أن نبدع ، وأن نعمل ، وأن ننتج ، ولكن بالحلال ؛ لأنَّ لنا دينًا يضبط مشاعرنا ، ويضبط أعمالنا ، وأموالنا ، وله حُكم في كلِّ سكناتنا ، وأقوالنا ، وأفعالنا ؛ بل في مشاعرنا وعواطفنا ؛ الدين يحكُمُ كلَّ شيءٍ فينا .

● قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]

○ أخي : الشحُ بُخْلٌ وفي نفس الوقت طمع فيما عند الغير !!

○ وأسوق لك حديثًا رقراقًا للنبيِّ ﷺ ؛ **رواه أحمد في «مسنده» ، والترمذي في «سننه» وغيرهما بسندٍ صحيح** (١) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ** ـ وهو الصادق الذي لا يحتاج في حديثه إلى قَسَم ـ **وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ قَالَ: فَأَمَّا الثَلَاثُ الَّذِي أُقْسِمُ**

---

(١) أخرجه الترمذيُّ كتاب الزهد « باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر » (٢٣٢٥) ، وقال : «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه كتاب الزهد « باب النية » (٤٢٢٨) ، وأحمد (٤/ ٢٣٠ ، ٢٣١) ، والبغوي في « شرح السنة » (٤٠٩٧) ، والطبراني في « الكبير » (٢٢/ ٢٦٧) ، والطحاوي في « شرح مشكل الآثار » (٢٦٣) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح سنن الترمذي وابن ماجه » و « صحيح الترغيب والترهيب » (١٤) .

عَلَيْهِنَّ : فَإِنَّهُ مَا نَقَصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ ، وَلاَ ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلاَّ زَادَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عِزًّا ، وَلاَ يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ الله لَهُ بَابَ فَقْرٍ ، وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثاً فَاحْفَظُوهُ ـ فَإِنَّهُ قَالَ : « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٌ رَزَقَهُ الله ﷻ مَالاً وَعِلْماً ، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ لله ﷻ فِيهِ حَقَّهُ ـ أي في المال والعلم ـ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ـ أي : عند الله جلَّ وعلا ـ قال : وَعَبْدٌ رَزَقَهُ الله عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً ، فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ـ أي: من أعمال البر والخير ؛ قال المصطفى ﷺ : فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ـ بشارةٌ عطرة ممن لا ينطق عن الهوى ﷺ وَعَبْدٌ رَزَقَهُ الله مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ ﷻ ، وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلاَ يَعْلَمُ لله فِيهِ حَقَّهُ ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، قال : وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ الله مَالاً وَلاَ عِلْمًا ، فَهُوَ خَبِيثُ النِّيَّةِ ـ اللهم سلِّم ـ فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كان لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ ـ أي : من أعمال الفسق واللهو والمجون والمعاصي ـ قال : هُيَ نِيَّتُهُ فَوِزْرُهُمَا فيه سَوَاءٌ » .

لا تبخل ؛ فوالله إنَّ المال ظلٌّ زائلٌ ، وعاريةٌ مسترجعة ، ولقد كان المصطفى ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة .

○ وأختم بهذا الكلام الجميل للعلامة ابن القيم في كتابه الماتع « زاد المعاد » [1] ؛ حيث يقول :

---

(١) (٢/ ٢٣ ، ٢٥ ط ابن رجب) .

فصل
في أسباب شرح الصدور

وصدَّر تلك الأسباب بالتوحيد ، ثم أورد بعد ذلك :

ـ الإحسان إلى الخلق ، ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه ، والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ؛ فإن الكريم المحسنَ أشرح الناس صدرًا ، وأطيبهم نفسًا ، وأنعمهم قلبًا ، والبخيل الذي ليس فيه إحسانٌ أضيق الناس صدرًا ، وأنكدهم عيشًا ، وأعظمهم همًّا وغمًّا ؛ وقد ضرب رسولُ الله ﷺ في « الصحيح »[1] : « مَثَلًا للْبَخِيلِ وَالْـمُتَصَدِّقِ كمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، كلَّما هَمَّ الْـمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ ، حَتَّى يَجُرَّ ثِيَابَهُ ، ويُعَفِّيَ أَثَرَهُ ، وكُلَّما هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانها ، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ » ؛ فهذا مَثَلُ انشراح صدر المؤمن المتصدق ، وانفساح قلبه ، ومثلُ ضيق صَدْر البخيل ، وانحصار قلبه » ا.هـ المراد .

نسأل الله أن يشرح صدورنا ، وأن يقينا شحَّ أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، إنه على كلِّ شيءٍ قدير .

*****

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب اللباس ، باب جيب القميص من عند الصدر وغيره (٥٧٩٧) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب مثل المنفق والبخيل (١٠٢١) .

تسليم الخاصة وفشوُ التجارة

● روى أحمد في « مسنده » والحاكم في « مستدركه » ، بسندٍ صحيح (١) من حديث عبد الله بن مسعودٍ ﵁ أن النبيَّ ﷺ قال :

« إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ ، حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي التِّجَارَةِ » .

○ وفي رواية : « إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُسَلِّمَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ لاَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلاَّ لِلْمَعْرِفَةِ » .

وقد وقع هذا الحال بصورةٍ واضحةٍ ؛ فقد ترى المسلم مع أخيه المسلم في بيتٍ واحد من بيوت الله ـ جلَّ وعلا ـ ؛ بل يصلي إلى جواره خلْف إمام واحدٍ ، وقبلة واحدة ، ويصلي معه لربٍّ واحد ـ جلَّ جلاله ـ ،لا يسلم إلا على من يعرفه فقط !! وهذا خلافٌ لسنة النبيِّ ﷺ الذي أمرنا أن نسلِّم على مَنْ نعرف ومن لم نعرف ؛ بل لقد قال الحبيب ﷺ ؛ كما في « صحيح مسلم » (٢) من حديث أبي هريرة ﵁ : « لاَ تَدْخُلُون الْجَنَّةَ حَتَّى

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٩) ، والحاكم (٤/ ٤٤٥ ، ٤٤٦) ، وصححه ووافقه الذهبي والبخاري في « الأدب المفرد » (١٠٤٩) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٧/ ٣٢٩) : « رواه أحمد والبزار ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح» ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٦٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان « باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان وأن إفشاء السلام سببٌ لحصولها » (٥٤) .

تُؤْمِنُوا ، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ » .

فرسولنا ﷺ رسول السلام ، فلتسمع الدنيا ؛ بل ربنا ـ جلَّ جلاله ـ هو السلام ، والجنة هي دار السلام ، وَتحية المؤمنين حين يدخلون الجنة السلام ؛ قال تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب:٤٤] ؛ بل وتحية الملائكة لأهل الإيمان في الجنة السلام ؛ قال تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر:٧٣] .

فديننا هو دين السلام .

○ يا أخي ؛ سلِّم على إخوانك من المسلمين ، على مَنْ تعرف ومَنْ لا تعرف ؛ كما أمرنا نبينا ﷺ .. هذا هو المراد بتسليم الخاصة .. ولقد ضعفت ـ الآن ـ الأُخوَّةُ الإيمانية جدًّا ، وقلَّت في القلوب ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] .

فإن وجدت إيمانًا بلا أُخوَّة فاعلم بأنه إيمانٌ ناقص ، وإن وجدت أُخوَّةً بلا إيمانٍ فاعلم بأنها ليست أخوة الدين ، وليست أخوة الإيمان ؛ بل هي التقاء مصالح ، وتبادل منافع، إذا انتهت المصلحة ، وانتهت المنفعة قلَّت هذه العلاقة ؛ بل ربما انقطعت هذه الآصرة ؛ لذا أقول : الآصرة الإيمانية هي أشرف الأواصر ، وهي أعظم العلاقات ، وهي أغلى الروابط ؛ لأن المؤمنين جميعًا كأنهم روحٌ واحدة ، حلَّتْ في أجسامٍ متفرقة ، كأنهم

أغصانٌ تنبثق كلُّها مِنْ دوحةٍ واحدة ؛ لذا يقول ربُّنا ـ جلَّ جلاله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] .

فمن علامات الساعة ؛ كما قال ﷺ: « تَسْلِيمُ الْخَاصَّةِ » وتزداد المأساة إذا كان يتعمد عدم التسليم على إخوانه ؛ لأن هذا المسلم لا ينتمي إلى منهجه الذي ينتمي إليه ، ولا ينضم إلى جماعته التي هو ينتسب إليها .. إلى آخر هذه النظرة الحزبية الضيقة ، التي أسأل الله أن يطهر قلوبنا وعقولنا منها .

وما أشرف هذه الصلة ، وما أعظم هذه الجماعة ، وما أكرمها وأكبرها ، تلك الجماعة التي يجب على كلِّ مسلم أن يعتز بالانتماء إليها ، ألا وهي جماعة المسلمين ، إن سألوك عن شيخك فُقْل : شيخي رسول الله . دعك من هذه الحزبية والعصبية التي شتتت الأمة ومزَّقت الصف ، في وقتٍ تكالبت فيه كلُّ أمم الأرض على أمة الإسلام والتوحيد والإيمان ، ولا زلنا متشرذمين متفرقين متنازعين ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦] ، وإن سألوك عن جماعتك فُقْل: ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج:٧٨] .

○ وأنا أقول لأحبابي وإخواني : دعوا هذه العصبية فإنها منتنة ، وعودوا إلى كتاب الله ، وإلى سنة رسول الله ﷺ ، وإلى الجماعة الأم التي يجب على كلِّ مسلم أن يشرف بالانتماء إليها ، ألا وهي جماعة المسلمين ـ أسأل الله أن يؤلف بين قلوبنا ، وأن يوحد صفوفنا ، وأن يجمعنا على القرآن والسنة بفهم الصحابة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

سلِّم على كلِّ أخٍ مُسْلِمٍ يا أخي، وأنتِ يا أختاه سلِّمي على أختك المسلمة ؛ تقولين : إن هذه الأخت على معصية ، أقول لك : ذكريها بالله تبارك وتعالى ، تقولين : إنها دخلت المسجد بزيٍّ غير منضبط شرعًا ، أقول لكِ : ذكِّريها بالله تبارك وتعالى ؛ بكلمةٍ رقيقةٍ مهذبة جميلة ، وأنت أخي الحبيب لا تقل : هذا الرجل مبتدع ، أو مقصر وتقف مكتفًا ؛ لا ؛ بل ، ذكِّره بالله سبحانه وتعالى ، بأسلوب رقراقٍ مهذبٍ جميل ، وإلا فوالله لن نملك أن نحول القلوب من البدعة إلى السنة ، ومن الشر إلى الخير ، ومن الباطل إلى الحق ، ومن الضلال إلى الهُدَى إلا على منهج صاحب السنة ، صاحب الهدْي ، صاحب الخلق ﷺ ، الذي قال له ربُّه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

● ثم بين النبيُّ ﷺ أن من علامات الساعة : « **وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ** » وهل التجارة حرام ؟ لا .إذًا لماذا ذكرها النبيُّ ﷺ في علامات الساعة ؟ ـ انتبه : فهذا أصلٌ مهمٌّ جدًّا : ليس بالضرورة إن ذُكِرتْ علامةٌ من علامات الساعة أن تكون هذه العلامة محرمة ؛ ففشو التجارةِ علامة من علامات الساعة الصغرى ؛ لكن التجارة ليست حرامًا ، اللَّهُمَّ إلاَّ إذا كانت التجارة في أصلها حرامًا ـ كما سأبين الآن ـ كذلك التطاول في البنيان علامةٌ من علامات الساعة وليست حرامًا .. ظهور المهدي علامة وليست حرامًا ... وهكذا ؛ فليس

بالضرورة إن ذكر النبيُّ ﷺ علامةً من علامات الساعة أن تكون هذه العلامة محرمة ؛ فمن هذه العلامات ما هو محرم ـ كما بينا ـ ومن هذه العلامات ما لم يحرمه رسول الله ـ عليه أفضل الصلاة وأزكي السلام .

● « وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ » انتشرت التجارة بشكلٍ مُلْفِتٍ ، قد تمشي الآن في شارعٍ واحدٍ بدون مبالغة ، فترى تقريبًا بين المحلِّ والمحل محلًا تجاريًّا آخر ؛ كثرت المحلات بصورة واضحة . وتدبر هذه اللفتة النبوية الجميلة التي يقول فيها عليه الصلاة والسلام : «حَتَّى تُعِينَ الْـمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ» صلى الله وسلم وبارك على الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، وأودُّ أن أبين أن التجارة لا بدَّ لها من ضوابط ؛ فأقول : الدنيا مزرعةٌ للآخرة ، ولا عيب أن نتاجر .

○ أيها التاجر الحبيب : اعلم أن أشرف من تاجر هو المصطفى ﷺ ؛ فلقد كان يتاجر في مال خديجة رضي الله عنها ، فكانت تجارة المصطفى ﷺ تشريفًا لكلِّ تاجرٍ مسلم على وَجْهِ الأرض ؛ فلا حرج أن تتاجر ؛ لكن بشرطين :

● الأول : أن تتاجر في الحلال ـ بالضوابط الشرعية .

● الثاني: وأن تؤدي حق الكبير المتعال .

فالقضية ليست قضية أن نترك الدنيا لغير المسلمين ، فمن قال : بأن من عاش للآخرة ترك الدنيا ؟! مَنْ قال هذا ؟ مَنْ قال بأن النبيَّ ﷺ الذي هو أعظم وأطهر وأشرف مَنْ عَمِل للآخرة ترك الدنيا ؟! فبعضُ الناس يقول: المطلوب هو الزهد في الدنيا ، ما معنى ذلك ؟ بمعنى أن يكون

العبد غير نظيف الثوب ، ورائحته منتنة ، والمنظر العام سيء ؛ بدعوى أنه زاهد في هذه الحياة ! هذا فهمٌ مغلوط ، إن أزهد الخلق هو المصطفى ﷺ ، فما عرفت الدنيا أزهد من رسول الله ﷺ ؛ ومع ذلك يأتيه سائل ليسأله ، تصور ماذا يعطيه النبيُّ ﷺ ؟ أعطاه غنمًا بين جبلين [(١)] ، وقد مرَّت عليه أوقات ربط فيها الحجر على بطنه من شدة الجوع [(٢)] ! نعم .. ليبين لنا حال الدنيا .

ومن أصحاب رسول الله ﷺ من قُسِّم ميراثه من الذهب ؛ كعبد الرحمن بن عوف ، والصديق ـ رضوان الله عليه ـ وأبي طلحة الأنصاري ؛ فنحن نريد أن نفهم القضية فهمًا دقيقًا .

○ ولذا يقول عليٌّ رضي الله عنه : « الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تزَوَّد مِنْهَا ، وَدَارُ نَجَاةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، فَهِيَ مَهْبِطُ وَحْيِ الله ، وَمُصَلَّى أَنْبِيَاءِ الله ، وَمَتْجَرُ أَوْلَيَاءِ الله ، رَبِحُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَاكْتَسَبُوا فِيهَا الجَنَّةَ » [(٣)] .

● ومن هنا ؛ فالمراد بالزهد : أن تترك الحرام ، وأن تترك مالا يُرْضي الله سبحانه وتعالى ؛ فالزهد : أن يكون بين يديك كلُّ شيء تستطيع أن تفعله ، ولكنك لا تفعل إلا ما أحل الله لك ؛ فأنت تترك الحرام طاعةً لله وتقوى

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفضائل « باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال : « لا » وكثرة عطائه (٢٣١٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي « باب غزوة الخندق وهي الأحزاب » (٤١٠١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٥) ، وابن عساكر في « تاريخه » (٤٢/ ٤٩٨) و(٥٨/ ٧٩) ؛ وفي إسناده نظر؛ كما قال ابن رجب ؛ وقد تقدَّم معنا .

له سبحانه وتعالى ، وحبًّا لرسول الله ﷺ ؛ هذا هو أعلى مقامات الزهد .

إذن لا حرج ـ أيها الحبيب ـ أن تعمل بالتجارة ؛ لكن تاجر بشرف ، وأمانة ، وضوابط ، وأخطر هذه الضوابط أن تتقي الله سبحانه وتعالى وأن تكون تجارتك حلالًا ؛ فقد قال تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:١-٦] .

إذا اشتروا من الآخرين يريدون أن يأخذوا حقوقهم كاملة مستوفاة ، وإن باعوا للآخرين يتفنن أحدهم في أن يطفف الكيل والميزان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا غشٌّ في التجارة !!

أخي : راقب ربك سبحانه وتعالى .. الذي يعلم منك السرَّ وأخفى ؛ ولكن مما يمزق القلب الآن أن التاجر بخفة يد يستطيع أن يسرق في الميزان ، وهذا المسكين الواقف أمامه لا يدرك هذا ! فأنا أقول لهذا : مَنْ تُخادع ؟ إن كان هذا الذي يشتري منك لا يراك ، أنسيت أن الله ـ جلَّ وعلا ـ يسمع ويرى ؟ ! .

۞ أنت ـ أخي الحبيب ـ تعلم يقينًا الحلال والحرام ، وتعلم الأمانة والغش ، فلا تخدع أحدًا حتى ولو كُنْتَ تبيع سيارتك الخاصة ، فأنت في هذه اللحظة تصبح تاجرًا ؛ فبيِّنْ واصْدُقْ .

● قال رسول الله ﷺ كما في « الصحيحين »[١] من حديث حكيم ابن حزام رضي الله عنه :

« الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا ، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » .

فإن صَدَقْتَ ـ أيها التاجر ـ حلَّت البركة عليك وعلى المشتري ؛ إذن لماذا محقت التجارة ؟ مُحقت بالغش ، والكذب ،والخيانة !! لا يجوز لك بحال أن تقول : أريد أن أُحصِّل المال والمكسب بأيِّ صورةٍ من الصور ، حتى ولو كنتُ أعلم يقينًا عيبًا خطيرًا في سلعتي التي أروج لبيعها ، لكنني بكلِّ الصور أريد أن أُخفي هذا العيب عن هذا المشتري ، حتى يأخذ السلعة وينصرف !! وماذا بعْدُ يا أخي ؟ والله لن ينفعك هذا المال الذي زدته بالحرام والغش ، وإن توهمت أنه سينفعك في الدنيا ستسأل عنه بين يدي الله تبارك وتعالى في الآخرة ، وستترك كلَّ هذا المال للورثة ـ كما سأبين الآن إن شاء الله تعالى في علامةٍ أخرى خطيرة من علامات الساعة انتشرت الآن بصورة مؤلمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

● وفي « صحيح مسلم »[٢] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب البيوع « باب إذا بَيَّنَ البيعان ولم يكْتُما ونصحا » (٢٠٧٩) ، ومسلم كتاب البيوع « باب الصدق في البيع والبيان » (١٥٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان « باب قول النبيِّ ﷺ : « من غشنا فليس منا » (١٠٢) .

أَصَابِعُهُ بَلَلاً ـ وهذا ما يُعرف بـ : توشيش الأقفاص ؛ تجد أول القفص طيبًا ، لكن لو نظرت في أسفله ؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون !! لماذا هذا الغش أيها التاجر ؟ نريد أن نصحح مسيرتنا وأخلاقنا وسلوكياتنا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ؛ لنُحْيي دنيانا ، لنكون من أهل السعادة في الدنيا والآخرة ـ نسأل الله أن نكون من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

فلما رأى النبيُّ ﷺ الطعام ظاهرهُ الحسن ، ومدَّ يَدَهُ في أسفله فأصابت أصابِعُهُ بللا ؛ فقَالَ : « **مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟** » .

قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله ـ يعني : نزل عليه المطر .

فقَالَ ﷺ :

« **أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ ! مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا** » .

لا يستطيع كلُّ بلغاء الأرض ولو اجتمعوا أن يعبروا عن هذا المعنى الضخم بهذه الكلمات البليغة القليلة ـ فصلى الله على من آتاه الله جوامع الكلم ـ هذا دستورٌ نبويٌّ يُسْعِدُ أَهْلَ الأرضِ في الدنيا والآخرة .

○ **فيا أيها التاجر** : اصدق وبيِّن عيب سلعتك وتجارتك ؛ كي يراها الناس ، فيستطيع المشتري أن يحدد قيمة السلعة بناءًا على هذا العيب ؛ بل بيِّن له أنت ، أخرج الرديء ، واصدق الله كي يُبَارَك لك في تجارتك . من أجل ذلك لا تستغرب أن يكون التاجر الصدوق مع النبيِّ ﷺ في الجنة ؛

كما في « سنن ابن ماجه » وغيره [١] من حديث ابن عمر ﵄ قال : قال رسول الله ﷺ :

« التَّاجِرُ الأَمِينُ الصَّدُوقُ الـمُسْلِمُ ، مَعَ الشُّهَدَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

○ وفي لفظِ الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ : « مَعَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَدَاءِ » .

منزلةٌ لا توصف ، قد تجد تاجرًا لا يتقي ربه ﷻ وهو غاشٌّ للناس، فتجده يبيع سلعة كَتَبَ عليها : مصنوعة في اليابان ، وهو يعلم يقينًا أنها ليست مصنعة في اليابان ، وهذه السلعة ثمنها مئة جنيهٍ ؛ لأنها أصلية ، وفي الحقيقة هي مغشوشة لا تساوي عشرة جنيهات يبيعها بمائة جنيه !!! أقسم بالله إن هذا المال لن ينفعك لا في الدنيا ولا في الآخرة .

أيها التاجر : أنت تعمل لمن ؟ وما هي النهاية ؟ ستموت ! وأنا سأموت ! وسنترك هذا المال للورثة ، فهم الذين يتنعمون به ، وأنت المسكين الذي لم تكن تنام الليل ولا النهار ، ستسأل عن هذا المال ؛ من أين أتيت به، وفيما أنفقته ؟ كما قال ﷺ : « لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ

---

(١) أخرجه عبد بن حميد (٩٦٦) ، والدارمي (٢٥٣٩) ، والترمذي كتاب البيوع « باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم (١٢٠٩) من حديث أبي سعيد الخدري ، وفي سنده انقطاع ؛ لكن يقويه حديث ابن عمر الذي رواه ابن ماجه ، كتاب التجارات « باب الحث على المكاسب » (٢١٣٩) ، والطبراني في « الكبير » (٥٧٧) و« الأوسط » (٧٦٠٧) ، والحاكم (٥/ ٢٤٣) والدارقطني (٢٨٤٩) ، والبيهقي (٥/ ٢٦٦) ، وصححه لغيره العلامة الألباني في «الصحيحة » (٣٤٥٣) و« صحيح الترغيب » (١٧٨٢ ، ١٧٨٣) .

عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ »(١) .

لا حرج في الإسلام أن تصنع لربحك هامشًا ؛ ، ويضبط هذا الهامشَ تقواك لله ، ورحمتك بالآخرين ورضاك ، أسأل الله أن يوسع علينا وعليكم ، وأن يرزقنا وإياكم الرضا ؛ فما أجمل الرضا وما أعظم القناعة .

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خيرٌ من غنًى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما في الأرض لا يكفيها
هي القناعة فالزمها تكن ملكًا ... لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير الطيب والكفن

● وهذا هارون الرشيد ، كان أميرًا عادلًا يغزو في سبيل الله عامًا ، ويحجُّ عامًا ، كان يخاطب السحابة في كبد السماء ويقول لها : أيتها السحابة في أيِّ مكان شئتِ فأمطري ، فسوف يُحمل إليَّ خراجك إن شاء الله ـ كناية عن سعة ملكه ، وسعة الدولة في عهده ـ رحمه الله تعالى ـ ومع ذلك لما نام على فراش الموت بكي ، وقال : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَـٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩] ـ أين المُلك ؟ أين الجاه ؟ أين السلطان ؟ ـ ثم قال : أريد

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة عن رسول الله « باب في القيامة » (٢٤١٧) ، والدارمي (٥٤٣) ، وأبو يعلى في « مسنده » (٣٤٣٤) ، وابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٣٢) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ، وصححه لشواهده الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢/ ٦٢٩) .

أن أرى قبري الذي سأدفن فيه ، فحملوه إلى قبره ، فنظر إلى القبر ، وبكى ، وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم مَنْ قد زال ملكه (١) .

○ لقد انتقل هارون من القصور إلى القبور ، ومن المهود إلى اللحود ، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مجاورة الديدان ، لو تدبرت هذا الكلام والله سيتغير مسارك ؛ لأنه مهما طالت الدنيا فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ؛ لأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر ؛ ولأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر ، فلن تُخلَّد في الدنيا ، ولو خُلِّد أحدٌ ، لخُلِّد المصطفى ﷺ.

● قال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٤]

● وقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:١٨٥] .

لو دام الكرسيُّ لغيرك ما وصل إليك ، والله لَنْ يخلَّد أحدٌ فيها على الإطلاق.

● قال سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] فاغرس لنفسك ـ في الدنيا ـ هنا لتحصد هنالك سعادةً وعزةً وكرامة ؛ أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر : « إحياء علوم الدين » (٤/ ٤٨١) ، و« تاريخ الخلفاء » للسيوطي (٢٦٨) ، و«تاريخ بغداد » (١٤/ ١٩) للخطيب ، و« تاريخ الإسلام » للذهبي (١٦٣٢ ، ١٨٣٧ ، ١٨٣٨) ، و« البداية والنهاية » (١٠/ ٣١٠) .

ۚ وروى ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١١٧) عن عبد الله بن بسطام قال :«احتضر بعضُ الملوك فجعل يقول: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه » .

○ أخي : مارِسْ التجارة بأمانة وبشرف ؛ أيًّا كان نوع التجارة ، أدِّ حق الله تبارك وتعالى ، ولا تبخل ، ولا تنس أن هذا الرزق فضل الله عليك ؛ فلقد كنت فقيرًا فأغناك الله ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الأنبياء:٣٤] .

لقد كُنْتَ بالأمس فقيرًا فتفضَّل اللهُ عليك بنعمه ، ووسع عليك بأرزاقه ، فأدِّ حق الله سبحانه وتعالى ، ولا تنس الفقير ، والمسكين ، أسأَلُ الله أن يزيدك من فضله .

○ تدبر هذا الحديث العظيم ، الذي ينبغي أن نردده ، وأن لا نملَّ تكراره ، والحديث في « الصحيحين » (١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ ثَلاَثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى ، فَأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ؛ فَقَالَ لَهُ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟** » ـ أي تمنَّ ؟ ـ « **قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ** » ـ هذه أمنيته في محلها ، فهو مبتلى بمرض البرص ، فطلب أن يشفيه الله ويعطيه جلدًا جميلًا ، ويذهب عنه البلاء الذي تسبب في انصراف الناس عنه ـ « **قَالَ : فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا** » ـ لقد شفاه الله تعالى .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديثُ أبرصَ وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣٤٦٤) ، ومسلم ، كتاب «الزاهد والرقائق » (٢٩٦٤) .

تدبر هذا الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود (١) من حديث أبي رمثة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « الله الطَّبِيبُ » ؛قال ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء:٨٠] .

فأنت تذهبُ إلى طبيب من الأطباء ، لتأخذ بالأسباب ، وإلا فالشفاء بيد مسبب الأسباب ـ جلَّ جلاله ـ وما من داء إلا وجعل الله له دواء فتداووا ، ولكن لا تعلِّق قلبك بالسبب ، فالأسباب وحدها لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب ، اللهم إني أسالك في هذه الساعة المباركة أن تنزل على مرضى المسلمين من شفائك ورحماتك وبركاتك ما تذهب به عنهم جميعًا آلامهم ، يا أرحم الراحمين .

○ « ثم قَالَ الملك للأبرص: فَأَيُّ الْـمَالِ أَحبُّ إِلَيْكَ ؟ ـ أي : ماذا تحبُّ من الأموال ؟ ـ قَالَ : الإِبِلُ ـ أي : الجِمَال ؛ يقول الحبيب ﷺ : « فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ » ، ثم قال له الملك : « بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا »فوقعت البركة ، أو إن شئت فقُلْ : فبركت البركة . فأتى الملكُ الرجلَ الثاني ـ «فَأَتَى الأَقْرَعَ ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. قَالَ : فَمَسَحَهُ ، فَذَهَبَ عَنْهُ ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا ، قَال: فَأَيُّ الْـمَالِ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً ، فَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا » ـ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٦ ، ٢٢٧) (٤/ ١٦٣) ، وأبو داود كتاب الترجل باب في « الخضاب » (٤٢٠٧) ، والحميدي (٢/ ٣٨٢) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٧٩) ، وصححه الشيخ الألباني على شرط مسلم في « الصحيحة » (١٥٣٧) .

وتركه وانصرف ، ثم أتى الملك الرجل الثالث - « **فَأَتَى الأَعْمَى ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ** » نعم .. الأمر كلُّه ابتداءً وانتهاءً لله .

● قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:١٧] .

يا صاحب الهم إن الهمَّ منفرج — أبشر بخيرٍ فإن الفارج الله
وإذا بُليت فثق بالله وارض به — إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يُحدث بعد العسر ميسرةً — لا تجزعنَّ فإن الخالق الله
والله ما لك غير الله من أحدٍ — فحسبك الله في كلٍّ لك الله

أسأل الله أن يملأ قلوبنا وإياكم بتقواه ورضاه ، وأن يصلنا جميعًا إليه بهداه ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

○ ثم قال الملك للأعمى : « **فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا** » - وتركه وانصرف ، « **فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا** » - أي: أنتج صاحب الإبل ، وأنتج صاحب البقر ، وولَّد صاحب الغنم ، «**فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ** » - ولكن انتبه للاختبارات ، اللهم سلِّمنا ، ونجنا - « **ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ؛ فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ ،**

وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ ، وَالْمَالَ ، بَعِيرًا أَتبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ ».

هكذا ينسى الإنسان أصله! وينسى فقره وضعفه وعجزه !! وهذه كارثة.

● قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار:٦] ، أنسيت فقرك؟ أنسيت أصلك؟ أنسيت جهلك ؟

● يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الأنبياء:٣٤] .

من عرف ربه عرف نفسه ، ومن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالذل التام ، ومن عرف ربه بالقوة المطلقة عرف نفسه بالضعف المطلق . أقسم بالله لا يملك أيُّ مخلوق على وَجْهِ الأرض لنفسه أيَّ شيءٍ ، وما منَّ الله عليك بهذه النعم ، وبهذه التجارات ، وبهذه الأرزاق إلا بفضله ، وكلُّ ذلك يحتاج إلى شُكْر ، والشكر ليس كلمة ، ولا قُبْلةً أطبعها على كفِّ اليد ، أو على ظهره!! إطلاقًا ؛ بل قال الله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ﴾ [سبأ:١٣] إياك أن تنسى فقرك ، وفضل الله عليك .

فلما قال له : الحقوق كثيرة ، قال الملك له : « كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ » ـ انظر إلى هذا الجحود !! ـ « فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ

الله إِلَى مَا كُنْتَ » ـ فصار كما كان ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وكما استجاب الله دعوة الملك في المرة الأولى استجاب الله دعوته في المرة الثانية ؛ فصار كما كان ؛ وضاع كلُّ شيء : الجلد الجميل ، والشكل الحسن ، وابتلي بالبرص مرة ثانية ، وخسف بوادي الإبل !! فأحذرك من الحرام ؛ لأن المال ظلٌّ زائل ، وعاريةٌ مسترجعة ، احذر أكل أموال اليتامي ، إياك أن تأكل بالغش والباطل ؛ إياك أن تحتكر سلعةً لأجْلِ أن تتحكَّم في سعرها ، وتمتص دماء المساكين والفقراء ! يوجد من الناس الآن ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ من لو ظلَّ طوال حياته يأكل أوراق بنكنوت فلن ينتهي هذا المال ! والله لن ينفعك هذا المال ، وستتركه كلَّه للورثة . وهنا يطرح بعضهم هذه المقالة الخطيرة ألا وهي : لولا أن الله قد رضي عن فلان لما وسَّع عليه ! فدليلُ رضاه أنه قد أكرمه وأغدق عليه من الأموال !! وأنا أقول : لا يا أخي ، ليس هذا دليلاً ، فهل نسيت قارون ؟ الذي أعطاه الله من الأموال بصورةٍ لا يمكن أن يتخيلها العقلُ البشريُّ ، تصور أن شبابًا أقوياء لا يستطيعون حمل مفاتيح خزائن قارون !! ، وهنا قال قارون ما قاله الرجل الأبرص ، لكن بعبارة قارونية متكررة لمّا ذُكِّر بفضل الله ، ونِعم الله عليه ، قال كلمته الخبيثة ـ التي تتردد الآن تمامًا على ألسنة الكثيرين :

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨] .

إنها نفس العبارة التي تقال اليوم : فن الإدارة ! وأنا أقول : جميل أن يكون عندك فن الإدارة ، لكن لا ترد الأمر إلى عقلك ، وإلى فضلك أنت ،

والله ! أنت ضعيف ، نحن فقراء ، ما نملك أي شيء ؛ لأن ما آتاك الله ﷻ هو من فضله فلا تقل : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ لا تقل : هذا فن الإدارة ! ، لا تقل : إدارة حاسمة ! نعم .. مطلوب أن تكون رجلاً مسلمًا قويًّا مبدعًا رائعًا منتجًا في كل مجالات الحياة ، وفي كلِّ مكان تحت السماء ، فوق أي بقعة ، لكن لا تنس فضل الله عليك ، واعلم أنَّ كل ما أنت فيه إنما هو محضُ فضل الله عليك ، والذي يجمع المال من الحرام ، ومع ذلك تراه في زيادة دائمًا ؛ فهذا في استدراج من الله ﷻ .

• كما في « **مسند** » **الإمام أحمد** (١) وغيره من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **إِذَا رَأَيْتَ الله يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ** » ثُمَّ تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام:٤٤] .

وهنا لم يقل : فانتقمنا منهم ، ولم يقل : فخسفنا بهم الأرض ، ولم يقل : فسلبناهم أموالهم ؛ بل قال: ﴿ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ .

ولكن : كم من مستدرجٍ بنعم الله عليه وهو لا يدري ، وكم من مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يدري !!

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٩٢٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٥٤٠) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٤١٣) و« صحيح الجامع » (٥٦١) .

● والسؤال المهم الذي يطرح نفسه الآن ، هو : كيف أعرف أن المال الذي عندي نعمة أم نقمة ؟ ترمومتر جميل ، ودقيق ، وصغير تستطيع أن تضعه في جيبك ، وأن تقيس به كلَّ نعمة في كل لحظة ؛ هات بسرعة حبيبي في الله النعمة التي بين يديك ؛ مال ، زوجة ، ولد ، منصب ، كرسي ، جاه ، صحة ، جمال تستطيع أن تعرف إذا كانت هذه الأمور نعمة أو فتنة ، بيسر وسهولة ؛ فأقول : إن قربتك هذه النعمة من الله ـ جلَّ وعلا ـ فاسجد لربك شكرًا ، واعلم بأنها النعمة ، واعلم بأنها فضل الله عليك ، وإن أبعدتك هذه النعمة عن الحلال وعن الكبير المتعال ، فاعلم بأنها الفتنة في ثوب النعمة ، واعلم بأنها المحنة!! في ثوب المنحة .

هل هذا المنصب قربني من الله أم أبعدني عن الله ؟ وحال بيني وبين الصلاة ، وحال بيني وبين الجماهير من الناس ، هل أنا وظَّفتُ هذا الكرسي لتفريج الكربات عن المكروبين ؟ هل وظَّفتُ المنصب لكشف الهم عن المهمومين ؟ هل وظَّفتُ مكانتي وجاهي ؟ وأنتِ أيتها الأخت الكريمة هل وظَّفت مكانة زوجك ، ووجاهة زوجك لفعل الخير ؟

هل تحثينه على فعل الخير ؟

○ أخي : وظِّف طاقتك ، وإمكانياتك ، وأموالك ، وامرأتك ، وبناتك ، وأولادك . وظِّف كلَّ ما تملك لدين الله سبحانه وتعالى ، بذلك يكون المكسب ، وهذه هي الزراعة الحقيقية ، وهذا هو الغرس الحقيقي .. هذه استطرادات لا بد منها ـ أسأل الله أن ينفعني وإياكم بها .

○ ارجع معي لحديث النبيِّ ﷺ، يقول:

«وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِالله، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ للهِ» ـ لقد عاد إلى أصله، ولم ينس الفضل، فنجح وسعد في الدنيا والآخرة ـ قَالَ: «وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللهِ لاَ أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ للهِ» ـ أي لا أمنع اليوم منك شيئًا أخذته لله ﷻ، فقال له الملك: «أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ».

فالمال ظلٌّ زائل، اكسب واربح، لكن بشرف وأمانة وصدق .. بيِّن ولا تغش تُجَّارك .. أنا رجل قد لا أفهم في هذه التجارة، فاصدق معي يا أخي، نريد صدقًا في الحياة، لقد أصبحت التعاملات مليئة بالمرارة والألم، يودُّ كثيرٌ من الأفاضل أن يتعاملوا مع أهل أمانة، ومع أهل صدق في كلِّ مجالات الحياة، والأمر يحتاجُ فقط إلى أن تستيقظ ضمائرنا.

والنبيُّ ﷺ يسأل الصحابة ـ كما في «صحيح البخاري»[(١)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ يقول لهم ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق «باب ما قدم من ماله فهو له» (٦٤٤٢).

مَالِهِ ». قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ . قال ﷺ : « **فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ** » .

فجُلُّ المال الذي يُجمع من الحرام سيترك للورثة ، ويُسأل عنه العبد بين يدي الله تبارك وتعالى .

● وفي « **صحيح مسلم** »(١) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: قال البشير النذير ﷺ : « **يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي ، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟** » .

هذا هو المال الحقيقي الذي جمعته من الحلال .. بعرقك وجهدك وبتوفيق الله لك ، وأديت فيه حق الله سبحانه وتعالى .. هذا هو المال الذي تسعد به في الدنيا والآخرة .

○ إخواني : أريد أن أختم هذا الفصل بموقفٍ جميلٍ ربما أكون ذكرته قبل ذلك لكن لا حرج أن أُذكِّر به مرة أخري ؛ أسأل الله تعالى أن يُبقيني وإياكم على طاعته ومرضاته .

رجلٌ في مدينة المنصورة ابْتُلِي بمرضٍ في قلبه ـ اللهم اشف مرضى المسلمين ـ وسافر إلى لندن لإجراء فُحوصَات ؛ وبعد الإطلاع على الأشعة والفحوصات قالوا له : أنت محتاج إلى إجراء جراحة عاجلة لتوسيعٍ في شريانٍ يقال له : الشريان التاجي ، قال : لا مانع ، واستأذن

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الزهد والرقائق » (٢٩٥٨) .

الأطباء والمشرفين على علاجه أن يمنحوه فرصة ليعود فيها إلى مصر ، يقول لي : فكَّرتُ أن أرجع لأوصي ، وأرتب بعض أموري ، وقُلْتُ : لا أحد يضمن الحياة من الموت ، فرجعت إلى مصر ورتبت أموري ، ورتبت أحوالي ، وقبل السفر بأيام قليلة ، وأنا جالس مع صديق لي ، فنظرت في الجهة المقابلة ، فوجدتُ جزارًا ، فلَفَتَ نظري امرأة عجوز ، إذا ما وقعت قطعةُ عظمٍ على الأرض ، أو قطعة دهن تضعها تلك المرأة في كيسة بلاستيك سمراء معها ، نظرت إليها مرة بعد مرة ، فوجدتُ الأمر يتكرر ، فخرجتُ ، وقُلْت : تعالي يا أمي ماذا تفعلين هنا ؟

قالت : والله يا بني أنا عندي ست بنات لم يأكلن اللحم منذ ثمانية أشهر ، فأنا أُحضر لهم أي قطعة عظم مع دهنه !! قال : فتأثرت جدًّا ، لأننا كلَّ يومٍ نَرْمي لحمًا ، فقلت لها : كم تحتاجين من اللحم؟ قالت له : نصف كيلو يا بني ، يقول : فقلت للجزار: اقطع لها اثنين كيلو ، فقطع لها اثنين كيلو ، يقول : سبحان الله ! وقذف الله في قلبي وأنا واقف ؛ فقلتُ للجزار : هذه السيدة ستأتيك كلَّ أسبوع فأعطها اثنين كيلو من اللحم ، وأعطيته حساب سنة كاملة مقدمًا ، يقول : والله يا شيخ لقد بركت هذه السيدةُ على ركبها ، ورفعت رأسها للسماء وناجت ربها بكلمات ، يقول لي : لقد دعت لي بكلماتٍ خلعت قلبي ، ولم أتمالك نفسي من البكاء ، وأنت تعرف دعوات أمهاتنا الطيبات ، أصحاب الفطرة الطيبة النقية ؛ دعاء يخلع

القلب يقول : سبحان الله ! عُدْت إلى صديقي هذا وأنا أبكي متأثر جدًّا ، لكن شعرت بانشراح في صدري ، وسعادة غامرة .

فعُدْتُ إلى البيت وأنا مريض بالقلب ، رجعت وأنا نشيط وكُلِّي حيوية ، يقسم لي بالله ؛ فيقول : والله لو قالوا لي كسِّر جدارًا لأكسِّرنه ، يقول : فلما دخل البيت فتحت له ابنته الباب فلما نظرت إليه ، قالت له : ما شاء الله ، وجهك لا يمكن أن يكون مريضًا بالقلب !! يقول : فقلْتُ لها ـ وأنا أبكي : والله يا بنيتي حصل كذا وكذا ، وحكيت لها قصتي مع العجوز . قال : فبكت ابنتي هي الأخرى ، ورفعت رأسها إلى السماء ، وقالت : اللهم أسعدنا بشفاء والدنا كما أسعد والدي المرأة وبناتها ، واستجاب ربك سبحانه وتعالى ؛ يقول لي : والله فات اليوم الأول والثاني ، والثالث لا أشعر بأي مرض ، ولا أي هبوط !! لكن الأسرة صمَّمت أن أسافر إلى لندن لإجراء الجراحة ، يقول : وأنا هناك بكيتُ ، وكأني لم أبك في حياتي من قبل ، الطبيب القائم على الجراحة يعيد الكشف لي سريعًا ، فلما أعاد الكشف ؛ نظر إليَّ ، وقال : ما الأمر ؟! تعجب وقال : أحضروا الأشعة ، فهذا الرجل عنده ضيق في المكان الفلاني في القلب في هذا الشريان ، نعيد الأشعة ، فأعادوها ، فوجدوا أن المكان الذي كان ضيقًا ، أصبح لا يحتاج لجراحة !! ؛ فصرخ الطبيب ، وقال : ماذا فعلت؟ قال : فبكيت ، وقلْتُ له : تاجرتُ مع الله ـ جلَّ وعلا ـ فشفاني الله سبحانه وتعالى .

فإذا كانت التجارة مع الله ؛ فهي تجارة رابحة ، فهيا تاجر مع الله ، في الفقراء ، والمساكين ، واليتامى ، والأرامل ، وفي طلاب العلم الفقراء ، وفي هؤلاء الذين لا يجدون لقمة الخبز في فلسطين ، وفي العراق ، وفي الصومال ، وفي أفغانستان ، وفي السودان ، وفي كل مكان ، بل وفي قريتك ومدينتك ومركزك ، هيا أنفق وتاجر مع الله.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مِنِّي ومنكم جميعًا صالح الأعمال ، وأن يغفر لي ولكم ، وأن يختم لي ولكم بخاتمة الإيمان .



تقارب الأسواق وانتشار الربا ،وشرب الخمر

فمن علامات الساعة « تقارب الأسواق » ؛ فلقد أخبر النبيُّ ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده »(١) وغيره بسندٍ صحيحٍ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه أن النبي ﷺ : « **لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَتَقَارَبَ الْأَسْوَاق** » .

○ **ما معنى التقارب ؟ التقارب له معنيان :**

● **المعنى الأول** : أن الأسواق قد تقاربت بالفعل ؛ لسرعة وسائل المواصلات ، ولسرعة الاتصالات ، تستطيع الآن ـ بفضل الله ـ أن تركب سيارتك ، وأن تذهب إلى أيِّ سوق في قريتك ، أو في مدينتك ، أو في مركزك ، أو حتى في دولتك ، وأن تعود في نفس اليوم تقريبًا ، مع أن السفر كان قبل ذلك يَقْطَعُ فيه الإنسانُ شهورًا طويلة ؛ بل تستطيع ـ الآن ـ بالطائرة أن تسافر من مصر مثلًا إلى السعودية ، أو إلى دُبَيّ ؛ لتقضي أمرًا من الأمور ، ثم ترجع في نفس اليوم ـ إن أَرَدْتَ ـ أو في اليوم التالي ؛ بل تستطيع أن تسافر إلى أيِّ دولةٍ في العالم ، وأن تعود في أيام قليلة ؛ فلقد كانت هذه المسافات تقطع في الشهور ؛ بل تقطع في سنوات ، ولكن هكذا تقاربت

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٩) ، وابن حبان في « صحيحه» (٦٧١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٧٧٢) .

الأسواق في هذا الزمان .

وهذه البورصة العالمية الآن تستطيع أن تتعرف على سعر السلع ، أو على سعر العملات تقريبًا في كلِّ ساعة أو أقل ؛ انظر إلى هذا التقارب ؛ تقارب في الأسواق .. تقارب في معرفة الأسعار .. التقارب الحسي الحقيقي ، هذه أيضًا علامة ذكرها النبيُّ ﷺ وقد أصَّلتُ قبل ذلك أنه ليس بالضرورة أن تكون العلامة مُحَرَّمَةً ـ فليس معنى أن يذكر لنا نبينا ﷺ علامةً من علامات الساعة أن تكون هذه العلامة محرمة في دين الله تبارك وتعالى .

● المعنى الثاني ـ من معاني التقارب : كساد التجارة [(١)] .

○ وتدبر معي هذه العلامة الخطيرة ألا وهي : انتشار الربا ؛ أسأل الله أن يطهرنا وإياكم من الربا قليله وكثيره .

● قال رسول الله ﷺ ـ كما في الحديث الذي رواه **الطبرانيُّ** وغيره **بسندٍ صحيحٍ** [(٢)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « **بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبَا** » والظهور هنا بمعنى : الكثرة والانتشار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

○ وفي رواية أخرى ـ خطيرة جدًّا في « **صحيح البخاري** » [(٣)] من

---

(١) انظر : « الدر المنثور » للسيوطي (تفسير سورة محمد : ١٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٩٥ ، ٨١٥٨) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٤/ ١١٨) : « رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح » ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٣٤١٥/ ٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ كتاب البيوع باب قول الله تعالى : « ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ » (٢٠٨٣) .

حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ » .

○ أحبتي : هذا واقعٌ خطيرٌ جدًّا ، يعيشه كثيرٌ من الناس على مستوى البشرية عامة ، وعلى مستوى الأمة خاصة .

نتكلم في قضية الربا ثم نعود لنتكلم في هذا الحديث ؛ لأن هذه صورة من صور أكل المال بالحرام ، المهم أن يجمع المال ، ولو كان من الحرام !!

والنبيُّ ﷺ يقول :

« فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » .

والحديث في « **الصحيحين** »[1] من حديث عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ .

○ أيها الأحبة : الربا صورةٌ خطيرةٌ جدًّا ، من أحطِّ أَوْجُه استثمار رؤوس الأموال ؛ تلك الصورة البشعة التي لا تراعي إطلاقًا أيَّ شرفٍ أو أي دين ، المهم كسب المال وتحقيق الربح ، ولو على حساب امتصاص دماء الآخرين من المقهورين !! فالنظام الإسلامي ، والنظام الربوي لا يتفقان أبدًا في تصور ، ولا يتفقان أبدًا في نتيجة ، ولذلك سبحان ربي العظيم أرى وعيدًا شديدًا جدًّا في القرآن الكريم على الربا وأكلة الربا ؛ فأقول :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجزية والموادعة « باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب » (٣١٥٨) و(٤٠١٥) ، ومسلم كتاب « الزهد والرقائق » (٢٩٦١) .

○ **أولًا** : ما هو الربا الذي حرَّمه القرآن الكريم ، وما أنواعه ؟

● **الربا نوعان** : ربا النسيئة ، وربا الفضل . ما معنى ذلك ؟

○ **أما ربا النسيئة** : فصورته أن يذهب رجلٌ إلى رجل آخر ، ويقول له : أعطني ألف دينار فيعطيه إلى أجل معلوم. ـ مثلاً ـ ويطلب منه أن يرد إليه الألف دينار في الوقت المحدد . ويتم الاتفاق على هذا ؛ فيأتي الرجل في موعد السداد ، ويقول له: لا أستطيع السداد ، أنْظِرني وأمهلني ؛ فيقول له : أمهلك بالزيادة ، تدفع الألف ألفًا ومائتين أو ألفًا وخمسمائة !! هذه الصورة تسمَّى ربا النسيئة ؛ وهذا هو النوع الأول من الربا الذي حرمه القرآن .

○○ **أما ربا الفضل** : فمعناه أن يبيع الإنسان السلعة إن كانت ذهبًا بنفس السلعة مع أخذ الزيادة ، أو يبيع الإنسان تمرًا جيدًا مثلًا بتمر رديء مع الزيادة أو العكس ، هذا ربا الفضل .

● روى **البخاريُّ** و**مسلم** [1] من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ . أن النبيَّ ﷺ قال :

« الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ ، مِثْلاً بِمِثْلٍ ، يَدًا بِيَدٍ ، فَمَنْ زَادَ أَوِ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرْبَى ، الآخِذُ وَالْمُعْطِي فِيهِ سَوَاءٌ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « البيوع » ، باب « بيع الفضة بالفضة » (٢١٧٦ ، ٢١٧٧) ، ومسلم كتاب المساقاة ، باب « الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا » (٨٢/ ١٥٨٤) واللفظ له .

○وفي رواية (١) : قال ﷺ: « **فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ** » .

فمثلاً : لو أن عندي سيارة ، وأنت عندك سيارتان فقمنا بالتبادل ، ودفعتُ الفرق . . لا حرج ؛ إنما في الأصناف الستة التي نصَّ عليها النبيُّ ﷺ فلا تفعل ؟! لأن ذلك من صور الربا والتي تسمَّى بربا الفضل .

إذًا ربا النسيئة وربا الفضل حرمه القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾[آل عمران:١٣٠] .

ولقد انتشر الربا ـ الآن ـ بصورةٍ بشعة ؛ تدبر معي قول النبيِّ ﷺ : « **بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ يَظْهَرُ الرِّبَا** » ؛ وربما يتساءل البعض : هل كان الربا موجودًا من قديم حتى يأتي القرآن بتحريمه ؟ والجواب : نعم .. كان موجودًا ، ونزل القرآن بتحريمه ، لكن الظهور الوارد في حديث رسول الله ﷺ هو بمعنى الكثرة والانتشار ، وما مُحِقَت البركة بين البشرية وفي الأرض إلا بسبب الربا !!

ماذا قال ربُّنا ؟ قال تعالى : ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[البقرة:٢٧٦] .

○أخي : أريد منك أن تبحث في قواميس اللغة ـ على وجه الأرض ـ لكي تأتي بكلمة ترادف كلمة (يَمْحَقُ) فلن تستطيع أن تجد مرادفًا لهذه الكلمة يؤدي نفس المعنى ! ثم أنت تستشعر اللفظة وكأنها أمام عينيك

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب المساقاة ، باب « الصرف وبيع الذهب بالورق نقدًا » (١٥٨٧) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

وبين يديك واقعًا ، فهل ترى بلاغة القرآن متلألئة أمام ناظريك ؟!

فاحذر الربا ؛ فإنه وبال وشقاء ، وضنك وبلاء .

● ففي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » وابن ماجه والحاكم وغيرهم بسندٍ صحيح [1] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: « **مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا ، إِلَّا كَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ** » .

أرأيت خطورة الربا ؟! وأنا أريد منك أن تأتي بمثالٍ لرجلٍ استمر في عملٍ ربويٍّ ، وظل يأكلُ الربا ، ويَطْعَمُ الربا ، ويخرج ماله بالربا ، أتحدَّاك إن استمر على ذلك دون أن تمحق البركة عنه !! قد تزيد أمواله ، ولكن كما قلت : إن هذه ليست علامة على رضا الله سبحانه وتعالى على العبد ، وقد ضربتُ مثالًا بقارون ، وقد مرَّ بنا حديث النبيِّ ﷺ : « **إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا** ـ أي : من النعم والفضل والستر والإمهال ـ **عَلَى مَعَاصِيهِ** » أي : والعبد مقيم على المعاصي بلا توبة « **فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ** » [2] .

فالله يمهل ولا يهمل ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥ ، ٤٢٤) ، وابن ماجه كتاب « التجارات » ، باب « التغليظ في الربا » (٢٢٧٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٨٠٠٦) ، وصححه وأقره الذهبي ، وحسَّن سند ابن ماجه المُناوي في « فيض القدير » (٥/ ٥٢٥) ، وقال البوصيريُّ في « الزوائد » : «إسناده صحيح ورجاله موثقون» ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٥٥١٨) ، وفي « الترغيب » (٣/ ٥٢) .

(٢) سبق .

فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤].

○ اقرأ معي آيات الربا في آخر سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾، ما حكمهم وما شكلهم وما جزاؤهم ؟ تدبر قول الله :﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة:٢٧٥]

يا رب سلِّم ! هل رأيت هذا المشهد ؟ هل تدبرته واستوعبته ؟ أريد منك أن تعيش هذه المشاهد ، والناس تخرج من القبور حين يأمر الملك القدير إسرافيل بالنفخ في الصور نفخة البعث.

الكلُّ يخرج ؛ قال تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾[ق:٤١،٤٢]، وقال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾[الزلزلة: ١ ـ ٣] ، ما الذي حدث ؟ كانت مستقرة ! كانت ثابتة مطمئنة ! ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة:٤،٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[الانشقاق:١].

تدبر : انشقاق في السماء ، وانشقاق في الأرض ! لماذا ؟ للحساب .

أريد منك أن تعيش معي هذا المشهد ، والناس تخرج من القبور .

● صنف عندما يخرج من القبر مباشرة يمشي على وجهه ! قال تعالى :

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء:٩٧] .

وصنفٌ يخرج من القبر يحاول أن يقف لا يستطيع ، يسقط على الأرض ، ولا يستطيع الجلوس ، يتلبط يمينًا ويتلبط شمالًا ؛ كأنه مصروع ، ومجنون ، كأن الشيطان يتخبطه يمينًا وشمالًا ، يسرةً ويمنةً ، أمامًا وخلفًا .. منظرٌ مرعبٌ !! مَنْ هؤلاء ؟ هؤلاء هم أكلة الربا ، وهذه علامتهم أثناء الخروج من القبور يوم البعث والنشور.

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾

[البقرة:٢٧٥]

أخي : ها أنت قد ذُكِّرت الآن بالله تبارك وتعالى ، فعاهد ربك على أن تطهر مالك ، وأن تطهر بيتك ، وأن تطهر أولادك ، وأن تطهر نفسك وقلبك من هذا المرض العضال الذي يمحق البركة من عندك محقًا ، وقل : أعاهدك يا رب من الليلة أن أتطهر من هذا المرض ، وأن أطهر مالي من الربا ، فمن انتهى ، فلا شيء عليه ، ولا إثم عليه ، وأمره إلى الله ، ومَنْ يرجع مرة ثانية ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٥] .

فالربا يمحق، والصدقات يربيها الله لصاحبها.

● ففي «الصحيحين»(١) من حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنْ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ» وفي رواية: «أَوْ قَلُوصَهُ».

تصور - أيها المتصدق - أنك تأتي يوم القيامة ويقال لك: اقرأ كتابك فتجد عندك في صحيفة الحسنات أنك تصدقت بجبل تمر، كيف ذلك؟! ربما تقول: أنا كنت فقيرًا ولم أتصدق بكيلو تَمْر، وصحيفة الحسنات فيها أنني تصدقت في اليوم الفلاني بجبل تَمْر، لكن هذا كتابك، إذًا كيف يكون ذلك؟ أنت فعلًا لم تتصدق بجبل تَمْر، لكنها كانت تمرة واحدة تصدقت بها خالصًا لله، فقبلها الله منك بيمينه، فنماها لك، حتى صارت عنده كجبل أحد؛ فالله تعالى قال عن نفسه: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

وانتبه لهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، افتح قلبك، وأصغ السمع؛ لأن الذي ينادي عليك ربك - جلَّ جلاله - فهو خيرٌ سيأمرك به حتمًا، أو شرٌّ سينهاك عنه؛ ماذا قال ربنا - جلَّ وعلا؟ قال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:٢٧٨]

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الزكاة، باب «الصدقة من كسب طيب» (١٤١٠)، ومسلم، كتاب «الزكاة»، باب «قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها» (١٠١٤).

○ ما معنى ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ تلك الكلمة التي نسمعها كثيرًا ؟ المعنى : اجعلوا بينكم وبين سخط الله وغضبه وعذابه وقاية .

● والتقوى هي : الأصل من اتقى ، والمصدر الاتقاء ، وكلاهما مأخوذٌ من مادة وقى ، والوقاية : حفظُ الشيء مما يؤذيه ويضرُّه ؛ فأصْلُ التقوى : أن يجعل العبد بينه وبين سخط الله وعذابه وغضبه وقاية ؛ هذه الوقاية هي فعل الطاعات واجتناب المعاصي ؛ قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة:٢٧٨] ماذا لو لم نفعل؟ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٧٩] ، يا رب سلِّم !! ومن يْقدِر على حَرْب الله ورسوله ؟! والله إنها الحرب ؛ حرب على الأعصاب ، حرب على النفوس والضمائر ؛ هناك اختناق ، وقلق ، واضطراب نفس .. هناك ضيق ، وهموم ، وآلام ، وأحزان ، نعم ، الأموال كثيرةٌ جدًّا ؛ ومع ذلك لا توجد سعادة ، ولا رضًا ، ولا انشراح صدر ، ولا هدوء بال ، ولا استقرار نفس ، ولا اطمئنان قلب !! بل هناك محقٌّ للبركة ، لماذا ؟ قال تعالى : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة:٢٧٩، ٢٨٠] ثم يختم رب العزة سبحانه الآيات بقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١] .

يَـا نَفْـسُ قَـدْ أَزِفَ الرَّحِيـلُ ... وأظلَّـكِ الخَطْـبُ الجَلِيـلُ
فَتَـأَهَّبِي يَـا نَفْـسُ ... لا يَلْعَبْ بِكِ الأَمَلُ الطَّوِيلُ
فَلَتَنْـزِلِنَّ بِمَنْـزِلٍ ... يَنْسَى الخَلِيلَ بِهِ الخَلِيلُ
وَلَيَرْكَبَنَّ عَلَيْكِ فِيهِ ... مِنَ الثَّرَى ثقلٌ ثَقِيلُ
قُرِنَ الفَنَاءُ بِنَا جَمِيعًا ... فَمَا يَبْقَى العَزِيزُ وَلَا الذَّلِيلُ

*****

أَيَا عَبْدُ كَمْ يَرَاكَ اللهُ عَاصِيًا ... حَرِيصًا عَلَى الدُّنْيَا وَلِلْمَوْتِ نَاسِيَا
أَنَسِيتَ لِقَاءَ اللهِ وَاللَّحْدَ وَالثَّرَى ... وَيَوْمًا عَبُوسًا تَشِيبُ فِيهِ النَّوَاصِيَا
لَوْ أَنَّ المَرْءَ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَجَرَّدَ عُرْيَانًا وَلَوْ كَانَ كَاسِيَا
وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَدُومُ لِأَهْلِهَا ... لَكَانَ رَسُولُ اللهِ حَيًّا وَبَاقِيَا
وَلَكِنَّهَا تَفْنَى وَيَفْنَى نَعِيمُهَا ... وَتَبْقَى الذُّنُوبُ وَالمَعَاصِي كَمَا هِيَ

○ أيها المسلمون : احذروا الربا ، وطهِّروا الأنفس والأموال ، لتنزل البركات والرحمات ، والأمر لا يحتاج إلى توجيهٍ من أحد ؛ أنت وقلبك ، فمعك ترمومتر دقيقٌ جدًّا تستطيع أن تضبط به حياتك .

● يقول الرسول ﷺ كما في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه : « الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ » - يعني :

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « البر والصلة والآداب » ، باب « تفسير البر والإثم » (٢٥٥٣) .

بداخلك واعظ جميل يذكرك ، واعظ الله في قَلْب كلِّ مسلم - « وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

لا تقل : لقد أفتاني فلانٌ بكذا !! لا يا أخي ! اضرب بفتواي عُرْض الحائط إن كانت تخالف كلام ربك سبحانه وتعالى وكلام نبيك ﷺ ، فتلك فتوى ليس لها أية قيمة إن خالفت الشرع ، وانظر إلى قلبك ماذا يقول لك ؟

فهيا عَجِّل وطَهِّر المال ، والله ستنزل البركة ، وسيبارك الله ﷻ لك في امرأتك ، وأولادك ، وعملك ، وصحتك ، وعافيتك ، وفي كلِّ ما بين يديك ، واحذر من أكل الحرام ، لطالما نقول : يا رب ، يا رب ، ولكن لا فائدة! لماذا ؟ بسبب أكل الحرام ، من أكل الربا ، وأكل أموال اليتامى .

● قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠] .

فنحن في المساجد نظلُّ ندعو إلى الله ، ونضرع إليه ، ونبكي بين يديه.. ألا يوجد في هذه الجموع رجلٌ صالحٌ ليقبل الله منه ؟

نعم .. الصالحون موجودون بالأمة ، لكن الصالحين يركبون مع غير الصالحين سفينة واحدة ، إن نجت السفينة نجا الصالحون مع غير الصالحين ، وإن غرقت السفينة غرق الصالحون مع الطالحين .

● قال رب العزة : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾

[الأنفال:٢٥]، ثم بعد ذلك يُبعث كلٌّ على نيته، ويؤاخذ ويعاقب الله ـ جلَّ وعلا ـ الطالح ويجزى الصالح «ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» كما قال الصادق؛ كما في «صحيح البخاري ومسلم»(١) من حديث عائشة رضي الله عنها ـ وسنقف عنده بالتفصيل ـ إن شاء الله تعالى.

فنحن جميعًا نركب سفينةً واحدةً؛ فإذا قُلْتَ لي: وماذا عن الدُّعاء؟ فأقول: إنما هي قضية الحرام!!

كما في الحديث الذي ذكرته ـ آنفًا: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ»(٢).

○ إخواني: الربا جريمةٌ بشعةٌ فآكِلُ الرِّبَا ملعونٌ على لسان الصادق؛ ففي «صحيح مسلم»(٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «لَعَنَ رَسُولُ الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ، وقال: هُمْ سَوَاءٌ».

○ وفي «مسند أحمد» و«معجم الطبراني» بسندٍ صحيح(٤) من حديث عبد الله بن حنظلة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «دِرْهَمُ رِباً يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب «البيوع»، باب «ما ذكر في الأسواق» (٢١١٨)، ومسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة»، باب «الخسف بالجيش الذي يَؤُمُّ البيت» (٢٨٨٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب «المساقاة»، باب «لعن آكل الربا ومؤكله» (١٥٩٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٩٥١) ط الرسالة، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٤٣٣)، والدارقطني في «سننه» (٢٩٥، ٢٩٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٣٣)، و«المشكاة» (٢٨٢٥)، و«صحيح الترغيب» (١٨٥٥)، و«صحح الجامع» (٣٣٧٥).

يَعْلَمُ أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاَثِينَ زَنْيَةً » .

إن هذا كلامٌ خطيرٌ للغاية ؛ فلماذا هذا الوعيد الشديد ؟! وما هو سبب الشقاء الذي يعيشه كثيرٌ من الناس ؟

● روى مسلمٌ [١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : « **أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ؛ فَقَالَ** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ﴾ [المؤمنون:٥١] ، **وَقَالَ** : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ [المؤمنون:١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ ﷺ : « **الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟** » .

هل عرفتم أين السر؟ إن السلامة والنجاة في أكْل الحلال ، وفي البعد عن الحرام ـ اللهم ارزقنا الحلال ، وبارك لنا فيه ، وجنبنا الحرام ، وباعد بيننا وبينه كما باعدت بين المشرق والمغرب .

مع أن كثيرًا من الناس لا يبالي ؛ المهم ـ عنده ـ أنْ يُحصِّل المال بطريق الرشوة .. باستباحة أموال الناس ، وأكل أموالهم بالباطل .. بطريق الربا .. وربما يسخر بك أحدهم ؛ فيقول : لسنا في زمن الصحابة ؟ كُلُّ مَنْ حولك يقبل هذا ! وهكذا أصبح الناس لا يبالون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ وهذه علامةٌ خطيرةٌ من علامات الساعة ؛ فقضية الدعاء تحتاج منا

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥) .

إلى أن نطيب مطعمنا ؛ كما في الحديث ـ وسنده فيه ضعف ـ [١] : « **يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ** » .

وانتبه معي لآياتٍ في آخر سورة آل عمران ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾

[آل عمران: ١٩٠ـ١٩٥]

هل انتبهت لهذه اللطيفة القرآنية ؟ ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ لم يقل : دعوة داع ؛ فالدعاءُ عملٌ .

○ هل لآكل الربا أن يتوب ؟ نعم .. له أن يجدد التوبة والأوبة ، والله سبحانه وتعالى يقبل منه ، ويغفر له ، ولا يوجد مخلوقٌ على وجْهِ الأرض

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦٨٣) ، وضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٨١٢) . وقال: «ضعيف جدًا» .

يستطيع أن يغلق باب التوبة في وَجْهِ أحدٍ ؛ قال تعالى ـ مبينًا أن لآكل الربا إذا أراد أن يتوب أن يأخذ رأس ماله فقط ؛ ويتوب من البقية الباقية ؛ فقال سبحانه :﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٩] .

فاستغفر الله ـ جلَّ وعلاَ ، واعمل صالحًا ، وتصدق ، وطهِّر هذا المال ، والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبتك وأوبتك ؛ قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى:٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] .

نسأل الله أن يتوب علينا وأن يرزقنا الحلال الطيب ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

○ **ومن العلامات الخطيرة أيضًا ؛ كثرة شرب الخمر، وتسمية الخمر بغير اسمها:**

والخمر كانت موجودةً قبل الإسلام ، وشربها المسلمون قبل أن تحرم على عهد النبيِّ ﷺ ، فكانت تقدم كالماء ، ثم حرَّمها الإسلام ، وحرمها القرآن ؛ كما في « **الصحيحين** » [(١)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم ، وظهور الجهل » (٨٠) ، ومسلم كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان » (٢٦٧١) .

«إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ» .

● وفي « مسند أحمد » ، وابن أبي شيبة في « مصنَّفه » ، والبخاريِّ في «التاريخ» بسند صحيح [1] من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال :

« لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا » .

كلام نبويٌّ يملأ قلبَ المؤمن يقينًا وتصديقًا للصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

وستعجب إذا علمت أن الخمر لم تُسَمَّ بغير اسمها إلا في هذا العصر !! فالخمر ـ الآن ـ تسمَّى بالمشربات الروحية ! تلبيس وتضليل وخداع !!

إن قلْتَ قال الله قال رسوله ... هَمَزُوك هَمْزَ المنكِر المتغالِي
أو قلتَ: قد قال الصحابة والأولى ... تبعوهم في القول والأعمال
أو قلت: قال الشافعي وأحمد ... وأبو حنيفة والإمام الغالِي
صدُّوا عن وحي الإله ودينه ... واحتالوا على حرام الله بالإحلال
يا أمةً لعبت بدين نبيها ... كتلاعب الصبيان في الأوحال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى ... والجهل تلك حكومة الضُّلَّال [2]

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٢) (٢١٨٢٧) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٦٥) ، والبخاريُّ في « التاريخ » (١/ ١/ ٣٠٥) (٤/ ١/ ٢٢٢) ، وأبو داود ، كتاب « الأشربة » ، باب في «الداذي» (٣٦٨٨) ، وابن ماجه كتاب الفتن ، باب «العقوبات» (٤٠٢٠) وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٠) .

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/ ٢٣٢) ط المعرفة .

إن قلت : هذه خمر . . فستسمع من يردُّ عليك ويقول : لا ، هذه مشروبات روحية فلماذا تحرمها ؟

إن قُلْتَ : هذا خنزير ! قال لك أحدهم : أنا لا أختلف معك ؛ لكن الخنزير الذي حُرِّم كان خنزيرًا مريضًا موبوءًا مبتلى بالأمراض ، أما الخنازير اليوم ، فهي تربَّى تربية تحت العناية الطبية ، والرعاية الصحية ! فما الداعي لتحريمها ؟! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نعم ..احتالوا على حرام الله بالإحلال ، إلا من رحم ربي ـ جلَّ وعلا ـ فانظر إلى هذه الكلمات النبوية التي هي من معجزات سيد البشرية ﷺ : « لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا » .

- إخواني : الخمر وبالٌ عظيم ؛ بل هي أمُّ الخبائث .

○ روى النسائي بسندٍ صحيحٍ [١] موقوفٍ من حديث عثمان رضي الله عنه قال :

« اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلاَ قَبْلَكُمْ تَعَبَّدَ ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّا نَدْعُوكَ لِلشَّهَادَةِ ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا ، فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلاَمٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ ، فَقَالَتْ : إِنِّي وَاللهِ مَا دَعَوْتُكَ لِلشَّهَادَةِ ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ تَشْرَبَ مِنْ هَذِهِ الْخَمْرَةِ

---

(١) أخرجه النسائيُّ كتاب « الأشربة » ، باب «ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر» (٨/ ٣١٥) ، و« الكبرى » (٥١٧٧) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٥/ ٥٠٩) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩/ ٢٣٦) ، وانظر : «الصحيحة» (٢٧٩٨) وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» .

كَأْسًا أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلاَمَ ، قَالَ : فَاسْقِينِي مِنْ هَذَا الْخَمْرِ كَأْسًا ، فَسَقَتْهُ كَأْسًا ، قَالَ : زِيدُونِي ، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا ، وَقَتَلَ النَّفْسَ ؛ فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ ، فَإِنَّهَا ـ وَاللهِ ـ لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الْخَمْرِ إِلاَّ لَيُوشِكُ أَنْ يُخْرِجَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ».

فمستحيلٌ أن يجتمع الإيمان وحبُّ الخمر في قلبٍ واحد .

ألم يقل النبيُّ ﷺ ـ كما في « الصحيحين » [(١)] ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

« لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

قال ابن عباس [(٢)] وغيره : إذا شرب المؤمن الخمر ينزع منه الإيمان هكذا ، وشبَّك ابنُ عباس بين أصابعه ثم أخرجها ، فإن تاب عاد إليه الإيمان هكذا ، وشبَّك بين أصابعه ، ورفع أبو هريرة رضي الله عنه يده مرة على رأسه ، وقال : ينزع منه الإيمان ، فيصبح على رأسه كالظل ، فإن تاب وعاد يعاد إليه الإيمان هكذا [(٣)] .

لا تقل : أنا لا أشرب الخمر ، وإنما أشتريها فقط ، وأسقي بها الآخرين من غير المسلمين ! فأقول : أنت تخدعُ نفسك ؛ ألم تسمع حديث نبيك ﷺ؟!

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الحدود » ، باب « الزنا وشرب الخمر » (٦٧٧٢) و (٥٥٧٨) ، ومسلم كتاب « الإيمان » ، باب « بيان نقصان الإيمان بالمعاصي » (٥٧) .

(٢) البخاريُّ كتاب « الحدود » ، باب « إثم الزناة » (٦٨٠٩) ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه وقد سبق.

(٣) أخرجه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٧٢) وقد سبق .

● روى الإمام أحمد في « مسنده » والترمذيُّ وأبو داود وابن ماجه في سننهم بسندٍ صحيح لشواهده [(١)] من حديث أنس ﵁ وابن عباس وابن عمر ﵄ - واللفظ له - أن النبيَّ ﷺ قال :

«لَعَنَ اللهُ الْخَمْرَ ، وَشَارِبَهَا ، وَسَاقِيَهَا ، وَبَائِعَهَا ، وَمُبْتَاعَهَا ،وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا ، وَحَامِلَهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ » ! .

هل هناك أحدٌ لم يُذْكَر بعد ؟ لم يترك رسول الله ﷺ أحدًا ؛ فإياك أن تقول : أنا لا أشربها ، وأنها أقدمها فقط لغير المسلمين ، إياك أن تُخدع بهذا ؛ وإلا فأنت - والله - ملعون على لسان رسول الله ﷺ من الله إن فعلت ذلك بعد أن تعلّمت وعلِمْت .

إياك أن تُقَدِّمَ الخمر لأي بشر على وجه الأرض ، ولو لأكفر أهل الأرض ، لا تُعَرِّض نفسك للعنة الله - جلَّ وعلا - ولعنة الله : هي الطرد من رحمة الله التي وسعت رحمته كل شيء . ونحن - والله - في أمس الحاجة إلى رحمة الرحمن الجليل - جلَّ وعلا - إياك أن تحمل الخمر .. إياك أن تسقيه .. إياك أن تبيعه . ولا يحلُّ لأحد أن يقول : هذه مصلحة !! لا .

---

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب البيوع ، باب « النهي أن يتخذ الخمر خلاً » (١٢٩٥) ، وقال : « هذا حديثٌ غريبٌ من حديث أنس » ، وابن ماجه ، كتاب الأشربة ، باب « لعنت الخمر على عشرة أوجه » (٣٣٨١) ، وله شاهدٌ من حديث ابن عباس أخرجه أحمد (١/ ٣١٦) ، وشاهدٌ آخر عن ابن عمر عند أحمد (٢/ ٢٥) ، وأبي داود (٣٦٧٤) ، وابن ماجه (٣٣٨٠) ، وصححه العلامة الألباني في « الصحيحة » (٨٣٩) ، و « الإرواء » (١٥٢٩) و «غاية المرام» (٦٠) ، و« صحيح الترمذي » .

○ فالمصالح تنقسم إلى ثلاثة أقسام [(١)] : مصلحة شرعية ، ومصلحة مهدرة ملغاة محرمة ، ومصلحة مرسلة .

● أمَّا المصلحة الشرعية : فهي ما وافقت الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ بمعنى : حينما وُجِد الإسلامُ فثمَّة المصلحة ، ولا حرج أن تقول : حينما وجدت المصلحة فثم الإسلام ـ بهذا الضابط ـ ؛ لأن الإسلام لا يأتي إلا بمصالح العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لكن الأصل أن نقول : حينما وجد الإسلام فثمة المصلحة . فإن هناك أناسًا يحوِّلون ـ مثلًا ـ العنب إلى خمر لزيادة رأس المال ، ويقول : هذه هي المصلحة بالنسبة لي !! عند ذلك نقول له : لا ؛ هذه المصلحة مُهْدَرةٌ ومحرمةٌ وملغاةٌ ؛ لأنها تصطدم اصطدامًا مباشرًا مع المصلحة الشرعية التي تخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فالمصلحة المهدرة مصلحة تخالف المصلحة الشرعية ؛ أي : تخالف القرآن والسنة .

● وأما المصلحة المرسلة : فهي التي لا تخالف أصول الدين ، ولا تخالف القواعد العامة للشريعة ؛ مثل : توثيق عقود الزواج ، فهذه القضية لا يوجد عليها دليلٌ في القرآن ولا في السنة ، وإنما هي مصلحة مرسلة لضمان حقوق النساء في زمن خربت فيه الذمم ، وقِسْ على ذلك .

○ إذًا ؛ الخمر أمُّ الخبائث ؛ قال الله تبارك وتعالى في أول الآيات نزولًا

---

(١) انظر : « معالم أصول الفقه عند أهل السنة » (٢٤٢-٢٤٣) ط دار ابن الجوزي) للجيزاني .

في تحريم الخمر : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩] فكانت هذه هي الآية الأولى ؛ ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣] ؛ لأن الخمر تحجب العقل ، والعقلُ مناطُ التكليف ، فلما نزلت هذه الآية دُعِيَ عمر بن الخطاب فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ [1] : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا ؛ فنزل قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة:٩١،٩٠] فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : « انتهينا ، انتهينا » .

فهل نقول نحن : انتهينا ربنا ؟ أم ماذا نقول ؟ فهل سينتهي شاربو الخمر؟!

فمن تاب إلى الله ﷻ يتوب الله عليه ؟

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٥٣) ، وأبو داود كتاب « الأشربة » ، باب « تحريم الخمر » (٣٦٧٠) ، والترمذيُّ ، كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المائدة (٣٠٤٩) ، وقال : «حديث حسن صحيح» ، والنسائيُّ كتاب « الأشربة » ، باب « تحريم الخمر » (٨/ ٢٨٦) ، وصححه علي ابن المديني ؛ كما في « الفتح » (٨/ ١٢٩) ، والحاكم (٤/ ١٤٣) ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» .

نعم .. هيا يا إخواني أسأل الله أن يحفظني وإياكم جميعًا ، ولازلت أحتفظ بأُخوَّتهم ، فأنا أعلم أنَّ العبد عبْدٌ والربَّ ربٌّ ؛ فقد يضعفُ الإنسان وفيه من الخير ما فيه ؛ لذا أنا أخاطبك أخي ، يا من ابتليت ووقعت في هذا المستنقع ، وفي هذه الكبيرة ، أوحتى قدَّمت الخمر على الماء على مائدة طعامك ؛ هيا الآن : أسألك بالله أن ترجع إلى الله تبارك وتعالى ، وأن تزيح عن مائدتك ، وعن ثلاجتك الخاصة في مكتبك ، أو في بيتك ، وأن تتخلَّص من هذا البلاء وهذا الوباء ، أقبل على رب الأرض والسماء ، وكُنْ على يقين بأن الله ـ جلَّ وعلا ـ سيفرح بأوبتك وتوبتك ؛ لتسعد إن شاء الله في جنات النعيم ؛ بشرب خمرٍ لذة للشاربين ، كما قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [محمد : ١٥] خمر في الجنة ؟ نَعَمْ لكنها خمر لا تُصَدِّعُ الرأس ، ولا تذهب العقل .

فهيا الآن ــ أيها لحبيب ــ لا تقنط ولا تيأس ؛ روى **البخاريُّ** في « **صحيحه** » من حديث عمر بن الخطاب ﷺ قال : إنَّ رَجُلاً عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الله ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا ، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ الله ﷺ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ ـ فلما سمع النبيُّ ﷺ العبارة ، ماذا قال؟

قال ﷺ : « **لَا تَلْعَنُوهُ ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ** »(١).

هذا الرجل الذي يقام عليه الحد يقول فيه النبيُّ ﷺ : « **إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ** » نعم ؛ فهو عبدٌ ضعيف ، يزلُّ في أي لحظة ؛ لكنَّ البابَ مفتوحٌ ، والأمَل كبيرٌ في رحمة الملك القدير جلَّ جلاله .

● وفي رواية في « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَكْرَانَ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ : مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ** »(٢) .

● وفي رواية أخرى يقول أبو هريرة رضي الله عنه(٣) : فقلنا له : مَا اتَّقَيْتَ اللهَ ، مَا خَشِيتَ اللهَ ، مَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ ثم أرسلوه ، فقال ﷺ : « **لَا تَقُولُوا هَكَذَا ، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ ، وَلَكِنْ قُولُوا : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ** » .

وأنا امتثالًا مني ، وتأدبًا مني لحبيبي رسول الله ﷺ أدعو الله لكلِّ من ابتلي بشرب الخمر ، وأقول : اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه .

○ فهيا ـ أخي الحبيب ـ قُلْ ؛ كما قال الصحابة : « انتهينا ربنا » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الحدود » ، باب « ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة » (٦٧٨٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الحدود » ، باب « ما يكره من لعن شارب الخمر » (٦٧٨١) .

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩) ، وأبو داود كتاب « الحدود » ، باب « الحد في الخمر » (٤٤٧٧ ، ٤٤٧٨) ، وصححه الألباني في « المشكاة » (٣٦٢١) ، « وصحيح أبي داود» .

● وفي « الصحيحين »[(١)] يقول أنس بن مالك ﷺ : « كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْمِ فِي مَنْزِلِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَكَانَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ الْفَضِيخَ ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ مُنَادِيًا يُنَادِي : « أَلاَ إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ » قَالَ: فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : اخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا ـ فقام مسرعًا لإهراقها ؛ لم يقل : بقي آخر كأس قبل التحريم !! أبدًا ـ قال : فَخَرَجْتُ فَهَرَقْتُهَا ، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ » . انظر إلى استجابة الصحابة ـ ﷺ جميعًا ـ فهيا ـ أيها المسلم ـ عجِّل بالاستجابة والأوبة والعودة .

○ وسأختم بقصة جميلة جدًّا ؛ ألا وهي قصة أبي محجن[(٢)] الثقفي ﷺ :

وأبو محجن الثقفي رجلٌ فارسٌ بطلٌ ؛ ومع ذلك كان مبتلًى بشرب الخمر ؛ كان ﷺ يضعف جدًّا أمام الخمر ، ومع ذلك خرج إلى القادسية للجهاد في سبيل الله مع سعد بن أبي وقاص ﷺ ، وهنالك في أرض الميدان ، ضَعُفَ ـ مرة أخرى ـ وشرب الخمر ؛ فجيء به لسعد بن أبي وقاص ، فحبسه سعد ، وحكم عليه بالحرمان من المشاركة في المعركة ـ والحدود لا تقام في أرض العدو ـ ثم بدأت المعركة ، وسمع أبو محجن صهيل الخيول ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « المظالم » ، باب « صبِّ الخمر في الطريق » (٢٤٦٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب « الأشربة » ، باب « تحريم الخمر » (١٩٨٠) .

(٢) قال ابن حجر : في «الإصابة» (٧/ ٣٢٣) : أبو محجن الثقفي الشاعر المشهور ، مختلف في اسمه، فقيل : هو عمرو بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف .. وقيل: اسمه كنيته ، وكنيته أبو عبيد وقيل: اسمه مالك ، وقيل: عبد الله .. قال أبو أحمد الحاكم : « له صحبة ويخيل إليَّ أنه صاحب سعد بن أبي وقاص ...» . وانظر: « الاستيعاب » لابن عبد البر . ترجمة أبي محجن .

ووقع السيوف والرماح ، فبكى ، وأراد أن يشارك ، وأراد أن يقوم ، ولكن القيد في يديه وقدميه .

○ **وإليك الأثر بتمامه :**

● ففي « **مصنف عبد الرزاق** »(١) بسنده عن ابن سيرين قال : كان أبو محجن لا يزال يُجْلَد في الخمر ، فلما أكثر عليهم سجنوه ؛ وأوثقوه ، فلما كان يوم القادسية رآهم يقتتلون ، فكأنه رأى المشركين وقد أصابوا في المسلمين ، فأرسل إلى أم ولد سعد ـ أو إلى امرأة سعد ـ يقول لها : إن أبا محجن يقول لك : إن خلَّيت سبيله ، وحملتيه على هذا الفرس ، ودفعت إليه سلاحًا ، ليكونن أول من يرجع ، إلا أن يقتل . وقال أبو محجن يتمثل :

كفى حزنًا أن تلتقي الخيل بالقنا وأترك مشدودًا عليَّ وثاقيا

إذا شئت عَنَّاني الحديد وغُلِّقت مصاريع من دوني تَصُمُّ المناديا

فذهبت الأُخرى فقالت ذلك لامرأة سعد ، فحلَّت عنه قيوده ، وحُمل على فرس كان في الدار ، وأعطي سلاحًا ، ثم جعل يركض حتى لحق بالقوم ، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ، ويدقُّ صلبه ، فنظر إليه سعد ، فتعجب ، وقال : من هذا الفارس ؟ قال : فلم يلبثوا إلا يسيرًا حتى هزمهم الله ، فرجع أبو محجن وردَّ السلاح ، وجعل رجليه في القيود

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٩/ ٢٤٣، ٢٤٤) ، وصحح سنده الحافظ في «الإصابة» (٧/ ٣٢٤) ، ورواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٠، ١١) من وجهٍ آخر من طريق : إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه قال: «أُتي سعدٌ بأبي محجن يوم القادسية» .

كما كان ، فجاء سعد ، فقالت له امرأته ـ أو أم ولده : كيف كان قتالكم ؟ فجعل يخبرها ويقول : لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلاً على فرس أبلق ، لولا أني تركت أبا محجن في القيود لظننت أنها بعض شمائل أبي محجن ، فقالت : والله إنه لأبو محجن ، كان من أمره كذا وكذا ، فقصَّت عليه القصة ، قال : فدعا به وحلَّ عنه قيوده ، وقال : لا نجلدك في الخمر أبدًا ، قال أبو محجن : وأنا والله لا تدخل في رأسي أبدًا ، إنما كنت آنف أن أدعها من أجل جلدك ، قال : فلم يشربها بعد ذلك .

فلا تيأس أيها الأخ ، ولا تيأسي أيتها الأخت الفاضلة ؛ وَلْنَعُدْ جميعًا إلى الله سبحانه وتعالى ، وأحذِّرُ أيضًا من المخدرات : أحذر شبابنا ، وأحذر بناتنا ، ولنعلم أن المسؤولية مسؤوليةُ الجميع ؛ مسؤولية الأسرة ، والمؤسسات الدينية، والإعلام ، ومناهج التعليم ، والأندية الرياضية ، فإن شبابنا هم ثمرات أفئدتنا ، وفلذات أكبادنا .

مؤامرةٌ تدورُ على الشباب لتجعله ركامًا من تراب
مؤامرةٌ تقول لهم : تعالوا إلى الشهوات في ظلِّ الشراب
مؤامرةٌ يحيك خيوطَها أعداءُ سُوءٍ في لؤم الذئاب
تفرَّق شملهم إلاَّ علَيْنَا فصِرْنا كالفريسة للكلاب

أيها الشابُّ الحبيب : عُدْ إلى الله ؛ حافِظْ على صلاة الجماعة ، وابتعد عن صُحْبة الأشرار ، واصحب الأطهار الأخيار ، والجأ إلى العزيز الغفار ،

واعلم بأن الله ـ جلَّ وعلا ـ لن يخيبك ؛ فما خاب من توكَّل عليه ، ولجأ إليه ، واعتصم به ، وفَوَّض أمره إليه .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يحفظ إخواننا ، وأخواتنا ، وشبابنا ، وأن يهدي أولادنا ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان:٧٤] .



رفع العلم وانتشار الجهل

○ ومن العلامات الصغرى : ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ[(١)] من حديث أنس رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ » .

○ وفي رواية البخاريِّ[(٢)] : « أَنْ يقلَّ الْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ » .

○ وفي رواية أخرى في « الصحيحين »[(٣)] من حديث ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لأَيَّامًا يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ ، وَالْهَرْجُ : الْقَتْلُ » .

○ فقد يقول قائلٌ : كيف تقول : يظهر الجهل ، ويرفع العلم ، ونحن نرى هذا الكمَّ الهائل من العلوم ؟!

● والجواب : ليس المراد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عِلْم الدنيا ، وإنما علم الآخرة ، علم القرآن والسنة ، أما علم الدنيا فهو في زيادة كما هو الواقع الآن .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم وظهور الجهل » (٨٠) ، ومسلم كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان » (٢٦٧١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم وظهور الجهل » (٨١) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الفتن » ، باب « ظهور الفتن » (٧٠٦٢ ، ٧٠٦٣) ، ومسلم كتاب « العلم » ، باب « رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان » (٢٦٧٢) .

• قال الله جلَّ في علاه : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦] .

• وقال الله جلَّ وعلا: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧] .

وماذا قال سيد الأولين والآخرين ﷺ ؟ .

• ففي « **مسند أحمد** » **والبخاري في «الأدب المفرد»**[١] **بسند صحيح** من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ ... وظُهُورَ الْقَلَمِ** » لقد ظهر القلم ، وانتشرت الكتابة والصحف ، والجرائد ، والمجلات بصورةٍ ملفتةٍ ، لاسيما بَعْد آلات الطباعة الحديثة التي تطبع آلاف ـ بل ملايين ـ الكلمات في الدقيقة الواحدة ؛ فعلم الدنيا في ازدياد كما أخبر الصادق ﷺ ، في الوقت الذي قلَّ فيه العلم بالقرآن والسنة ، بل ظهر ـ فعلاً ـ الجهل بكتاب الله ، وبسنة رسول الله ﷺ ، لكني أؤكِّدُ لكم جميعًا ـ أيها الأفاضل ـ وسامحوني على هذه الشدَّة : أكثر أهل الأرض جهلاء برب الأرض والسماء ، وبإمام الأنبياء ، وسيد الأصفياء !! نعم حقيقة لا بد من الجهر بها ، أكثر الخلْق يجهلون هذا الدين العظيم .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧ ، ٤١٩) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (١٠٤٩) ، وله شاهدٌ أخرجه أحمد(٥/ ٦٩ مختصرًا) ، والنسائي (٧/ ٢٤٤ مختصرًا) وفي « الكبرى » (بطوله ٦٠٤٨) والطيالسي (١١٧١) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٦٤٧) ، (٢٤٦٧) .

● تدبر قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦] .

● وقال ﷻ : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام:١١٦]

● وقال الله ﷻ : ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:٤٠] .

● وقال الله ﷻ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص:٢٤]

● وقال ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ:١٣] .

حقيقة ثابتة شرعًا وقدرًا ، أن أكثر أهل الأرض جهلاء بالدين الذي ارتضاه الله ـ عزَّ وعلا ـ دينًا لأهل الأرض ، ولأهل السماء ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] .

فالأكثرية لم يحققوا التوحيد بالله ، ولم يحققوا الإيمان برسول الله ﷺ ، بل إن من الأمة الميمونة المرحومة من لا يعرف أركان الدين معرفةً حقيقيةً صحيحةً على مراد الله ، ومراد رسول الله ﷺ !!

● **فيا أيها العبد ! تَعَلَّم أركان دينك ؛ لأن العلم بها فرض عين على كل مسلم ومسلمة .**

● أما الركن الأول من الإسلام : فهو التوحيد ، فما معنى لا إله إلا الله ؟ وما هي مقتضيات التوحيد ؟ وما هي نواقض التوحيد ؟ وما هي شروط

كلمة لا إله إلا الله ؟ أسئلة مهمة جدًّا ، فيا تُرى ما عِلْمُنا بها !

● وكذلك **الصلاة** : ما هي أركانها؟ وما هي واجباتها ؟ وما هي سننها ؟ وما هي مبطلاتها؟ وما الفرق بين الركن والواجب والسنة ؟

● وكذلك بالنسبة **لأخواتنا الفضليات** : ما الفرق بين دم الحيض ، ودم النفاس ، ودم الاستحاضة ؟ وما حكم كلِّ نوع من هذه الأنواع من الدماء ؟

أسئلة في غاية الأهمية !! يجب على كلِّ أحد أن يكون على دراية بها ، وعلى عِلْمٍ بأركان دينه. ولا أقول ذلك إلا لأبين ـ بالفعل ـ أن جهلًا فاضحًا قد وقع ، بين أهل الأرض بصفة عامة ، وبين كثير من المسلمين بصفة خاصة بما يجب على كل أحد أن يكون على علمٍ به ، والسبب في ذلك : أن العلم قد رفع ـ أعني : العلم بالكتاب والسنة ـ وأن الجهل قد ظهر بصورة ملفتة ؛ لأن كثيرًا من الناس قد انشغل عن الآخرة ، وشغلته الدنيا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

○ والسؤال : **كيف يُرْفع العلم** ؟ وهذا موضوعٌ في منتهى الخطورة ، وها هو رسولنا ﷺ يبين لنا أن رفع العلم ليس معناه : أن ينام الرجل يومًا أو ليلة ليصبح فلا يرى في صدره شيئًا من العلم ! لا ، ليس ذلك هو المراد من قبض أو رفع العلم .إذًا فما هو المراد ؟

● تدبر قول النبيِّ ﷺ ؛ كما في « **الصحيحين** »[(١)] من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «العلم» باب «كيف يقبض العلم» (١٠٠) ، ومسلم كتاب «العلم» ، باب « رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان » (٢٦٧٣) .

الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ » .

وتلك هي المصيبة ؛ أكبر مصيبة في الأمة أن يموت عالم ، والذي يُدْمي القلب أنه ربما يموت عالم من فحول العلماء هنا أو هناك ، ولا تعلم الأمة بموته ؛ لأن كثيرًا من الفضائيات ، أو كثيرًا من وسائل الأعلام انشغلت عن هؤلاء الأطهار الأفاضل ، وركَّزتِ الأَضْواءَ على غيرهم ، مع أن الأصل أن يُقَدَّمُ هؤلاء للأمة كلِّها ، أن يُقَدَّمُ أهل العلم ، وأهل الفضل ، ممن يقول : قال الله ، قال رسول الله ﷺ ، بعلْمٍ ، وفَهْمٍ ، وبينة ، ودليل ؛ فموت العالم من أكبر المصائب التي تقع في أمة النبيِّ ﷺ .

○ يقول النبيُّ ﷺ : « حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » جهال ومع ذلك يتجرؤون على الفتوى ! واقع أليم.

وهذا الحديث دليلٌ على أن العلم الذي تقدَّم في حديث الرسول ﷺ هو علم القرآن والسنة ؛ فقد قال هنا ـ عليه الصلاة والسلام : « فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا » ، ومن المعلوم أن الضلال لا يقع في الأُمة إلا برفع العلم ؛ وبقبض العلماء الصادقين .

فالمصيبةُ الكبرى التي تمرُّ بها الأمة ــ الآن ــ أن رؤوسًا جهالًا تجرؤوا على الفتوى ، وتجرؤوا على العلم ، وأنا أقول بملء فمي : نرى فوضى في الفتوى على الفضائيات ، لدرجة أن الناس يتعرضون لفتنةٍ حقيقيةٍ فعلًا ، يقولون : من نصدِّق ؟

بل إن الفضائيات الآن تُظْهِر الشيوخ ، وأهل العلم على أنهم ديوك يتصارعون ، ويتناحرون ، وكلٌّ له قول !!

● وأقول : القول في دين الله تعالى ليس لي ، وليس لك ، وليس من حقِّ أيِّ مخلوق على وجه الأرض ، فإن كنت تَمْلِكُ الدَّليلَ من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ بفهم سلف الأُمة الصالح من الصحابة الأطهار ، والتابعين وتابعيهم الأخيار فتكلَّم ، أما أن يظهر فلان ، أو تظهر فلانة لتتكلَّم في دين الله تبارك وتعالى بهذه الصورة العجيبة الجريئة ، بغير بينة ، وعلم ، وربما قُدِّمَ العقلُ على صريح النقل في كتاب الله ، أو على صحيح النقل في سنة رسول الله بدعوى العلم !

نعم .. رُفع العلم ، وقُدِّم كثيرٌ من الرؤوس الجاهلة بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ لتكتب ولتتكلَّم ولتوجِّه على غير مراد الله ورسوله !! والفتنة الكبرى أن يكون هؤلاء أناس يتكلَّمون بألسنتنا ، ويلبسون ملابسنا ؛ لذلك يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ـ كما في « **الصحيحين** »[(١)] : « كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْخَيْرِ ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي ، فقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ! إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ ، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الْخَيْرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ فقال النبيُّ ﷺ : «**نَعَمْ**» ! قال حذيفة : وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خيْرٍ؟ قَالَ : « **نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ** » قُلْتُ :

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الفتن» ، باب « كيف الأمر إذا لم تكن جماعة » (٧٠٨٤) ، ومسلم كتاب «الإمارة» ، باب « وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن » (١٨٤٧) .

وَمَا دَخنُهُ؟ قَالَ : « قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ » ـ يعني : ستسمع كلامًا غريبًا في دين الله ، وتستبعد أن يكون ذلك كلام ربنا ، ونبينا ﷺ ، ولا هو من الإسلام ! ـ قُلْتُ : فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : « نَعَمْ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا » ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، صِفْهُمْ لَنَا ؟ فَقَالَ: « هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا » .

○ وفي لفظِ مُسْلِمٍ [(١)] ؛ قال ﷺ: « رِجَالٌ قُلُوبُهُم قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ» . قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ : « تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْـمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ »، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ : « فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْـمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ ».

○ واعلم أن رفع العلم ، ليس معناه أن تخلو الأرض من قائمٍ لله بحجة ، ليس هذا هو المراد ؛ بل يظهر الجهل بصورة أكثر ، ويقل العلماء الربانيون ، لكن لا بد من قائم لله بحجةٍ في الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها ؛ فأبناء الطائفة المنصورة لا يخلوا منهم زمان ولا مكان ، أرجو أن تكون المسألة واضحةً حتىَّ لا يعتقد أحدٌ أن ثمَّ تعارضًا في سنة رسول الله ﷺ .

● ففي « الصحيحين » [(٢)] من حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول

---

(١) (١٨٤٧/ ٥٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب « المناقب » ، باب (٢٨) ، حديث (٣٦٤١) ، ومسلم كتاب « الإمارة » ، باب « قوله ﷺ: « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم** » (١٠٣٧/١٧٥) .

الله ﷺ يقول: « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ الله ؛ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ** » .

○ وفي لفظِ مسلم : « **وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ** » .

لابد أن تبقى الطائفة المنصورة لتوجِّه ، ولتبين الحق بدليله من كتاب الله ، ومن كلام الصادق رسول الله ﷺ ، أما الجهل فبصفةٍ عامةٍ يكثر ، من أجل ذلك ، كَرَّمَ النبيُّ ﷺ العلم ، وزكَّى العلماء ؛ بل بين الله تعالى في قرآنه فضْلَ العلم ، ومكانة وكرامة العلماء في كثيرٍ من الآيات .

● تدبر معي قول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩] .

● وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨] .

● وقال الله ﷻ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] .

● بل وقال ﷻ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:١٨]

فأول من شهد لله بالوحدانية هو الله ، ثم الملائكة ، ثم ثلَّث بأهل العلم .

○ **قال ابن القيم** : « وهذه هي العدالة في أعلى درجاتها ، فإن الله تبارك وتعالى لا يستشهد بمجروح »(١) .

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/ ٤٣٩) و(٣/ ٤١٢) بتصرف .

لذلك كان الرسول ﷺ يحتفي بالعلم ، وبطلاب العلم والعلماء حفاوةً بالغة ؛ يقول لعليٍّ رضي الله عنه (١) : « لأَنْ يهدِي الله بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » ، وفي رواية : « مِنْ أَنْ يكُونَ لَكَ حُمْر النَّعَمِ » تدبر تلك الكرامة وهذه المكانة.

● وفي الحديث الذي رواه الترمذي ، وأبو داود ، وابن ماجه وغيرهم بسندٍ حسنٍ بشواهده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » (٢) .

اللهم اجعلنا وإياكم من أهل العلم الربانيين الصادقين .

● وفي الحديث الذي رواه الترمذي (٣) بسَنَدٍ حَسَنٍ من حديث أبي أمامة

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الجهاد والسير » ، باب « دعاء النبيِّ ﷺ الناس إلى الإسلام » (٢٩٤٢) ، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة» ، باب «من فضائل عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه» (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦) ، وأبو داود كتاب « العلم » ، باب « الحث على طلب العلم » (٣٦٤١) ، والترمذي كتاب « العلم » ، باب « ما جاء في فضل الفقه على العبادة » (٢٦٨٢) ، وابن ماجه في « المقدمة » (٢٢٣) ، وحسنه لغيره الألباني في « صحيح الترغيب » (٧٠) و«المشكاة» (٢١٢) ، و«صحيح الجامع» (٦٢٩٧) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ كتاب « العلم » ، باب « ما جاء في فضل الفقه على العبادة » (٢٦٨٥) وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، والطبرانيُّ في «الكبير» (٧٩١٢) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (١٨٣٨) ، وحسنه في «المشكاة» (٢١٣) .

الباهليِّ ﷺ: ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَجُلاَنِ أَحدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ - يعني أحدهما متعبد خاشع أواب، والآخر عالم - فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

« فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ »، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِين، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ ».

ما هذا الفضل؟ وما هذا الكرم؟

○ وفي «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

« مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ».

● بل وفي « مسند » أحمد و«معجم الطبراني» بسندٍ حسنٍ[2] من حديث صفوان بن عسال المراديِّ ﷺ قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ؛ فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار »، باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠)، والطبراني في « الكبير » (٨/ ٥٤) (٧٣٤٧)، والحاكم (١/ ١٠٠، ١٠١) وصححه ووافقه الذهبي، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٢)، وحسنه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٣٣٩٧).

« مَرْحَبًا بِطَالِبِ الْعِلْمِ ، إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ تَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ »

هذه كرامةٌ عالية ، فمرحبا بك أيها الأخ الكريم ، يا من تَحْرِصُ على مجالس العلم ، ومرحبًا بكِ أيتها الطالبة للعلم والحق .

● بل ومِنْ أَعْجَب الأحاديث في هذا الباب ؛ ما رواه البخاريُّ ومُسْلِمٌ (١) من حديث أبي واقد الليثيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ ، إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، قَالَ : فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا : فَرَأَى فُرْجَةً فِي الْحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ ، وَأَمَّا الثَّالِثُ : فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ » .

لا تُعْرِضْ عن القرآن والسنة !!! .

والله ما هانت الأمة إلا حين ابتعدت عن كتاب ربها ، وسنة نبيها ﷺ .. إلا حين قُبض العلماء الربانيون ، وتقدمت الرؤوس الفارغة الجاهلة لتتكلَّم في دين الله تبارك وتعالى بغير علم !!

وقضية العلم قضية كبيرة جدًّا ، لأنني ألمح الآن خطرًا بالغًا في فتاوى

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « العلم » ، باب « من قعد حيث ينتهي به المجلس » (٦٦) ، ومسلم كتاب «السلام» ، باب « من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم » (٢١٧٦) .

كثيرةٍ ؛ لا سيما على شبكة الإنترنت ، وفي كثيرٍ من المواقع ، وكثيرٌ من أولادنا وشبابنا صار يستفتي هذه المواقع في المسائل الخطيرة الكبيرة ، التي لو عُرضت مسألةٌ منها على عمر بن الخطاب ﵁ لجمع لها الصحابة مِنْ أَهْلِ بَدْر ، إنها مسألة في منتهى الخطورة ؛ من أجل ذلك أنا أقول : إنَّ قضية العلم من أخطر القضايا ؛ بل ومن أخطر التحديات أن يحال بين شباب الأمة وبين العلماء الحقيقيين ، الذين يقولون : قال الله ، قال رسولُ الله ﷺ ، بفهمٍ دقيقٍ ، وَوَعْيٍ عميق للكتاب والسنة وللواقع الذي تحياه أمتنا الآن .

● قال ابن القيم ﵀[1]: « لا يجوز للعالم ، أو المفتي ، أو الحاكم ، أن يفتي في أي مسألة إلا بعلْمَيْن :

● الأَوَّل : فَهْم الواقع .

● العِلْمُ الثَّاني : فَهْم الواجب في الواقع ».أي : فهم الدَّليل الشرعيِّ الذي ينسحب على الواقع الذي نَدْرسه ونبحثه ؛ أي: قَبْل أن أَقُولَ : قال الله وقال رسول الله ﷺ ، هل أنا على بصيرة بواقع الناس أم لا ؟ هل أنا على دراية بواقع الأمة وحجم المؤامرة التي تُحاك لها أم لا ؟

فمن اليسير جدًّا أن نُحَمِّسَ شبابنا ، أو أن نحرك العواطف، لكن من الخيانة لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين أن يكون العالم أو الداعية أو من يتصدر للفتيا جاهلًا بواقع الأمة ، وألا أكون على بصيرة بواقع العالم ، وأن أقدِّم

(١) « إعلام الموقعين » (١/ ٨٧ ط الجيل - بتصرف) .

لشبابنا وأحبابنا من أولادنا وأبنائنا أدلةً دون تحقيق مناطات هذه الأدلة ، ودون ربط صحيح بين هذه الأدلة من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ وبين الواقع الذي تحياه الأُمة خاصة ، وتحياه البشرية عامة !!

فهذه قضية في منتهى الخطورة !! لذلك نقول : لا بد من الفهم في العلم .. لابد من فهم الدليل من كتاب الله ، ومن سنة رسول الله ﷺ .

○ **أخي الحبيب** : إذا كان الدليل صحيحًا ، فلا بد من النظر في فهم الدليل ، ولا بد من معرفة مراتب الدليل ، ومناطات الدليل ، والمجمل ، والمبين ، والعام ، والخاص ، والناسخ ، والمنسوخ ؛ فالدليل ـ وحده ـ ليس هو منتهى العلم ؛ فلابد للربط ربطًا صحيحًا بين دلالات النصوص ، وحركات الواقع المتغيرة ، والمتجددة ، ثم مراجعة الربانيين من العلماء ، والأمة لا تخلو ـ بفضل الله ـ من أبناء الطائفة المنصورة ، لنفهم مراد الله ولنفهم مراد رسول الله ﷺ ؛ لذا بوَّب الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في « صحيحه » في « كتاب العلم » بابًا في غاية الفقه .

● فقال : « باب العلم قبل القول والعمل » ، ترجمة فقهيةٌ ، أي : قبل أن أتكلَّم وأعمل لا بد أن أتعلم ، وصدَّر الباب بقول الله ـ جلَّ وعلا ـ لنبينا ﷺ : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد:١٩] .

وهنا أمر الله ـ جلَّ وعلا ـ نبيه في هذه الآية بأمرين:

● بالعلم ؛ في قوله : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

● وبالعمل ؛ في قوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ ، قال ابن المنير (فيما حكاه عنه الحافظ في «الفتح») [1] : « فقدَّم الله العلم على العمل؛ لأن العلم هو المصحح للنية التي يصحُّ بها كلُّ قول وكلُّ عمل » .

○ أخي : إيَّاك أن تتحرك على الطريق خطوة إلا بعد أن تتعلم ، فحماسك له كلُّ تقدير ، لكنه وحْدَه لا يكفي ، وإخلاصك للدين له كلُّ تقدير ، لكن حماسك ، وإخلاصك لا يكفيان ؛ إذن فما الذي يكفي ؟ لابد وأن يكون حماسك وإخلاصك منضبطين بضوابط الشرع ؛ وإلاَّ أوردها سعدٌ وهو مشتمل ، ما هكذا يا سَعْدُ تورد الإبل ، نعم سنضرُّ من حيثُ نريد النفع ، وسنُفْسِدُ ونحن نريد الإصلاح ، وسنسفك الدماء باسم الجهاد في سبيل الله ، وباسم الغيرة على الدين ، وسنبتدع باسم الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر !! والقضية ليست كذلك البتة .

ألا تعلم أنَّ الخوارج ـ كلاب أهل النار ـ كفَّروا عليًّا ﷺ ؟! بأدلةٍ من القرآن !! لكن بفهمهم الخاص ، فلقد ذهب إليهم ابن عباس ليسألهم لماذا كفرتم عليًّا ؟ وقد كانوا في جيش عليٍّ ، لكنهم خرجوا عليه بعد قضية التحكيم بينه وبين معاوية ﷺ ، فلما ذهب إليهم حَبْر الأمة ، وترجمان القرآن ليحاججهم فيما ذهبوا إليه من ضلال ؛ فماذا كانت حججهم ؟!

---

(١) « الفتح » (١/ ١٦٠) ط دار المعرفة . بتصرف .

○ **قالوا :**

● **الأُولى :** حكَّم عليٌّ الرجالَ في دين الله ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام:٥٧] ، وبذلك يكون عليًّا قد كَفَر ! واستدلوا على كفره بهذه الآية ! ولا أحد ينكر أن هذه آية قرآنية ، لكن المصيبة أنهم فهموا الآية على غيروجهها الصحيح .

● **والثانية :** قاتل أقوامًا ـ يقصدون عائشة وطلحة والزبير ومعاوية ـ رضي الله عن جميع أصحاب رسول الله ﷺ ـ ولم يَسْبِ نساءهم ، ولم يَغْنَم أموالهم ، فلئن كانوا مسلمين فقد حَرُم عليه قتالهم ، ولئن كانوا كفارًا فقد حلَّت له أموالهم ، ونساؤهم ! وهذه شبهةٌ ومصيبةٌ ، وأيُّ أحدٍ ليس لديه فهم للدين ، وليس عنده علم ولا بصيرة يقول : هذا الكلام صحيح ! لأن عليًّا قد فعل هذا !! وهي لعمر الله شبهةٌ خطيرة أدَّت بهم إلى هذه الكارثة الأليمة !

● **الثالثة :** أنه تنازل عن صفة أمير المؤمنين في قضية التحكيم ، فإن لم يكن عليٌّ أميرًا للمؤمنين فهو أمير للكافرين ! كذا استدلالات القوم .

○ **والرد على الشبهات الثلاث :**

● ما قال ابن عباس : أرأيتم إن بينت لكم بآية من كتاب الله محكمة ، وحديثٍ لرسول الله ﷺ أترجعون ؟ قالوا : اللهم نعم ، هات يا ابن عباس . انظر لنور العلم الذي يبدد ظلام الجهل .

الجهـل قبـل المـوت مـوت لأهلـه وأجسـامهم قبـل القبـور قبـور
وأرواحهـم في وحشـة مـن جسـومهم ولـيس لهـم قبـل النشـور نشـور

○ فتـدبر معـي هـذا الحـوار البـديع الـذي دار بـين ابـن عبـاس ﷺ وبـين الخوارج وزعمائهم من خلال هاتين الروايتين :

○ الأولى : عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو الْقَارِيِّ قَالَ : جَاءَ عَبْدُ الله ابْنُ شَدَّادٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهَا جُلُوسٌ مَرْجِعَهُ مِنَ الْعِرَاقِ لَيَالِيَ قُتِلَ عَلِيٌّ ﷺ فَقَالَتْ لَهُ : يَا عَبْدَ الله بْنَ شَدَّادٍ ، هَلْ أَنْتَ صَادِقِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ ؟ تُحَدِّثُنِي عَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ قَتَلَهُمْ عَلِيٌّ ﷺ ، قَالَ : وَمَا لِي لاَ أَصْدُقُكِ ؟

قَالَتْ : فَحَدِّثْنِي عَنْ قِصَّتِهِمْ؟ قَالَ : فَإِنَّ عَلِيًّا ﷺ لَمَّا كَاتَبَ مُعَاوِيَةَ وَحَكَّمَ الْحَكَمَانِ خَرَجَ عَلَيْهِ ثَمَانِيَةُ آلاَفٍ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ فَنَزَلُوا بِأَرْضٍ يُقَالُ لَهَا : حَرُورَاءُ مِنْ جَانِبِ الْكُوفَةِ ، وَإِنَّهُمْ عَتَبُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ الله تَعَالَى وَاسْمٍ سَمَّاكَ الله تَعَالَى بِهِ ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِي دِينِ الله ، فَلاَ حُكْمَ إِلاَّ للهِ تَعَالَى، فَلَمَّا أَنْ بَلَغَ عَلِيًّا ﷺ مَا عَتَبُوا عَلَيْهِ ، وَفَارَقُوهُ عَلَيْهِ ، فَأَمَرَ مُؤَذِّناً فَأَذَّنَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلاَّ رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا أَنِ امْتَلأَتِ الدَّارُ مِنْ قُرَّاءِ النَّاسِ ، دَعَا بِمُصْحَفٍ إِمَامٍ عَظِيمٍ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَجَعَلَ يَصُكُّهُ بِيَدِهِ وَيَقُولُ : أَيُّهَا الْمُصْحَفُ ، حَدِّثِ النَّاس ، فَنَادَاهُ النَّاس ؛ فَقَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَسْأَلُ عَنْهُ إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ ، فَمَاذَا تُرِيدُ؟ قَالَ: أَصْحَابُكُمْ ،

هَؤُلاَءِ الَّذِينَ خَرَجُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ الله ﷻ.

يَقُولُ الله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ [النساء:٣٥].

فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْظَمُ دَماً وَحُرْمَةً مِنِ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ، وَنَقَمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ: كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَدْ جَاءَنَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشاً فَكَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فَقَالَ سُهَيْلٌ: لاَ تَكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: «كَيْفَ نَكْتُبُ؟». فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « فَاكْتُبْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله » فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ الله لَمْ أُخَالِفْكَ، فَكَتَبَ :« هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله قُرَيْشًا » يَقُولُ الله تَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١].

فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ ﵄ فَخَرَجْتُ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْنَا عَسْكَرَهُمْ، قَامَ ابْنُ الْكَوَّاءِ يَخْطُبُ النَّاسَ فَقَالَ: يَا حَمَلَةَ الْقُرْآنِ، إِنَّ هَذَا عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ ﵄ فَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، فَأَنَا أُعَرِّفُهُ مِنْ كِتَابِ الله مَا يَعْرِفُهُ بِهِ، هَذَا مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ وَفِي قَوْمِهِ: ﴿ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف:٥٨].

فَرُدُّوهُ إِلَى صَاحِبِهِ وَلاَ تُوَاضِعُوهُ كِتَابَ الله؛ فَقَامَ خُطَبَاؤُهُمْ، قَالُوا: والله

لَنُوَاضِعَنَّهُ كِتَابَ اللهِ ، فَإِنْ جَاءَ بِحَقٍّ نَعْرِفُهُ لَنَتَّبِعَنَّهُ ، وَإِنْ جَاءَ بِبَاطِلٍ لَنُبَكِّتَنَّهُ بِبَاطِلِهِ، فَوَاضَعُوا عَبْدَ اللهِ الْكِتَابَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ كُلُّهُمْ تَائِبٌ ، فِيهِمُ ابْنُ الْكَوَّاءِ حَتَّى أَدْخَلَهُمْ عَلَى عَلِيٍّ الْكُوفَةَ فَبَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إِلَى بَقِيَّتِهِمْ ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَمْرِ النَّاسِ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ ، فَقِفُوا حَيْثُ شِئْتُمْ ، حَتَّى تَجْتَمِعَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلاً أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً ، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمُ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ.

فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها : يَا ابْنَ شَدَّادٍ ، فَقَدْ قَتَلَهُمْ؛ فَقَالَ :وَاللهِ مَا بَعَثَ إِلَيْهِمْ حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ ، وَسَفَكُوا الدَّمَ ، وَاسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ، فَقَالَتْ : آللهِ؟ قَالَ : آللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَقَدْ كَانَ ، قَالَتْ : فَمَا شَيْءٌ بَلَغَنِي عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يَتَحَدَّثُونَهُ يَقُولُونَ : ذُو الثُّدَيِّ وَذُو الثُّدَيِّ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُهُ وَقُمْتُ مَعَ عَلِيٍّ رضي الله عنه عَلَيْهِ فِي الْقَتْلَى ، فَدَعَا النَّاسَ.

فَقَالَ : أَتَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَمَا أَكْثَرَ مَنْ جَاءَ يَقُولُ : قَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي ، وَرَأَيْتُهُ فِي مَسْجِدِ بَنِي فُلاَنٍ يُصَلِّي ، وَلَمْ يَأْتُوا فِيهِ بِثَبَتٍ يُعْرَفُ إِلاَّ ذَلِكَ، قَالَتْ : فَمَا قَوْلُ عَلِيٍّ رضي الله عنه حِينَ قَامَ عَلَيْهِ كَمَا يَزْعُمُ أَهْلُ الْعِرَاقِ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَتْ : هَلْ سَمِعْتَ مِنْهُ أَنَّهُ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ لاَ ، قَالَتْ : أَجَلْ ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ يَرْحَمُ اللهُ عَلِيًّا رضي الله عنه ، إِنَّهُ كَانَ مِنْ كَلاَمِهِ لاَ يَرَى شَيْئًا يُعْجِبُهُ إِلاَّ قَالَ : صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَذْهَبُ أَهْلُ

الْعِرَاقِ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ وَيَزِيدُونَ عَلَيْهِ فِي الْحَدِيثِ»[١].

○ الرواية الثانية ؛ روى النسائيُّ رحمه الله في « الخصائص »[٢] عن عبد الله ابن عباس قال : لَمَّا خَرَجَتِ الحَرُورِيَّةُ اعتزلوا فِي دارِهِمْ ، وكانوا ستَّةَ آلافٍ ، فقلتُ لعليٍّ رضي الله عنه : يَا أميرَ المؤْمنينَ ، أبردْ بِالصَّلاة لعَلِّي أكلِّم هؤلاء القوم ، قالَ : إنِّي أخافهُم عليكَ ، قلتُ: كلاَّ ، قال : فلبستُ وترجلَّتُ وَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ فِي نصْفِ النَّهَارِ، وهمْ قَائِلُونَ فَسلَّمتُ عليهمْ .

فقالُوا : مَرْحَبًا بكَ يا ابنَ عبَّاس ؛ فما جَاءَ بِكَ ؟ قلتُ لهمْ : أتيْتُكُم مِنْ عِنْدِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ وَمِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ وَصِهْرِهِ، وعليهمْ نَزَلَ القُرْآنُ ، وهُم أعلَمُ بتأويلِهِ منكُمْ ، وليسَ فيكُمْ منهمْ أحدٌ لأُبَلِّغُكُمْ ما يقولُونَ ،وتُخْبِرونَ بما تقولُونَ فَانْتَحَى لِي نَفَرٌ مِنْهُمْ ، قلتُ : أخبِرُونِي ماذَا نَقِمتُمْ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَابْنِ عَمِّه ؟ !

قالُوا : ثَلاَثٌ.

قلتُ : ما هُنَّ ؟

قَالُوا : أمَّا إحدَاهُنَّ ؛ فإنَّه حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أمرِ الله ، وقال الله تعالَى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف:٤٠] .

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٦، ٨٧) ، وأبو يعلى (٤٧٤) ، وابن عساكر (٢٧/ ١٠٤) ، (٢٩/ ١٤٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٣٥٣) :« رواه أبو يعلى ورجاله ثقات » ، وإسناده حسن ؛ كما قال الشيخ شعيب في « المسند » .

(٢) أخرجه النسائي في «الخصائص» (١٨٥) ، وهو في «السنن الكبرى» (٥/ ١٦٥ ، ١٦٧) وسندهُ حسن .

ما شَأنُ الرِّجال والحُكم ؟ فقلتُ : هذه وَاحدَةٌ .

قالُوا: وأمَّا الثانيَةَ : فإنَّهُ قَاتَلَ ولمْ يَسْبِ سَبَاهُم ولمْ يَغْنَمْ ؛فإن كانُوا كُفَّارًا لَقَدْ حلَّ سَبْيُهُمْ ، وَإنْ كانُوا مُؤمِنِينَ مَا أحلَّ سَبْيُهُمْ وَلَا قتالُهُمْ ، قُلتُ : هذه اثنان فَمَا الثَالِثَةُ ؟

قالُوا : إنه محى نفْسَهُ عنْ أميرِ المؤمِنِينَ ؛ فهوَ أميرُ الكَافِرِينَ.

قلتُ : هل عنْدَكُم شيءُ غيرَ هذا ؟ قالُوا : حسْبُنَا هَذَا.

قلتُ : أرأيْتُمْ إنْ قَرَأتُ عَلَيْكُمْ منْ كتابِ الله ـ جلَّ ثناؤه ـ ومِنْ سُنَّةِ نَبيِّهِ ﷺ ما يرُدُّ قَوْلَكُمْ أتَرْضَوْنَ ـ أترجعون ـ قالُوا : نَعَمْ .

قلتُ : أَمَّا قوْلُكُم حَكَّمَ الرِّجَالِ فِي أمرِ الله فأنَا أَقْرأُ عَلَيْكُم فِي كتابِ الله أنْ قدْ صَيَّرَ الله حُكْمَهُ إلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَن رُبْعِ دِرْهَمٍ ، فَأمَرَ الله الرِّجَالَ أنْ يَحْكُمُوا؛ قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:٩٥] .

فأنشَدْتُكُم بِالله تَعَالَى أَحُكْمُ الرِّجَالِ في أرْنَبٍ ونحْوها مِنَ الصَّيْد أَفضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ في دِمَائِهِمْ وَصَلاحِ ذَاتِ بَيْنِهِم ، وأنتمْ تَعْلَمُونَ أنَّ الله تعالَى لوْ شَاءَ لَحَكَمَ ، ولمْ يُصَيِّر ذَلكَ إلى الرِّجَالِ ؟ قالُوا : بلْ هذَا أفْضَلُ .

وفي المرْأَةِ وزَوْجِهَا ؛ قالَ الله تعالَى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ

إن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ ﴾ [النساء:٣٥].

فأنشَدْتُكُم بالله حُكْمُ الرِّجالِ فِي صلَاحِ ذَاتِ بينهم وَحَقْنِ دِمائِهم أفضَلُ أَمْ حُكْمُهُم فِي بِضْعِ امْرَأة، أخَرجتُ مِنْ هذه ؟ قَالُوا : نَعَم.

قلتُ : وأمَّا قولُكُم قَاتَلَ ولمْ يَسْبِ ولمْ يَغْنَمْ ، أَفَتَسْبُونَ أُمَّكُم عائِشَةَ وتَستَحلُّونَ مِنهَا مَا تَستَحِلُّون منْ غيرها ، وهيَ أُمُّكُمْ ؟ فإِنْ قُلْتُم: إنَّا نَسْتَحلُّ منهَا مَا نسْتَحلُّ منْ غيرِهَا فقَدْ كَفَرْتُم ، ولَئِنْ قلتُمْ : لَيسَتْ بأُمِّنَا فقَدْ كَفَرْتُم ؛لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُولَ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [الأحزاب :٦] ، فأنْتُم تدُورُونَ بيْنَ ضَلَالتَيْنِ فأتوا منهما بمَخْرَجٍ ؟

قلتُ : أفخرجْتُ من هذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ .

وأَمَّا قَوْلُكُمْ : محَا اسْمَهُ منْ أميرِ المؤمنينَ فَأَنَا آتِيكُمْ بمَنْ تَرْضَوْنَ ، وَأَرَاكُمْ قدْ سَمعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يوْمَ الحُدَيْبِيَةِ صَالَحَ المشْرِكينَ ؛ فقَالَ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه : « **اكتُبْ هذَا مَا صَالَحَ عليهِ محمدٌ رسُولُ الله ﷺ** » فقَالَ المُشْرِكُونَ : لا والله مَا نَعْلَمُ أَنَّك رَسُول الله ، وَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّك رَسُول الله مَا قَاتَلْنَاكَ ، ولَأَطْعَنَاكَ ؛فاكتُبْ محمَّدَ بنُ عبدِ الله ؛ فقَالَ رسُولُ الله ﷺ : « **امْحُ يَا عليُّ ، واكْتُبْ هذَا مَا صَالَحَ عليه محمدُ بنُ عبد الله** » ؛ فوالله لَرسُولُ الله ﷺ خَيرٌ منْ عليٍّ ، وقدْ محَا نفْسَه ، ولمْ يَكُنْ محْوُه ذَلِكَ يَمْحُوهُ منَ النُّبُوَّةِ . أَخَرجْتُ من هذِهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ .

فَرَجَعَ مِنْهُمْ أَلْفَانِ ، وَخَرَجَ سَائِرُهُمْ ، فَقُتِلُوا عَلَى ضَلالَتِهِمْ ، فَقَتَلَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصَارِ » .

إنه العلم .. إنه الفهم ؛ لذلك بوب البخاريُّ في « صحيحه » بابًا بعنوان : « باب الفهم في العلم » ، فالفهم : فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

● ها هو الصدِّيق ـ رضوان الله عليه ـ عندما وقف النبيُّ ﷺ على المنبر ، وقال : « **إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ** » ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ ، وَقَالَ : فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا ـ ضجَّ الناس على الصديق ، لماذا يقول ذلك ؟ ـ يقول : أبو سعيد الخدري رضي الله عنه ـ راوي الحديث : فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ » . والحديث في « **الصحيحين** » [1] عن أبي سعيد رضي الله عنه .

● **وها هو عثمان بن عفان** رضي الله عنه [2] أتوا له بامرأة ولدت بعد ستة أشهر من الزواج ، فاتهموها بالزنا ، وأراد أن يُقيم الحد عليها ، فقال ابن عباس : تمهَّل

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « مناقب الأنصار » ، باب « هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة » (٣٩٠٤) ، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة» ، باب « من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه» (٢٣٨٢) .

(٢) أخرجه الطبريُّ في « التفسير » سورة البقرة آية (٢٣٣) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» لسورة البقرة (آية ٢٣٣) ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٧/ ٣٥١) .

● ورواية عليٍّ عند ابن أبي حاتم في « التفسير » (لسورة الأحقاف : ١٥) ، ومالك في «الموطأ» (في الحدود ، باب ما جاء في الرجم باب ١ رقم ١١) ، وانظر : «الدر المنثور» (تفسير البقرة والأحقاف) .

يا أمير المؤمنين ، وفي رواية عليٍّ ﷺ : تمهَّل يا أمير المؤمنين ، فقد تضع المرأة ولدها لستة أشهر !! ما هذا الكلام ؟ ومن أين أتيت بهذا الكلام يا عليُّ ، ويا ابن عباس ؟ قال له : من القرآن ، المرأة تضع بعد ستة أشهر كما في القرآن ؟ لكنني أقول لك : إنها نعمة الفهم ـ تدبَّر قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ، الحمل والرضاع ثلاثون شهرًا ؛ والرضاع أربعة وعشرون شهرًا ؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة:٢٣٣] .

فلو طَرَحْتَ أربعة وعشرين من ثلاثين تبقَّى ستة أشهر ، فمن الممكن أن تلد المرأة ولدها في ستة أشهر ؛ بهذا نجَّى الله المرأة بفهم عليٍّ ، وابن عباس! ذلكم الفهم الراقي العالي .

● وها هو عمر بن الخطاب حين يسأل الصحابة : مَا تَقُولُونَ فِي : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ١ -٣] .

قالوا : فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَّ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ نَدْرِي ، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا ، وكان ابن عباس شابًّا صغيرًا في المجلس الذي اختاره عمر ؛ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، أَكَذَلِكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ : لاَ. قَالَ : فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فتح مكة ، فذاك عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ،

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ قَالَ عُمَرُ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَعْلَمُ [١] .

إنها نعمة الفهم ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ ، وداود وسليمان نبيان كريمان ، لكن داود حكم في القضية وخالف في الحكم ولده سليمان ، فأثنى الله على فهم سليمان للقضية ؛ فقال : ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء:٧٩] .

ثم يأتي الفهم بالتحصيل ، وذلك بأن تجلس بين يدي الربانيين من العلماء ، وبمطالعة كتب المصنفين من أهل العلم ، مع عدم التسرع في الفتوى ، وعدم الجرأة على الله تبارك وتعالى ، وعلى القول في دين الله بغير علم .

هذه النعمة العظيمة ـ نعمة الفهم ـ تتأتى بَعْدُ بالتذلل والتضرع إلى الله تبارك وتعالى ؛ أسأل الله تبارك وتعالى أن يفهمنا ، وأن يعلمنا .

فأحذِّر نفسي وإياكم من الجرأة على الفتوى ؛ فهذا من أخطر صور الجهل : التعالم ، ترى المتعالم لا يعرف الدليل ، ومع ذلك يتعالم ، يُعْرَضُ عليه سؤال ـ مثلًا ـ وهو على فضائية فيستحي من عدم الإجابة وخاصة أن الناس تشاهده فيتعالم ، ويتكلَّم بغير علم ، وهنا هو قمة الجهل .

فأحطُّ صورةٍ من صور الجهل بعد الجهل بالله وبرسوله وبالدين أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «المغازي» باب (٥١) (٤٢٩٤) .

أتعالم على الخلق ، وأنا لا أملك دليلًا في هذه المسألة ، وما يمنعني أن أقول : الإجابة على سؤالك في الحلقة القادمة إن شاء الله ؟ وما المانع في أن أراجع المسألة ، عند علمائنا الذين لم يتركوا أي شيءٍ إلا ذكروه ؟ فمطلوبٌ فقط أن أتجرد لله ، وأرجع وأوفر لنفسي شيئًا من الوقت ، والصدق ، والتضرع إلى الله ــ جلَّ وعلا ــ أن يعلِّمني وأن يفهمني . اللهم ارزقنا وإياكم الإخلاص والعلم والفهم .

○ إذن التعالم : هو أن يدعي العلم وليس لديه علم ، أو ليس لديه دليل في مسألة بعينها ، قد يكون عالمًا ، لكنه يتجرَّأ ويتعالم في مسألةٍ ليس لديه فيها دليل ، هذه صورة من صور التعالم ، وهذا التعالم يفتح بابًا جائرًا ظالمًا ، ألا وهو باب الكلام على الله تعالى بغير علم ، فالمتعالم هو الذي تَزَبَّبَ قبل أن يتحصرم ، وبالغ قبل أن يبلغ ، وادعى العلم قبل أن يتعلم !!!

○ ذكروا أن رجلاً من هذا الصنف النكد ، لم يكن يتورع أبدًا أن يفتي في أيِّ مسألة بعينها ، لو سألوه في الطب أو الهندسة لأجابهم ! ما شاء الله لا قوة إلا بالله سبحان الفتاح العليم !! فجاء بعض أهل الفضل من طلبة العلم النجباء وقالوا : هذا الرجل خطرٌ على الناس ، ونريد أن نبين للناس خطره ..كيف ؟ قالوا : نختلق كلمة ليس لها أصل لا في اللغة ولا في الدنيا ، ونأتي عليه في مجلس علمه ، ونسأله عن هذه الكلمة ، وسنؤكد للناس أن الرجل سيتكلم فيها بغير علم ؛ لنبين للناس أن الرجل جريءٌ على الله ، قالوا : فذهبوا واختلقوا كلمة غريبة أسموها « الخنفشار » وذهبوا إليه ،

وسألوه، وقالوا: كنا نود أن نتعرف من فضيلتكم على الخنفشار؟ قال: الخنفشار نبت طيب الرائحة، ينبت في أطراف اليمن ـ حتى تؤخذَ الفتوى في صمت! هل ستذهب للبحث عن هذا النبات في أطراف اليمن؟ ـ نبت طيب الرائحة ينبت في أطراف اليمن إذا أكلته الإبل انعقد لبنها؛ كما قال شاعر اليمن:

لقد عقدت محبتكم فؤادي   كما عقد الحليب الخنفشار

وقال أبو داود: الخنفشار كذا وكذا، وقال فيه القرطبي: كذا وكذا، وقال فيه رسول الله ﷺ ..!!

فقالوا: اسكت أيها الكذاب الجراب العياب، كذبت على كلِّ هؤلاء، فلا تكذب على رسول الله ﷺ؛ فإنه القائل [1]:

« وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ».

ولازالت الأمة تبتلى بهذا الطراز النكد من الخنفشاريين المتعالمين الذين يتكلَّمون في دين الله بغير علم وبغير دليل وبغير فهم دقيق، ووعي عميق لمراد الله ومراد رسوله ﷺ.

وأنا ألمح الآن مرحلة فوضى عارمة بالفتوى على شاشات الفضائيات؛ أسأل الله أن يبصرني وإخواني جميعًا بالحق والعلم، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «العلم»، باب « إثم من كذب على النبيِّ ﷺ » (١١٠)، ومسلم في مقدمة صحيحه، باب « تغليظ الكذب على رسول ﷺ » (٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هل هناك أعلم من رسول الله ﷺ ؟ لا أعْلَمَ منه ، ومع ذلك عوتب لما قال : أخبركم غدًا [١] ، ولم يعلِّق الأمر على مشيئة الله ـ جلَّ وعلا ـ ونزل القرآن : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف:٢٣،٢٤] .

● وها هو عبد الله بن عمر ـ عالم في الزهد ، والقرآن ، والسنة ـ يقول الزهريُّ [٢] : عَنْ خَالِدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ :

« خَرَجْنَا مَعَ عَبْدُ الله بْنِ عُمَرَ نَمْشِي ، فَلَحِقَنَا أَعْرَابِيٌّ ؛ فَقَالَ : أَنْتَ عَبْدِ الله بْنُ عُمَرَ ؟

قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : سَأَلْتُ عَنْكَ فَدُلِلْتُ عَلَيْكَ فَأَخْبِرْنِي : أَتَرِثُ الْعَمَّةُ؟

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لاَ أَدْرِي .

فَقَالَ : أَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَلاَ تَدْرِي؟ وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى : أَنْتَ لاَ تَدْرِي وَلاَ نَدْرِي ؟

قَالَ : نَعَم ، اذْهَبْ إِلَى الْعُلَمَاءِ بِالْمَدِينَةِ ، فَسَلْهُمْ ـ فانطلق السائل ، وهو يضرب كفًّا بكفٍّ ـ فَلَمَّا أَدْبَرَ قَبَّلَ ابْنُ عُمَرَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : نِعِمَ مَا قَالَ أَبُو

---

(١) أخرجه ابن إسحاق ؛ كما في « تفسير ابن كثير » ، و « الدر المنثور » والطبريُّ في « تفسيره » (٢٢٦٥٧) ، عن ابن عباس وسنده ضعيف .

(٢) أخرجه الدارمي في « سننه » (١٧٩، ١٨١) ، والحاكم (٦٤٤٦) ، والبيهقي في «الكبرى » (٤/ ٨٢) .

عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، يُسْأَلُ عَمَّا لاَ يَدْرِي ، فَقَالَ : لاَ أَدْرِي .

نعم .. ابن عمر يقول : لا أدري ، والله ما أجملها وأروعها وأطعمها من كلمة .

● وإذا ذُكر العلماء ؛ فمالك بن أنس ـ إمام دار الهجرة ـ نجمٌ ثاقبٌ في سماء العلم والعلماء ؛ يقول تلميذه النجيب الشافعيُّ ـ ذلكم الشافعي الإمام تلميذ مالك حفظ موطأ مالك في تسع ليال ـ فلما ذهب إلى مالك ليطلب العلم على يديه ، قال له مالك ـ حين قرأ عليه الموطأ من حفظه ، ولم يلحن في كلمة من كلمات اللغة : يا شافعيُّ ، إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا ، فلا تُطفئه بظلمة المعصية [(١)] .

يقول الشافعِيُّ : صحبت مالكًا فسُئل في ثمان وأربعين مسألة ؛ فقال مالك في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري [(٢)] .

● والشافعيُّ أستاذ أحمد بن حنبل ، يقول إسحاق بن راهويه : قال لي أحمد : تعال يا إسحاق لأريك رجلاً بمكة ما رأَتْ عيناك مثله ! قال إسحاق : فأراني الشافعي ! فناظرتُ الشافعيَّ في الفقه فلم أر أفقه منه ، وناظرتُ الشافعي في القرآن فلم أر أعلم منه ، وناظرت الشافعي في الحديث فلم أر أعلم منه ، فناظرتُ الشافعي في اللغة فوجدته بيت اللغة ،

---

(١) « الداء والدواء » (١٠٤) و« إعلام الموقعين » (٤/ ٢٥٨) .

(٢) « تفسير القرطبي » سورة البقرة آية (٣٢) ، و« التمهيد » لابن عبد البر (١/ ٧٣) ، « وآداب الفتوى » للنووي (١٦) ط الفكر .

ووالله ما رأت عيناي مثله (١) .

وجلس الشافعي في مجلس علمه فيأته سائل ، فيسأله في مسألة ، فيسكت ، فيقول السائل : ألا تجيب ؟ فيسكتَ : فيسأل السائل ، ويقول : ألا تُجِيبُ يرحمك الله ؟ فقال الشافعيُّ : انتظر حتى أعلم هَلِ الفَضْلُ في سكوتي أم في جوابي (٢) ؟

يا الله! نحن فعلًا غاية في الجُرأة ، ويتردد في أذني، وفي قلبي الآن قول القائل:

وغير تَقِيٍّ يأمر الناس بالتُّقَى   طبيبٌ يداوي الناس والطبيب عليل

*****

إلهي لا تعذبني فإني   مقرٌّ بالذي قد كان مني

فكَمْ مِنْ ذلَّةٍ لي في البرايا   وأنت عليَّ ذو فَضْلٍ ومَنٍّ

يظنُّ النَّاسُ بي خيرًا   وإني لشرُّ النَّاس إن لم تَعْفُ عني

والله ما تكلَّمت في هذا من باب الشعور بالأهلية ، وإنما من باب الشعور بالمسؤولية ، وهذا ما تقرره القاعدة الأصولية : « من عدم الماء تيمم بالتراب » ، نعم .. نَحْنُ في حاجةٍ إلى علم بكتاب الله ، وبحديث رسول الله ﷺ وذلك بالصدق ، والإخلاص ، والتضرع ، والتذلل ،

---

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » (٥١/ ٣٢٨-٣٣٠) .

(٢) انظر : «إعلام الموقعين» (٤/ ٢١٨) ، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٧٧٣) ، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٢٥) ، و«أدب المفتي والمستفتي» لابن الصلاح (١/ ١٣) .

والجلوس بين أيدي الربانيين من العلماء ، وأن يفرغ كلٌّ واحدٍ منا وقتًا ليتعلم ، مهما كانت وظيفتك ، ومهما كان منصبك ، ومهما كان جاهك وجاهتك ، لابد أن تُفرغ وقتًا من وقتك لتتعلَّم عن الله ، ولتتعلم عن رسول الله ﷺ ؛ لأن الله ﷻ ما أمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم ؛ فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤] .

○ **أيها الأفاضل** : لا أريد أن أطيل أكثر من هذا في العلامات الصغرى للساعة ، لكن هناك علامات مقترنة مع العلامات الكبرى ، مثل المهدي - كما سأبين إن شاء الله - وهدم الكعبة وسوف نتحدَّث عن هذه العلامات فيما يأتي ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل مني ومنكم صالح الأعمال .

*****

علامات
الساعة الكبرى

خروج المسيح الدجال

أعتقد أن جُلَّ العلامات الصغرى ، التي أخبر عنها رسول رب الأرض والسماوات قد وقعت ، باستثناء علاماتٍ قليلة ؛ منها على سبيل المثال ؛ ما رواه الإمام «مسلم» (١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ : لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو** » .

○ وفي رواية أخرى في « صحيح مسلم » (٢) : قال ﷺ : « **فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا** » .

ولا ريب أن هذا الجبل إنما هو جبلٌ من ذهب حقيقي ، وليس كما قال بعض أهل العلم : المراد بالذهب هو الذهب الأسود «النفط» !! وقد قرأتُ بنفسي بعض الأخبار التي تؤكد أن الأقمار الاصطناعية قد صوَّرت جبل الذهب في نهر الفرات بالعراق ، ولكني لا أستطيع أن أجزم بذلك حتى يتَّضِحَ الأَمْرُ ، ونحن نعيش الآن عصر الاتصالات والمواصلات ، وسيظهر كلُّ شيء في حينِهِ ، لكن تَبْقَى بعضُ العلامات ، التي تكون

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ، باب «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب» (٢٨٩٤) .

(٢) أخرجه مسلم (٣٠/ ٢٨٩٤) .

مقترنة بالعلامات الكبرى ـ كما ذكرتُ وسأذكرها في حينها مع العلامات إن شاء الله ـ جلَّ وعلا .

○ تعالوا ـ أيها الأخوة ـ لنتعرف على العلامات الكبرى ، التي ذكرها الصادق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى في حديثه الصحيح الذي رواه «مُسْلمٌ» (١) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ؓ قال حذيفة : اطَّلَعَ النَّبيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ : « مَا تَذَاكَرُونَ؟ » قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، قَالَ: « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ » فَذَكَرَ : الدُّخَانَ ، وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ» .

وقد وردت هذه العلامات الكبرى بغير هذا الترتيب ، فالترتيب في حديث رسول الله ﷺ ليس المقصود منه أن نفس العلامات ستقع بهذا الترتيب ؛ لأن أحاديث أخرى صحيحة قد ثبتت عنه ﷺ بغير هذا الترتيب الذي ورد في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري ؓ في «صحيح مسلم» .

○ وبعد الجمع بين كلِّ الروايات ، والترجيح يتبين لنا ـ كما قال الحافظ

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ، باب « في الآيات التي تكون قبل الساعة » (٢٩٠١).

ابنُ حجر [١] رحمه الله تعالى ـ وغيرُهُ من أهل العلم ـ أن خروج الدجال : هو أول العلامات ، والآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم على وجه الأرض ، وينتهي هذا التغيير في أحوال الأرض بنزول عيسى ابن مريم ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ لقتل الدجال ، وللدعاء على يأجوج ومأجوج ـ كما سأبين بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

وطلوع الشمس من مغربها أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوي ، وينتهي ذلك بخروج الدابة ، فعلى الراجح أن الدابة تخرج في نفس اليوم ، الذي ستطلع فيه الشمس من مغربها ؛ لأن الشمس إذا طلعت من جهة المغرب ـ كما سأبين إن شاء الله تعالى ـ لا تقبل توبة التائبين ، ومن ثَمَّ تخرج الدابة في نفس اليوم لتسم المؤمن بصفة الإيمان ، وتسِمَ الكافر بصفة الكفر من باب التتمة للتمييز بين أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

○ إن خروج الدَّجال : هو أول العلامات ، والآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم على وَجْه الأرض ؛ ولذلك أنا أقول لهؤلاء الذين أنكروا هذه الأحاديث ، وأنكروا قضية الدجال ، وقالوا : الدجَّال رمزٌ للشرِّ فقط ، لكن ليس شخصية حقيقية !! هذا تقديس وتقديم للعقل على صريح وصحيح النقل ، ولا ينبغي أن نجعل من العقل إلهًا لنعبده من دون الله تبارك وتعالى ؛ وأودُّ أن أقول: إننا لا نقلل من قَدْر العقل ، ولا

---

(١) « فتح الباري » (١١/ ٣٥٣) بتصرف ط المعرفة .

من قيمته ومكانته ؛ بل إن نور الوحي لا يطمسُ نور العقل أبدًا ، وإنما يُباركه ويزكِّيه ويقويه ، بشرط أن يسجد العقل مع الكون كله لله رب العالمين ، وأن يُبدع العقل في مجاله الذي يحبُ أن يبدع فيه ، أمَّا أن يَجْعَل العقل من نفسه إلهًا ، أو طاغوتًا ؛ ليحكم على صريح النقل وصحيحه ، فما يقبله العقل يمرِّره ، وما يرفُضُه العقل يردُّه ، فسيصبح دين الله ـ جلَّ وعلا ـ بهذا ألعوبة بين عقول البشر ، وإلا فبالله عليك ، أخبرني ما الدين الذي سنقبله ، أهو الدين الذي يقرُّه عقلي ، أم الدين الذي يقرُّه عقلك ؟!! هكذا يصير الدين قابلاً للأخذ والرد ! فلا يجوز أن نحكم العقل أمام صريح وصحيح النقل .

علم العليم وعقل العاقل اختلفا مَنْ ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا
العلم قال أنا أحرزتُ غايته والعقْلُ قال أنا الرحمن بي عرفا
فأفصح العلْمُ إفصاحًا وقال له بأينا الله في قرآنه اتصفا
فأيقن العقلُ أن العلم سيِّدُه فقبَّل العقلُ رأْسَ العِلْم وانصرفا

○ولله در ابن القيم إذ يقول [(١)]:

لا يستقلُّ العقل دون هداية بالوحي تأصيلا ولا تفصيلا
كالطرف دون النور ليس بمدرك حتَّى يراه بكرة وأصيلا
نورُ النبوة مثلُ نور الشمس للعين البصيرة فاتَّخِذْهُ دليلا

(١) « الصواعق المرسلة » (٣/ ٩٧٩) ط العاصمة .

فإذا النبوة لَمْ ينلْك ضياؤها فالعقْلُ لا يهديك قطُّ سبيلا
طُرُق الهدى محدودة إلا على مَنْ أَمَّ هذا الوحي والتنزيلا
فإذا عدَلْتَ عن الطريق تعمُّدًا فاعلم بأنك ما أردت وصولا
يا طالبا دَرْكَ الهدى بالعقل دُونَ النقل لَنْ تلقى لذاك دليلا

● قال ربنا - جلَّ وعلا : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر:٧] .

فالسنةُ وحيٌ ، وقد أخبرنا النبيُّ ﷺ بذلك .

● كما روى «أحمد» ، و«أبو داود» بسندٍ صحيحٍ [١] من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ : عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ ، أَلاَ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الأَهْلِيِّ ، وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ » .

○ وفي لفظٍ [٢] عند «الترمذي» و«ابن ماجه» أنه ﷺ قال : « وَإِنَّمَا حَرَّمَ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠) ، وأبو داود كتاب « السنة » ، باب « في لزوم السنة » (٤٦٠٤) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٨٧٠) ، و«صحيح الجامع» (٢٦٤٣) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ كتاب « العلم » ، باب « ما نهى عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ » (٢٦٦٤) وقال : «حديث حسن غريب من هذا الوجه» ، وابن ماجه في المقدمة (١٢) ، وأحمد (٤/ ١٣٢) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « صحيح سنن الترمذي ، وابن ماجه » .

رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللهُ » .

○ ومن بديع كلام الإمام الشوكانيِّ[١] رحمه الله : « إن ثبوت حجية السنَّة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ، ولا يُخالف في ذلك إلاَّ مَنْ لا حَظَّ له في الإسلام » .

فلا يستطيع أحدٌ فهم القرآن بدون السُّنة ، إلا إذا عُدنا إلى من أنزل الله عليه القرآن ؛ إلى محمد ﷺ .

○ **لذا أقولُ** : إن هذه المرحلة ـ من علامات الساعة ـ لا يليق أن تحكم فيها القوانين التي تحكُمنا الآن ، لأن الوضع سيختلف ؛ ولا نشتغل بالترتيب ؛ لأنه لو ظهرت علامة من العلامات الكبرى تتابعت بَعْدُ العلامات ؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ .

● **روى أحمد في « مسنده » والحاكم في « مستدركه » وغيرهما**[٢] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« الآيَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ ، فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا » .

● وأول علامةٍ تؤذن بتغير أحوال العالم الأرضي : **خروج الدجال** .

---

(١) « إرشاد الفحول » (٥٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩) ، والحاكم (٤/ ٥٢٠) عن عبد الله بن عمرو ، وله شاهدٌ عن أبي هريرة ، أخرجه ابن حبان (٦٨٣٣) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٧١) وله شواهد أخرى ، صححه بها الألبانيُّ في « الصحيحة » (١٧٦٢ ، ٣٢١٠) و « صحيح الجامع » (٢٧٥٥) .

● مَنْ هو الدَّجال ؟ وأودُّ أن أقول : كثير من المسلمين لا يعرف شيئًا عنِ الدجال ؛ بل وبعضهم يقول : إن هذه خرافات ! فنحن في عصر الإنترنت والذرَّة ، مع أنَّ من أدلة قُرْب الدجال أن يهجر الناس ذكره ، وأن لا يذكره علماؤنا ودعاتنا على المنابر [(١)] ، نسيت الأمة الدَّجال إلا مَنْ رحِم الله.

● وهنا يطرح سؤال : هل الدجال جنٌّ أو إنس ؟ هل هو بشر من بني آدم ؟ نعم : هو من بني الإنسان !

○ ولماذا سمِّي بالمسيح الدجال ؟

● والجواب فيما قال النبيُّ ﷺ :« **الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ** » والدجال : من الدَّجل والتضليل والكذب ؛ لأنه يُلبس الحق بالباطل فسمي بالمسيح ، وليس المسيخ ، فهو مكذب مُضلل خداع للخلق وللناس ـ إلا من رحم الله سبحانه وتعالى .

ولا توجدُ فتنة على وجه الأرض ، من يوم أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة أخطر من فتنة الدجال !!

● كما في « صحيح البخاري » [(٢)] من حديث أم سلمة ـ رضوان الله

---

(١) كما في حديث الصعب بن جثامة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **لاَ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ حَتَّى يَذْهَلَ النَّاسُ عَنْ ذِكْرِهِ ، وَحَتَّى تَتْرُكَ الأَئِمَّةُ ذِكْرَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ** » أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٤/ ٧١) ، والطبراني في «مسند الشاميين» (٩٩٢) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٧/ ٣٣٥) : «رواه عبد الله بن أحمد من رواية بقية عن صفوان بن عمرو ، وهي صحيحة ؛ كما قال ابن معين ، وبقية رجاله ثقات » . وذكره الشيخ الألباني في « قصة المسيح الدجال » (٣٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب « العلم » ، باب « العلم والعظة بالليل » (١١٥) و (٦٢١٨) .

عليها ـ زوج النبيِّ ﷺ تقول : اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ :

« سُبْحَانَ الله ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ ، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَ الْحُجَرِ ـ يُرِيدُ بِهِ أَزْوَاجَهُ ـ حَتَّى يُصَلِّينَ ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ »

○ الشاهد : « مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ ؟ » .

● بل وفي « صحيح مسلم » (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا ، وَيُصْبِحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » . يا رب سلِّم سلِّم !!

● وفي « صحيح مسلم » (٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً ، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ : الصَّلاَةَ جَامِعَةً . فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ ؛ فَقَالَ : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» ، باب « الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن » (١١٨) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الإمارة» ، باب « وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول » (١٨٤٤) .

تُنْكِرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ مُهْلِكَتِي ، ثُمَّ تَنْكَشِفُ ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ هَذِهِ ؛ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » .

ومع ذلك نقول : لا توجد فتنةٌ أخطر من فتنة الدجال ؛ كما قال ﷺ ؛ كما في « صحيح مسلم » [(١)] من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه :

« مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ » .

● وروى ابن ماجه في «سننه» والحاكم في « مستدركه » والطبرانيُّ في « الكبير » وغيرهم [(٢)] من حديث أبي أمامه الباهليِّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

«إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ ، وَإِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلاَّ حَذَّرَ أُمَّتَهُ الدَّجَّالَ ، وَأَنَا آخِرُ الأَنْبِيَاءِ وَأَنْتُمْ آخِرُ الأُمَمِ ، وَهُوَ خَارِجٌ فِيكُمْ لاَ مَحَالَةَ وَإِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْكُمْ فَأَنَا حَجِيجٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَإِنْ يَخْرُجْ مِنْ بَعْدِي فَكُلُّ امْرِئٍ حَجِيجُ نَفْسِهِ ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

حديثٌ في غاية الرقة مع ما فيه من الفتنة الرهيبة ، ولكنه يُبرز جانبًا

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن » باب « في بقية من أحاديث الدجال (٢٩٤٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجة كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم (٤٠٧٧) ، والحاكم (٨٦٢٠) ، والطبراني في « الكبير » (٨/ ١٤٦) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني » (١٢٤٩) ، وسندُه ضعيف ، وله شواهد صححه بها الشيخ الألبانيُّ في « قصة المسيح الدجال» و« صحيح الجامع » (٧٨٧٥) .

مهمًا من أرقِّ جوانب الرحمة عند نبينا ﷺ بهذه الأمة الميمونة المرحومة المباركة ؛ أمة التوحيد ، أمة محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعظم ، وأشرف ، وأطهر ، وأكرم أمة ، وستبقى خيرَ أمةٍ ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مع ما تمر به الآن من مرحلة من مراحل الضعف والهوان ، أسأل الله أن يردَّها إلى الحق ردًا جميلًا ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

○ **أقولُ** : لخطر هذه الفتنة وصفها لنا النبيُّ ﷺ وصفًا دقيقًا جدًّا ؛ لأنها فتنةٌ في غاية الخطورة ، حتى تستطيع أن تعرف الدجال بمجرد أن تراه ، وهذا واجبُ العلماء أن ينقلوا ، وأن يبينوا عن رسول رب الأرض والسماء ، للأمة أوصاف الدجال ، ماذا قال سيد الرجال ﷺ ؟

● روى «**البخاريُّ ومسلم**»[(١)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّاسِ ـ أي : خطيبًا ـ فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ ؛ فَقَالَ : « **إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ** ـ أي : ينذر النبيُّ ﷺ أمته الدجال ـ **ومَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ ، لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ ، وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ : تَعَلَّمُوا أَنَّهُ أَعْوَرُ ، وَأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ** » .

تعالى ربي جل جلاله عن الشبيه ، وعن المثيل ، وعن النقص ، فالدجال أعور

---

(١) أخرجه البخاري كتاب « الجهاد والسير » باب « كيف يعرض الإسلام على الصبي » (٣٠٥٧) معلقًا ووصله في مواطن (٣٣٣٧ ، ٤٤٠٢ ، ٧١٢٧) ، وغيرها ، ومسلم كتاب « الفتن » باب « ذكر ابن صياد » (٩٥/ ١٦٩) .

العين ممسوح العين .. عينٌ طافئة ، أي : ذهب نورها ، وعين طافية بالياء دون الهمز ؛ أي : معيبة ؛ فكلاهما معيبتان .

● قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور:٣٥] .

● وقال أعرف الخلق بالله رسول الله ﷺ - كما في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .أي : لاحترق كلُّ الخلق لأنه لا يغيب خَلْقٌ عن بصره - جلَّ وعلا .

● ومن جميل ما قرأتُ في هذا الباب ؛ ما رواه «البخاريُّ ومسلم»[(٢)] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّا نَجِدُ : أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالأَرَضِينَ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الإيمان » ، باب في قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام » (١٧٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب « التفسير » ، باب « سورة الزمر » (٤٨١١) ، ومسلم كتاب « صفة القيامة والجنة والنار » (٢٧٨٦) .

عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ ، فَيَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧] » .

وانظر كيف يبين لك النبيُّ ﷺ المسألة بغاية الوضوح .

● روى «البخاريُّ ومسلم» [١] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال ﷺ : « **الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ** » .

○ وفي رواية في « صحيح مسلم » [٢] أنه قال : « **كَفَرَ** ـ وتهجاها رسول الله ﷺ ـ **ك ف ر** » .

● وفي « صحيح مسلم » [٣] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه ﷺ قال « **مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ، يَقْرَؤُهُ** ـ يعني : يقرأ هذه الكلمة في جبين الدجَّال ـ **كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ** » .

أي : سواءٌ يستطيعُ قراءةَ المكتوب ، أو كان أميًّا لا يقرأ ؛ فإن الله تبارك

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الفتن » ، باب « ذكر الدجال » (٧١٣١) و (٧٤٠٨) ، ومسلم كتاب «الفتن» ، باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » (٢٩٣٣/ ١٠٣) ، واللفظ لمسلم ـ وليس في البخاري : « ممسوح العين » ، لكن فيه « أعور » .

(٢) أخرجه مسلم كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » (١٠٢/ ٢٩٣٣) .

(٣) أخرجه مسلم كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » (١٠٥/ ٢٩٣٤) .

وتعالى ـ سيوفقه بإيمانه به وبرسوله ﷺ بقراءة هذه الكلمة بين عيني الدجال .

اللهم املأ قلوبنا بالإيمان ، ونجّنا وإيّاكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

○ وفي لفظٍ في « صحيح مسلم » (١) : « **مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ** » .

○ إخواني : قد يملأ الإنسان دنياه ضجيجًا ، وكلامًا ، وصراخًا ، وكتابة ، ويملأ الدنيا علمًا وعلى فراش الموت لا يستطع أن يتكلّم بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، ورجل أميٌّ من آبائنا الطيبين ، وأم طاهرة من أمهاتنا الطاهرات أصحاب الفطرة السليمة تنطق بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ .

ويقسمُ لي طبيبٌ من أحبابنا الجراحين ، فقال : تقدَّمتُ لأُجْرِي جراحةً لرجل من أهل القرآن ، تجاوز السبعين عامًا ، وجْهُهُ كالقمر ليلة البدر ، واللحية كلُّها بيضاء ، يقول : فوجَدْتُ الرجل يبكي، فقلْتُ له : يا والدي ، لِمَ تبكي ، وأنت من أهل القرآن والدين ؟ فقال له : يا بُنَيَّ ، أنا لا أخاف من الموت ، ولكني أخاف من البنج ! فقال له : وما الذي يخيفك من البنج ؟ فقال : أنا أخاف من أن يضيع عقلي هذه اللحظات فلا أقْدِر على أن أقرأ الوِرْد القرآنيَّ اليوميَّ ! فقال له : كم تقرأ ؟ قال : أقرأُ كلَّ يَوْمٍ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن » باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » (١٠٣/ ٢٩٣٣) .

خمْسَة أجزاء ـ يختم القرآن كلَّ أسبوع مرة ـ ، فسبحان الله ! يقول لي الطبيب : تمنيَّتُ أن لو انشقت الأرض وابتلعتني ، رجلٌ عمره أكثر من سبعين سنة يَبْكي ،لأنه يخاف أن يفوته الورد القرآني اليومي ، وهو مقبلٌ على إجراء عمليةٍ جراحية ! قال الطبيب : وبدأتُ أكلِّمه إن شاء الله سيكرمك الله ، وظلَّ يطمئنه بكلماتٍ طيبة ، ويقسم لي ، فيقول : ووالله أتيتُ بمجموعةٍ من الأطباء ، وأشهدتهم على ذلك ؛ لأنني لم أتصوَّر أن يقع هذا في دنيا الناس ، قلْتُ له : ماذا حدث ؟ قال لي : قال لهم الرجل : لا تعطوني البنج إلا بعد أن أشرع في قراءة وردي من القرآن ، فلما شرع هذا الرجل في قراءة الورد ، ودخل الطبيب ، وأعطاه حقنة البنج ، يقسم لي بالله ما توقَّف الرجل عن القراءة أثناء العملية الجراحية حتى أفاق من البنج وهو يقرأ كتاب الله ـ جلَّ وعلا !! هَلْ رأيت هذا في دنيا الناس قبل ذلك ؟! إنها الفطر السليمة ، والقلوب النيرة بنور القرآن .

أسأل الله أن يرزقنا وإياك الثبات والسداد ، والتوفيق والإخلاص .

فالمسألة حينئذٍ ستختلف ، المؤمن الذي لا يعْرف القراءة ، سيوفقه الله ليقرأ بين جبين الدجال كلمة : «كافر» .

○ **أيها الإخوة** : إن الفتنة عصيبة ؛ كما يصف لنا النبيُّ ﷺ ذلك في حديثٍ طويلٍ جميلٍ من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في « **صحيح مسلم** » [(١)] ،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة » ، باب « ذكر الدجال ، وصفته وما معه » (٢٩٣٧) .

يسأل فيه الصحابةُ رسول الله ﷺ عن المدة التي سيمكثها الدجال في الأرض، فقال: الرسول ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: « **أَرْبَعُونَ يَوْمًا** » يعني: لا يوجد مكانٌ في هذه الأرض في الأربعين يومًا إلا وسيطؤه الدجال إلاَّ مكَّة والمدينة، يقول: « **يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ** ».

ـ لكن الصحابة منشغلين بقضيةٍ أخرى تمامًا ـ قالوا: يَا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ ـ انظر ما هو همهم في هذا اليوم: الصلاة ـ قَالَ: « **لاَ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ** ».

○ **يعلق القاضي عياض** رحمه الله [1]؛ فيقول: « هذا حُكم مخصوصٌ لهذا اليوم من صاحِب الشَّرع ﷺ ».

ثم سأله الصحابةُ سؤالًا آخر ـ قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ تدبر هذا التعبير النبويَّ، قال ﷺ: « **كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ** ـ مطر نازل والريح تدفعه يمينًا وشمالاً ـ **فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ، فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ** ».

والمؤمن لا يهزُّه ذلك، ولا يؤثر فيه، عنده خريطة وضَّح له فيها النبيُّ ﷺ المسائل، ليس لديه لبسٌ ولا غموض، عنده نظرةٌ عميقةٌ جدًّا إلى كلِّ ما سيقع في الكون من أحداثٍ إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها؛ لأنه

---

(١) « مسلم بشرح النووي » (٩/ ٢٩٦) ط الحديث.

آمن بالله وبرسول الله ﷺ وطالع السُّنة ، وعرَفَ ماذا قال صاحِبُ السنة الذي لا ينطق عن الهوى - بأبي هو وأمي - ﷺ .

« **فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ ، فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرىً ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ** » - وهذا فريقٌ آخرٌ من أهل التوحيد والإيمان يرفضون هذه الدعوة الجائرة الفاجرة الكافرة - « **فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ ، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ** » - فتنةٌ خطيرةٌ ! لكن هيهات .. هيهات ؛ فأهل التوحيد والإيمان يعرفون ذلك جيدًا - « **وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ ، فَيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا ، كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئًا شَبَابًا ، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ، فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ، ثُمَّ يَدْعُوهُ ، فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ ، يَضْحَكُ** » .

○ وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في « **الصحيحين** » (١) : « **فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ ، أَوْمِنْ خَيْرِ النَّاسِ** » .

« **يَخْرُجُ الدَّجَّالُ ، فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ ، مَسَالِحُ الدَّجَّالِ** » - أي : بالسلاح ، وأتباع الدجال سبعون ألفًا من يهود

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب جزاء الصيد (أبواب فضائل المدينة . باب لا يدخل الدجال المدينة) (١٨٨٢) ، ومسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه ، وقتله المؤمن وإحيائه » (٢٩٣٨) واللفظ له .

أصبهان ؛ كما في «صحيح مسلم»(١) ـ «فَيَقُولُونَ لَهُ : أَيْنَ تَعْمِدُ ؟ فيقول هذا الرجل المؤمن : أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ ؛ فَيَقُولُونَ لَهُ : أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا ؟ ـ يعنون الدجَّال ـ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ ، فَيَقُولُونَ : اقْتُلُوهُ . فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَلَيْسَ قَدْ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ ـ يعني : الدجال ـ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ ، فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ ، فَإِذَا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ لأنه قرأ بين عينيه كافر ؛ عرف السمة ، وعرف الوصف النبويَّ .

« قَالَ: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ ، فَيُشَبَّحُ ، فَيَقُولُ : خُذُوهُ وَشُجُّوهُ. فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا ، قَالَ : فَيَقُولُ : أَوَمَا تُؤْمِنُ بِي؟ قَالَ : فَيَقُولُ : أَنْتَ الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ ، قَالَ : فَيُؤْمَرُ بِهِ ، فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ - قَالَ - ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بَيْنَ الْقِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : قُمْ. فَيَسْتَوِي قَائِمًا - قَالَ - ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُؤْمِنُ بِي ؟ فَيَقُولُ : مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً ، قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، قَالَ : فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا ، فَلاَ يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، قَالَ : فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، فَيَقْذِفُ بِهِ ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ » .

● قال ﷺ : « هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « في بقية من أحاديث الدجال » (٢٩٤٤) .

● ومن أعجب الأحاديث أيضًا في فتنة الدجال ؛ ما رواه «مُسْلمٌ» (١) من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ نِدَاءَ الْمُنَادِي مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ يُنَادِي : الصَّلاَةَ جَامِعَةً ، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ، فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ - أي : صفوف الرجال - فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ صَلاَتَهُ ، جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، ثُمَّ قَالَ: « لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ ». ثُمَّ قَالَ : «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ ؟ » ، قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « إِنِّي وَالله ! مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ » « كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا ، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ » - إنها منقبة عالية لتميم رضي الله عنه أن يروي عنه رسول الله ﷺ ، وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على جواز أن يروي الفاضلُ عن المفضول فتميم الداري عنده خبر ، ما هو ؟- قال ﷺ :

«وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ حَدَّثَنِي ، أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ أَرْفَؤُوا - أي : ألجأهم - إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ ، لاَ يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ ، مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ ؛ فَقَالُوا : وَيْلَكِ ! مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ. قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ : أَيُّهَا الْقَوْمُ ، انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن » ، باب « قصة الجساسة » (٢٩٤٢) .

بِالأَشْوَاقِ ، قَالَ : لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً ، فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا ، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا ، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ ، بِالْحَدِيدِ . قُلْنَا : وَيْلَكَ ! مَا أَنْتَ؟ قَالَ : قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي . فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ . رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ ، فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا ، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا ، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ . لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ ، فَقُلْنَا : وَيْلَكِ ! مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ : أَنَا الْجَسَّاسَةُ. قُلْنَا : وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتِ : اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا ، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً ، فَقَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ (١) ؟قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا ، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ : نَعَمْ . قَالَ : أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ، قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ ؟ قُلْنَا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ : هَلْ فِيهَا مَاءٌ ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ. قَالَ : أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ (٢) ، قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ؟ قَالُوا : عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ ؟ قَالَ : هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ ،

---

(١) اسم مكان يعرفه أهل الشام .

(٢) وقد نقلت بعض الصحف الرسمية ، ونشرت في صفحتها الأولى أن الماء قد قلَّ في بحيرة طبرية بصورةٍ مذهلة !

وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا ، قَالَ : أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا : قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ ، قَالَ : أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ ، قَالَ لَهُمْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ ـ أي : أن هذا الرجل الموثق بالحديد قال : خيرٌ للعرب أن يطيعوه ـ وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي : إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ. فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا ، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا ؛ اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا ، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا ، تقول فاطمة بنت قيس : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ : « هَذِهِ طَيْبَةُ ، هَذِهِ طَيْبَةُ ، هَذِهِ طَيْبَةُ ـ يَعْنِي الْمَدِينَةَ ـ أَلاَ هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟ »، فَقَالَ النَّاسُ : نَعَمْ ، قال ﷺ : «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ ...» إلى آخر هذه الرواية .

○ أيها الأفاضل : والسؤال الخطير : متي سيهلك الدجال ؟ ومتى يُخلِّصُ الله الأرض من شرِّه ومَنْ هذه الفتنة؟ ومن سيقتله ؟ وأين يقتل ؟

وقبل الجواب على هذه الأسئلة ؛ أقدِّم هذه المنجيات من هذه الفتنة العارمة .

□ **المنجيات من فتنة المسيح الدجال :**

إن للنجاة من هذه الفتنة سبلاً وخطوات يجبُ مراعاتها :

● السبيل الأول والخطوة الأولى : تحقيق الإيمان ، ألم أقل لكم إن رسول الله ﷺ قال : « **يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ** » فحقق الإيمان ، واعلم أنه ليس كلمة فقط ! بل إن الإيمان : قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالجوارح والأركان ؛ له طعم ، وله حلاوة ، وله نور . فالإيمان حصنُ الأمان لك في الدنيا ـ من فتن الدنيا ، ومن فتنة الدجال ؛ بل ومن عذاب النار في الآخرة .. الله الله في الإيمان ، واعلم بأن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، فعرِّض قلبك ـ حبيبي في الله ـ إلى بيئة الإيمان ، وإلى بيئة الطاعة ؛ ليزداد الإيمان في قلبك ، وابتعد عن بيئة المعصية ؛ لأن الإيمان يقلُّ في القلب بالمعصية، ولا بد أن يطرد أحدُهما الآخر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

● السبيل الثاني : الاستقامة على الإيمان ؛ **قال تعالى** : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت:٣٠ـ ٣٢] .

● وفي « **صحيح مسلم** »[(١)] من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ** » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « ذكر الدجال وصفته وما معه » (٢٩٣٧) .

○ وفي «صحيح مسلم» (١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ ، عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ » .

○ وهناك رواية صَرَّحت بأنها عشر آيات من آخر السورة ، لكن أقول : ما الذي يضيرك أن تحفظ السورة كلَّها ، إنها فتنة تحمل المسلم والمسلمة على الشروع في حفظ السورة بأكملها ، اجلس الآن ، واشرع في حفظها ، فما أجملها من سورة ، وما أرقها من معان !! احفظ سورة الكهف حتى ينجيك الله ويعصمك من فتنة المسيح الدَّجال ، وهنيئًا لمن سكن مكة ، وهنيئًا لمن سكن المدينة ؛ لأن الدَّجال بفضل الله الكبير المتعال لا يستطيع أبدًا دخول أيٍّ من المدينتين ؛ كما أخبر من أُرسل إلى الثقلين ﷺ.

○ أيها الأفاضل : من يقتل الدجال ، وأين سيُقتل ؟

هذا ما نتعرف عليه إن شاء الله تعالى في الفصل القادم ، ولا تنسوا أبدًا أن تتعوذوا بالله بقلب حاضرٍ في كلِّ صلاة من تلك الفتنة ؛ فلقد كان النبيُّ ﷺ يُعلِّم الصحابة هذا الدعاء كما يُعلمهم السورة من القرآن ؛ كما في « صحيح مسلم » (٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : قال النبيُّ ﷺ :

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْـمَسِيحِ الدَّجَّالِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْـمَحْيَا وَالْـمَمَاتِ » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الصلاة » ، باب « فضل سورة الكهف وآية الكرسي » (٨٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب « المساجد » ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٥٩٠) . وانظر : « صحيح البخاري » (٨٣٢) ، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة .

نزول عيسى ومقتل الدجال

فالدجال يجوب الأرض كلَّها في أربعين ليلة لا يفتتن به إلا الجهلاء ، ولا ينجي الله تبارك وتعالى من فتنته إلا أهل التوحيد والإيمان ، ممن آمنوا برسول الله ﷺ ، وتعرفوا على فقه هذه المرحلة القادمة ، المقبلة من القرآن والسنه ، بعيداً عن التنظير الذي لا دليل عليه لا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ ؛ فأخطر فتنةٍ عَرَفَتْهَا وستعرفها الأرض من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها هي : « فتنة الدجال » ، وفي هذه الفتنة الشديدة يرحم الله تبارك وتعالى أهل الإيمان في الأرض ، وينجِّي الله ـ جلَّ وعلا ـ الموحدين الصادقين المتبعين لسيد النبيين ﷺ ، ينجي هؤلاء الأطهار من فتنة المسيح الدجال بنزول عيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

○ تدبر ماذا قال المصطفى ﷺ ـ كما في رواية النواس بن سمعان الطويلة [١] التي ذكرتها في الفصل السالف ، وسأعود إليها مرةً أخرى وأنا أتحدث عن يأجوج ومأجوج بإذن الله جلَّ وعلا ، يقول ﷺ : «**فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ** ـ أي: الدَّجَّال ـ **إِذْ بَعَثَ الله الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** » .

○ **من أين ينزل ؟ من السماء** ، ونزوله علامةٌ من العلامات الكبرى

(١) سبق تخريجها .

للساعة ؛ قال الله ﷻ وهو يردُّ على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء:١٥٦-١٥٩] .

○ قال ابن عباس (١) رضي الله عنهما : « أي : قبل موت عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام » .

○ إذن ماذا تقول في قول الله تبارك وتعالى في حقِّ عيسى : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران:٥٥] ؛ ففي الآية يقول ربُّ العزة : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ كيف ذلك ؟

○ اعلم أن الوفاة لا تقتضي الموت إلا بقرينة منفصلة أو مستقلة ؛ كما يقول جماهير المفسرين ، فقد تُذْكر لفظة الوفاة ولا يراد بها الموت؛ بل يراد

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في « التفسير » (١٠٧٩٤ ، ١٠٨٠٧) ، وابن أبي حاتم (٦٢٥٤) .

بها الموتة الصغرى ـ يعني النوم ـ تدبر القرآن ، قال الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠] فالمراد بالوفاة في الآية هنا : النوم .

وكان النبيُّ ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول : « **الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ** »(١) فالنوم موتةٌ صغرى .

فلقد ألقى الله ﷻ على نبيه عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ سِنةً من النوم ، ثم رفعه إليه لينجيه من أولئك الذين تآمروا على قتله ، وألقى الشَبَه على هذا الذي دلَّ اليهود على مكانه فقتلوه ، ورفع الله جلَّ وعلا عيسى إليه ، ليُنزله الله تبارك وتعالى بين يدي الساعة كعلامةٍ من العلامات الكبرى التي أخبر عنها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ . ولقد وصف النبيُّ ﷺ الثوبَ الذي سينزل به عيسى من السماء ، وكذلك وصف المكان الذي سينزل فيه ، ووالله ما كان هذا المكان معروفاً باسمه يوم أخبر عنه النبيُّ ﷺ ! ماذا تقول؟ أقول لك : المكان الذي وصفه وحدَّده ﷺ لنزول عيسى لم يكن معروفاً بهذا الاسم على عهده ﷺ!!.

○ إذًا ؛ ماذا قال النبيُّ ﷺ ؟ روى «مُسْلمٌ»(٢) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه ـ وهو حديث طويل وفيه : «**فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ**

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « الدعوات » ، باب « ما يقول إذا نام » (٦٣١٢) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

(٢) سبق تخريجه وهو في مسلم (٢٩٣٧) .

دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ » ـ وفي رواية أخرى في غير الصحيح [١] : « بَيْنَ ثَوْبَيْنِ مُمَصَّرَيْنِ » أي : ثوبين يميل لونهما إلى اللون الأصفر الخفيف الذي نسميه نحن البيج ، فهذا وصفٌ للثوب الذي يلبسه عيسى ﷺ ، وقوله : « فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْـمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ » ـ لم تكن هناك منارة بيضاء على عهد النبي ﷺ ، وهي موجودة الآن في المسجد الدمشقي في سوريا ، وقد جُدِّد بناؤها بالحجارة البيضاء سنة ٧٤١ هـ [٢] بعد قرون طويلة من كلام النبيِّ ﷺ .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

« وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ » يعني : نزل منه ماء « وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ » .

● وانتبه معي لأنك ستقرأ كلامًا خطيرًا جدًّا ؛ روى «البخاريُّ ومسلم » [٣] من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟ » .

○ إخواني : تعالوا نقف بعض الوقت مع هذا الإمام ، لنتعرف عليه ، ثم نعود لعيسى ابن مريم ﷺ ماذا سيفعل ؟

---

(١) « صحيح ابن حبان » (٦٨٢١) ، وصححه الشيخ شعيب على شرط مسلم .

(٢) في عهد الحافظ ابن كثير ؛ كما قال رحمه الله تعالى ـ وغيره من المؤرخين ومن المحققين من علماء الإسلام والمسلمين .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب «نزول عيسى ابن مريم ﷺ» (٣٤٤٩) ، ومسلم كتاب « الإيمان » ، باب « نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ» (٢٤٤/ ١٥٥) .

● قلنا : إن الدجال موجودٌ في الأرض ، والفتنة حالكة ، وقد أنزل الله تبارك وتعالى عيسى ابن مريم ـ عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام ـ وعرفنا ما يرتدي ، وفي أي مكان سينزل ؟ ثم يتوجَّهُ بعد ذلك إلى بيت المقدس في الأرض المقدسة المباركة؛ ـ لأن الملاحم كلَّها ستكون في هذه الأرض في قلب بلاد الشام ـ يتوجه عيسى ابن مريم إلى بيت المقدس للدجَّال ليقتله ، لكنه قبل وصوله للدجال جاءت أحداث خطيرة ؛ **فما هي هذه الأحداث ؟**

● في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ** ـ أي أمير هذه الطائفة الظاهرة على الحق إلى يوم القيامة ، فعندما يرى الأمير نبي الله عيسى يعرفه ـ **فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ : تَعَالَ صَلِّ لَنَا** » فيقول عيسى : « **إِنَّ بَعْضَكُمْ أُمَرَاءُ بَعْضٍ تَكْرِمَةَ اللهِ لِهَذِهِ الأُمَّةَ** » .

أي : كرامة من الله ـ جلَّ وعلا ـ لأمة محمدٍ ﷺ .

○ **من هذا الإمام ، ومن هذا الأمير؟**

● **إخواني** : السنةُ لا يَضْرِبُ بعضها بعضًا ؛ لأنَّ الحق يخرج من مشكاةٍ واحدة ، **فروى الحارثُ بن أبي أسامة في « مسنده »**[(٢)] **بسندٍ صحيحٍ من**

(١) أخرجه مسلم كتاب « الإيمان » ، باب «نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ» (١٥٦) .

(٢) أخرجه الحارث ؛ كما في « المنار المنيف » لابن القيم (٩٤) وقال : « وهذا إسناد جيد » .

حديث جابر بن عبد الله ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « **فَيَقُولُ أَمِيرُهُمُ الْمَهْدِيُّ : تَعَالَ صَلِّ بِنَا ، فَيَقُولُ عِيسَى : لَا ، إِنَّ بِعْضَهُم أَمِيرُ بَعْضٍ ، تَكْرِمَةَ الله لِهَذِهِ الأُمَّةَ** ».

○ **ومن المهديُّ هذا ؟ وما قصَّته وما حكايته ؟**

● قبل أن أتكلَّم عنه أقولُ : هناك من تبع العلاَّمة ابن خلدون ﵀ في قوله : «**ولم يَسْلَم من أحاديث المهديِّ إلا قليل بل الأقل**» ، هكذا قال العلامة ابن خلدون [(١)] ﵀ .

○ **وأنا أقول** : حتى ولو أخذنا بقول ابن خلدون ولم يثبت لنا إلا حديثٌ واحدٌ صحيح لوجب علينا أن نقبله ، وإلا لرددنا على الله أمره ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧] .

● قال إمامُ أهْلِ السنة الإمام أحمد بن حنبل: «لو رددنا حديثًا صحَّ عن رسول الله ﷺ لرددنا على الله أمره : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ » .

لقد تبع العلامة ابن خلدون في ذلك الشيخ محمد عبده ﵀ ، والشيخ محمد رشيد رضا ﵀ .

○ قالوا : أحاديث المهدي أحاديث آحاد . هذا شيءٌ ، الأمر الثاني قالوا : لم تثبت أحاديث المهدي في « الصحيحين » ! هاتان شبهتان عند القوم ؛ أما الردُّ على كلٍّ منهما ؛ فكما يلي :

(١) « تاريخ ابن خلدون » (١/ ٣٢٢) .

● **الشبهة الأولى** : قولهم : إن أحاديث المهدي أحاديث آحاد ، وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في مسائل الاعتقاد !! هذا كلام خطير جدًّا لم يعرفه سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يقل بذلك أحدٌ منهم على الإطلاق ، وإنما هذا أمر حدث عند المتأخرين ، لأنه لم يثبت أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كان أحدهم يقول للآخر إذا نقل إليه حديثاً عن رسول الله ﷺ يقول : لا ، أنا لا أقبل خبرك هذا ؛ لأن خبرك هذا خبر آحاد ؛ فائتني بمجموعةٍ من الصحابة ليشهدوا جميعاً أن الرسول ﷺ قال ذلك !! لم يحدث هذا على الإطلاق .

لقد تغيرت القبلة بخبرٍ واحدٍ ، والحديث في «**صحيح البخاري ومسلم**»[(١)] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « بَيْنَمَا النَّاسُ يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ الْغَدَاةَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ ، وَأُمِرَ أَنْ تُسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةُ ، فَاسْتَقْبَلُوهَا ، وَاسْتَدَارُوا ، فَتَوَجَّهُوا نَحْوَ الْكَعْبَةِ » لم يقولوا : لا نطمئن إلى خبرك هذا ، فخبرك خبر آحاد !!

ألا تعلم ـ أيها الحبيب ـ أن رسول الله ﷺ قد بعث دعاةً ورسلاً له إلى آفاق الأرض وإلى البلاد وإلى الحكام وإلى الملوك ، ولم نسمع على الإطلاق أن واحداً من هؤلاء ردَّ هذا الرسول أو هذا الداعية الذي ورد إليهم من

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الصلاة » باب « ما جاء في القبلة » (٤٠٣) ، وانظر أطرافه ، ومسلم كتاب « المساجد ومواضع الصلاة » باب « تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة » (٥٢٦) .

قَبل نبينا ﷺ بدعوى أن خبره خبر آحاد ، لا ، بل أخذوا بكل ما نقل إليهم عن هذا الرسول من قِبل رسول الله ﷺ سواء في مسائل الأحكام العملية ، أو في مسائل الأحكام الاعتقادية ؛ فلقد أرسل أبا عبيدة بن الجراح إلى أهل نجران ، وأرسل معاذ بن جبل إلى أهل اليمن ، وأرسل مصعب بن عمير إلى أهل المدينة ، وأرسل دحية الكلبي إلى حاكم بُصرى .. إلى غير ذلك ، ولم يثبت على الإطلاق أن هؤلاء ردُّوا خبر الواحد أو خبر الآحاد ؛ فهذه دعوى لا ينبغي أبداً أن نقف أمامها طويلًا ما دامت قد ثبتت صحة الخبر .

وكيف يصح الخبر ؟ ارجع إلى قواعد الجهابذة النقَّاد ، والصيارفة الأثبات الأعلام من علماء الحديث ، لا تحكم على صحة الخبر بعقلك وإلاَّ ـ كما ذكرتُ ـ لضاع الدين ، فأيُّ دينٍ سيُقبل؟ هل الذي يقره ويقبله عقلك ؟ أم الذي يقره ويقبله عقلي أنا ؟ !!

ورضي الله عن عليٍّ حين قال : « لَوْ كَانَ الدِّينُ بِالرَّأْيِ لَكَانَ أَسْفَلَ الخُفِّ أَوْلَى بِالمَسْحِ مِنْ أَعْلَاهُ » [١] .

لكن هناك قواعد وضعها علماء الحديث ، ارجع إليها لتتعرف على صحة الخبر من عدمه ، وتدبر معي قول الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات:٦] ، فلم يأمر الله تبارك وتعالى بالتبين من خبر المؤمن الثقة أبداً ، وإنما أمر بالتبين من خبر الفاسق فقط ،

(١) أخرجه أبو داود كتاب « الطهارة » باب « كيف المسح » (١٦٢-١٦٤) وسبق تخريجه .

وإلا لو كان خبر المؤمن الثقة يحتاج إلى تثبيتٍ وتبيين لَمَا حدد الله تبارك وتعالى الفاسق ، وأمر بالتبين من خبره ، ولجعل التبين مطلقاً ؛ فقال : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم . خبر فتبينوا» !، وإنما لَمَّا قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ دلَّ ذلك على أن خبر الثقة لا ينبغي أن يتبين منه أو أن نردَّه ؛ لأنه خبرٌ واحد أو لأنه خبر آحاد ، هذا باختصارٍ شديدٍ في هذه المسألة حتى تزول الشبه بفضل الله ـ جلَّ وعلا .

● **الشبهة الثانية :** قالوا : أحاديث المهدي لم تثبت في البخاري ومسلم !! وهذه شبهة لا ينبغي أن تُقال ؛ فلقد ذكرت قبل قليل حديثين :

● **الأول :** في « صحيح البخاري » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

● **والثاني :** في « صحيح مسلم » من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

لكن الأحاديث لم تُصرّح باسمه، والسنة يُكَمِّل بعضُها بعضًا ، وإلا فقد قال الإمام البخاريُّ نفسه ـ رحمه الله تعالى ـ عن « صحيحه » [(١)] : « لم أُخرِّج في هذا الكتاب إلا الصحيح وما صحَّ عندي أكثر » .

وفي رواية أخرى عنه قال : « ما أدخلتُ في كتابي الجامع إلا ما صح ، وتركتُ من الصحيح حتى لا يطول » . قال الإسماعيلي : لأنه لو أخرج كلَّ صحيح عنده لجمع في الباب الواحد حديث جماعة من الصحابة ، ولذكر طريق كلِّ واحدٍ منهم إذا صحت ، فيصير كتابًا كبيرًا جدًّا .اهـ .

---

(١) « فتح الباري المقدمة » (٩) ط الريان .

فبذلك نعلم أنه لم تدوَّن كلُّ السنةِ الصحيحة في صحيح البخاري ومسلم . بل هناك مسند الإمام أحمد ، وسنن الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، والدارمي ، وسنن البيهقي ، ومسند البزار و...و... دواوين السنة كثيرة ، ومليئة بآلاف ، بل بعشرات الآلاف من الأحاديث الصحيحة ، فليس معنى أنَّ الحديث ليس في الصحيحين أو أحدهما أنه ليس صحيحًا ، وإنما ينبغي أن نبحث عنه وأن ندقق في صحته من ناحية السند ومن ناحية المتن ، فإن صحَّ الحديث ـ سندًا ومتنًا ـ وجب علينا أن نأخذ به ، وإن لم يكن الحديث في الصحيحين أو في أحدهما ؛ لأن السنة كلَّها لم تُدوَّن بكاملها عند الشيخين .

أرجو الحق سبحانه وتعالى أن أكون قد وُفِّقْتُ في تبيين هذه المسألة ، حتى لا يلتبس الأمر على إخواننا وأخواتنا ، أسأل الله أن يعلمنا ، وأن يفهمنا .

○ ارجع معي إلى هذا الأمير أو إلى الإمام المهدي :

● روى الحارثُ بن أبي أسامة في « مسنده »[1] بسندٍ صحيح من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه ﷺ قال :

« يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ؛ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمُ المَهْدِيُّ : تَعَالَ صَلِّ بِنَا فَيَقُولُ عِيسَى : لَا ، إِنَّ بَعْضَهُمْ أَمِيرُ بَعْضٍ تَكْرِمَةَ اللهِ لِهَذِهِ الأُمَّةَ ».

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » كما في « المنار المنيف » (ص٩٤ ط العاصمة) . وقال ابن القيم: « وهذا إسناد جيد » .

● وفي رواية عند أبي داود بسندٍ صحيح [(١)] من حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ » وفي لفظٍ: « لاَ تَنْقَضِي الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أَبِي » يعني: اسمه محمد بن عبد الله.

● وفي رواية أخرى عند أبي داود ـ أيضًا ـ بسندٍ صحيح [(٢)] من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

« الْـمَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ ».

● بل؛ وقال ﷺ كما في الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » وابن ماجة في « سننه » بسندٍ صحيح [(٣)] من حديث عليٍّ رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « الْـمَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحُهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ » يهيئه الله تبارك وتعالى ليقود الأمة كلَّها في هذه الفتن الحالكة؛ لأن خلافةً راشدةً على منهاج النبوة سوف تعودُ حتماً للأرض بموعود الصادق الذي لا ينطق عن الهوى؛ ألم أقل لك: لا تيأس ولا تقنط، وليس ذلك بالهوى ولا بالأحلام الوردية،

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب «المهدي» (٤٢٨٢)، والترمذي كتاب «الفتن»، باب « ما جاء في المهدي » (٢٢٣٠، ٢٢٣١) وقال: « حسن صحيح »، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع » (٧٢٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب «المهدي» (٤٢٨٤)، وابن ماجه كتاب «الفتن» باب خروج المهدي (٤٠٨٦) والحاكم (٤/ ٥٥٧)، وقال الشيخ الألباني: « وهذا سند جيد رجاله كلُّهم ثقات وله شواهد كثيرة » الضعيفة (٨٠) وصححه في « صحيح الجامع » (٦٧٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٨٤)، وابن ماجه كتاب « الفتن » باب « خروج المهدى » (٤٠٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٣٧١)، و« صحيح الجامع » (٦٧٣٥).

وإنما بالأدلة القرآنية والنبوية .

○ تدبر ماذا قال سيد البشرية ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه **أحمد في « مسنده » وغيره بسندٍ صحيح**[1] من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **تكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ الله أَنْ تكُونَ ، ثُمَّ يَرْفعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفعَهَا** » .

رُفعت النبوة ، ما هي مدة الحكم بعد النبوة وما شكْلُها ؟ وما وصْفُ مراحل الحكم ؟ قال ـ عليه الصلاة والسلام : « **تكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ الله أَنْ تكُونَ ، ثُمَّ يَرْفعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفعَهَا ، ثُمَّ تكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فتكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تكُونَ ، ثُمَّ يَرْفعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفعَهَا ، ثُمَّ تكُونُ مُلْكاً عَاضًا فيَكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَكُونَ ، ثُمَّ يَرْفعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفعَهَا ، ثُمَّ تكُونُ مُلْكاً جَبْرِيَّةً فتكُونُ مَا شَاءَ الله أَنْ تكُونَ ، ثُمَّ يَرْفعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفعَهَا ، ثُمَّ تكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ** » .

أمورٌ تملأُ القلْبَ بالسكينة والطمأنينة والرضا ، لكن بالتوكل لا بالتواكل ، فالذي بشَّرنا بهذا هو الصَّادق الذي بذل وقته وروحه ودمه لنصرة دين الله ـ جلَّ وعلا ـ فإياك أن تفهم الأحاديث فهمًا مقلوبًا على غير مراد رسول الله ﷺ ، فتترك العمل ، وتقول : لا عمل ولا جهد ولا جهاد ولا بذل ! لا ؛ فهذا فهمٌ خاطئ مقلوب ، وإلا فالذي بشرنا بهذا قد

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣) ، والطيالسي في «مسنده» (٤٣٨) ، والبزار كما في « كشف الأستار » (١٥٨٨) ، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٤٩١) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥) .

قال له ربه : ﴿ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ [المدثر:٢] فقام ولم يذق طعم الراحة حتى لقي ربه ـ جلَّ جلاله ـ لابد من الفهم الدقيق ، والوعي العميق لمراد الله ومراد رسول الله صلى الله عليه وآله ومن والاه .

● تدبَّر الحديث الذي رواه الحاكم في « المستدرك » وصححه ووافقه الذهبي [١] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **يَخْرُجُ فِي آخِرِ أُمَّتِي المَهْدِيُّ يَسْقِيْهِ اللهُ الغَيْثَ ، وَتُخْرِجُ الأَرْضُ نَبَاتَهَا ، وَيُعْطِي المَالَ صِحَاحًا ، وَتَكْثُرُ المَاشِيَةُ ، وَتَعْظُمُ الأُمَّةُ ، يَعِيْشُ سَبْعًا أو ثَمَانِيًا** ـ يعني : حِجَجًا » .

○ **أيها الإخوة** : المهديُّ وهو : محمد بن عبد الله من نسل الحسن بن عليٍّ ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فهو العلويُّ الحسنيُّ الفاطميُّ ، يصلحه الله ويهيئه في ليلة ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس :٨٢]

● **قال الحافظ ابن كثير** [٢] : « في زمانه تكون الزروع كثيرة ، والثمار غزيرة ، والدين قائم ، والسلطان قاهر ، والعدو راغم ، والخير في زمنه دائم ، يظهر في مكة ، يبايَعُ عند الكعبة وهو كاره » .

إنَّ هناك كثيرًا من الناس خرج وادَّعى أنه المهدي !! من أجل ذلك

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٥٧ ، ٥٥٨) ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٧١١) .

(٢) « النهاية في الفتن والملاحم » (١/ ٣١) .

أخبرنا الحبيب النبيُّ بعلامةٍ نبويةٍ واضحةٍ إذا ظهرت تلك العلامة علم المؤمنون في الأرض أن الذي خرج في بيت الله الحرام هو المهديُّ .

● روى «البخاريُّ ومسلم» (١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : « عَبِثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي مَنَامِهِ » - أي : نام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي عند عائشة ، فتحرَّك ، وكان قلقًا ، وفيه استيقاظ - « فقالت : يَا رَسُولَ الله ! صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ » - كان ﷺ نائمًا ورأى شيئًا سيقصه علينا ، فما هو ؟ - قال : « **الْعَجَبُ ! إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ** - أي : يتجهون ويقصِدُون - **بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ** - أي : لجأ إلى بيت الله الحرام - **حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ** (٢) **خُسِفَ بِهِمْ** » - هذه هي العلامة - « قالت عائشة : يَا رَسُولَ الله ! إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ ، قَالَ : « **نَعَمْ ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ ، وَالْمَجْبُورُ ، وَابْنُ السَّبِيلِ ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا ، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى ، يَبْعَثُهُمُ الله عَلَى نِيَّاتِهِمْ** » .

كلٌ يبعث على نيته ؛ الذي خرج مع الجيش ليقتل المهدي ، والذي خرج لمصلحة ، والذي خرج لطاعةٍ .

● وفي رواية في « صحيح مسلم » (٣) من حديث أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « البيوع » ، باب ما ذُكر في الأسواق (٢١١٨) ، ومسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة » ، باب « الخسف بالجيش الذي يؤم البيت » (٢٨٨٤) .

(٢) أي : الصحراء .

(٣) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « الخسف بالجيش الذي يؤم البيت» (٢٨٨٣) .

قالت : قال رسول الله ﷺ : « **لَيَؤُمَّنَّ هَـذَا الْبَيْتَ جَيْشٌ يَغْزُونَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ ، يُخْسَفُ بِأَوْسَطِهِمْ ، وَيُنَادِي أَوَّلُهُمْ آخِرَهُمْ ، ثُمَّ يُخْسَفُ بِهِمْ ، فَلاَ يَبْقَى إِلاَّ الشَّرِيدُ الَّذِي يُخْبِرُ عَنْهُمْ** » .

فالنبيُّ ﷺ يصف المسائل في غاية الدقة والوضوح .

○ **والسُّؤال** : كيف نعرفُ أنَّ الذي خَرَج هو المهديُّ ؟ عندما يظهر المهدي ، يخرج إليه جيشٌ .. لماذا ؟ لقتله ، وللقضاء عليه ، فينصر الله المهديَّ نصرًا قدريًّا لا كسب فيه لأحد ، فيخسف الله بهذا الجيش الأَرْض ، فلا يبقى إلا الشريد ؛ قلةٌ قليلةٌ ؛ فيعلم أهْلُ الأرض في الأرض أن هذا الذي خرج هنالك هو المهدي.

وينصر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ المهديَّ والموحدين معه الذين سينطلقون لمبايعته من أنحاء الأرض نَصْراً مؤزرًا بفضلٍ منه تبارك وتعالى .

● روى الإمام «مُسْلِمٌ»[1] من حديث نافع بن عتبة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ، فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ فَارِسَ ، فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ ، فَيَفْتَحُهَا الله ، ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ ، فَيَفْتَحُهُ الله** » .

والحديث يبين أن هذه الملاحم والمعارك الأخيرة قبل الدجال « **ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ فَيَفْتَحُهَا الله** » ثم بعد ذلك الدجال مباشرةً ؛ لأن الدجال إن وُجِد وجد عيسى عليه السلام ، والعلامات ـ كما ذكرتُ « **خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي**

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » باب « ما يكون من فتوحات المسلمين وقتل الدجال » (٢٩٠٠) .

سِلْكٍ فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ يَتْبَعْ بَعْضُهَا بَعْضًا »[(١)] .

ما قضية « ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ » ؟ ولقد فصَّلْتُ ذلك في المقدمة ؛ ففي الحديث الذي رواه «مُسْلِمٌ» [(٢)] من حديث أبي هريرة ﵁ أنه ﷺ قال : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ [(٣)] أَوْ بِدَابِقَ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ » .

فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لاَ وَالله ! لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ أَبَدًا » ـ أي : لا يلهمهم الله التوبة ـ « وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا » ـ وهؤلاء هم الذين سيجعل الله فتح القسطنطينية على أيديهم ؛ كما في « صحيح مسلم » [(٤)] من حديث أبي هريرة ﵁ أنه ﷺ قال : « سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ ؟» قَالُوا : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ الله . قَالَ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَاقَ، فَإِذَا جَاؤُوهَا نَزَلُوا. فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ ، قَالُوا :لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ ، فَيَسْقُطُ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » باب في « فتح القسطنطينية وخروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم » (٢٨٩٧) .

(٣) الأعماق هي قلب بلاد الشام . والروم هم الأوربيون والأمريكيون ؛ فهم من سلالةِ العيص ابن إسحاق بن إبراهيم .

(٤) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء » (٢٩٢٠) .

أَحَدُ جَانِبَيْهَا الَّذِي فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ. فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ ، فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْمَغَانِمَ ، إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ فَقَالَ : إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ ، فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَرْجِعُونَ ». يرجعون ليروا ماذا وقع من أمر الدجال !!

وهنا يقول النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام : « فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا » .

● وفي « صحيح مسلم »(١) عن يُسَيْر بن جابر رضي الله عنه قال : « هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى إِلاَّ ـ أي : صوت مرتفع لا تكاد تسمع الكلام من ارتفاع الصوت ـ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ ، جَاءَتِ السَّاعَةُ ، قَالَ : فَقَعَدَ ، وَكَانَ مُتَّكِئًا ، فَقَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ ، وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا ـ وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّامِ ، فَقَالَ: عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ ، قُلْتُ : الرُّومَ تَعْنِي؟ قَالَ : نَعَمْ . وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ ـ الثلث الأول في الرواية التي ذكرتها آنفاً في صحيح مسلم ـ فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ . حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « إقبال الروم في كثرة القتل عند خروج الدجال » (٢٨٩٩) .

فَيَفِـيءُ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ كُـلٌّ غَـيْرُ غَالِـبٍ ، وَتَفْنـى الشُّـرْطَـةُ ، ثُـمَّ يَشْـتَرِطُ الْـمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً ، فَيَقْتَتِلُونَ . حَتَّـى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْـلُ ، فَيَفِـيءُ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ . كُـلٌّ غَـيْرُ غَالِـبٍ ، وَتَفْنـى الشُّـرْطَـةُ ، ثُـمَّ يَشْتَرِطُ الْـمُسْلِمُونَ شُرْطَـةً لِلْمَـوْتِ ، لاَ تَرْجِـعُ إِلاَّ غَالِبَـةً ، فَيَقْتَتِلُـونَ . حَتَّـى يُمْسُوا . فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ ، كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ . وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ ، نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ ، فَيَجْعَلُ الله الـدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا ، حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنبَاتِهِمْ ، فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا ، فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ ، كَانُوا مِائَةً فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ ؟ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ ؟ فَبَيْنَمَا هُـمْ كَـذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ ، هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ، فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ : إِنَّ الـدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ ، فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ـ أي من الغنائم ـ وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً ـ ليعرفوا الخبر : الدجال هل خرج فعلاً أم لا ؟

● تدبر ماذا يقول النبيُّ ﷺ ـ بأبي هو وأمي وروحي ـ قال :

« **إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ** » .

○ ارجع معي لعيسى ابن مريم عليه السلام وأرجو أن تكون قد استوعبت المسألة حتى تربط الأحداث مع بعضها .

فيتجهون إلى قتال الدجال ؛ كما في رواية « صحيح مسلم »(١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: « فَبَيْنَمَا هُمْ يَصُفُّونَ الصُّفُوفَ » ـ أي لقتال الدجال ـ « إِذْ أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ » ـ وقد صرَّحت بعض الروايات : أنها صلاة الصبح (٢) ـ « فَنَزَلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ » ـ عند المنارة البيضاء ، وأقبل نحو بيت المقدس ، وهؤلاء الأفاضل من أبناء الطائفة المنصورة يعدُّون الصفوف لقتال الدجال ، قال ـ عليه الصلاة والسلام : « ثُمَّ تَغْزُونَ الدَّجَّالَ فَيَفْتَحُهُ اللهُ » لكن الله تبارك وتعالى يقضي ويُقدِّر أن يكون هلاك الدجال على يد نبيِّ الله عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

○ ارجع معي لرواية النواس بن سمعان (٣) ﷺ ، قال ﷺ : « إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ـ أي : ثوبين مُمَصَّرَيْن أو معصفرين ـ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ـ فيتجه نحو بيت المقدس ، فيجد المسلمين يصلُّون الصبح ـ كما ذكرتُ في أول الفصل ـ ويريد أن يقدمه إمام المسلمين أو المهدي كما صرحت بعض الروايات ، فيأبى عيسى ابن مريم ، وهناك رواية في « صحيح مسلم » (٤) : «فَيَؤُمُّهُم

(١) سبق تخريجه .
(٢) عند ابن ماجه كتاب « الفتن » باب « فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم » (٤٠٧٧) .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) انظر : « صحيح مسلم » (٢٨٩٧) بلفظ : « فبينما هم يعدُّون للقتال ، يُسَوُّون الصفوف ، إِذْ أُقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم ﷺ فأمهم » .

عِيسى» ، ولذلك قال بعضُ أهل العلم : «فأمَّكُمْ مِنْكُم» أي : فأمكم بما معكم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ لأن عيسى لا ينزل بشرعٍ جديد ، وإنما ينزل بشرع النبيِّ ﷺ بالإسلام ، فالإسلام هو دين عيسى ودين محمد صلى الله عليهم أجمعين وسلم ودين جميع الأنبياء والمرسلين ، لم يبعث الله نبيًّا من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل إلا بالإسلام من أول نوح إلى محمد ﷺ .

● قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .

● في « صحيح مسلم » [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه : أن رسول الله ﷺ قال : « .. **فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** عليه السلام . **فَأَمَّهُمْ . فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ الله ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُه الله بِيَدِهِ ، فَيرِيهِم دَمَهُ في حَرْبَتِه** » .

● وفي رواية النواس [(٢)] ـ في « صحيح مسلم » ـ حدَّد النبيُّ ﷺ المكان الذي سيقتُلُ فيه عيسى الدجالَ ؛ قال : « **فَيَطْلُبُه حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ** » .

لُدٌّ قريةٌ في فلسطين قريبةٌ من تلِّ أبيب ، أسأل الله أن يفرج كرب

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الفتن » ، باب « في فتح قسطنطينية ، وخروج الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم » (٢٨٩٧) .

(٢) سبق تخريجه .

إخواننا من أهل فلسطين ، فها هو النبيُّ ﷺ يسمِّي أسماءً لم تكن على عهده ، لنعلم يقينًا أنه لا ينطق عن الهوى . قال : « **فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ** » .

● قال ﷺ « **ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ** - أي : من الدجال - **فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ** » .

● وأختم هذا الفصل بهذا الحديث الذي «رواه البخاريُّ ومسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا ، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ** » .

○ **أيها الأفاضل** : لا بد من الاهتمام بالعلم والعمل ، فلا يجوز لنا أن نتواكل ، بل يجب علينا أن نعمل ، والرجولة أن تلقى الله وأنت معتصم بهذا الدين ، وألاَّ تتكل على غيرك على الإطلاق ، ولا ينبغي أن نفهم أحاديث رسول الله ﷺ على غير مُراده ، لابد من الاهتمام بالعلم والعمل ، وتجديد التوبة إلى الله - جلَّ وعلا - وتجديد الإيمان ؛ لا بد من رفع الجهل ؛ لأنه لا يُفتن بالدجال إلا الجهلاء ، ولن ينجوا من فتنة الدجال - بل ومن

(١) أخرجه البخاريُّ « كتاب البيوع » ، باب « قتل الخنزير » (٢٢٢٢) ، ومسلم كتاب « الإيمان » ، « باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ » (١٥٥) .

أي فتنة ـ إلا أهل الإيمان وأهل التوحيد ؛ قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧] .

يا تُرى مَنْ هؤلاء الذين سيخرجون بعد موت الدجال وهلاكه لتصبح فتنةً أخرى ينجي الله ﷻ أهل الإيمان من شرِّها بفضله ثم بفضل دعوة نبيِّ الله عيسى ؟! هذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

أسأل الله ﷻ باسمه الأعظم الذي إن سُئل به أعطى ، وإن دعي به أجاب أن ينجيني وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وأن يختم لي ولكم بخاتمة التوحيد والإيمان ، وأن يُقر أعيننا بنصرة الإسلام والتمكين لأهل الإسلام والإيمان ؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

خروج يأجوج ومأجوج

توقفنا في الفصل السالف مع هذا الحدث المذهل المروع ، مع نبيِّ الله عيسى وهو يقتل المسيح الدَّجَّالَ ، ليخلِّص الأَرْض مِنْ أخطر وأشد فتنة عرفتها الأرض من لدن آدم إلى قيام الساعة وهي فتنة المسيح الدجال ، وينجِّي الله المؤمنين بفضله سبحانه وتعالى ، ثم بفضل نبي الله عيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ الذي سيقتل الدجال ، وقد وصف لنا سيد الرجال ﷺ نزول عيسى ، وبيَّن لنا المكان الذي سينزل فيه ؛ بل وحدَّد لنا نبينا الثوْبَ الذي سينزلُ به نبي الله عيسى من السماء ، ونذكِّر في عجالة بالرواية حتى نشرع في تكملة الأحداث :

● الحديث رواه «مُسْلمٌ»[١] من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه وفيه : أن النبيَّ ﷺ قال :

« يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ المَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ . وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنْهُ » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب «ذكر الدجال وصفته وما معه» (٢٩٣٧) .

أي: من فتنة الدجال، الله أكبر! أقوام نجاهم الله من فتنة الدجال، ولم يُفْتنوا به، أقبلوا على نبي الله عيسى، فيمسح على وجوههم، ويُحدثهم بدرجاتهم في الجنة؛ هل تتصوَّر معي الحديث بهذه الرقَّة، وبهذا الجمال؟!

«فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ، وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ».

أي: انحوا بالمؤمنين الموحدين إلى جبل الطور، على هذه الأرض المباركة المقدسة، وجبل الطور في أرض سيناء، أسأل الله أن يحفظ بلاد المسلمين من كل مكروه وسوء، وقد أخبر الله جلَّ وعلا بأنه أخرج عبادًا له، لا قدرة لأحدٍ في الأرض على قتالهم، ويأمر الله نبيه عيسى أن يحرِّز المؤمنين الموحدين إلى جبل الطور، أي: أخْل الأرض لهذه القوة الجارفة التي خرجت.

مَنْ هؤلاء؟ إنهم يأجوج ومأجوج.

○ **ومَنْ يأجوجُ ومأجوج؟** هذه علامةٌ من العلامات الكبرى؛ كما في «صحيح مسلم»[(1)] من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال للصحابة:

«إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ»، فَذَكَرَ «الدُّخَانَ،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن وأشراط الساعة»، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١).

وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » .

كثيرٌ من الناس لا يعرفون شيئًا عن يأجوج ومأجوج ؟ مع أن الله ذكر هؤلاء الناس في القرآن ؛ فقال الله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦] . فذِكْرُهم ثابتٌ في قرآن الملك القدير ، لكن الأمة انشغلت عن دينها إلا مَنْ رحِم ربي ، أسأَلُ الله أن يشغلنا بطاعته ومراضيه ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وقوله : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي : مِنْ كُلِّ مكان ينزلون ، وينتشرون في الأرض ، يقول ربُّ العزة بَعْدها : ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ ﴾ تدبر هذا الاقتران ، خروج يأجوج ومأجوج قرينةٌ على اقتراب الوعد الحق - أي : على قيام الساعة ، ﴿ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧] . نعم ؛ لأنهم أعرضوا عن القرآن ، وأعرضوا عن كلام الصادق محمد - عليه الصلاة والسلام - كما قال تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ ﴾

[الأنبياء: ١-٣]

لقد انشغل كثيرٌ من الناس عن ما هو آت ، ولم يعد كثيرٌ من الأمة

يعرفون شيئًا لا عن يأجوج ومأجوج ، ولا عن الدجال ، ولا الدابة ، ولا الدخان ، ولا طلوع الشمس إلى آخر ذلك ؛ لأننا ابتعدنا كثيرًا عن منهج ربنا وعن سنة الحبيب نبينا ﷺ ، حتَّى حدَّثني عددٌ غير قليل من إخواني وأخواتي بأنهم يسمعون هذا الكلام لأول مرة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

○ **مَنْ يأجوجُ ومأجُوج ؟! وما قصتهم وخبرهم ؟ انتبه ؛ لأن هذا الموضوع في غاية الخطورة !!**

يأجوج ومأجوج أُمَّتان من الأمم ، وهُمْ من البشر ، والاسمان أعجميان ؛ كما يقول المحققون من علماء اللغة [١] ، مشتقَّان من أجيج النار ، أي : من التهاب النار ، أو من الماء الأجاج ، وهو الماء الشديدُ الملوحة ، الشديد الحرارة ، فهما مشتقان من أجيج النار وحرارة وملوحة الماء لطبيعة هاتين الأمتين الخبيثتين الشريرتين ، فلهما طبيعةُ الإفساد والتخريب ، والتحريق والتدمير في الأرض ، ولو راجعتَ كتب التفسير ، وكتب التاريخ ، ستقف على روايات عجيبة ، وستقرأ أخبارًا غريبة ، وستقف على إسرائيليات شُحنت بها الكتبُ شحنًا في شأن يأجوج ومأجوج ، وأنا أقول : مَنْ يحترم عقله ، وعلمه ، ويحترم التحقيق والدليل ، لا ينبغي البتة أن يشغل نفسه بهذه الأوهام ، والخرافات ، والخزعبلات ، والأساطير ؛ بل

---

(١) انظر : « النهاية » لابن الأثير (١/ ٢٥) مادة : أجج . ط التوعية ، و« لسان العرب » (١/ ٣٠ أجج)

يجب علينا في مثل هذه الأمور الغيبية ، أن لا نتكلَّم فيها كلمةً واحدة إلا بدليل من كتاب الله ، أو بدليل صحيح من كلام الصادق ﷺ ؛ لأنك تتكلَّم عن أمور غيبية ليس فيها مجالٌ للعقل ، ولا للأوهام ، ولا للخرافات ؛ لأنني كلما طالعتُ كتب التفسير والتاريخ ، وجدتُ أخبارًا يندى لها جبين التحقيق العلمي خجلًا وحياءً ؛ فلا يجوز أبدًا لعاقل فضلًا عن عالمٍ يحترم الدليل أن يجري وراء هذه الأساطير ، وإنما يجب علينا فقط أن نستدلَّ على كلامنا بآيةٍ من كتاب ربنا ، أو بحديثٍ لنبينا ﷺ .

فهيا بنا نكتفي فقط بالذي ثبت في القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة بشأن يأجوج ومأجوج ؛ فأقول :

يأجوج ومأجوج هم بعث النار ؛ كما في « **الصحيحين** »[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

«**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ ، فَيَقُولُ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ** ـ سلِّم يا رب ـ فيقول آدم : **وَمَا بَعْثُ النَّارِ ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ** ـ قال النبيُّ ﷺ : **فَذَاكَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ** ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « الرقاق » ، باب « قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] » (٦٥٣٠) ، وانظر : (٣٣٤٨) ، ومسلم كتاب « الإيمان » باب قوله : « يقول الله لآدم : أخرج بعث النار من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين » (٢٢٢) .

قَالَ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ ـ أي : فشقَّ ذلك على أصحاب النبيِّ ﷺ ـ قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ أي : مَنْ سينجو ؟ تدبر ماذا قال الرحمة المهداة والنعمة المسداه ـ صلى الله عليه وعلى آله ومن والاه ، قال : « **أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلفًا ، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ** » اللهم لك الحمد أن شرفتنا بالتوحيد ، ونسبتنا إلى محرر العبيد ، فجعلتنا من خير أمة أخرجت للناس ، ما أجمل كرامة التوحيد وفضل التوحيد ؛ بل كرامةَ أمة المصطفى ﷺ .

كلامٌ في غاية الأهمية ، حتى ترفع رأسْك ـ الآن ـ في زمنٍ هُزم فيه كثيرٌ من المسلمين ، هزيمةً نفسيةً نكراء ، في الوقت الذي تَفْخَر فيه كلُّ أمم الأرض بتاريخها وببطولاتها ، ورجالها وأمجادها .

○ وأنا أقول : إن أحقَّ أمم الأرض بهذا الاعتزاز والفخار ، بل بجدارة واقتدار هي أمة نبينا المختار ﷺ ؛ تلك الأمة التي شهد لها ربُّها ﷻ بقوله : ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] ، وستظلُّ أمةُ المصطفى ﷺ خير أمة أخرجت للناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

○ ارجع ـ معي ـ للحديث ، يقول النبيُّ ﷺ : « **أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلفًا ، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ** » يعني : تسعمائة وتسعة وتسعون من يأجوج ومأجوج إلى جهنم ـ عياذًا بالله ـ ومنكم واحدٌ ، ثم قال الحبيبُ ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » ونقف مع هذه قليلًا ؛ لأن أمة النبيِّ ﷺ قبلها تسعة وستون أمة أفضلها أمة محمد ﷺ !.

● روى أحمد في « مسنده » والترمذيُّ وابن ماجه في « سننيهما » وعبد بن حميد في «المنتخب» بسندٍ حسن [(١)] من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبيَّ ﷺ قال :

« أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»

اللهم لك الحمد .

وممـا زادني فخـرًا وتيهًـا وكـدْتُ بـأخمصي أطـأ الثريـا

دخولي تحْـتَ قولـك يـا عبادي وأن صـيَّرتَ أحْمَـد لي نبيـا

● قال ﷻ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] .

○أيها الموحِّدُ لله ، المتبعُ لرسول الله ﷺ ، ارفع رأسك لتعانق كواكب الجوزاء ، وقُمْ ودثِّر العالم كلَّه ببردتك ذات العبق المحمديِّ الطاهر ، وأسْمِعْهُ خفقان قلبك الذي وحَّد الله ـ جلَّ وعلا ـ واعلم بأنك أشرفُ إنسانٍ على وَجْهِ الأرض بتوحيدك لرب السماء والأرض ، وبإيمانك بخَيْر خَلْق الله في الأرض محمد بن عبد الله ﷺ ، يا لها من كرامة ! ويا له من شرف !! أسأل الله أن يرقينا إلى مستوى هذا الشرف ، وإلى مستوى هذا

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧) (٥/ ٣) ، وعبد بن حميد (٤٠٩ ، ٤١١) ، والترمذي كتاب « تفسير القرآن » باب « ومن سورة آل عمران » (٣٠٠١) ، وقال : « حديث حسن » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٧) (٤٢٨٨) ، والدارمي (٢٧٦٠) ، وحسَّنه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي وابن ماجه » .

الانتساب لمحمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وعلى آله ومن والاه .

● يقول النبيُّ ﷺ : « **وَإِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا ـ يعني : كبر الصحابة ؛ فقال ﷺ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا ؛ فقال المصطفى ﷺ في الثالثة : «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ** ـ أي : نصف ـ **أَهْلِ الْجَنَّةِ ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ** ».

أقول لكم: إن النبي ﷺ بيَّن أن الأمة نصف أهل الجنة ، وهي الأمة المتممة لسبعين أمة ، حتى تتعرف على تلك الكرامة والمكانة لأمة الحبيب ﷺ .

● **وفي « صحيح مسلم »** (١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قرأ يومًا قول الله في إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، وقرأ قول الله في عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ، **فَرَفَعَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ:**

« **اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي** » وَبَكَى؛ **فَقَالَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ**

(١) أخرجه مسلم كتاب « الإيمان » باب « دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم » (٢٠٢) .

وَالسَّلاَمُ ـ فَسَأَلَهُ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ ، وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ الله : يَا جِبْرِيلُ ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ » .

فهذه أشرف أمة ، وخير أمة ، وأكرم أمة ، قد يسأل أحد إخواننا : هل هذه الخيرية موجودة إلى الآن ؟! نعم ، حتى في مرحلة الضَّعْف التي تمر بها الأمة الآن ؟ نعم أعي الواقع تمامًا بفضل الله ـ جلَّ وعلا ـ إذا أردت أن تعرف كرامة الأمة ، فانظر إلى أمم الأرض ؛ لتعلم يقينًا أنه لا يوجد الآن على وَجْه الأرض أمةٌ توحِّد رب السماء والأرض إلا أمة المصطفى ﷺ .

● قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] .

○ عودًا على بدء ، أقول : وحتى تستوعب الطبيعة الشريرة الخبيثة لهاتين الأمتين ليأجوج ومأجوج ، أرجوا أن تستذكر وتسترجع معي سريعًا هذا الحوار القرآنيَّ الجميل بين هذا الملك العادل المؤمن الموحد ذي القرنين ، وبين أمة من الأمم المستضعفة التي ذاقت سوء العذاب على أيدي يأجوج ومأجوج ـ تدبر قول الله ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٣-٨٥] .

ولسنا في حاجة على الإطلاق أن نلهث وراء الأوهام والخيالات

والإسرائيليات التي سيقت بشأن ذي القرنين في كتب التفسير أو كتب التأريخ ، وما ذكره القرآن فيه الغِنَى ، إذ لَوْ عَلِم الله ـ جلَّ وعلا ـ أن الزيادة على ما ورد في القرآن سينتفع بها المؤمنون لذكر لنا ذلك ؛ لذا فلنقتصر ولنكتفِ بما ثبت في القرآن ، وبما ثبت في سنة النبيِّ ﷺ ؛ هذا هو التحقيق والتقدير للدليل وللعقل في آنٍ .

○ **مَنْ ذو القرنين ؟**

● هو رجلٌ ملكٌ ، عادل ، وليس هو الإسكندر المقدوني كما تقول بعض التفاسير ، وإن كان الإسكندر المقدوني فعلًا يلقب بذي القرنين ، لكنه يختلف عن ذي القرنين الذي ذكر الله قصته في القرآن ؛ لأن الإسكندر المقدوني المصري كان كافرًا ؛ أما ذو القرنين الذي ذكر الله قصته في القرآن ، فهو ملكٌ مؤمنٌ موحَّدٌ عادل .

○ **يقول الحافظ ابن كثير** [1] : « كان ذو القرنين الملقب بالإسكندر المقدوني المصري بعد ذي القرنين المذكور في القرآن بدهر طويل كان قبل المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة » .

فلنقتصر على ما ذكر في كتاب ربنا ـ جلَّ وعلا ، وسنة نبينا ﷺ ؛ قال الله ﷻ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي : يسأل المشركون النبيَّ ﷺ ﴿ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ ﴾ ، وقل هنا التلقينية التي تؤكد أن قصة ذي القرنين ليست من عند

---

(١) « البداية والنهاية » (٢/ ٩٧) و« التفسير » الكهف آية (٨٣) .

رسول الله ﷺ ، إنما هي وحي من عند الله تبارك وتعالى ، ونبينا ﷺ فقط ينقل هذا الوحي للأمة ؛ بل وللبشرية كلِّها عن ربنا ـ جلَّ جلاله ـ ؛ فالله يقول له : ﴿ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ ومِنْ هنا هي التبعيضية أي : لم يأت النبيُّ ﷺ بكل التفصيلات عن ذي القرنين ؛ فليس المراد أن نعرف اسمه وشكْله ؟ ليس هذا مرادًا للنص القرآني على الإطلاق ، وإنما المراد فقط أن نأخذ العبرة والعظة من هذا الحوار البديع ، ومن هذا القصص الحق ؛ قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾

[الكهف: ٨٣ ، ٨٤]

وهنا نقفُ مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فالتمكين من الله سبحانه ، لا يسود حاكم ، ولا يزول حاكم ، ولا تسود دولةٌ ، ولا تزول دولة إلا بأمر مالك المُلْك ، وملك الملوك ، وأَحْكم الحاكمين ، ورب العالمين ، لا تعتقد أن هناك حاكمًا يظهر في زمن من الأزمنة بعيدًا عن قَدَر الله ؛ قد يبرز ويسود حاكمٌ من الحكام لا لشيء فيه هو ، لا لقُدْرَةٍ ذاتية فيه ، وإنما لقَدَرٍ يريدُه ربُّ العالمين جلَّ جلاله .

تدبر القاعدة البيانية التي تؤصل هذه القاعدة الإيمانية التي يجب أن تُرَسَّخ في القلوب ؛ قال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ

إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فلابد أن ترسخ هذه العقيدة في قلوبنا ، وكلُّ شيء في الكون لا يقع إلا بتقدير الله وحكمته ، فإن غابت عنا الحكمة ، فهي لا تغيب عن أحكم الحاكمين ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩].

فذو القرنين مكَّن الله له : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف:٨٤] آتاه الله أسباب القوة والنصر والتمكين والفتح ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ، أي : أخذ هذا الحاكم العادل الموحد بأسباب القوة والنصر والتمكين ، ولم يفرط في الأخذ بالأسباب ، لقد آتاه الله الأسباب فاعتنى بها وقدَّرها ، وأخذ بها ، وحوَّلَها في دنياه ، وفي واقعهِ إلى واقع عملي ، وإلى منهج حياة ؛ فكان أخذه بأسباب الفتح سببًا من أسباب تمكين الله ﷻ له في الأرض .

وأنا لا أستطيع أن أقف مع كل كلمات القصة ؛ لأن هذا يحتاج إلى وقتٍ طويل جدًّا ، لكنني أوجز الحديث في ذلك ؛ فأقول : بدأ القرآن يقصُّ علينا ثلاث رحلاتٍ لذي القرنين :

- الرِّحْلة الأولى : اتجه نحو مغرب الشمس ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف:٨٦] . إلى آخر الآيات .
- الرِّحْلة الثانية : اتجه إلى الناحية الأخرى ناحية المشرق ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس .

● **والرحلة الثالثة هي** : التي ترتبط بموضوع يأجوج ومأجوج والتي كانت ناحية الشمال ؛ قال ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ﴾

[الكهف:٩٣]

أي : بين جبلين عظيمين . وهنا أقول : لا يستطيع أحدٌ أن يجزم وأن يقطع بمكان السدين ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴾ [الكهف: ٩٣] وجد قومًا بعد هذين السدين لا يعرفون لغة ذي القرنين ولا من معه ، فهم قوم منغلقون على أنفسهم ، لا يستطيعون أن يردوا عن أنفسهم أذى وشر يأجوج ومأجوج .. لماذا ؟ تدبر ماذا قال هؤلاء لذي القرنين ، لذلكم الملك العادل الفاتح ، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا ﴾ [الكهف:٩٤] أي: هل نخصص لك مالًا بالقدر الذي تريد ، وبالكمِّ الذي تشاء ـ ﴿ عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا ﴾ ، حتَّى لا يتعدَّى علينا هؤلاء المفسدون الأشرار فلما عرض هؤلاء الأقوام المستضعفون مالًا على ذي القرنين ليبني لهم سدًّا ليحول بينهم وبين يأجوج ومأجوج المفسدين ، فردَّ عليهم ذو القرنين ذلكم الملك العادل القنوع : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٌ ﴾ [الكهف:٩٥] ، أي: ما أعطاني الله ـ عزَّ وجل ـ من أسباب القوة والتمكين خيرٌ مما أنتم فيه ، وأفضلُ مما تعرضون عليَّ من المال ، لكنه كان رجلًا

عبقريًّا ، وكان إمامًا وحاكمًا فذًّا ، أراد أن يوظف هؤلاء ، وأن يجعل منهم طاقة منتجة ؛ فقال لهم ذو القرنين : ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف: ٩٥]

أي :أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج رَدْمًا ، أي : سدًّا منيعًا ، كأنه قال لهم بلغة العصر : التخطيط الهندسي ، والهندسة الإنشائية والمعمارية ، وتمويل هذا المشروع الضخم عندي ، وأنا متكفل بهذا ، لكن نحتاج منكم الأيدي العاملة ، ﴿ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ ﴾ أمدوني بالأيدي العاملة ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ وبدأت المرحلة الأولى من مراحل هذا المشروع الضخم ، فماذا قال ؟ قال : ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ أي : قطع الحديد ، فطلب من هؤلاء الأقوام أن يحضروا له قطع الحديد بكميات كبيرة ، فأحضروا له بالفعل كمياتٍ كبيرة جدًّا من الحديد ، وأمرهم أن يضعوا الحديد بين هذين السدين ، وبين هذين الجبلين العظيمين ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ ﴾ أي: أصبح الحديد مساويًا لقمة هذين الجبلين ، أو هذين السدَّيْن . هذه المرحلة الأولى .

● المرحلة الثانية : أمرهم بـأَنْ يوقِـدُوا نـارًا تحْتَ هـذا الحديـد ، تصـوَّر حَجْم هذه النار المتأججة تحت هذه الأطنان الهائلة من الحديد حتى ينصهر هذا الحديد بين هذين الجبلين ؛ فانصهر الحديد !!

● ثم تبدأ المرحلة الثالثة ـ من مراحل المشروع : أمر بأن يحضروا له

نحاسًا مذابًا ، وأمر بصبِّ النحاس على الحديد ، فتخلل هذا النحاس مع الحديد ، وأصبح سدًّا قويًّا منيعًا ، وبذلك يكون ذو القرنين قد سَبق الهندسة المعاصرة ، وعلماء الهندسة المعاصرة في استعمال الحديد مع النحاس لزيادة الصلابة والقوة ، والشدة ، والمتانة ، وبنى هذا السدَّ المنيع بين هؤلاء الأقوام المستضعفين ، وبين يأجوج ومأجوج المفسدين : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴾ [الكهف: ٩٦] ، أي : نحاسًا مذابًا ، تدبر ماذا حدث ؟ ظهر يأجوج ومأجوج ، وأرادوا أن يخرجوا ليجتاحوا اجتياحهم المعهود المعروف في هذه الأمم ، فوجدوا هذا السدَّ المنيع الذي حال بينهم وبين ما يشتهون !!تَدَبَّرْ قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ [الكهف:٩٧] ، قوله: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ ﴾ حذفت التاء ، ثم أثبتت التاء في الكلمة الثانية وهي : ﴿ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ ، انظر إلى حلاوة القرآن وجماله ، وإلى السعادة التي يشعر بها من يتدبر القرآن ، فلماذا حذفت التاء في الكلمة الأولى ؟ يقول علماء اللغة : هي تاء الخفة ، فحذفت التاء للتخفيف ، لتتماشى مع هذا السياق القرآني ؛ لأن التسلُّقَ على هذا السور يحتاج إلى خِفَّة ، وكأنك تستشعر وأنت تقرأ هذه الكلمة أن عينك ترى فعلًا يأجوج ومأجوج ، وهم يتسلقون على هذا السَدِّ ، لكنهم يفشلون المرة بعد الأخرى ، ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴾ والتاء هنا

هي تاء الثقل ، أو تاء التشديد ، فقد أثبتت في المرة الثانية ؛ لأن النقب والخرق يحتاج آلات ، ويحتاج إلى رجال ، وجهد ، وعرق ، ووقت ، وصبر ، فأثبتت التاء في الكلمة الثانية ؛ لأنها تتناسب مع الثقب الذي يحتاج إلى جهد وإلى وقت ، وحَذَف التاء من الكلمة الأولى ، لأنها تتناسب مع التسلُّق الذي يتطلب خِفَّةً معينة ، لكنهم يفشلون في هذه وتلك ، حتى يأذن الله ـ عزَّ وجل ـ لهم في الخروج .

حينما رأى ذو القرنين هذا السدَّ المنيع الذي عجز يأجوجُ ومأجوج عن تسلُّقه أو عن نقبه حتى يُثبتَ حقيقةً إيمانية عالية ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ [الكهف:٩٨]

انظر إلى القائد الفذ الذي وظَّف الطاقات توظيفًا بديعًا ، وهذه سماتُ القيادة الفذَّة ، واستغل طاقات القوم استغلالًا عاليًا ، وما أحوج الأمة إلى هذا الفهم الآن ، في كلِّ مَنْ يقودُ في أيِّ موقعٍ كان ، وفي أي مسؤولية كان ؛ فما أكثر الطاقات في الأمة ، وما أعظم الشباب الذي يودُّ أن يبذل أي شيء ، لكنه يسأل فقط كيف السبيل ؟ وأين الطريق ؟ فما أحوج الأمة إلى سمات هذه القيادة الفذة ، في كلِّ مجالٍ من مجالات هذه الحياة ، وفي كلِّ مكان من أماكن المسؤولية ، لم يتملكه العجب والكبر والغرور ، ولم تُسْكِرْهُ نشوة هذا التمكين ، وإنما ﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ﴾ ، وعلى النقيض تذكروا ماذا قال قارون؟ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٨٧] ، لكن هذا الرجل يبرز عقيدة التوحيد من آلاف السنين في أن هذا السدَّ ما أقيم إلا

بأمر الله ، وسيُدَكُّ بالأرض دكًا ليخرج يأجوج ومأجوج في الوقت الذي يقدره الله ـ جلَّ وعلا .

قال ذو القرنين : ﴿ قَالَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [الكهف: ٩٨] ، وهذه قوة إيمان منه ، بخروج يأجوج ومأجوج كعلامةٍ من علامات الساعة ، وكحدثٍ من أحداث النهاية .

● وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]. كيف سيخرجون ؟ يصف النبيُّ ﷺ خروج القوم وصفًا دقيقًا ، فالسد موجود ، وأول فتح في السد بدأ في عهد النبيِّ ﷺ ، ما الدليل ؟

● الدليل ما رواه «البخاريُّ ومسلم»(١) من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت : دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فَزِعًا ـ وفي رواية : اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وَجْهُهُ يَقُولُ:

« لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا ـ تخيل أنت هذه الدائرة أو الحلقة.. فهي قَدْرُ الفتح مِنْ رَدْمِ يأجوج ومأجوج في عهد النبيِّ ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب « أحاديث الأنبياء » باب « قصة يأجوج ومأجوج » (٣٣٤٦) ، وانظر : أطرافه ، ومسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب « اقتراب الفتن ، وفتح ردم يأجوج ومأجوج » (٢٨٨٠) .

قَالَتْ زَيْنَبُ: يَا رَسُولَ الله ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : « **نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ** » .

وأنا أقول : لقد كثر الخبث !!

● وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وابن ماجه وصحيح ابن حبان وغيرهم(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« **إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً ، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ ، وَأَرَادَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ : ارْجِعُوا ، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً إِنْ شَاءَ الله ، وَيَسْتَثْنِي** ـ يعني : يعلق الأمر على المشيئة ـ **فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ** » يعني : لا يعيد الله ﷻ هذا المكان الذي حفروه ، بل يرونه كما تركوه على هيئته ، فيحفرون فيخرجون من كل حدب ينسلون .

● وفي رواية النواس بن سمعان ﷺ ـ في « **صحيح مسلم** »(٢) :

« **وَيَبْعَثُ الله يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥١٠-٥١١) ، والترمذي كتاب «تفسير القرآن» باب ومن سورة الكهف (٣١٥٣) ، وقال: «حسن غريب» ، وابن ماجه كتاب «الفتن» باب «فتنة الدجال وخروج عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج» (٤٠٨٠) ، والحاكم (٤/ ٤٨٨) ، وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (٦٨٢٩) ، وصححه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٧٣٥) .

(٢) سبق ، وهو في مسلم (٢٩٣٧) .

أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ » .

○ ارجع إلى رواية أحمد والترمذي التي سبقت ؛ يقول النبيُّ ﷺ :

« **وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ ، فَيَقُولُونَ : قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ** » !!

○ وفي الرواية التي ذكرتها عند أحمد ، وأصحاب السنن : «**وَيَفِرُّ النَّاسُ مِنْهُمْ**» وفي لفظٍ : « **وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ** » لا يستطيع أحدُ أن يواجههم ولا يقاتلهم ، ولا حتى نبي الله عيسى ؛ فقال عزَّ وجلَّ لنبيه عيسى : « **إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي ، لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ** - أي : لا قدرة لأحدٍ على قتالهم - **فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ** » (١) فيلجأ نبيُّ الله عيسى ، وأصحابه من الموحدين إلى جبل الطور ، ويترك الناسُ الشوارع والطرقات إلى يأجوج ومأجوج ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[الأنبياء] أي : ينتشرون في الأرض .

تدبر ماذا قالوا ؟ انظر إلى فُجْرهم وكفرهم ، يقولون ـ كما في رواية مسلم (٢) : «**لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» قال النبيُّ ﷺ : «**فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ**» أي : سهامهم ونبالهم إلى السماء ، وكأنهم يقاتلون

---

(١) هذا لفظ « مسلم » .

(٢) انظر : التخريج السابق .

أهل السماء ، « **فَيَرُدُّ الله عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا** »(١) ليزدادوا فتنة ، يعني : تنزل إليهم النشاب ، وهي : النبال مخضَّبةً بالدماء ، فيتصوَّرون ويعتقدون أنهم قتلوا أهل السماء ، كما قتلوا أهل الأرض ، فيقولون قولتهم الخبيثة : « **قَهَرْنَا أَهْلَ الأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ** » ! ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فتنة .. لكن ما الحل؟! وما العمل ؟! « **فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ** » أي : من الموحدين من أبناء الطائفة المنصورة من أمة سيد النبيين ﷺ ـ فيتضرع نبي الله عيسى إلى الله ، ويتضرع إلى الله معه الموحدون من أمة محمد ﷺ ، أن يخلص الله الأرض من شرِّ يأجوج ومأجوج ، ومن هذه الفتنة الحالكة الأخرى ، فيستجيب الله ـ جلَّ وعلا ـ دعاء نبيِّ الله عيسى ، ودعاء الموحدين معه . « **فَيُرْسِلُ الله عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِم** » أي : يرسل على يأجوج ومأجوج النغف ، والنغف : دودةٌ صغيرةٌ تخرج في أنف البعير ، يا الله ! ألم يقولوا : قَهْرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، لكن انظر بماذا يهلكهم ربُّ الأرض والسماء ، « **فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى** ـ أي : قتلى ـ **كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** » سبحان الملك ! ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] .

« **ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ**

---

(١) أخرجه مسلم (١١١/ ٢٩٣٧) .

مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ » لحومٌ ضخمةٌ جدًّا ، وأجسام كبيرةٌ ، لا يستطيع أحدٌ أن يشمَّ هذه الرائحة النتنة التي ملئت بها الأرض « فَيَرْغَبُ نَبِيُّ الله عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الله » ـ أي من الموحدين من أمة محمد ﷺ ويتضرعون إلى الله ﷻ بالدعاء أن يطهِّر الأرْضَ من زهمهم ونتنهم ، « فَيُرْسِلُ الله طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ » وهو : نوعٌ من أنواع الجمال الخراسانية ، تمتاز بطول الأعناق ، قال : « فَتَحْمِلُهُمْ فَتطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ الله ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ ـ يرسل الله مطرًا غزيرًا على الأرض ـ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ـ أي : كالمرآة الصافية الشديدة الصفاء والبياض ـ وفي اللفظ السابق عند أحمد والترمذي والحاكم : « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ » ارجع إلى لفظ مسلم « ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ » إنها أسعد فترةٍ تمرُّ على الأرض من يوم أن خلقها الله إلى قيام الساعة .

● وفي الحديث الذي رواه الديلمي والضياء المقدسي بسنِد صحيح (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ المَسِيحِ ، طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ المَسِيحِ ، يُؤْذَنُ لِلسَّمَاءِ فِي الْقَطْرِ ، وَيُؤْذَنُ لِلأَرْضِ فِي النَّبَاتِ ،

---

(١) أخرجه الديلمي (٢/ ١٦١) ، والضياء في «المنتقى» (١٢٧/ ١-٢) ، وأبو بكر الأنباري في حديثه (ج١ ورقة ٦/ ١-٢) كما في « الصحيحة » (١٩٢٦) ، وصححه الألباني هناك ، ورواه الحافظ أبو سعيد النقاش الحنبلي في «فوائد العراقيين» (٢٨) .

حَتى لَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصَّفَا لَنبَتَ» أي : على الحجر الأملس ، إنه زمن البركات ، وزمن الرحمات .

ثم قال : « وَلاَ تَشَاحَّ وَلاَ تَحَاسُدَ وَلاَ تَبَاغُضَ » .

● وفي رواية في مسند أحمد وابن حبان والطيالسي [(١)] وغيرهم وصححها شيخنا الألباني رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ - أي : في عهد عيسى - الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلاَّ الإِسْلاَمَ ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ وَتَقَعُ الأَمَنَةُ عَلَى الأَرْضِ ، حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ ، وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لاَ تَضُرُّهُمْ ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ » .

لذا تمنى النبيُّ ﷺ العَيْشَ في زمنِ المسيح صلى الله وسلم عليه وعلى المسيح ؛ ففي « مسند أحمد » [(٢)] بِسندٍ صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنِّي لأَرْجُو إِنْ طَالَ بِي عُمرٌ أَنْ أَلْقَى عِيسَى ابنَ مَرْيَم عليه السلام ، فإِنْ عَجِلَ بِي الْمَوتُ ، فَمَنْ لَقِيه مِنْكُمْ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلامَ » .

○ وهكذا - أيها الأفاضل - ينجي الله تبارك وتعالى الموحدين في الأرض

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٦ ، ٤٣٧) ، وأبو داود (٤٣٢٤) ، وابن حبان (٦٨١٤ ، ٦٨٢١) ، والطيالسي في «مسنده» (٢٥٧٥) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٥٢٦) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢١٨٢) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٨) ، وهو حديث صحيح ، وصححه الشيخ الأرناؤوط على شرط الشيخين .

من فتنة المسيح الدجال ، ومن فتنة يأجوج ومأجوج .

وهنا تنعم الأرض ، وتعيش حالةً لم تعشها في تاريخها كلِّه ، ينزل الله البركة من السماء ، ويخرج الله البركة من الأرض ، وتطهر القلوب من الشحناء، والتباغض ، والتحاسد ، وتنزل الأمنة في الأرض بفضل الله تبارك وتعالى ، « **فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ** »[1] أي : يرسل الله ﷻ ريحًا باردة ، فتقبض بفضله وتقديره أرواح المؤمنين على وَجْه الأرض ، ولا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة ، فهم الذين يشهدون الخسوف التي سأتحدث عنها بالتفصيل إن شاء الله ـ جلَّ وعلا .

○**أيها الأفاضل** : وأختم الفصل بهذا الحديث الجميل ، لأبشركم أيها الموحدون ـ اللاحقون ـ بالسابقين من أصحاب سيد النبيين ؛ كما في «**صحيح مسلم**»[2] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ ، فَقَالَ : « **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا** » ، قَالُوا : أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ** » ، فَقَالُوا : كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله ؟ فَقَالَ : « **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ**

---

(١) هذه رواية «مسلم» .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الطهارة» باب «استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء » (٢٤٩) .

مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلاَ يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟ » قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : « فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ » .

اللهم اجز عنا نبينا خيرًا ، واجمعنا به في الفردوس الأعلى ، أنت وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

طلوع الشمس من المغرب ، والدابة ، والخسوف

بعد مرحلةٍ فذةٍ تمرُّ في تاريخ الأرض كلِّها ، وينعم الناس نعيمًا لم يعهد ، وفى ليلةٍ من ليالي هذه الأيام الكريمة المباركة يقدِّرُها ربنا تبارك وتعالى ينامُ الناسُ ، وفى وقتِ صلاة الصبح يعودون ، ولازال الليل مخيمًا بظلامه ، لأن المعتاد أن نصلي ، ثم يخرج المصلون من المساجد ، ويبدأ الفجر الصادق أو الضوء الذي يملأ الأفق ، ويبدأ الصباح يظهر بضيائه ونوره ، ودخل وقت صلاة الظهر ، ولازال الليل مخيمًا بظلامه ؛ سوادٌ حالك ، وظلامٌ دامس .. يا رب سلّم !! ثم دخل وقت العصر ، ولازال الليل مخيمًا بظلامه ، ويشهد أهْلُ الأرض في الأرض كلها آيةً عجيبة من علامات الساعة الكبرى ، تلك الآية التي تُؤْذِنُ بتغير أحوالِ العالم العلوي كلِّه ؛ ألا وهى : «**طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا**» .

يجدُ أهل الأرض الشمس تطلُعُ من مغربها ! إنها آية عجيبة .. تخيل معي بقلبك وعقلك وكيانك كلِّه ـ الشمسُ مِنْ يوم أن خلق الله الكون لا تتخلَّف ، فهي تطلع من المشرق ، وتغرب من المغرب ؛ بل بحسبانٍ وبحسابٍ دقيق قال سبحانه : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ

يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨ـ ٤٠].

فالشمس آية عجيبةٌ تستنطق الفطرة السوية ، والعقول النقية ، والقلوب التقية ، ليوحِّدَ هؤلاء خالقَ الشمس ربَّ البرية ـ جلَّ وعلا ـ لكنْ إِلْفُ العادة أنسانا كثيرًا من آيات الله في الكون ، لم نعُدْ نلتفت إلى هذه الآية ، فالشمس تُشرق من المشرق ، وتغرب من المغرب ، حتى أصبح الأمر عاديًّا عند كثيرٍ منَّا ؛ لكنك لو تدبرت وتفكَّرت لوحَّدت خالق السماء والأرض ؛ وعظَّمت خالق الشمس سبحانه وتعالى ، الشمس لا تتخلف عن مدارها ؛ بل لقد قال علماء متخصصون في أكاديمية العلوم بنيويورك في أمريكا قالوا : بعد حساباتٍ علميةٍ دقيقة ، وجدنا أن نظام الشمس والقمر قد وُضِعَ في الكون بحسبان ، قالوا : لو أن الشمس تركت مدارها إلى أعلى قليلاً ، لتجمَّد كل حيٍّ على ظهر الأرض ، ولو تركت الشمس مدارها التي تسير فيه ونزلت إلى الأرض قليلاً قدر عُقْلة أصبع أو سنتيمتر أو اثنين سنتيمتر أو ثلاثة سنتيمتر لاحترق كل حيٍّ على ظهر الأرض.

● قال تعالى : ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥].

○ ماذا سيحدث في الوقت المعلوم والأجل الذي حدَّده خالق الشمس سبحانه وتعالى ؟ يُفاجأ الناس كلُّهم في الأرض بطلوع الشمس من مغربها، باختلالِ حركة الكَوْن اختلالًا كاملًا وبتغيير في العالم العلوي ، بل والأرضي ، تغييرًا جذريًّا .

تدبر كلام النبيِّ ﷺ ـ كما في « الصحيحين »[(١)] واللفظ لمسلم ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟** » قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ؛ قَالَ ﷺ : **إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً** » كلامٌ يملأ القلْبَ بالهيبة والجلال ، ومع ذلك يملأ قلوب المشككين شكًّا ، ويملأ قلوب المنكرين إنكارًا !!

○ **وأقول لك** : اقرأ القرآن أيها المسلم ، فإن مشكلتنا أننا ابتعدنا كثيرًا عن القرآن ؛ فلقد أخبرنا ربُّ العزة في قرآنه المبارك بأن الشمس تسجد ، فماذا قال ؟ قال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعدُدْ معي ؛ فلقد فصَّل بعد أن أجمل ؛ فقال : ﴿ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

[الحج:١٨]

● وقال ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد:١٥] ظلُّ المؤمن يسجد طوعًا ، وظل الكافر يسجد كرهًا ؛ فما من شيء في الكون إلا يسجد لله إلا من كفر من الإنس والجن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

● وقال سبحانه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب « صفة الشمس والقمر » (٣١٩٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب « الإيمان » باب «بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان» (١٥٩) .

مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

أريد منك أن تستوعب معي قوله في هذه الآية : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

هل تعلم أن الثوب الذي ترتديه يسبح ، وهذا الحجر والشجر يسبح ، وكلُّ شيء في هذا الكون من حولك يسبح الله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

انتبه : كان السياق يقتضي أن يختم بـ : إنه كان سميعًا بصيرًا ؛ يسمع من يسبح ، ويرى من يسبح ، لكن السياق يُختم بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء] لماذا؟ إنه كان حليمًا بكم إذ حجب عنكم تسبيح الكون من حولكم ، حلمٌ منه سبحانه ، وإلاَّ ــ ورب الكعبة ــ لو كشف الله لنا تسبيح الكائنات والمخلوقات من حولنا لطاشت عقولنا ، نتصور لو أَنَّ الله ﷻ أذن في أن يُسمعنا تسبيح الكون ! تسمع الثوب يسبح ، والطعام يسبح ، والسيارة تسبح ، والشجرة تسبح ! لا يمكن أن يتحمله العقل فهذا قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا ﴾ ، أما قوله ﴿ غَفُورًا ﴾ أي : لغفلتكم عن تسبيحه ــ جلَّ وعلا ، مع أنه كرَّمكم وفضَّلكُمْ على كلِّ شيء في كونه ، ومع ذلك لا يغفل الكون عن تسبيحه في الوقت الذي يغفل فيه كثيرٌ من بني الإنس والجن ومن كفر أيضًا من الإنس الجن .

فالشمس تسجد ، لكن ما هي كيفية السجود ؟ والجواب : أننا لا نفقه كيفية السجود ، دَعْك من سجود البدن ؛ فالأصل أن يَسْجد القَلْب لله ـ جلَّ وعلا ـ ، كيف يسجد القلب ؟ أنت تقول : سِرْتُ والقمر ، مع أن القمر في مداره ، وفي أُفُقِهِ الأَعْلى لم يترك السماء ، ومع ذلك كان معك في أي خطوة خطوتها في الطريق . ـ هذا مثال ـ فلا ينبغي على الإطلاق أن ننكر آيةً من كتاب الله ، أو أن نرد حديثًا صحيحًا من أحاديث رسول الله ﷺ بدعوى أن العقل لا يستوعب الآية ، أَوْلا يستوعب الحديث .

فلقد خلق الله للشمس وللقمر وللكائنات من حولنا إدراكًا لا يعرفه إلا هو ، أدركت به هذه المخلوقات الأمانة التي عُرضت عليها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢] .

○ ارجع معي لحديث النبيِّ ﷺ وهو يَسْأل الصحابة ؛ فيقول لهم : « **أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ ؟** ». قَالُوا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: « **إِنَّ هَذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً** » .

تسجد الشمس لله ـ جلَّ وعلا ـ بكيفيةٍ لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، ولا يجوز أن نحكِّم القانون المادي البشري على أمرٍ غيبيٍّ ، ألم تعلم أني لو قلْتُ لك : منذ عشرين أو منذ خمسين سنة منصرمة إن هناك جهازًا ستحمله في يدك وتكلِّم منه أناسًا في أمريكا ، ستقول لي : أنت مجنون !! لكنك الآن

أصبحت تمسك بيدك جوالاً ، تكلِّم به أناسًا في مشارق الأرض ومغاربها وأنت في مكانك الذي أنت فيه ، إن قُلْتُ لك من مئة سنة ـ مثلًا : يمكن أن يراني مسلم الآن في أمريكا ، أو في روسيا ، أو في بريطانيا ، أو في أي مكان على وَجْه الأرض ، ستقول لي : كُنْ عاقلاً ! لكننا رأينا الآن في عصر الفضائيات ، وعصر الإنترنت ، وعصر الهاتف المحمول العجب العجاب ، هذا لمن يريد منا أدلةً عقلية ، وما أكثرها وربِّ الكعبة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] .

● قال ﷺ : « **إِنَّ هَـذِهِ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً فَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ ، حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْتَفِعِي ، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتَرْجِعُ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً وَلاَ تَزَالُ كَذَلِكَ ، حَتَّى يُقَالَ لَهَا : ارْتَفِعِي ، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا** » .

يعني : من المشرق . أي : أصبح الأمرُ عاديًّا كلَّ يوم تشرق من المشرق ، وتغرب من المغرب .

قال : « **ثُمَّ تَجْرِي لاَ يَسْتَنْكِرُ النَّاسُ مِنْهَا شَيْئًا ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَيُقَالُ لَهَا : ارْتَفِعِي ، أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِكِ ، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا** » .

لقد اختلف الأمر تمامًا ، سيأتي اليوم الذي يأمر فيه الملك الشمسَ ـ

وهو خالقها ﷻ ـ أن تشرق أو أن تطلع من المغرب .

● يقول النبيُّ ﷺ : « **أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ؟ ذَاكَ حِينَ .** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨]»، انتهى الأمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، أُغلق باب التوبة ، انتبه أخي الحبيب! لا يقبل الله إذا طلعت الشمس من مغربها توبة الكافر ، أو توبة المسلم العاصي .. لماذا ؟ فما أن يرى الخلقُ في الأرض ـ بلا استثناء ـ الشمسَ تطلُعُ من المغرب إلا ويعلن الجميع الإيمان ! ولكن هيهات هيهات لا ينفع إيمان أحدٍ بعد ذلك !!

● روى «البخاريُّ ومسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة ﭬ أنه ﷺ قال :

« **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، فَيَوْمَئِذٍ** ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ».

○ وفى روايةٍ أخرى جميلة في « **صحيح مسلم** »[(٢)] من حديث أبي هريرة ﭬ أنه ﷺ قال :

« **ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَالدَّجَّالُ ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ** » فإذا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «تفسير القرآن» ، باب لا ينفع نفسًا إيمانها (٤٦٣٥ ، ٤٦٣٦) ، ومسلم كتاب «الإيمان» ، باب « بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان » (١٥٧) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» ، باب « بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان » (١٥٨) .

خرجت آية من الآيات الثلاث فلا توبة لكافرٍ ولا لمسلمٍ عاصٍ .

○ هيا ـ أخي ـ أقبل إلى الله ؛ فلم تطلع الشمس من المغرب بعد وما زالت الروح لم ترتق إلى الحلقوم !

● وفي مسند أحمد (١) بسندٍ صحيح من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « **إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ** » أي : ما لم تبلغ الروح الحلقوم ، وهذا لا يتعارض مع القرآن إطلاقًا ؛ لأنك لا تدري ما هي اللحظة التي ستنام فيها على فراش الموت لتبلغ الروحُ منك التراقي أو الحلقوم .

● وفي « صحيح مسلم » (٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال :

« **إِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا** » .

لازال الباب مفتوحًا للمذنبين العصاة من أمثالي ، هيَّا الآن بسرعة ، ماذا تنتظر؟ ماذا تنتظرين يا أختاه ؟ لازال في الوقت فسحة .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢) ، والترمذي ، كتاب «الدعوات» ، باب في فضل التوبة والاستغفار (٣٥٣٧) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » ، وابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب « ذكر التوبة » (٤٢٥٣) ـ لكن وقع عنده : عن عبد الله بن عمرو ـ وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣) وفي تعليقه على السنن .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «التوبة» ، باب «قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة» (٢٧٥٩) .

دَعْ عنك ما قد فات في زمن الصبا   واذكُرْ ذنوبك وابكها يا مذنب
لم ينسه الملَكَانِ حين نسيتَهُ   بل أثبتاه وأنت لاهٍ تلعب
والروحُ منك وديعة أُودعتها   ستردُّها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك التي تَسْعى لها   دارٌ حقيقتها متاعٌ يذهب
الليل فاعلم والنهار كلاهما   أنفاسنا فيهما تُعدُّ وتُحسب

لازال في العمر بقيَّة، هيَّا ، والله ! لا يضمن أحدنا متى سيموت ، ومتى سيرحل ، لا تُسوِّف بقولك : سوف أتوب ! لا ، قم وجدد التوبة والأوبة ، وعاهد ربك على ترك المعصية ، وفعل الطاعة ، وعلى ترك الربا ، وعلى برِّ والديك ، وأنتِ ـ أيتها الفاضلة ـ عاهدي ربكِ على ارتداء الحجاب ، وعلى المحافظة على الصلاة في أوقاتها ، وعلى الإحسان إلى الجيران ، وعلى إتقان العمل ، وعلى أن تشهدي لهذا الدين شهادةً قولية وقلبية وخلقية .

عاهد ربك ـ أيها الموحد ـ على أن تمتثل الأمر ، وتجتنب النهي ، وتقف عند الحد ؛ فإذا جاءك الموت في أي لحظة سعِدْتَ في دنياك وأخراك .

أيا عبْدُ كَمْ يراك الله عاصيًا   حريصاً على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى   ويومًا عَبُوسًا تشيبُ فيه النَواصيا
لو أن المرء لم يلبس ثياباً من التقى   تجرَّد عريانًا ولو كان كاسيا
ولو أن الدنيا تدوم لأهلها   لكان رسولُ الله حيًّا وباقيا

ولكنهـا تفنـى ويفنـى نعيمهـا وتبقى الذنوب والمعاصي كما هي

○ والسؤال : لماذا لا يقبل الله توبة أحدٍ إذا خرجت هذه الآيات ؟

● والجواب : لأن الناس يرون من الآيات ما يلوى الأعناق ليًّا للإيمان بالله ـ جلَّ وعلا ـ ، ومع ذلك لا يستجيب أكثرهم لنداء الله ، ولمواعظ الله وآياته ، بل كان الواحد منهم كثيرًا ما يُذكَّر بالقرآن فيهزأ ، وبالسنة فيسخر ، وبكلام النبيِّ ﷺ فيكذب ؛ فعندما جاءه الموت ، ونام على فراشه استرجع ما كان فيه ، لكن لم يعد شيءٌ ينفع ؛ فقد خرجت الروح من الحلقوم يا مسكين ؛ روى **أحمد في «مسنده» وابن ماجه في «سننه»** (١) **بسندٍ صحيح** من حديث بسر بن جحاش رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا إِصْبَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « **قَالَ اللهُ ﷻ : ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَّلْتُكَ ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ ؟** » .

بدأتَ تنتقل إلى مرحلة عين اليقين ، وبدأت ترى الوقائع والأحداث تقع أمامك ؛ كخروج المسيح الدجال ، ويأجوج ومأجوج ، وعيسى بن مريم ، وطلوع الشمس من المغرب ، فكل هذه آيات نقلتك إلى مرحلة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب النهي عن الإمساك في الحياة ، والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، وقال في «الزوائد» : « إسناده صحيح ، ورجاله ثقات » ؛ ووافقه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١١٤٣) .

عين اليقين ، ومعاينة الحقائق ، ثم في نفس اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب تخرج الدابة !!

● ما هي الدابة ؟ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢] .

لا تنكر !! أنت تسمع التليفون يتكلَّم ، وترى التليفزيون يتكلَّم ، فلا تُعطّل كلَّ شيءٍ بالعقل . فلا ينبغي لأيِّ عاقلٍ أن يتكلَّم في مثل هذه الأحداث ، والعلامات إلا بآيةٍ من كتاب رب الأرض والسماوات ، أو بحديثٍ لرسول الله ﷺ .

● روى الإمام مسلم في «صحيحه»(١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه أنه ﷺ قال :

« إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى ، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا ، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا » .

● وأنا ذكرتُ قبل ذلك حديثَ رسول الله ﷺ ؛ كما في « مستدرك الحاكم » بسندٍ صحيح أنه ﷺ قال :

« الْأَمَارَاتُ خَرَزَاتٌ مَنْظُومَاتٌ فِي سِلْكٍ ، فَإِنْ يُقْطَعِ السِّلْكُ يَتْبَعْ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب « الفتن وأشراط الساعة » ، باب خروج الدجال ومكثه في الأرض (٢٩٤١) .

بَعْضُهَا بَعْضًا »(١) .

لو راجعتَ كتبَ التفسيرِ ، والتاريخ ، والقصص ، ستقرأ أخبارًا عجيبةً ، ورواياتٍ غريبة جدًّا في الدابة (٢) ! لكن لا يجوز لإنسانٍ عاقلٍ يحترم العلم ، ويحترم العقل ، ويحترم الدليل ، ويحترم التحقيق العلميَّ أن يلهث وراء هذه الأخبار ، ووراء هذه الأساطير والأوهام ؛ بل يكفينا أن نقتصر على ما اقتصر عليه القرآن والسنة ، فلقد ثبت بالدليل أن دابة تخرج ، وتنطق ، وتتكلَّم مع الناس بكلامٍ واضحٍ بيِّنٍ ؛ لتخبرهم بأن الناس كانوا بآيات الله لا يُصدِّقون ، ولا يوقنون ، ولطالما ذكَّرهم العلماء بعد الأنبياء ، فسخروا ، واستهزؤوا ، وأنكروا ، وكذَّبوا ! لكن المؤمن المصدق بكلام الله ورسوله ﷺ يعلم علم اليقين أن الدابة آية من آيات الله ، وعلامة من العلامات الكبرى للساعة ؛ وأنها ستخرج لتميز بين المؤمن والكافر ـ يا رب سلِّم ـ تَسِمُ المؤمن على جبينه فينير ، وتَسِمُ الكافر على أنفه فَيُظِلم ؛ كما في «مسند» (٣) أحمد من حديث أبي أمامة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال :

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) فلقد ذكر بعضهم أن هذه الدابة هي الفصيل لناقة صالح ! وبعضهم قال: هي الثعبان الذي ظهر على الكعبة ، واعترض قريشًا حين أرادت أن تجدد بناء الكعبة !! بل وظلَّ بعضهم يصف الدابة بأن رأسها رأس ثور ، وأذنها أذن فيل ، وعينها عين خنزير ! وكل هذا لا أصل له ، ولا قيمة له علمية ، ولا ينبغي أن ننشغل به ؛ وحسبنا الكتاب وصحيح السنة ؛ لأنها أمورٌ غيبية لا يجوز لعقلٍ مهما كان صاحبه أن يخوض فيها ، وإلا فقد قال على الله بغير علم .

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٨) ، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ٢/ ١٧٢) ، وابن مردويه ؛ كما في «الدر المنثور» (النمل : ٨٢) ، وأبو نعيم الأصبهاني في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٢٤) ، والبغوي في «الجعديات» (٢٤٦٨) بسندٍ صحيح عن أبي أمامة . أما تضعيفه بعمر بن عبد الرحمن=

« تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ ، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ ، فَيَقُولُ مِمَّنْ اشْتَرَيْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ » .

○ وله شاهدٌ بمعناه ؛ أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والطبري وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (١) ـ بسندٍ فيه علي بن زيد ـ من حديث أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ قال :

« تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مَعَهَا عَصَا مُوسَى ، وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ ، فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا ، وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخِوَانِ لَيَجْتَمِعُونَ ؛ فَيَقُولُ هَذَا : يَا مُؤْمِنُ ، وَيَقُولُ هَذَا : يَا كَافِرُ » .

فالدابة تخرجُ من الأرض ، في الوقت الذي يشاؤه الله ، وفي اليوم الذي ستطلع فيه الشمس من المغرب ، وتخرج هذه الدابة لتكلِّم الناس ، ولتخبر الناس بأنهم كانوا لا يوقنون ، حتى لو آمن مَنْ آمن بعد ذلك فليس لذلك قيمة ؛ لأنه كما قلت : إذا خرجت الدابة ، وطلعت الشمس من المغرب ، وظهر الدخان الذي يملأ الأرض ، لا يصاب المؤمن منه إلا كما يصاب

= ابن عطية بن دلاف ؛ فمما لا وجه له ، فقد وثقه ابن المديني ؛ كما في «سؤالات» محمد بن أبي شيبة (١١٤) ، ووثقه كذلك ابن حبان والهيثمي ؛ انظر «الصحيحة» (٣٢٢) ، وتعليق الأرناؤوط على «المسند» (٢٢٣٠٨) .

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٥ ، ٤٩١) والترمذي ، كتاب « تفسير القرآن » ، باب ومن سورة النمل (٣١٨٧) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب ومن دابة الأرض (٤٠٦٦) ، والحاكم (٤/ ٤٨٥) ، والطيالسي (٢٦٧٨) ، والطبري في « تفسيره » ، لسورة النمل (٨٢) وإسحاق في «مسنده» (٤٤٢) وهو في « الضعيفة » (١١٠٨) و«ضعيف الجامع» (٢٤١٣) .

بالزكام الذي نراه الآن ، أما الكافر فيدخل فيه هذا الدخان ، فينتفخ ، فيخرج من كلِّ مسمع منه ؛ وهذه علامة أخرى من العلامات الكبرى .

وبعد هذا يرسل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الريح الطيبة ؛ لتقبض أرواح الموحدين المؤمنين على ظهر الأرض ؛ فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ؛ كما في «صحيح مسلم» [(١)] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« يُرْسِلُ الله رِيحاً بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلاَ يَبْقَى عَلَى وجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ » .

- قال عبد الله بن عمرو : «ثم يَبْقى شِرارُ الناس عليهم تقومُ السَّاعة» [(٢)] .

- وفي رواية في « صحيح مسلم » [(٣)] عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالُ فِي الأَرْضِ الله الله » .

- وفى « صحيح مسلم » [(٤)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ الله يَبْعَثُ رِيحًا مِنَ الْيَمَنِ أَلْيَنَ مِنَ الْحَرِيرِ ، فَلاَ تَدَعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ، باب « في خروج الدجال » (٢٩٤٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب «الإمارة» ، باب « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين » (١٩٢٤) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب « ذهاب الإيمان آخر الزمان » (١٤٨) عن أنس .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب «الإيمان» ، باب « في الريح التي تكون قرب القيامة » (١١٧) .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ ـ وفي رواية ـ **مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ** » .

وهذه الريح قد تكون ريحًا يمانية جمعًا بين النصوص ، أو أن مبدأها من أحد الإقليمين ثم تصل الآخر [١] .

أسأل الله أن أكونَ قد وُفقتُ في ربط الأحداث ، وربط العلامات ببعضها البعض ؛ حتى تستوعب المعنى كاملًا ، لتعيش بعقلك وقلبك في آن .

● فأقول ـ ملخصًا : دخان وبعده ريح باردةٌ تقبض أرواح المؤمنين ، لا يبقى على وجْهِ الأرض مؤمن ، ثـمَّ هناك علامات كبيرة أخرى ، فهناك الخسوف الثلاثة ، والنار التي تخرج من المشرق أو من اليمن تحشر الناس إلى جهة المغرب [٢] .

ومن رحمة الله ـ جلَّ وعلا ـ بأمة الحبيب المصطفى ﷺ ألا تشهد الأمَّةُ هذه العلامات المفزعة المرعبة ، فهذه العلامات من آيات العذاب ، فلا يشهدها إلا من كفر برب الأرض والسماوات ـ جلَّ وعلا .

إذ المؤمنون قُبضوا جميعًا ، ومن هنا لا تستغرب إذا قُلْتُ لك : إن هذه المرحلة هي التي يُهدَمُ فيها البيت الحرام ! نعم ، لكن في هذا الوقت الذي لم يعد هناك موحدٌ يَحُجُّ البيت لأن الساعة ستقوم بعد هذه الأحداث

---

(١) « شرح مسلم » (١/ ٢٣١) .

(٢) كما عند مسلم ، كتاب «الفتن» ، باب « في الآيات التي تكون قبل الساعة » (٢٩٠١) عن حذيفة بن أسيد ، وقد سبق .

مباشرةً ، لكن ليس بتوقيتنا نحن ، إنما هو شيءٌ يكون في علم العليم سبحانه وتعالى . فيُقبض المؤمنون ولا يحجُّ البيتَ أحدٌ .

● ففي «مستدرك الحاكم» و«مسند أبي يعلى »[(١)] عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « **لاَ تقومُ السَّاعةُ حتى لاَ يُحجَّ الْبَيْتُ** » .

● وفي « صحيح البخاريِّ ومسلم »[(٢)] من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يُخرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ** » ، هكذا يصف لنا النبيُّ ﷺ هذا الذي سيهدم الكعبة ، فيصف لونه ، وشكْلَه ، وساقه ويقول : « **يُخرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ** » .

قال الحافظ في « الفتح »[(٣)] : « تثنية سويقة وهي تصغير ساق ، أي: له ساقان دقيقان » ا. هـ .

○ وفي رواية ابن عباس ﷺ في « صحيح البخاريِّ »[(٤)] يقول ﷺ : « **كَأَنِّي بِهِ** » أي: كأني أراه «**أَسْوَدَ أَفْحَجَ ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**» ما هذا الوصف؟ عرفنا أنه أسود . فما « **أَفْحَجَ** » ؟ الأفحج : المتباعد ما بين الساقين. « **يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا** » يعنى : الكعبة .

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٥٣) وصححه على شرط الشيخين ، وأبو يعلي (٩٥٦) ، وابن حبان (١٨٨٤) وعلَّقه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الحج ـ (١٥٩٣) وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٣٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الحج» باب هدم الكعبة (١٥٩٦) ، ومسلم كتاب «الفتن» وأشراط الساعة ، باب «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى» (٢٩٠٩) .

(٣) «الفتح» (٣/ ٥٣٩) .

(٤) أخرجه البخاري كتاب «الحج» ، باب «هدم الكعبة» (١٥٩٥) .

وفي « مسند أحمد »[(١)] بسندٍ جوَّده الحافظ ابن كثير من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

« يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ ، وَيَسْلُبُهَا حِلْيَتَهَا وَيُجَرِّدُهَا مِنْ كِسْوَتِهَا ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ أُصَيْلِعَ أُفَيْدِعَ يَضْرِبُ عَلَيْهَا بِمِسْحَاتِهِ وَمَعَاوِلِهِ » والأصلع : مَنْ ذَهبَ شعْرُ مَقْدمِ رأسه .

● وفي رواية في مسند أحمد[(٢)] بسندٍ صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « وَلَنْ يَسْتَحِلَّ الْبَيْتَ إِلَّا أَهْلُهُ فَإِذَا اسْتَحَلُّوهُ ، فَلَا يُسْأَلُ عَنْ هَلَكَةِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ تَأْتِي الحَبَشَةُ فَيُخَرِّبُونَهُ خَرَاباً لَا يُعَمَّرُ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

فيا مسلمون عَجِّلوا في الاستمتاع بالبيت الحرام الآن ؛ اللهم لا تحرمنا من العمرة والحج والتمتع ببيتك الحرام يا أرحم الراحمين .

○ إخواني : لا يبقى في الأرض إلا شرار الخلق ، وعليهم تقوم الساعة ، وهم الذين يشهدون العلامات الأخيرة وهي ثلاث خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرة العرب ، والخسف معروف ، وهو : الاغتيال من أسفل ؛ قال في «اللسان »[(٣)]: « الخسف : سؤوخ الأرض بما عليها .. وخسف الله به الأرض خسفًا أي : غاب به فيها ، ومنه قوله تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) وقال الحافظ ابن كثير في «النهاية في الفتن» (٧٠) : «وهذا إسناد جيد قويٌّ» ، وصححه العلامة الألبانيُّ بشواهده في «الصحيحة» (٦/ ١/ ٥٥٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩١ ، ٣١٢) ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٥/ ٥٢-٥٣) ، والحاكم (٤/ ٤٥٢-٤٥٣) وصححه الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢٧٤٣) .

(٣) « لسان العرب » (مادة خَسَف ٩/ ٦٧) .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١] » ،يخسف الله الأرض بأهلها في المشرق ، وفى المغرب ، وفي قلْب الجزيرة ، وكما ذكرتُ لا يوجد في هذه المرحلة على وجه الأرض مؤمنٌ موحدٌ بالله ـ جلَّ وعلاً ـ حتى لا يقال في الأرض : الله الله ، فشرار الخلق هم الذين يشهدون الخسوف الثلاثة والنار :

● قال ﷺ ـ كما في حديث حذيفة ، وقد تقدَّم : « **خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ** » ، وما هي النار ؟ قال ﷺ : « **وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ** » مبدأ خروجها من اليمن « **مِنْ قَعْرِ عَدَنٍ** » ، وعدن بلدٌ معروف ، واليمن معروفة « **تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ** » إلى أرض المحشر .

انتهت الحياةُ الدنيا ، وانتهت العلامات الكبرى للساعة .

ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة أخرى تختلف تمام الاختلاف ، تبدأ بنفخةٍ مزلزلة ، تفكُّ أواصر الكون ، وتدمِّر عراه ، حين يأمر الملك ﷻ إسرافيل بالنفخ في الصور ؛ فما هذا الصور ؟

● **روى أحمد وأبو داود والترمذيُّ** (١) **بسندٍ صحيح** من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ ﷺ : « **قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ** » ، والقَرْنُ : مِثْلُ البوق ، ومن الذي ينفخ ؟ إنه إسرافيل ، ومَنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٢ ، ١٩٢) وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في ذكر البعث والصور (٤٧٤٢) والترمذي كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠) ، والنسائي في « الكبرى » (١١٢٥٠) ، والحاكم (٢/ ٤٣٦) ، وابن حبان (٢٥٧٠) ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » ، وصححه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٨٠) .

إسرافيل؟ مَلَكٌ من ملائكة الملك القدير ﷻ ، موكَّلٌ بالنفخ في الصور ؛ هذه وظيفته التي خُلِق من أَجْلِها ، فالملائكة كلٌّ واحدٍ منهم له وظيفة ؛ جبريل موكَّلٌ بالوحي ، وميكائيل موكَّلٌ بالقطر والأرزاق ، وملك الموت موكَّلٌ بقبض الأرواح ، وهناك ملكٌ ساجد لا يرفع رأسه ، وملكٌ راكعٌ لا يرفع رأسه ، وملكٌ قائمٌ هذه وظيفته ، وملكٌ يسبح ، وملكٌ يستغفر ، وملكٌ يطوف حول البيت المعمور في السماء السابعة .. كُلُّ ملَكٍ له وظيفةٌ خُلِق من أَجْلِها ، لا يفتُرُونَ عن الذِّكر، ولا عن التسبيح ؛ كما قال ربنا ـ جلَّ وعلا: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] ، وقال : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠]. أما إسرافيل فوظيفته فقط ومهمته أن ينفخ في هذا القرن ، أو في هذا البوق ، وما عدد نفخاته ؟ اختلف أهل العلم في ذلك ؛ فمنهم من قال : اثنتان [١] ، والراجح ـ والله أعلم ـ أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ، ونفخة الصعق ، ونفخة البعث .

● **النفخة الأولى** : نفخة الفزع ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم

---

(١) انظر : « التذكرة » للقرطبي (ص ٢٠٩ ط الكتب العلمية) فقد رجح أنها ثنتان ، وكذا الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٧٧) .

●أما ابن تيمية وابن كثير وابن العربي فقالوا :هي ثلاث نفخات ، ولكلٍّ فريق من هؤلاء دليله. راجع «مجموع الفتاوى » (١/ ٣٤١) و (٣/ ٣٩٤) و «البداية والنهاية» (١/ ٤٧) و«النهاية في الفتن» (٩١ ، ٩٥) .

بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١ ، ٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧] .

○ وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من المستثنى ، ومَنِ الذي لا يفزع ؟

● **قال بعض العلماء** : هم الأنبياء والشهداء وقيل : الملائكة [(١)] ، وأنا أقول : لم يثبت في ذلك كلامٌ عن الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، ومن ثَمَّ فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ نقفُ عندها كما قال ربنا تبارك وتعالى ، ولسنا في حاجةٍ إلى المزيد ، إذ لو كان في الزيادة على هذا خيرٌ لأمة محمد ﷺ لذكرها الله . فلنقتصر على ما جاء في كتاب ربنا ، ولنقتصر على ما جاء في سنة حبيبنا ونبينا ﷺ ، نسأل الله أن يجعلنا جميعًا من الآمنين في الدنيا والآخرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

● فأهلُ التقى لا يفزعون أبدًا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وهم على فراش الموت ، وهم يخرجون من القبور ؛ قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

● وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فُصِّلَت:٣٠] ، اللهم ارزقنا الإيمان والتوحيد والاستقامة ، واجعلني وإياكم من المؤمنين المتقين الصادقين ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) راجع «التذكرة» (١٨٩ وما بعدها) .

ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الفزع ، وهذه هي النفخة الأولى ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذيُّ بسندٍ صحيحٍ بشواهده (١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ ـ يعني: إسرافيل ـ واسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتى يُؤْمَرُ بالنَّفْخِ » وفي رواية (٢) : «وَحَنَى جَبْهَتَهُ ، يَسَّمَّعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ» ، وفي رواية (٣) : « وأصْغَى السَّمْعَ مَتَى يؤمَرُ » .

هل استوعبت هذه الكلمات ؟ أخذ إسرافيل الصور ، وأصغى سمعه ، شخص ببصره لا يطرف ، ينتظر الأمر من ملك الملوك جل جلاله في أيِّ لحظة ، انفخ ، فينفخ نفخة الفزع ؛ ليتزلزل الكون ، ولتتزلزل الأرض ـ وسأقف معها بالتفصيل في الفصل القادم ـ يقول النبيُّ ﷺ : « كَيْفَ أَنْعَمُ » أي: كيف أنعم بالحياة وأطمئن فيها ، وإسرافيل منتظر ، في أي لحظة يَنْفُخُ في الصور!! فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قالوا: فَمَا نَقُولُ يَا رَسُولَ الله ؟ قال : « قُولُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، عَلَى الله تَوَكَّلْنَا » ؛ لأن من قال ذلك بإذن الله ردَّه الله تبارك وتعالى بأمنٍ وأمانٍ ، وسلْمٍ وسلامٍ.

● قال سبحانه: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧ ، ٧٣ ، ٣٧٤) والترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣١) ، وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر البعث (٤٢٧٣) بلفظٍ مقارب ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٨٨٦) والحميدي في «مسنده» (٧٥٤) عن أبي سعيد ؛ قال الألباني : «حسن لغيره ؛ وذلك لأن عطية العوفي ضعيف» ا.هـ. لكنه توبع ، «الصحيحة» (١٠٧٩) وللحديث شواهد أوردها الشيخ ـ رحمه الله تعالى .

(٢) عند أحمد (١/ ٣٦٤) عن ابن عباس .

(٣) عند أحمد كذلك (٤/ ٣٧٤) عن زيد بن أرقم .

وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] .

وهل النبيُّ ﷺ يخاف هذا الخوف ؟ نعم ، وعلى قَدْر حبك لله يكون خوفك وإجلالك لله .وكُلَّما ازداد الحبُّ ، وكُلَّما امتلأ القلْبُ بالخوف والوجَل منه سبحانه وتعالى ، ولم تعرف الأرضُ أخشى من محمد بن عبد الله لربه ـ جلَّ في علاه .

● تدبر ـ معي ـ قول النبيِّ ﷺ :«**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ** » قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله مِنْه بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ** » (١) .

فخوفُك من الله على قَدْر معرفتك به ، وعلى قدر حبك له ، وعلى قدر علمك به ، ويقول المصطفى ﷺ : « **فوالله لأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِالله ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً** » (٢) .

من أجل ذلك يقولُ النبيُّ ﷺ : « **كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدِ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ ، وَأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ** » .

○ إخواني : أواصل ـ معكم ـ الحديث مع إسرافيل قبل أن ينفخ نفخة الفزع ، لنعيش في الفصل الآتي : مع هذه الأحداث المفزعة بصورة أوسع ، أسأل الله أن يؤمنني وإياكم في الدنيا والآخرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» ، باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣) ، ومسلم كتاب «صفة القيامة» ، باب « لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى » (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الأدب» ، باب « من لم يواجه الناس بالعقاب » (٦١٠١) ، ومسلم كتاب «الفضائل» ، باب « علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته » (٢٣٥٦) عن عائشة .



نفخة البعث

يأمر الملك الجليل إسرافيل بالنفخ في الصور ، تلك النفخة التي تزلزل الكون كلّه ، والتي تفصم كلَّ العُرى ؛ قال ـ جلَّ وعلا : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧] .

تلك النفخة التي تغير معالم الكون بلا استثناء ، إنها نفخة الفزع .. نفخة الرعب ، وأرجو أن تتصوروا معي هذا الرُّعب الذي يصيب شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ، كما أخبرنا الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ، تصور معي الأرض وهي تتزلزل ، وترتج كما ترجرج الريحُ المصباح ، أو القنديل المعلق في السقف ، تهتز الأرض وتتزلزل ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج:١ ، ٢] إن هذه الزلزلة شيءٌ عظيمٌ ، أي : أمرٌ كبير ، وخطب جليل ، وطارق مفزع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

أريد منك أن تتصور أُمًّا تنسى رضيعها ! بل وتلقيه على الأرض من هَوْل ما تسمع ، ومن الفزع الذي تملَّكها لما تراه وتشاهده ، فتراها تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في

حال إرضاعها له[١]. ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ تُسقط المرأة جنينها في بطنها ! لهذا الرعب الذي سيطر عليها .

● والزلزال هو : ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع ؛ تتزلزل الأرض ، والسماء تتشقق ، والنجوم أظلمت ، وانطفأ ضوؤها ، وراح نورها، والشمس أُظلمت ، وضاع نورها وضياؤها ، والوحوش التي طالما رَعَبت وأفزعت الخلق تراها مفزوعة مرعوبة ، وهي في طريقها إلى الحشر ، والعشار والنوق التي كانت من أغلى ما يمتلكه العربيُّ لا يُلتفتُ إليها ، ولا ينتبه إليها أحد ، والبحار ، والأنهار ، والمحيطات ، تحوَّلت إلى حممٍ من النار تقذف المياه على سطح الأرض بنيرانٍ لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى ، والجبال العظيمة التي تملأ الأرض ، تُدك في الأرض دكًّا ؛ بل وتنسِفُ مَنْ على وجْهِ الأرض نسفًا ، تراها كالعهن : أي كالصوف الممزق المتطاير .

أرجو أن تعيش معي بقلبك هذه الأحداث ، بعد نفخة الفزع ؛ لتقف على هَوْل وخطر ما يصيب الكون كلّه بعد هذه النفخة ، إن أردت أن تتصور معي فلا عليك إلا أن تعود فقط لتقرأ هذه الآيات من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة التكوير ، وفي سورة الانفطار ، وفي سورة الانشقاق .

● ففي «مسند» أحمد و«سنن» الترمذيِّ بسندٍ صحيح[٢] من حديث ابن

---

(١) « تفسير ابن كثير » (لسورة الحج : ١) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧، ٣٦) ، والترمذي كتاب «تفسير القرآن» باب ومن سورة «إذا الشمس كورت» (٣٣٣٣) ، وقال : «هذا حديث حسن غريب» ، والحاكم (٤/ ٥٧٦) وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٨١) .

عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأنه رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾».

○ تدبر معي قول الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ [التكوير: ١] ذهب ضياؤها، وراح نورها ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ تناثرت وأظلمت، وانطفأ نورها وضياؤها، وسقطت في البحار، فتصير معها نيرانًا إذا ذهبت المياه، ﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾، تُدك في الأرض دكًّا، وتصبح كالعهن ـ أي: كالصوف المنفوش تتحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيبًا مهيلاً، أي: رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباء منبثًا، وتكون سرابًا. ﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ الإبل أو النوقُ عطلت لا يلتفت إليها أحد، ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ جمعت وهي مرعوبة ومفزوعة، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ أي تأججت نيرانًا مشتعلةً، وقيل: غار ماؤها وذهب ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ عادت الأرواح إلى الأجساد أو قُرِنَ المؤمنون بأزواجهم من الحور العين، أو قُرن الكافرون بالشياطين، ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ هذه التي دُفنت وهي حية بأي ذنب قتلت.

○ واقرأ معي أيضًا سورة الانفطار: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ١-٥].

○ واقرأ معي قول الله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي : أُذن لها أن تنشق ؛ لأن الملك أمرها بالانشقاق ، وحُقَّ لها أن تطيع ، وأن تذعن لأمر الله ﷻ ، ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ تخلَّصت من حملها الثقيل، تتزلزل الأرضُ هنا وهناك وهنالك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴾ [الزلزلة: ١-٣] ما الذي حدث ؟ وما الذي حوَّل استقرارها ؟ ما الذي حوَّل أمنها إلى فزع ورعب ؟ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٤-٨]. حالة من الفزع الشديد ، لا أجد أبلغ ولا أروع فيها من قول ربي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ١، ٢].

مَثِّل لنفسك أيُّها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمورُ

إذْ كُوِّرت شمسُ النهار وأُدنيت ... حتى على رأس العباد تسيرُ

وإذا النجـوم تسـاقطت وتنـاثرت وتبـدلَّت بعـد الضـياء كـدورُ
وإذا البحـار تفجـرت مـن خوفهـا ورأيتهـا مثـل الجحـيم تفـورُ
وإذا العشـار تعطَّلـتْ وتخربـت خَلَـتِ الـدِّيار فـما بهـا معمـورُ
وإذا الجبـال تقلعـت بأصـولها فرأيتهـا مثـل السـحاب تسـيرُ
وإذا الوحـوش لـدى القيامـة أحشرت وتقـولُ للأمـلاك : أيـن نسـيرُ؟
وإذا الصـحائف نُشرت وتطـايرت وتهتكـت للعـالمين سـتورُ
وإذا الجحـيم تسـعرت نيرانهـا ولهـا عـلى أهـل الـذنوب زفـيرُ
وإذا الجليـل طـوى السـما بيمينـه طـي السـجِلّ كتابـه المنشـورُ
وإذا الجنـان تزخرفـت وتطيبـت لفتـىً عـلى طـول الـبلاء صـبورُ
وإذا الجنـيُن بأمـه متعلِّـقٌ يخشـى القصـاص وقلبـه مـذعورُ
هـذا بـلا ذنـبٍ يخـاف جنايـة كيـف المصرُّ عـلى الـذنوب دهـورُ[(١)]

● قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧] وبعد أربعين ـ أربعين يومًا ؟ الله أعلم ، أربعين شهرًا ؟ الله أعلم ، أربعين سنة ؟ الله أعلم .

● ففي «الصحيحين»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) «التذكرة» (ص ٢٤٤ ، ٢٤٥) للقرطبي .
(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب تفسير القرآن ، باب « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » (٢٩٥٥)، ومسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب « ما بين النفختين » (٢٩٥٥) .

« مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ » ، قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا ؟ قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالَوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَبَيْتُ؟ ـ يعني : أبيت أن أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك .

● قال النوويُّ [1] : « معناه : أَبَيْتُ أن أجزم أن المراد أربعون يومًا ، أو سنة ، أو شهرًا ، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة ، وقد جاءت مفسَّرة من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة » .

● وقال الحافظ في «الفتح» [2] : « وقوله : أبيت ، بضم ، أي : أن أقول ما لم أسمع ، وبالفتح أي : أن أعرف ذلك ، فإنه غيب » .

● وقال البيهقيُّ في « إثبات عذاب القبر » [3] : « وكأن أبا هريرة لم يحفظ عن النبيِّ ﷺ ما أراد بالأربعين ، وأهل التفسير يقولون : هي أربعون سنة» .

● وقال القرطبيُّ في «التذكرة » [4] : « وقول أبي هريرة : أبيت ، فيه تأويلان .

○ الأول : أبيت ، أي : امتنعتُ من بيان ذلك وتفسيره ، وعلى هذا كان عنده علم من ذلك ، أي : سمعه من النبيِّ ﷺ .

○ الثاني : أبيت ، أي : أبيت أن أسأل عن ذلك النبيِّ ﷺ ، وعلى هذا لم يكن

---

(١) « شرح مسلم » للنووي (٩/ ٣٤٣) .
(٢) «الفتح» (٨/ ٥٥٨) .
(٣) (٢٢٢) .
(٤) (« التذكرة » ١٨٨) .

عنده علم من ذلك . والأول أظهر ، وإنما لم يبينه لأنه لم ترهق لذلك حاجة » .

○ أقول : بعد أربعين لا يعلم حقيقتها إلا ربُّ العالمين ، يأمرُ الملك ﷻ إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق ، ومن العلماء من لم يفرق بين نفخة الفزع ونفخة الصعق ، وجعلهما نفخةً واحدة ، وقال : بأن إسرافيل إن نفخ في الصور نفخة الفزع ، صعق من في الأرض ومن في السماوات إلا من شاء الله لهول هذه النفخة [1] ، لكن الراجح من أقوال المحققين : أن إسرافيل ينفخ نفخة الفزع ، وبعد أربعين لا يعلم حقيقتها إلا ربُّ العالمين ، يأمر الله ـ جلَّ وعلا ـ إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة الصعق أي الموت .

● اقرأ معي قول الله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، وهذه هي الثالثة في قوله : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] .

قف مع نفخة الصعق ، ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ ﴾ أي فمات ﴿ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ مَنِ المستثنى؟ من هذا الذي استثناه ربنا ـ جلَّ وعلا ـ من الموت ؟ والله تعالى يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] ، والمراد بعليها في الآية : أي على الأرض ، ثم جاء قول الله تبارك وتعالى حاسمًا واضحًا ؛ فقال ﷻ: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص:٨٨] جلَّ جلالُ الحيِّ القيوم ، الذي لا ينام ولا يموت .

---

(١) («التذكرة» ٢٠٩) وهو ترجيح القرطبي كما سبق .

● أقول : لقد اختلف العلماء في المستثنى : من هو [(١)] ؟ وقد تقدم ذلك موجزًا:

● قال بعض أهل العلم : هم الملائكة .

● ومنهم من قال : بل هم على وجه التحديد : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وحملة العرش.

● ومنهم من قال : بل هم الحور العين .

● ومنهم من قال :بل هم الشهداء ؛ لأن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يرزقون.

● ومنهم من قال: بل هم الأنبياء .

● ومنهم من قال : بل هو موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

واستدلَّ من قال بذلك بما ثبت في « **صحيح البخاري** » [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن نبينا ﷺ قال :

« **إِنِّي أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الآخِرَةِ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى مُتَعَلِّقٌ بِالْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِي أَكَذَلِكَ كَانَ ، أَمْ بَعْدَ النَّفْخَةِ** ».

● وفي رواية في « **الصحيحين** » [(٣)] :

---

(١) انظر : « التذكرة » للقرطبي (١٨٩-١٩٣) ، وقال : قال شيخنا أبو العباس: « والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكلُّ محتمل » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب « تفسير القرآن » ، باب قوله : « ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ » (٤٨١٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب «وفاة موسى» (٣٤٠٨) ومسلم ، كتاب «الفضائل» باب «من فضائل موسى» (٢٣٧٣/ ١٦٠) .

« لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللهُ » .

○ **وأنا أقول** : إذا كان المصطفى ﷺ لا يستطيع أن يقطع أكان موسى ممن صعق فأفاق ، أم كان ممن استثنى الله ؟ ، فلا ينبغي بعد ذلك لأحدٍ أن يقطع بشيءٍ من هذا .

وقد تبين لنا كما في « **الصحيحين** » أن رسول الله لم يقطع حتى لنبي الله موسى أصعق فأفاق ؟ أم كان ممن استثنى الله ﷻ .

● **قلْت** : ورد في حديث الصور الطويل الذي رواه **أبو يعلى الموصليُّ في «الكبير»** ، **والبيهقيُّ في «البعث»** ، **والطبريُّ في «تفسيره» والطبراني في «الطوالات»** وغيرهم ، وكلُّهم من طريق إسماعيل بن رافع وهو ضعيف [1] ، وفيه : أن النبيَّ

---

(١) أخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة البقرة : ٢١٠) (٤٩٣٩) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٥٥٤٩/ سورة النمل : ٨٧) ، والبيهقيُّ في «البعث» (٥٩٣) ، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٧٩) ، وأبو يعلى في «الكبير» ، والطبراني في «الطوالات» كما في «الفتح» (١١/ ٣٧٦) ؛ وقال الحافظ : « ومداره على إسماعيل بن رافع واضطراب في سنده ، مع ضعفه ، فرواه عن محمد بن كعب القرظي تارة بلا واسطة وتارة بواسطة رجل مبهم ، ومحمد عن أبي هريرة تارة بلا واسطة ، وتارة بواسطة رجل من الأنصار مبهم أيضًا ، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء أيضًا في تفسيره عن محمد بن عجلان عن محمد بن كعب القرظي ، واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع ، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه ، ولعله سرقَهُ منه فألصقه بابن عجلان ، وقد قال الدارقطنيُّ : إنه متروك ، يضع الحديث ، وقال الخليليُّ : شيخ ضعيف شحن تفسيره بما لا يتابع عليه . وقال=

ﷺ قال :

« فَإِذَا مَاتَ كُلُّ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَكُلُّ مَنْ في الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْمَلِكِ ، فَقَالَ مَلَكُ الْمَوْتِ : يَارَبِّ ، مَاتَ كُلُّ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ ، فَيَقُولُ الله ـ جَلَّ وَعلَا : مَنْ بَقِيَ؟ وهو أعلم سبحانه ـ فَيَقُولُ : مَلَكُ الْمَوْتِ : جِبْرِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ وَبَقِيتُ أَنَا ـ يعني : ملك الموت ـ فيقول ملِكُ الملوك ـ جلَّ جلاله : لِيَمُتْ جِبْرِيلُ ، فَيَمُوتُ جِبْرِيلُ ، لِيَمُتْ مِيكَائِيلُ ، فَيَمُوتُ مِيكَائِيلُ ، لِيَمُتْ إِسْرَافِيلُ ، فَيَمُوتُ إِسْرَافِيلُ ، لِيَمُتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ» . وإذا مات حملة العرش ، فمن يحمل العرش ؟ وقد قال تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] ، استوى كما أخبر على الوجه الذي أراد ، وبالمعنى الذي قال ، استواءً منزهًا عن الحلول والانتقال ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسي يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسي وعظمته ، الكل محمول بلطف قدرته ، مقهورٌ بجلال قبضته .

فالاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، قال: « لِيَمُتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، فَيَمُوتُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَيَبْقَى مَلَكُ الْمَوْتِ

= الحافظ عماد الدين بن كثير في حديث الصور : جمعه إسماعيل بن رافع في عدة آثار ، وأصله عنده عن أبي هريرة ، فساقه كلَّه مساقًا واحدًا . وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في «سراجه» وتبعه القرطبي في «التذكرة» ، وقول عبد الحق في تضعيفه أولى ، وضعفه قبله البيهقي» انتهى . وانظر «تفسير ابن كثير» (لسورة الأنعام : ٧٣) .

مَعَ مَلِكِ المُلُوكِ ، فَيَقُولُ مَلِكُ المُلُوكِ لِمَلَكِ المَوْتِ: يَا مَلَكَ المَوْتِ ، وَأَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي ، وَخُلِقْتَ لِمَا تَرَى ، فَمُتْ يَا مَلَكَ المَوْتِ ، فَيَمُوتُ مَلَكُ المَوْتِ وَيَبْقَى مَلِكُ المُلُوكِ» . يبقى ملك الملوك ـ جلَّ جلاله ـ وَحْده .. كان آخرًا كما كان أوَّلًا ، وكان ظاهرًا كما كان باطنًا ، فليس فوقه شيء ؛ فهو الأول فليس قبله شيءٌ ، وهو الآخر فليس بعده شيءٌ ، وهو الظاهر فليس فوقه شيء ، وهو الباطن فليس دونه شيء ، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣] ، وفي وسط هذا السكون المذْهل ينطلق صوتٌ جليلٌ مهيب ، يسأَلُ صاحبُ هذا الصوت ويجيب . فما من سائلٍ غيره يومئذٍ ولا مجيب ، مات أهل السماء والأرض ، فيقول ﷻ :« لِمَنْ المُلْكُ الْيَوْمِ ؟ » لا يجيب الواحد الأحد أحد ، فيردُّ الواحد الأحد ، ويقول :﴿ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦].

○ وفي رواية في «الصحيحين»[(١)] : « يَقْبِضُ الله الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا المَلِكُ ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ ؟» .

○ وفي لفظِ مسلم[(٢)] : « أَيْنَ الجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ ؟ » .

○ أقول : وبعد أربعين لا يعلم حقيقتها إلا رب العالمين ، يرسل الله تبارك وتعالى ماء ، وينزل على الأرض مطرًا كالطَّل ؛ كما في «صحيح

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الرقاق» ، باب يقبض الله الأرض (٦٥١٩) ، ومسلم كتاب «صفة القيامة» ، (٢٧٨٧) عن أبي هريرة .

(٢) كتاب «صفة القيامة» ، (٢٧٨٨) .

مسلم»[(١)] : «**ثُمَّ يُرْسِلُ الله ـ أَوْ قَالَ : يُنْزِلُ الله ـ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ ، أَوْ الظِّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ**»[(٢)] أي : يشبه منيَّ الرجال ، وفي لفظٍ[(٣)] : «**ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ**» فينزل الماء على الأجسام والأجساد ، فتنبت الأجسام تحت الأرض أو في القبور بعد الصعق كما ينبت البقل ؛ فإذا أراد الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يحيي خلقه ، أحيا إسرافيل ، وأمره أن يلتقم الصور ، وأن ينفخ فيه النفخة الثالثة ؛ ألا وهي نفخة البعث ؛ للقيام من القبور ، ومن باطن الأرض ، فيُؤْتَى بالأرواح ، تتوقد أرواح المؤمنين نورًا ، وأرواح الكافرين تتوهج ظلمة ؛ فتُعاد الأرواح إلى الأجسام ، ليخرج كلُّ إنسان خَلَقه الله ﷻ من لدن آدم إلى هذه الساعة ، وتنبت هذه الأجسام من عَظْمٍ دقيقةٍ جدًّا ، هذه العظمة تُسمَّى: عَجْب الذنب .

تدبر ماذا قال النبيُّ ﷺ ؟ وهذا لم يكتشفه العلماء إلا من سنوات قليلة جدًّا ماضية ، ليتأكد لكلِّ مسْلِمٍ أن المصطفى ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ ففي الحديث الذي ـ تقدَّم ـ[(٤)] «**لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا ، وَهْوَ عَجْبُ الذَّنَبِ ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» ؛ لأنه أول

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن» ، باب في «خروج الدجال» (٢٩٤٠) عن عبد الله بن عمرو .

(٢) قال النوويُّ في «شرح مسلم» (٩/ ٣٣١) : «قال العلماء : الأصح الطل بالمهملة ، وهو الموافق للحديث الآخر (أنه كمني الرجال) » .

(٣) تقدَّم تخريجه ، وهو جزءٌ في حديث : « **ما بين النفختين أربعون** » .

(٤) عند الشيخين ؛ الذي أوله : « ما بين النفختين » .

ما خلق من الإنسان ، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه[(١)] .

قال النوويُّ[(٢)] : « قوله : «**عجْبُ الذَّنَبِ**» هو بفتح العين ، وإسكان الجيم ، أي: العظم اللطيف الذي في أسفل الصُّلْب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له «عجم» بالميم ، وهو أول ما يخلق من الآدمي » .

عجب الذنب عَظْمةٌ لا تزيدُ عن حَبَّة العدس ، توجد في آخر السلسلة الفقرية لكل إنسان خلقه الله ﷻ على وَجْه الأرض ، يأتي الله بهذه العظمة ، والله سبحانه أعلم بعظمة كلِّ إنسان خَلَقه من لدن آدم إلى هذه الساعة ، فيأتي بها ، ويركِّب جسدُ صاحبها حولها ، ويجمع ما تناثر منه في التراب ؛ ما أكلته البحار أو الأسماك أو السباع ، وتكتمل الأجساد تحت الأرض في القبور ، ويأمر الله إسرافيل بالنفخ في الصور ، ويعود كلُّ روح إلى جسده ، ويأمر الله الأرض بعد النفخة الثالثة (نفخة البعث) أن تتزلزل ، وأن تنشق ، وأن تتخلص من هذا الحمل الثقيل الذي كان في بطنها .

● قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ١-٨] .

---

(١) «شرح النسائي» (٣/ ٣٠٨) ، و«تنوير الحوالك» (٢٤٧) للسيوطي ، وانظر: «فيض القدير» (٥/ ١٢) للمناوي .

(٢) («شرح مسلم» ٩/ ٣٤٣) .

● وقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ﴾[طه: ١٠٥-١٠٨] ، **مَنْ هذا الداعي ؟ مَلَكٌ من ملائكة الله** ﷻ **ينادي في الخلق ليتبعوه للوقوف بين يدي الله سبحانه للحشر،** ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾[طه:١٠٨].

● اقرأ قول ربي : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾[ق:٤١، ٤٢].

● واقرأ قول الله : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[غافر: ١٨ ، ١٩].

تدبر كلام الله سبحانه وتعالى ، وعش بقلبك وعقلك وكيانك هذه اللحظات التي تخلع القلوب ـ ورب الكعبة ـ بل وتقفز بالفعل من الصدور ، وتبلغ القلوب الحناجر من شدة هذا الهول ، ومن عِظَم هذا الفزع . يخرج الخلائق من القبور ـ من تحت الأرض ـ حفاةً لا يلبسون في أقدامهم نعالاً ، عراة لا يلبسون على أبدانهم ثيابًا ، غُرْلًا ، وهو جمع أَغْرل ، والأغرل هو الصبيُّ قبل أن يختتن ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

تابع معي هذه المشاهد التي تخلع القلب ، واعلم أن أحوال الناس مختلفة ؛ فمن الناس من يبعث ، فيخرج من قبره والنور يُشْرق من وَجْهه وبين يديه وعن يمينه ـ اللهم اجعلنا من أهل الأنوار .

● قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[الحديد: ١٢] بشراكم يا أهل الإيمان ، بشراكم يا أهل التوحيد ، بشراكم يا من تنتسبون إلى محمد بن عبد الله ﷺ .

● وقال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[التحريم: ٨] .

○ قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ والأثر رواه الطبريُّ وابن أبي حاتم [(١)] بسندٍ صحيح ـ قال : « يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورًا على إبهامه يطفأ مرة ، ويَقد مرة » ، ومنهم من تحيط الظلمة به من كلِّ ناحية ، ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (لسورة الحديد : ١٢) ، وابن أبي حاتم ؛ كما في ابن كثير (البقرة : ٢٠) و« الحديد : ١٢» .

نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ينادي أهل الظلمات أهل الأنوار ، وينادي أهلُ النفاق أهل التوحيد والإيمان ، ألسنا كنا معكم في الدنيا ؟ كنا نصلي معكم جماعات ؟ كنا نصوم معكم رمضانات؟ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ ، أي : تشككتم فيما ذُكِّرتم به من كلام الله وكلام رسوله ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]

● **«وَمِنْهُمْ مَنْ يُبْعَثُ ، يَنْبَعِثُ مِنْهُ دَمٌ ، اَللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»** ، مَنْ هؤلاء؟ هؤلاء هم الشهداء الذين قتلوا في سبيل رب الأرض والسماء ؛ قال الحبيب ﷺ كما في «الصحيحين» (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ ، وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ** » وهذا الذي يُجرح في سبيله تعالى لا من أجل دنيا ، ولا من أجل زعامة ، ولا من أجل شهامة ، ولا من أجل وطنية ، أو جرأة ؛ بل من أجل الله ، يأتي وهو يشخب دمًا ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك .

● **ومنهم مَنْ يبعث أول ما يخرج من القبر ، يقول : لبيك اللهم لبيك ،**

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب «من يجرح في سبيل الله» (٢٨٠٣) ، ومسلم ، كتاب «الإمارة » ، باب «فضل الجهاد والخروج في سبيل الله» (١٨٧٦) عن أبي هريرة .

لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . من هذا ؟ إنه رجل مات وهو يعتمر ، أو يحج ، مات بلباس الإحرام ملبيًا.

● قال ﷺ كما في «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(١) فمن مات على طاعة يُبعث على نفس الطاعة ، ومن مات على معصية بُعث على نفس المعصية ـ إن لم يتب إلى الله عز وجل .

● **ومنهم من يبعث وبطنه منتفخةٌ** ، إذا أراد أن يقف ويمشي لا يستطيع ؛ بل يقع على الأرض ، وإذا جلس على الأرض يتلبط يمينًا وشمالًا ، لا يقدر على المشي ، مَنْ هؤلاء ؟ إنهم أكلة الربا ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ﴾ أي : لا يقومون يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥] .

● **ومنهم من يبعث وحوله مجموعة من الأطفال الصغار يجرونه جرًا ويدفعونه دفعًا** ! إلى أين ؟ ليوقفونه بين يدي ملك الملوك !! مَنْ هؤلاء ؟ هؤلاء هم اليتامى ، وهذا آكل أموال اليتامى ظلمًا ؛ قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] .

(١) أخرجه مسلم كتاب «صفة القيامة» ، باب « الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت » (٢٨٧٨) .

● ومنهم من يبعث وهو يحمل ما سرقه في الدنيا .

● قال جلَّ جلاله : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١] اللهم استرنا ولا تفضحنا .

مشاهد تخلع القلْب .

● ففي الحديث الذي رواه «البخاريُّ ومسلم»(١) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً » فقالت عائشة للنبيِّ ـ عليه الصلاة والسلام : يَا رَسُولَ الله ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ قال ﷺ : « يَا عَائِشَةُ ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ » .

○ وفي لفظ البخاري : « الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ » .

والله لو تدبرت هذا الحديث لتخيلت وتصورت حجم الهول والفزع .

● قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ أي : التي تصخُّ الآذان بهولها ، وفزعها ، ورعبها ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ ﴾ » أي : وزوجته ﴿ وَبَنِيهِ ﴾ ولماذا يفرُّ الرجُلُ من أولاده ، وزوجته ، وأبيه ، وأمه ، وأخيه ؟ قال تعالى : ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس] ، فالكلُّ مشغولٌ بحاله لا يلتفت أحدٌ إلى أحد ، بل ولا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب : كيف الحشر (٦٥٢٧) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة ، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) .

تلتفت أمٌّ إلى رضيعها ، تلك الأم التي يُضربُ بها المثل في الرحمة؟ تلقي رضيعها في الأرض؛ بل تُسْقِطُ حملها ، مِنْ هول ما ترى، ومن فزع ما تشاهده!!

وبكل أسف لقد أنكر من أنكر قضية البعث ، وظنوا أن الحياة تنتهي بالموت !! وظنوا أنه ليس هناك عرض على الله ، ولا حساب بين يدي الله تبارك وتعالى !!

والله الذي لا إله غيره ستبعث ـ أيها العبد ـ بعد الموت ؛ بل لقد أمر الله نبيه المصطفى ﷺ أن يقسْم على ذلك ؛ فقال تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [التغابن: ٧] قُلْ يا محمد : ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبۡعَثُنَّ ﴾ لأن الكفار زعموا أنهم لن يبعثوا ، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٩] ، ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٤] ، إنها حقيقة لابد أن يعلمها الجميع أنَّ بعد الموت بعث ، وقد ضرب الله ـ جلَّ وعلا ـ الأمثلة في قرآنه على قضية البعث بعد الموت ، حتى لا يظن أحدٌ أن الحياة ستنتهي بالموت ، وستُطْوى صفحةُ حياته عند هذا الحد وفقط !! لا ..

● لقد جاء قديمًا للمصطفى ﷺ العاصي ! العاص بن وائل بعظامٍ بالية يفتها بين يديه ، كما في « المستدرك » و« تفسير ابن أبي حاتم » وغيرهما بسندٍ صحيحٍ عن ابن عباس قال : جاء العاصُ بن وائل السهمي إلى رسول ﷺ بعظْمٍ حَائِلٍ ففتَّهُ بِيَدِهِ ، فقال: يا محمَّدُ ، أَيبْعَثُ الله هَذَا بَعْدَ مَا أَرِم ؟

قال: «**نعمْ، يبْعثُ الله هذا، ثُمَّ يميتُك، ثُمَّ يُحْيِيك، ثُمَّ يُدْخِلُك نارَ جهنَّم**»[(١)].

فنزل قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

[يس: ٧٧-٨٣]

● قال ربنا في الحديث القدسيِّ الذي رواه «**البخاريُّ**»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن الصادق رسول الله ﷺ: «**قَالَ الله: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ**»! كذبت ربك يا ابن آدم،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ـ كما في ابن كثير ـ (تفسير سورة يس: ٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٦٥) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، والبيهقي في البعث، والإسماعيلي في «معجمه» والضياء في «المختارة» ـ كما في «الدر المنثور» (سورة يس: ٧٧-٨٣) ـ من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس. وأخرجه الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة يس: ٧٨) عن سعيد بن جبير قال: جاء العاص بن وائل السهمي فذكره (ولم يذكر ابن عباس) وأورده الشيخ مقبل رحمه الله في الصحيح المسند من أسباب النزول (١٩٧).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة: (قل هو الله أحد) (٤٩٧٤) و (٤٩٧٥).

وشتمت ربك يا ابن آدم « **فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ** » الله الذي خلق من العدم قادرٌ على أن يعيد من وجود ؛ بل قادرٌ على أن يعيد من العدم ، وعلى أن يخلق من العدم ؛ قادرٌ على كل شيء سبحانه ، ثم قال تعالى : « **وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ! وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُأً أَحَدٌ** » .

● قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] ؛ بل وذكر الله - جلَّ وعلا - لنا في قرآنه أمثلةً رائعة على قضية البعث بعد الموت .

● اقرأ معي قول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٥٨ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ

قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ٢٥٨- ٢٥٩] .

فهذا رجلٌ من بني إسرائيل (١) ضرب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ به المثل لقضية البعث بعد الموت ، يركب حماره ، فأماته الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مئة عام ، ثم بعثه ، وسأله ربنا ـ جلَّ وعلا ـ عن طريق المَلَكِ كم لبثت ؟ فنظر فوجد الشمس تميل إلى الغروب فظن أنها شمس اليوم الذي نام فيه، فقال : ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ . ولكن كيف أعرف ؟ لابد من وجه مقارنةٍ ثابت ووجه مقارنةٍ متغير .

● **أما وجه المقارنة الثابت فهو** : الطعام والشراب ؛ لذا قال : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾أي: لم يتغير لونه ولا طعمه ولا ريحه .

أريد منك أن تأتي بديب فريزر على وَجْه الأرض الآن فتحتفظ فيه بالطعام والشراب لمدة مئة سنة لابد أن يتغير لون الطعام وطعمه وريحه !! سبحان من هو على كل شيءٍ قدير ؛ هذا وجه المقارنة الثابت.

● ● **ووجه المقارنة المتغير** : أن الحمار صار عظامًا بالية ، فأمر الله ﷻ بإحياء الحمار ، بدأت العظام تتجمع من هنا ومن هناك : الرِّجْل مع الرجل ، واليد مع اليد ، وعظام الوجه لعظام الوجه ، وعظام الظهر لعظام الظهر ، ثم كُسيت العظام باللحم ، ثم نفخت فيه الروح ؛ فنهق الحمار بإذن الله ـ جلَّ وعلا ـ ، أحياه الله أمام عينيه وبين يديه فقال العُزَير : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

(١) اختلف أهل العلم في هذا المار ، مَنْ هو ؟ والمشهور أنه عزير ؛ كما قال ابن كثير في «التفسير» (٢/ ٤٥٣ ط أولاد الشيخ) .

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

○ وبعدها ؛ يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة:٢٦٠] وإبراهيم عليه السلام لم يشك [١] .

كما تقول لي : ابنك في هذه السنة تحصل على ١٠٠٪ في الثانوية العامة ، وهذه هي الشهادة ، فأقول : ما شاء الله ، كيف حصلت على هذا المجموع ؟ وأنا لا أشك في أنه حصل عليه ، فإبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي : قطِّعهن ، علِّم كلَّ طير ، وتعرَّف

---

(١) • وفي «**الصحيحين**» (البخاريِّ ، كتاب التفسير ، باب : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٤٥٣٧) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إبْراهِيمَ إذْ قَالَ** : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ » .

• **قال الحافظ ابن كثير- رحمه الله:** « ليس المراد ها هنا بالشك ما قد يفهمه مَنْ لا علم عنده بلا خلاف ، وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة ؛ أحدها ...» ا.هـ وتلخيصها فيما يلي :

○ منهم من حمل النصَّ على ظاهره ، وقال : إن سبب حصوله وسوسة الشيطان ، وقال آخرون : كان ذلك قبل النبوة ، ومنهم من قال: إن المعنى: نحن أشد اشتياقًا إلى رؤية ذلك من إبراهيم عليه السلام ، ومنهم من قال : إن معناه : أننا إذا لم نشك فإبراهيم أولى أن لا يشك ، أي لو كان الشك متطرقًا إلى الأنبياء ، لكنت أنا أحق به منهم ، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك ، وإنما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذلك تواضعًا منه ، أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم ، وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم : « أن رجلاً قال للنبيِّ صلى الله عليه وسلم : يَا خَيْرَ البَرِيَّة قال : «**ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ**» ومنهم من قال : إنه دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، أي من طلب المعاينة فليس الخبر كالمعاينة» . (انظر : «الفتح» ٦/ ٤٧٤ ، ٤٧٥) .

عليهن معرفةً واضحة ﴿ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنۡهُنَّ جُزۡءًا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيًا ﴾ ولم يقل : يأتينك طيرانًا ، بل يأتينك سعيًا ، ليرى إبراهيم بعينه كلَّ طائر على حقيقته ، وانفراده .

○ بل لقد ذكر الحافظ ابن كثير وغيره (١) : أن إبراهيم أخذ بيده رؤوس الطير، فإذا ما اجتمع عليه الجسد، وكُسي العظم باللحم ، وكُسي بالريش، وتقدم للخليل إبراهيم ، فقدَّم له رأسًا غير رأسه لا تلتئم ! ، فإذا قُدِّمت رَأْسُه التئمت ، ثم جاء هذا الطائر سعيًا لإبراهيم أمام عينيه وبين يديه ﴿ ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيًاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

○ وهل تذكرون قصة أصحاب الكهف ؟ يقول رب العزة تبارك وتعالى: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا ﴾ [الكهف: ٢٥] الله أكبر ! ٣٠٩ سنة في الكهف ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴾ [الكهف: ١٢] أحياهم الله ﷻ وبعثهم بعد سنين طويلة من الموت.

○ وأختم هذه الجزئية بهذا الحديث الجميل الذي يبين لنا نبينا ﷺ فيه قضية البعث ؛ كما في «الصحيحين» (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٥٦) ، و«تفسير البغوي» (١/ ٣٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب «يريدون أن يبدلوا كلام الله» (٧٥٠٦) ، ومسلم كتاب «التوبة» ؛ باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦) .

« قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ : فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ » .

نعم ؛ المخافه والخشية من الله تبارك وتعالى تغفر الذنوب ، انظر إلى فضل الخوف ؛ وإلى فضل الخشية .

○ وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجه (١) بسندٍ حسن من حديث بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ أُصْبُعَهُ ثُمَّ قَالَ :

« قَالَ اللهُ: ابْنَ آدَمَ ! أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ ؟ حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ ، فَجَمَعْتَ ، وَمَنَعْتَ ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ : أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ » .

● قال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠) وابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب النهي عن الإمساك في الحياة ، والتبذير عند الموت (٢٧٠٧) ، والحاكم (٣٨١٤ ، ٨٠٣١) ، وقال البوصيريُّ : «وإسناده صحيح» . وصححه العلامة الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٠٩٩) .

يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

[الانفطار: ٦-١٩]

● وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٠] .

وماذا بعد البعث ؟ وماذا بعد الخروج من القبور ؟ هاهو الداعي وهو ملكٌ من ملائكة الله ـ جلَّ وعلا ـ أرسله الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ ليقود البشرية كلَّها إلى أرض المحشر !! قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] .

تدبروا قولَّ ربي ﷻ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨] .

○ **أيها الأفاضل** : ما الحشر؟ وما هي الأرض التي سيحشر عليها الخلق ؟ وما هي صفاتها ؟ وما هي أصناف الناس وأحوالهم حين يحشرون إلى ربِّ العالمين تبارك وتعالى ؟ وما هي أهوال هذا الموقف من مواقف القيامة ؟

هذا ما نتعرف عليه في الباب القادم إن شاء الله .

*****

أرض المحشر وأهوال القيامة

أمر الله ﷻ إسرافيل أن ينفخ في الصور النفخة الثالثة ؛ ألا وهي : نفخة البعث ؛ كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

[الزمر: ٦٨]

إذا بعث الله الخلائق جميعًا ؛ فإن أول من يُبْعَثُ هو الحبيب المصطفى ﷺ؛ كما في « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » - بأبي هو وأمي وروحي ﷺ .

○ **أيها الأفاضل** : بعث الله الخلائق جميعًا من لَدُن آدم إلى آخر رجلٍ قامت عليه الساعة ؛ ليقف الجميع بين يدي الله ﷻ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥] **تجمَّعت البشريةُ كلُّها** ، وإذا بالملِكِ - جلَّ جلاله - يرسل ملكًا من ملائكته ليقودهم إلى أرض المحشر، إلى أرضٍ جديدة .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٨] .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب «الفضائل» ، باب « تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق » (٢٢٧٨) .

ولقد وصف لنا نبينا المختار ـ بأبي هو وأمي وروحي ـ هذه الأرض وصفًا دقيقًا ؛ فقال كما في «الصحيحين» (١) من حديث سهل بن سعد الساعدي ﵁ قال : قال ﷺ :

« يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ » .

أرضٌ جديدة لم يسفك عليها دمٌ ، ولم ترتكب عليها خطيئة .

أَرْضٌ بيضاء ، صافيةٌ ، شديدةُ البياض ، « كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ » أي: كالدقيق الأبيض ، الشديد البياض ، الخالي من الغش والنخالة ، تأمل هذا الوصف النبوي ! قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ : « لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ » .أي : ليس فيها العلامات التي كنا نُعلِّمُ بها الطرقات في أرضنا أو في دنيانا ، وليس هناك بيت ، ولا شجر ، ولا نهر !

فهي أرضٌ أخرى تختلف تمامًا عن الأرض التي عاش عليها البشر آلاف آلاف السنين .

• قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٧] ؛أي : لم يتخلَّف منهم أحد .

ويبدأ الناس في تصنيف عجيب ، فيحشر صنفٌ على قدميه . في هذا الهول الرهيب ، وفي هذا الكرب العصيب ، وصنفٌ عندما يبعث من

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» ، باب « يقبض الله الأرض » (٦٥٢١) ، ومسلم كتاب « صفة القيامة » ، باب « في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة » (٢٧٩٠) .

القبور يرى ملائكة العزيز الغفور في استقباله وانتظاره ، وقد هيأت له من ركائب الآخرة مالا يعلم جمالها إلا مَنْ أَعَدَّها ؛ مَنْ هؤلاء ؟ هؤلاء هم السعداء ؛ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] أي : ركبانًا ؛ فالتقيُّ عندما ما يبعث من قبره ربما كان في الدنيا فقيرًا لا يجد درَّاجة ، وربما لا يجد حمارًا ليركبه ، أما في الآخرة فهو لا يمشي خطوةً واحدةً على قدميه ؛ بل يجد من ركائب الآخرة ما قد هُيئ له ، والملائكة في استقباله وانتظاره ؛ لتقول له : اركب ، ولتبشره بهذه البشرى :

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠] .

انظر إلى حفاوة الملائكة بهذا الصنف الكريم !!

يُبشر هذا الصنف بالجنة حال خروجه من القبر ، ويسألهم المتقون : مَنْ أَنْتُم بَشَّرَكُمُ الله بالخير ؟ فيأتي الجوابُ : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣١] . اللهم اجعلني وإياكم من المتقين .

إذا شعر الناس في هذا اليوم بالفزع والخوف ، فإن المتقين يكونون في أمنٍ وأمان ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان:٥١] لا يفزعون إذا فزع الخلق ، ولا يحزنون إذا حزن الخلق .

● **والصنف الثالث** : أول ما يبعث من القبر يمشي على وجهه !! هل

تتصور هذا المشهد ؟ والله مشهد يخلع القلوب ، تصور وأنت تمشي في أرض المحشر أو وأنت راكب ، فترى صنفًا من الخلق أمامك وخلفك وعن يمينك وعن شمالك يمشون على وجوههم ! ترى قدمه لأعلى ووجهه على الأرض !! مشهدٌ عجيبٌ ؛ قال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

● وروى الترمذيُّ في «السنن» (١) من حديث أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ : صِنْفًا مُشَاةً ، وَصِنْفًا رُكْبَانًا ، وَصِنْفًا عَلَى وُجُوهِهِمْ ».فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ ؟ قَالَ : « إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ » .

حدب : أي : مكان مرتفع .

○ وفي رواية «البخاري ومسلم» (٢) من حديث أنس ﷺ : أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب «تفسير القرآن» ، باب سورة بني إسرائيل (٣١٤٢) ، وقال : « هذا حديث حسن » ، وأحمد (٢/ ٣٥٤ ، ٣٦٣) ، وضعف سنده الألباني في « ضعيف الجامع » (٦٤١٧) و«ضعيف الترمذي» لكن يشهد لبعض ألفاظه الرواية التي تأتي عند البخاري .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «التفسير» ، باب سورة الفرقان (٤٧٦٠) ، ومسلم في «صفات المنافقين وأحكامهم» ، باب «يحشر الكافر على وجهه» (٢٨٠٦) .

قَالَ ﷺ : « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . قَالَ قَتَادَةُ : بَلَى وَعِزَّةِ رَبِّنَا .

ونحن جميعًا نقول : بلى وعزة ربنا إنه لقادر .

إنها مشاهد رهيبة ؛ فهناك صنف راكبٌ معزز مكرم ، وهم أهل الإيمان ، وأهل التقى ، وأهل الاستقامة ، وأهل التوحيد ، وأهل الاتباع ، وصنفٌ يمشي على قدميه ، وصنفٌ يمشي على وجهه ؛ فإذا ما وصَلَتِ الخلائقُ جميعًا إلى أَرْضِ المحشر ، وأرجو أن تتدبر معي بقلبك وسمعك وعقلك وكيانك وأنت ترى البشرية كلَّها من لدن آدم إلى آخر رجلٍ قامت عليه الساعة في أرضٍ واحدة ، في موقفٍ واحد على أرض المحشر ، ثم دنت الشمس من الرؤوس ، ولا يعلم حقيقة هذه الشمس إلا الله ، قال ـ عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] .

● قال النبيُّ المختار ؛ كما في «صحيح مسلم» [١] من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : « تُدْنَى ـ أي : تقترب ـ الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ » قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ قَالَ: « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب «في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها» (٢٨٦٤) .

يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْـجَامًا » قَالَ : وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

ثم يزداد الهمُّ ، والكرب بعد كلِّ ذلك !! هل هناك كربٌ آخر أشدُّ ؟ نعم ، ما هو هذا الكَرْب ؟ « **يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ** » يا رب سلِّم ! ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر:٢٣ـ٢٦] .

يقول الصادق الذي يصف لنا أهوال هذا اليوم وصفًا دقيقًا كأننا نراه ـ بأبي وأمي وروحي كما في «صحيح مسلم» (١) : « **يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يومئذ** » أي : إلى أرض المحشر « **لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا** » يا رب سلِّم !!

فإذا رأت جهنمُ الخلائقَ زفرت وزمجرت ! غضبًا منها لغضبِ ربِّها جلَّ جلاله ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى يغضب في هذا اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، كما قال رسل الله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ في حديث الشفاعة الشهير الذي سيأتي بطوله .

● الشمسُ فوق الرؤوس ، والناس غارقة في العرق ، وجهنم تزفر وتزمجر

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » ، باب « في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها » (٢٨٤٢)، وانظر : «التتبع» للدارقطني (ص٢٢٦، ٢٢٧)، وكذا «علله الكبير» (٧٣٢) فقد قال : «والموقوف أصح عندي» ا. هـ وله حكم الرفع .

غضبًا منها لغضب الملك الحق ، والخلائق في رُعْب رهيب ، ولا أستطيع أن أبين ، مهما أوتيتُ شيئًا ولو يسيرًا ، من هذا الهول والفزع الذى يصيب البشرية كلَّها بلا استثناء ؛ حتى الرسل ؛ كما في «الصحيحين» (١) من حديث أبي هريرة ﵁ قال : قال ﷺ : « يَجْمَعُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ ، فَيبْلُغُ النَّاسَ من الغَمِّ والكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُون ومَا لاَ يَحْتَملُون ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلاَ تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : ائْتُوا آدَمَ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْـمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ ، وَسَمَّاكَ الله : عَبْدًا شَكُورًا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأنبياء ، باب «ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه» [هود: ٢٥]) (٣٣٤٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» (١٩٤) .

إِبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُونَ : أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ـ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا ـ نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيَأْتُونِّي ، فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ (فَأَقُولُ : أَنَا لَهَا)[1] ، قال : فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ ،

---

(١) هذه الرواية عند البخاريِّ ، كتاب «التوحيد» ، باب «كلام الرب عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم» (٧٥١٠) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» (١٩٣/ ٣٢٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ » .

وهذا هو المقام المحمود الذي يغبطه عليه كلُّ نبيٍّ مرسلٍ ؛ وقد قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩] .

○ **وأنا أقول : والله لا يعرفُ قَدْر النبيِّ إلا الربُّ العَليُّ ، فحبيبنا ﷺ** تتجلى كرامته ومكانته في هذا الموقف العصيب الرهيب ؛ حيث يقول الخليل إبراهيم : نفسي ، ويقول موسى الكليم : نفسي ، ويقول عيسى : نفسي ، ويقول نوح : نفسي ، ويقول آدم أبو البشرية : نفسي لكن الحبيب يقول : أنا لها.

○ **أيها الأحبة :** هذه كرامةُ رسول الله ﷺ ومكانته عند الله : « **يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ، أُمَّتِي أُمَّتِي** » فيقدِّمُ الحبيب أمته على جميع الأمم .. الأمةُ التي لم تَعُدْ تعرف قَدْر نبيها ﷺ - إلا من رحم الله جلَّ وعلا - ، والله لو عرفت الأمة قَدْر نبيها ما كان هذا حالها ، آهٍ لو عرفت الأمة قَدْره ، وعادت إلى هديه ؛ فامتثلت أمره ، واجتنبت نهيه ، ووقفت عند حَدِّه ، والتزمت شريعته ، ونشرت دعوته ، والله لو فعلت ذلك ما تطاول قزمٌ هنا أو هناك أو هنالك على قِمَّة القمم ، وعلى دُرَّة تاج الجنس البشرى كلِّه ، فما تطاول هؤلاء

الأقزام على رسول الله ﷺ إلا لتقصيرنا نَحْنُ ! وإلا بذنوبنا نحن ! وإلا بابتعادنا عن حبيبنا ونبينا ﷺ !!

● وفي حديث الصور الطويل الذي خرّجته آنفًا في الفصل السالف الذي رواه أبو يعلى الموصليُّ في «الكبير» والبيهقيُّ في «البعث» والطبرانيُّ في «الطوالات» والطبري وغيرهم ـ وفي سنده ضعفٌ [(١)] من باب الأمانة العلمية ؛ ففي سنده إسماعيل بن رافع وهو ضعيف ، وفى سنده أيضًا محمد بن زياد وهو مجهول ـ في هذا الحديث : يقولُ الله ـ جلَّ وعلا ـ لحبيبنا المصطفى ﷺ : « يَا مُحَمَّدُ ، ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ » فيقول الحبيب ﷺ : «يَا رَبِّ وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةُ فَشَفِّعْنِي فِي خَلْقِكَ » الله أكبر !! « فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ » ، هذه هي الشفاعة العامة ؛ فهناك شفاعةٌ للأمة ، وشفاعةٌ عامة لكل الخلق ، يشفع النبيُّ ﷺ لكل البشر ليقضى الله ـ عزَّ وجلَّ بين الخلق ، حتى لا يقف الناس هذا الموقف الرهيب العصيب في أرض المحشر ؛ فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ : « قَدْ شَفَّعْتُكَ ، أَنَا آتِيكُمْ لِأَقْضِيَ بَيْنَكُمْ ، قال ﷺ : « فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ النَّاسِ » وتبدأ ملائكة الله ـ جلَّ وعلا ـ تنزل لتحيط بالخلائق صفوفًا صفوفًا من كل جانب ، ثم يتنزل حملة العرش ويقولون : « سُبْحَانَ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ ، سُبْحَانَ ذِي الْعِزَّةِ وَالْجَبَرُوتِ ، سُبْحَانَ مَنْ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْخَلَائِقِ ، وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ، رَبُّ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحِ ؛ فيقول أهل

(١) وراجع كلام الحافظ في «الفتح» (١١/ ٣٦٨) .

الأرض للملائكة : **أَفِيكُمْ رَبُّنَا ؟ فَيَقُولُونَ : لَا وَهُوَ آتٍ** » وهو ـ سبحانه ـ آتٍ إتيانًا يليق بكماله وجلاله:

● قال سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] .

○ أخي : لا تعطل صفة المجيء ، ولا تشبه ، ولا تمثل ، ولا تجسم ، فكلُّ ما دار ببالك ، فالله بخلاف ذلك ، يتنزل الملك تنزلًا يليق بجلاله وكماله ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ، سبحانه جلَّ عن الشبيه ، وعن النظير ، وعن المثيل ، لا كفء له ، ولا ندَّ له ، ولا والد له، ولا ولد له : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤] .

يتنزل الملك ﷻ وينصب العرش والكرسي حيث شاء وأراد ، ثم يهتف وينادي ويقول ـ جلَّ جلاله : « **أَيُّهَا النَّاسُ ، لَقَدْ أَنْصَتُّ إِلَيْكُمْ كَثِيرًا مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا ، أَسْمَعُ صَوْتَكُمْ ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ ، فَأَنْصِتُوا الْيَوْمَ إِلَيَّ ؛ فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ** » .

● قال جلَّ جلاله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ

مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٥].

تَذَكَّر وقُوفك يَوْم العرض عريانا ... مستوحشاً قلِقَ الأحشاء حيرانا
والنار تَلْهَب مِنْ غيظ ومِنْ حَنَق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدُ على مَهَلٍ ... فهَلْ ترى فيه حرفًا غير ما كانا
فلما قرأتَ ولم تُنْكِرْ قراءته ... وأقررْتَ إقرار مَنْ عَرَف الأشياء عرفانا
نادى الجليلُ خُذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبدٍ عصىَ للنار عطشانا
المشركون غدًا في النار يلتهبوا ... والموحِّدون لدارِ الخُلْد سُكَّانا

اللهم اجعلني وإياكم من أهل التوحيد والإيمان ، واسترنا يا أرحم الراحمين ؛ قال تعالى:

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٢-٣٠].

هل تدرون ـ أيها الأفاضل ـ مَنْ هو أول مَنْ ينادى عليه ربُّنا ـ جلَّ وعلا ـ في هذا اليوم الرهيب ؟ إنه آدم عليه السلام !

● ففي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا». ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا - أي: كبَّر الصحابة؛ فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

○ ثم يُنادى على نوح؛ كما في «صحيح البخاري»[(٢)] من حديث أبي سعيد الخدريِّ ﵁ أن الحبيبَ النبيَّ ﷺ قال: يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الأنبياء»، باب «قصة يأجوج ومأجوج» (٣٣٤٨)، وكتاب «الرقاق»، باب قوله ﷻ: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٥٣٠)، ومسلم كتاب «الإيمان»، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار (٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب «تفسير القرآن»، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٤٤٨٧).

شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] **ويكون الرسول عليكم شهيدًا** » ـ يا للعجب على قوم نوح ! ٩٥٠ سنة دعاهم ومع ذلك يزعمون أنهم لم يروه !! ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤] ومع ذلك يقولون: ما أتانا من نذيرٍ وما أتانا من أحد !! لكن الأمة المحمدية تشهد لنوح بالبلاغ .. ثم قال: فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣] .«والوَسَطُ : العَدْلُ ».

○ **وفي رواية ابن ماجة** [١] **بسندٍ صحيح عن أبي سعيد الخدري** ﷺ ، يقول ﷺ : « **فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، فَيُقَالُ : هَلْ بَلَّغَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ ؟** » ـ يعني : نحن لم نشهد نوحًا فكيف نشهد له بالبلاغ ؟ ـ فتقول الأمة المحمدية الميمونة : « أَخبَرَنا نبيُّنا ﷺ **بذلك أَنَّ الرُّسُلَ** قد بلغوا فَصَدَّقْنَاه » ، يعني : آمنا بكلِّ ما جاء عن رسول الله ﷺ .

○ ثم ينادى على عيسى ؛ قال الله ـ جلَّ جلاله :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب «الزهد» ، باب «صفة أمة محمد ﷺ »(٤٢٨٤) ، وأحمد (٣/ ٥٨) وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه.

قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩] .

○ ثم ينادى على جميع الرسل في هذا اليوم ؛ يقول ـ جلَّ جلاله : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩] .

قال الحسن ومجاهد وغيرهما (١) : إنما قالوا ذلك من الهول والفزع والرعب . قال تعالى : ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] حتى الرسل والأنبياء يُسألون عن إبلاغ رسالته ؛ فالجميع يسألون !! إنه موقفٌ صعبٌ جدًّا ، الشمس فوق الرؤوس ، وجهنم تزفر ، والملك جَلَّ جَلَالُهُ ينادى على آدم : « **أَخْرِجْ بَعْثَ النَّار** » . كما تقدَّم ، تدبر هذا ، والله لا يستطيع بليغٌ مهما آتاه الله من البلاغة ، وفصاحة البيان ، وجميل التبيان أن يُجسِّد أو أن يُعبِّر عن شيءٍ من هذه المعاني كما هي !!

(١) «تفسير ابن كثير» (لسورة المائدة : ١٠٩) (٥/ ٤١٠ ط أولاد الشيخ) .

○ أقول : في ظلِّ هذا الرُّعْب ، وفي ظلِّ هذا الموقف الرهيب لا توجد بِحَار ، ولا أنهار ، ولا أشجار ، ولا بيوت ، إنها أرض بيضاء مثل الدقيق الأبيض الصافي ، لم يرتكب عليها ذنب ، ولم يُسفك فيها دمٌ (١) ، والناس غارقة في العرق !!

● وفي ظلِّ هذا الرعب يُنادى على مجموعةٍ من الخلق ؛ ليظلهم الله ـ جلَّ وعلا ـ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ! مَنْ هؤلاء ؟ روى «البخاريُّ ومسلم» (٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : « **سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ** » انظر مكانة الحاكم العادل ، الذي يُسْعِدُ رعيته ، وتسعد به رعيته يكون في ظلِّ عرش الملك .

« **وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ** » ـ أبشر أيها الابن الحبيب ، يا من استعليت على شهواتك ، وقبضت على دينك ، وكأنك تقبض على الجمر ، وسْطَ هذه الفتن ، فهذه بشرى لك لو حبست نفسك على ذلك حتى تلقى الله .

« **وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ** » .

يخرج من المسجد ، وهو في اشتياق للرجوع إليه مرة أخرى ليصلي

---

(١) أخرج الطبريُّ في «تفسيره» (لسورة إبراهيم: ٤٨) عن ابن مسعود أنه تلا هذه الآية ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قال: «يُجاء بأرضٍ بيضاء كأنها سبيكة فضة ، لم يسفك فيها دم ، ولم يُعمل عليها خطيئة» والأثر صحيح .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب «الأذان» ، باب «من جلس في المسجد ينتظر الصلاة» (٦٦٠) ومسلم ، كتاب «الزكاة» ، باب «فضل إخفاء الصدقة» (١٠٣١) .

الفريضة التي بعدها في المسجد ، فترى قلبه كأنه قنديل معلقٌ في سقف بيتٍ من بيوت الله .. يهوى العودة إلى بيت الله بمجرد انتهاء الفريضة .

« **وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ** » .

أسأل الله أن يجعلني وإياكم جميعًا من هذا الصنف ؛ ما أحببتني ـ أيها الحبيب ـ إلا لله ، وأنا والله ما أحببتك إلا لله وأنا لا أعرفك ، ولكنني أحِبُّ كلَّ مُوحِّدٍ لله تبارك وتعالى .

« **وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ** ـ في رواية مسلم : **بِصَدَقةٍ فَأَخْفَاهَا** ـ **أَخْفَى ، حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ** » .

رجلٌ مُخْلِصٌ لا يبتغي بعمله إلا وجه ربِّه سبحانه ، ولا حرج أن تتصدق في العلانية إن أردت أن يقتدي بك غيرك من أهل الخير ، لكن هذا الرجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه !!

« **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ** » .تتذكر عظمة الله وجلاله حيثما تكون خاليًا فتبكي من خشيته سبحانه ؛ قال ﷺ « **لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ** ﷻ **حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ** » [١] اللهم اجعلنا وإياكم ممن يبكون من خشيته ، وممن يبكون من جلاله وعظمته ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٥) ، والترمذي كتاب «الزهد» باب ما جاء في «فضل البكاء من خشية الله » (٢٣١١) وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح» ، والنسائيُّ في كتاب «الجهاد» باب «فضل من عمل في سبيل الله على قدمه» (٦/ ١٢) وصححه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٧٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

○ والسؤال : هَلْ هناك أناس آخرون سيستظلون بظل العرش ؟

● والجواب : نعم .

فقد قال ﷺ ؛ كما في «صحيح مسلم»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

« **إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ الْـمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي** » إنه الحب في الله .

وهكذا يُنادى على أهل الحب في الله ويبشرهم الله بتلك البشارة العظيمة .

○ وكذلك مَنْ أَنْظَر معسرًا ؛ كما في «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث أبي اليَسَر ـ الطويل ـ وفيه: أن النبيَّ ﷺ قال :

« **مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ ، أَظَلَّه اللهُ في ظِلِّه** » .

رجل أعطيته مبلغًا من المال ولا يستطيع رَدَّه ، فأَمْهِلْهُ بدون زيادة ، وبدون ربا ؛ وقُلْ له : ما عليك يا أخي ، إن شاء الله عندما يتيسر لك الحال أعطني المبلغ ، وبأسلوب جميل ، وطِيبِ خاطر ، ورضا ، وبدون تبكيت ، وبدون مَنٍّ ، أو تجريح ، أو إيذاء ، وأعظم من ذلك إذا لم يستطع الرجلُ السَّدَاد ، وقلْت له : تجاوزتُ عنك لله تعالى .

فتكون كرامتك يا مَنْ أنذرت المعسر ، وتجاوزت عنه ، أن يُظلك الله

(١) أخرجه مسلم كتاب «البر والصلة والآداب» ، باب «فضل الحب في الله» (٢٥٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب «الزهد والرقاق» ، باب « حديث جابر الطويل ، وقصة أبي اليَسَر » (٣٠٠٦) .

ﷻ في ظلِّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله !!

نعم .. مشهد يريح القلب وسْطَ هذا الذهول والرعب والهول .

○ **ثم يبدأ الحساب !** ومشْهَدُ الحساب من أصعب مشاهد القيامة ، ويبدأ بالعرض على الملك الوهاب ، ويبدأ العرض بتطاير الصحف والكتب .

● روى «**البخاريُّ** **ومسلم**»[(١)] من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ قال :

« مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ القيامَةِ عُذِّبَ » .

فَقُلْتُ : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧ ، ٨] فقال : **«لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ ، إِنَّما ذَاكِ الْعَرْضُ ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ »** .

● وروى «**البخاريُّ ومسلم**»[(٢)] من حديث عديٍّ بن حاتم رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ

---

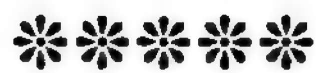
(١) أخرجه البخاري كتاب «الرقاق» ، باب «من نوقش الحساب عذب» (٦٥٣٦) ، ومسلم كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» ، باب « إثبات الحساب » (٢٨٧٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» ، باب «من نوقش الحساب عذب» (٦٥٣٩) ، ومسلم كتاب «الزكاة» ، باب « الحث على الصدقة ولو بشق تمرة» (١٠١٦/ ٦٧) .

فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » .

وقبل أن يبدأ الحساب يُدعى فريقٌ من أمة الحبيب المصطفى ﷺ ليدخلوا الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فهناك صنفٌ من الأمة لن يعرضوا على الله ـ جلَّ وعلا ـ ولن يحاسبوا بين يديه تبارك وتعالى ؟ فَمِنْ أرض المحشر إلى الجنة بغير حساب وبلا سابقة عذاب !! مَنْ هؤلاء ؟

نتعرف عليهم في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .



مشهد الحساب

كنت قد توقفت عند هذا المشهد الرهيب حين تحشر البشرية كلُّها ؛ بل تحشر الخلائق كلُّها من الجن ، والإنس ، والطير، والوحوش ، وكل الخلائق ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥] .

حشرت الخلائق كلُّها ، وحشر الناس جميعًا ، ووقفوا في أرض المحشر والشمس فوق رؤوسهم بمقدار ميل ، و« **يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا** » والحديث رواه مسلم (١) ، والنار تزفر وتزمجر غضبًا منها لغضب الله ـ جلَّ وعلا ـ والرسل جميعًا بعد شفاعة المصطفى ﷺ ليقضي الله بين الخلق يقولون : « **اللَّهُمَّ سلِّم سلِّم** » ، بل والكل غارقٌ في عرقه على قدر عمله ، في ظل هذا الهول ، وفي ظل هذا الكرب حين يأتي الملك إتيانًا يليق بكماله وجلاله .

● قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] .

● وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] .

الملك يجيء مجيئًا يليق بكماله وجلاله ؛ فكلُّ ما دار ببالك فالله بخلاف

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» ، باب «في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين» (٢٨٤٢) .

ذلك ؛ ففي ظلِّ هذا الهول والكرب ينادي الحق تبارك وتعالى ، ويأذن لزمرةٍ كريمةٍ من أمة المصطفى ﷺ لتدخل الجنة مباشرةً بغير حساب ولا سابق عذاب !

وقبل أن نبدأ الكلام عن هذا الموقف الرهيب من مواقف القيامة؛ أقول : في ظل هذا الرعب وفي ظل هذا الموكب المهيب ، تتقدم زمرة من أمة الحبيب المحبوب مباشرةً إلى الجنة بلا حساب ؛ فلن تقف هذه الزمرة في هذا الموقف الرهيب للحساب بين يدي الله تبارك وتعالى ؛ بل ولن تعذَّب لا بالموقف ، ولا في النار ؛بل تنطلق إلى الجنة بغير حساب ولا سابقة عذاب !! **مَنْ هؤلاء السُّعداء ؟**

● **والجواب من رسول الله ﷺ** ؛ ففي الحديث الذي رواه «**البخاريُّ ومسلم**»[١] من حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال الحبيب ﷺ : «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ**» متى كان هذا العرض؟ ثبت في غير رواية «الصحيحين» **عند الترمذيِّ**[٢] أن هذا العرض كان ليلة الإسراء والمعراج «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ؛ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «أحاديث الأنبياء» ، باب «وفاة موسى وذكره بعد» (٣٤١٠) ، وانظر أطرافه ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب» (٢٢٠) .

(٢) الترمذي كتاب «صفة القيامة» باب (١٦) (٢٤٤٦) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وصححه الشيخ الألبانيُّ هناك . ولفظُه: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ جَعَلَ يَمُرُّ بِالنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّيْنِ وَمَعَهُمُ الْقَوْمُ ..... » الحديث.

أي: تُعْرضُ الأمم على المصطفى ﷺ وهي في طريقها إلى الجنة ، نتصور أمة من الأمم يرسل الله لها نبيًّا كريما من أنبيائه ، فلا يؤمن من أفراد هذه الأمة الطويلة العريضة الكبيرة إلا الرهط ، أي : ما دون العشرة فقط من هذه الأمة يؤمنون بهذا النبي الكريم الذي أرسله الله إليها ، فتدخل كلُّ هذه الأمة إلى النار ، ويدخل هذا النبيُّ مع هؤلاء الأفراد القلائل الذين آمنوا بالله وآمنوا بهذا النبيِّ إلى الجنة .

ثم قال الحبيب ﷺ : « **إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي** ـ أي: رأى النبيُّ ﷺ كوكبة عظيمة وجمهرة كبيرة في طريقها إلى الجنة ، فظن أنهم الأمة المحمدية ، قال : « **فَقِيلَ لِي : هَذَا مُوسَى** ﷺ **وَقَوْمُهُ** » ـ ممن آمنوا بالله وآمنوا بنبي الله موسى ، وهذه كرامة ومنقبة لكليم الله موسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ فأين أمة محمد ﷺ ؟ أين الأمة المحمدية الميمونة المباركة ؟ قال ﷺ : « **وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ ، فَنَظَرْتُ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ** ـ رأى كوكبة عظيمة في طريقها إلى الجنة ـ **فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ** » .

وأودُّ أن نقف قليلاً مع هؤلاء ثم نعود لاستكمال الحديث ؛ لأنه جليلٌ جميل ، مَنْ هؤلاء ؟ قال ﷺ :

« **هَذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ** ».

○ وفي رواية أخرى في « الصحيحين » (١) من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال :

« يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » .

اللهم اجعلنا منهم بمنِّك وكرمك ورحمتك يا أرحم الراحمين .

○ وفي رواية أخرى في « مسند أحمد » بسندٍ صحيحٍ بشواهده (٢) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، فَاسْتَزَدْتُ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا » .

وأنا أعتقد أنه لو ضربنا السبعين ألفًا في كلِّ ألفٍ يكون العددُ قليلًا في أمة الحبيب ﷺ ، ولم تمر على النبيِّ ﷺ ، بل طلب الزيادة ، انظر إلى هذه البشرى التي بشرنا بها النبيُّ ﷺ ؛ لترفع رأسك لتعانق رأسك كواكب الجوزاء لأنك من الموحدين ، ومن أتباع سيد المرسلين . والانتساب إلى الإسلام له مقتضيات ومتطلبات ، ليس مجرد انتساب بالكلمة .. إطلاقًا ، بل بالقول

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «اللباس» باب «البرود والحبرة والشملة» (٥٨١١) ، وكتاب «الرقاق» باب «يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب » (٦٥٤٢) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب» (٢١٦ ، ٢١٧) .

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٩) ، وجوَّد إسناده الحافظ في «الفتح» (١١/ ٤١٨) ، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٤٨٤) .

وبالتصديق وبالعمل ، حتى تنال هذه الكرامة وتلك المكانة ، لا تتواكل على هذا الفضل ، وعلى هذه الدرجة ، فهذا فهمٌ مغلوط ومقلوب لهذه البُشريات التي يبشرنا بها الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، فالكريم إذا أكرمته يزداد حبًّا لك وإجلالًا وطاعةً ، أما اللئيم فيزداد تمرُّدًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

○ كما قيل :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكْتَهُ وإذا أنت أكرمتَ اللئيم تمرَّدا

فأمة النبيِّ ﷺ ما نالت هذا الشرف وهذه الكرامة إلا بتوحيدها لله وباتباعها للصادق رسول الله ﷺ ، ليست مجرد أماني ؛ فليس الدين بالتمني ولا بالتحلِّي ، ولكن ما وقر في القلب وما صدقته الأقوال والأعمال ، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قُبل منه ، ومن قال خيرًا وعمل شرًا لم يُقبل منه .

○ تدبر ما يقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في « **مسند أحمد** » و« **سنن** » **الترمذي وابن ماجه**[(١)] من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« وَعَدَنِي رَبِّي عز وجل أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠،٢٦٨) ، والترمذي كتاب «صفة القيامة» باب (١٢) (٢٤٣٧) وقال: «حديث حسن غريب» ، وابن ماجه كتاب «الزهد » باب « صفة أمة محمد ﷺ » (٤٢٨٦) وابن حبان (٧٢٤٦) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣١٧١٤) ، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١١٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (٢١٧٩) (٥/ ٢١٢) ، و« صحيح الجامع » (٧١١١) و« المشكاة » (٥٥٥٦) .

عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا ، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ » .

○ وفي لفظٍ عند ابن حبان والطبراني (١) من حديث عتبة بن عبدٍ السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

« **ثُمَّ يَتْبَعُ كُلَّ أَلْفٍ بِسَبْعِينَ أَلْفًا ، ثُمَّ يُحْثِي بِكَفِّهِ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ** » ، فكبَّر عمر بن الخطاب . لأنه استوعب المعنى ، فما هو المعنى ؟ لا أستطيع أن أوضح المعنى إلا بكلام للنبيِّ - عليه الصلاة والسلام - ؛ كما في حديث أبي سعيدٍ الخدري (٢) الطويل - وسأعود إليه بعد ذلك إن شاء الله تعالى ، وأنا أتكلَّم عن الصراط - فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسأل عن الصراط ، فيقول : « **دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ** » أي: موطن تزلُّ عليه الأقدام ولا تثبت إلا لمن ثبت الله قدمه ، اللهم ثبت أقدامنا على الصراط ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« **فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ ، كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** » ثم ذكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفاعة المؤمنين الذين نجَّاهم ربُّ العالمين لإخوانهم الذين سقطوا من فوق الصراط ؛ فيقولون : « **رَبَّنَا ، كَانُوا**

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٢٤٧) ، والطبراني في «الكبير» (١٢٦/١٧) (٣١٢) و«الأوسط» (١٢٦/١) (٤٠٢) ، و« مسند الشاميين » (١٠٤/٤) (٢٨٦٠) وقال الشيخ شعيب في تحقيق ابن حبان : «صحيحٌ لغيره» .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «التوحيد» ، باب قول الله «وجوه يومئذ ناضرة» (٧٤٣٩) ، وانظر أطرافه برقم (٢٢) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) واللفظ له .

يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ » أي : شفعنا فيهم ، فيقول ربُّنا جلَّ وتعالى : « فَيُقَالُ لَهُمْ : أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ ، فَيَقُولُ : ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ : رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا. ثُمَّ يَقُولُ : ارْجِعُوا ، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا ! لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا - فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ - وهي التي معنا في الحديث (ثُمَّ يُحْثِي رَبِّي بِكَفِّهِ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ) - فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا ، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ ، يُقَالُ لَهُ : نَهَرُ الْحَيَاةِ ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، أَلاَ تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرْعَى بِالْبَادِيَةِ ؟ قَالَ : « فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِم .. » الحديث.

○ ارجع معي إلى الحديث : « ثُمَّ يُحْثِي رَبِّي بِكَفِّهِ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ » .

لا تُعطِّل ولا تُكيف ، فكلُّ ما دار ببالك فالله بخلاف ذلك ، وأنا أقسم

بالله أنه لا يعلم مقدار حثوة كفِّ الرحمن إلا هو . «**ثُمَّ يُحْثِي رَبِّي بِكَفِّهِ ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ** » فَكَبَّرَ عُمَر ؛ فقال المصطفى ﷺ « **وَإِنَّ السَّبْعِينَ أَلْفًا الأُوَلُ يُشَفِّعُهُمُ اللهُ فِي آبَائِهِمْ ، وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَعَشَائِرِهِمْ ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي أَدْنَى الحَثَوَاتِ الْأَوَاخِرِ** » .

○ إخواني : إن هذه البشريات لا تملأ قلوبنا جرأةً على الله ؛ بل تملأ قلوبنا رجاءً في الله ، وأنا لا أتصور كريمًا يسمع هذه البشريات إلا سيزداد حبًّا لربه ونبيه ، وسيزداد وَجَلًا وخوفًا ، هذا هو الكريم ، الذي سيستشعر قيمة هذا الانتساب ، وقد ظن بعض الناس أن هذه الأحاديث تفتح باب الجنة سبهلله !! هكذا بنفس هذه اللفظة ! حاشا لله .. مَن الذي ينال هذا الفضل ؟ إنها أمةُ النبيِّ ﷺ ممن وحَّدوا الله جلَّ وعلا ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ؛ بل ولطالما صلَّى هؤلاء بنصِّ حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « **كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ** » لكن لبشريته ضَعُفَ ، والعجب من كُتَّابنا أنهم قالوا : إن هذه الأحاديث تفتح باب الجنة وتملأ قلوب الناس بالتواكل !! وأنا أقول : بل تملأ قلوب الناس بالرجاء في الله ، والثقة فيه ، وأنه مهما زلَّت قدمك في بؤرة المعصية ، ومهما جذبت أشواك المعاصي ثيابك فلا تيأس أبدًا ، ولا تقنط أبدًا ، ما عليك إلا أن ترفع قدمك من بؤرة المعصية ، وما عليك إلا أن تطهر ثيابك بدموع التوبة والأوبة والندم ، وأن ترجع إلى الله جلَّ وعلا لتعمل صالحًا ، ولتجدد الندم على ما ارتكبت وفعلت من الذنوب والمعاصي ، وأنت على

يقين مطلق بأن الله ﷻ سيفرح بتوبتك وأوبتك وهو الغنيُّ عن العالمين ، هذا هو المعنى الصحيح ، أمَّا أن نتواكل على رحمة الله فلا ، لكن نعمل ولا نثق إلا في رحمة الله ـ جلَّ وعلا ـ ؛ ففي « الصحيحين »(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « **لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ** ». قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « **وَلاَ أَنَا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ** » .

فنحن نعمل ، ونمتثل الأمر ، ونجتنب النهيَّ ، ونقف عند الحد ، ونتبع المصطفى ﷺ ، فالحبُّ اتباع للحبيب ؛ قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[آل عمران: ٣١]

○ ولله دُرُّ القائل :

مـن يـدعى حـبَّ النبـيِّ ولم يفـد   مـن هديـه فسـفاهةٌ وهـراء

فالحـبُّ أول شرطـه وفروضـه   إن كـان صـدقًا : طاعـةٌ ووفـاء

وفي « صحيح البخاريِّ ومسلم »(٢) من حديث سهل بن سعد وأبي سعيد الخدري ﷺ ـ وتتجلى كرامة النبي في هذا الموقف العصيب الرهيب ـ يقول النبيُّ ﷺ : « **أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ** » أي : أنا سابقكم وساقيكم

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «المرضى» باب « نهي تمني المريض الموت» (٥٦٧٣) ، وكتاب «الرقاق» (٦٤٦٣) ، ومسلم كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» باب «لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى» (٢٨١٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «في الحوض» (٦٥٨٣ ، ٦٥٨٤) ، ومسلم كتاب «الفضائل» باب «إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته» (٢٢٩٠، ٢٢٩١) .

على الحوض ـ « مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا » .

اللهم اسقنا من حوض حبيبنا شربةً هنيئةً مريئةً ، لا نرد ولا نظمأ بعدها أبدًا يا رب العالمين .

يقول ﷺ :

« لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ » .

وفي لفظٍ: فيقولُ: « إِنَّهُمْ مِنِّي ، فَيُقَالُ : إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ؛ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي » .

نعم .. فالذي ينال هذه الكرامة والمكانة هو الموحِّدُ المتبع للحبيب ﷺ .

● ففي « صحيح البخاري » [(١)] : يقول أبو هريرة رضي الله عنه : قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ » وهذا هو شرط الإخلاص .

● وفي « صحيح البخاري ومسلم» [(٢)] ـ واللفظ لمسلم ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «العلم» باب «الحرص على الحديث» (٩٩) وكتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٧٠) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الدعوات» باب «لكلِّ نبي دعوة مستجابة» (٦٣٠٤) ، (٧٤٧٤) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «اختباء النبيِّ ﷺ دعوة الشفاعة لأمته» (١٩٨، ١٩٩) .

« لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِيَ نَائِلَةٌ ـ إِنْ شَاءَ الله ـ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا » .

تدبرت هذه الشروط ؟ قيودٌ ثقال ؛ فهذه أحاديث مقيدة ، فلا بد أن تُفهم بهذه القيود ، وبهذه الضوابط ، وبهذا الفهم العام .

○ ارجع معي مرةً أخرى ، مَنْ هؤلاء الأطهار الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ؟

● والجواب : أنَّ الصحابة لَمَّا سمعوا هذا الكلام اجتهدوا ، فقالوا : « فَلَعَلَّهُمُ الذينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ » . والصحبة قدرها عظيم .

○ والصحابي ؛ كما قال الحافظ ابنُ حجر [(١)] : « هو مَنْ لقي رسول الله في حياته مسلمًا ومات على الإسلام » . وشرفُ الصحبة لا يعلمه إلا الله ؛ قال الله : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

● وقال سبحانه : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

(١) « الإصابة في تمييز الصحابة » (١/ ٨) ط الكتب العلمية .

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٨، ٩] والآيات كثيرة .

● وفي « الصحيحين » (١) من حديث ابن مسعود ومن حديث عمران ابن حصين رضي الله عنهما أنه ﷺ قال :

« **خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ** » .

● وفي « الصحيحين » (٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« **لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ** ».

أين ستذهب بجانب الصحابة ؟ رضوان الله على هؤلاء الأطهار الأبرار ، ففريق من الصحابة قال في هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب : هم الصحابة .

وقال فريقٌ آخر : « فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا » هؤلاء هم الموحدون الذين تنفسوا أنفاس التوحيد ، وترعرعوا في

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «فضائل الصحابة» باب «فضائل أصحاب النبي ﷺ » (٣٦٤٩ ـ ٣٦٥١) ، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة» باب «فضل الصحابة» (٢٥٣٣ ـ ٢٥٣٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «فضائل أصحاب النبيِّ ﷺ» باب قول النبيِّ ﷺ «**لو كنتُ متخذًا خليلاً**» (٣٦٧٣)، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة» باب «تحريم سَبِّ الصحابة» (٢٥٤١).

بستان التوحيد ، ولم يتلوثوا بالشرك قط ، إنهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا ، فما أعظم التوحيد ، وما أشرف التوحيد ، وما أخطر الشرك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ؛ بل لقد قال الله لإمام الموحدين ، وقدوة المحققين ، وسيد المرسلين محمد ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥ ، ٦٦] .

○ وهو القائل ـ بأبي وأمي وروحي ؛ كما في « **صحيح مسلم** »(١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما :

« مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ » .

● وقال الله جلَّ وعلا في الحديث القدسي :

« يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» باب «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات مشركًا دخل النار» (٩٣) ومثله في البخاري (١٢٣٨) ، ومسلم (٩٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

والحديث رواه الترمذي [(١)] من حديث أنس رضي الله عنه .

○ ويشهد له ما في « صحيح مسلم » [(٢)] من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « .. **وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرابِ الأَرْضِ خَطيئةً لا يُشْرِكُ بِي شيئًا لِقَيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفرةً** »

انظر إلى فضل التوحيد ما أعظمه ، وما أكرمه ، وما أشرفه ، وما أروعه !! « لعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإسْلاَمِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا » ، إلى الآن لا نعرفُ مَنْ هؤلاء السعداء الذين ينطلقون مباشرةً إلى الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ؟

فخرج النبيُّ ﷺ على الصحابة ، فسمعهم يخوضون ويتناقشون ويتحدثون ؛ قال : « مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟» قَالُوا : فِي أُولئِكَ ـ أي في أولئك الذين ذكرت أنهم يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب ؟ ـ فقال الحبيب ﷺ:

«هُمُ الَّذِينَ ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

اللهم اجعلنا من عباده المتوكلين .

○ **أيها الأحبة** : التوكلُ له كلُّ المرتبة ؛ فالسبعون ألفًا الأُوَلُ الذين

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب «الدعوات» باب «خلق الله مائة رحمة» (٣٥٤٠) وقال: «حديث حسن غريب» وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) .

يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب هم المتوكِّلُون على الملك الوهاب ، فهم لا يسترقون ولا يطلبون الرقية من أحد ؛ لأنهم تجاوزوا هذه القنطرة ، فهم لا يُنزِلون حوائجهم إلا بالله وحده ، لا يرغبون إلا إلى الله ، ولا يفزعون إلا إليه ، ولا يسألون أحدًا إلا الله سُبحانه ، فالراقي محسن ، والمسترقي طالبٌ للإحسان والعطاء ، وهؤلاء لا يطلبون إلا من رب الأرض والسماء ، ولا حرج إن تقدم أحدٌ لرقيتهم ، فهم لا يرفضون ، لكنهم لا يطلبون ، أرجو أن تكون الصورة واضحة ، والفارق بين الصورتين كبير .

وكذلك لا يطلبون الكيَّ من أحد ، لا يتطيرون ولا يتشاءمون ، إنَّما هم متوكِّلُون على الله ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن التوكل هو نهاية تحقيق التوحيد ، وهو صدق اعتماد القلب على العزيز الحميد ، مع الأخذ بالأسباب ، فتعطيلُ الأسباب تعطيلٌ للتوكل ، فيجب علينا أن نحقق التوكل على الله بالأخذ بالأسباب ، بأسباب الإبداع ، بأسباب التفوق في كلِّ مجالات الحياة، وقلوبُنا لا تتعلق البتة بالأسباب ؛ بل بمسبب الأسباب ؛ لأن المؤمن على يقينٍ أن الأسباب وحدها لا تضرُّ ولا تنفع ، ولا ترزق ولا تمنع ؛ إلا بأمر مسبب الأسباب جلَّ وعلا .

○ **قيل لحاتم الأصم** : « كيف حقَّقْتَ التوكُّلَ على الله ؟ قال : بأربعة أشياء : علمتُ بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمئن قلبي ، وعلمت بأن عملي لا يتقنه غيري فاشتغلت به ، وعلمت بأن الله مطَّلعٌ على فاستحييت

أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله »[١] .

○ وقال سهل بن عبد الله التُّستري رحمه الله[٢] :

« من طعن في الأسباب فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان » .

فالأخذ بالأسباب سنة النبيِّ[٣] ، والتوكُّلُ على الله حال النبي ﷺ ، فمن كان على حال النبي ﷺ فلا يترك سنة النبي ﷺ ؛ لأن صاحب السنة ما ترك سببًا إلا وأخذ به ، وأنتم تعلمون الأسباب التي أخذها يوم الهجرة ؛ بل وكان يقاتل بين درعين ؛ بل وكان يدَّخر القوت لأهله عامًا كاملًا ، بل وكان يحمل الزاد إذا أراد أن يسافر هنا أو هناك ، وهو سيد المتوكلين على رب العالمين ، هذه حقيقة التوكل ، فمن أراد أن يحقق التوكل كما حققه سيد المتوكلين ، فليأخذ بالأسباب ، كما أخذ بها سيد المتوكلين ﷺ ، فالتوكل جماع الإيمان ؛ كما قال سعيد بن جبير[٤] ، ونهاية تحقيق التوحيد ، وصدق اعتماد القلب على الله مع الأخذ بالأسباب ، هؤلاء هم السعداء الذين ينطلقون مباشرةً إلى الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب .

---

(١) تقدَّم .

(٢) انظر : «الحلية» لأبي نعيم (١٠/ ١٩٥) .

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ١٢١) بتصرف .

(٤) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٠٣) ، وهناد في «الزهد» (٥٣٤) .

وما أحوج الأمة الآن إلى أن تحقق التوكل على الله ، وأن تجدد الثقة في الله ، لا في دولةٍ من الدول ، أو في قوةٍ من القوى ، أو في أمةٍ من الأمم ؛ بل في الله تبارك وتعالى ؛ لأن الذي يدبر الأمر كلَّه هو الله ؛ ولأن الذي يحكم الكون كله هو الله ، وما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب في حدود قدراتنا وإمكاناتنا واستطاعتنا ، وأن تُعلَّقَ قلوبنا بربنا تبارك وتعالى . وهذا هو الفارق بين الموحد المؤمن التقيِّ ؛ وبين غيره من الأشقياء الذين لا يؤمنون برب الأرض والسماء سبحانه وتعالى .

○ **أيها الأحبة** : من الذي توكَّل على الله وخيَّبَهُ ؟ من الذي توكَّل عليه فضيَّعه ؟ بل من توكل عليه كفاه ، ومن اعتصم به نجَّاه ، ومن فوَّض إليه الأمر هداه .

تذكَّرْ موقفًا لنفسك حققت فيه التوكل وخذلك ربك .. مستحيل ورب الكعبة .. اصدق فقط ، وخُذْ بالأسباب ، وقُلْ : يا رب لم يعد هناك سبب لم آخذ به ، وأُغلقت كل الأبواب في وجهي ولم يبق لي إلا بابك ، والجأ إليه بصدق وتذلَّل ، وانكسر ، وحقِّق التوكل عليه واجتهد ، وخذ بالأسباب التي تقدر عليها ، ثم علِّق قلبك به ، والله ! سترى الفرج بعد الضيق، والغنى بعد الفقر ، والعزة بعد الذل ، والأمن بعد الخوف ، وراحة البال واستقرار الضمير بعد القلق والاضطراب .

○ قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣] .

○ وقال سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر٣٦] .

وفي قراءة : « أليس الله بكافٍ عباده » .

وأذكِّرك فِي هذا المقام بموقف أم موسى فقط ، وإلا فالمواقف كثيرة جدًّا ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص:٧] أي : اقذفيه في البحر مستحيل أن يقال لأم : عندما تخافي على ولدك ألقيه في البحر! ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : لا نرده فقط ؛ بل : ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إذا جاءت الهدية من الملك ﷻ جاءت مضمخةً بالطيب .

وبتوكلٍّ عالٍ جدًّا ، وبيقينٍ مطلق تضع أم موسى رضيعها المبارك في الصندوق أو في التابوت ، ثم ترميه في البحر ، تلقيه في اليم ، ويتهادى التابوت ، وأمام قصر فرعون يقف . الله أكبر ! هو هو بعينه الذي يبحث عنه فرعون ، والملك ﷻ سيجعل هذا الفرعون هو الذي يربيه !! وعندما تراه امرأة فرعون تقول: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ [القصص:٩] .

ولقد نجَّى الله موسى بسترٍ رقيقٍ جدًّا ، لا يخطر لك على بال ، ألا وهو ستر المحبة، فتُقذف محبة موسى في قلب امرأة فرعون بمجرد رؤيته ؛ فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ يا إلهي ! نبيُّ الله موسى في قصر فرعون يُؤتى له بالمراضع ، مرضعة بعد مرضعة ؛ فلا يرضع ؛ لأن الله وعد أن

ترضعه أمه ، ويُؤتى بأمه ، وهي جالسةٌ الآن في قصر فرعون ، وموسى في صدرها ترضعه ، وفرعون يأمرها : أرضعيه ، أكرميه ، أشبعيه ؛ فبالأمس القريب كانت تخشى على موسى من فرعون وملأه ، وهي الآن تُرضع موسى في قصر فرعون بأمره !! انظر إلى حلاوة التوكل . فمن حقق التوكل سعد سعادةً غامرةً في الدنيا والآخرة .

○ فهؤلاء هم السُّعداء ؟

يقول ﷺ : « **هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » .

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ .

قَالَ : «**أَنْتَ مِنْهُمْ**» .

ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ .

فَقَالَ : « **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ** » .

انظر إلى هذا الفضل وإلى هذا الكرم ؛ بل وحتى إلى عظيم خُلق ولطف الحبيب ﷺ .

ارجع معي لأرض المحشر ؛ انطلقت هذه الزمرة الكريمة إلى الجنة بغير حساب ولا عذاب ؛ فيبدأ الحساب بالعرض على الملك الوهاب ، ويبدأ بتطاير الصحف .

○ وكما في « الصحيحين »[(١)] من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال ﷺ : « مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ القِيامَةِ ، عُذِّبَ » .

قالت عائشة : أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] .

فقال: «لَيْسَ ذَاكِ الحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ» ـ أي : العرض على الله ـ « مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ » .

ولتقريب المسألة إلى الأذهان ؛ أقول لك: هل حضَرْتَ يومًا محاكمةً في قاعة محكمةٍ من محاكم الدنيا ؟ أرجو أن تنتقل بخيالك إلى قاعة محكمة، وتصوَّر وجوه الخلق حين يدخل الحاجب بين يدي هيئة المحكمة ؛ ليصرخ في هذه القاعة مدويًا : (محكمة) ، ويُنصتُ الكلُّ ، وتدخل هيئة المحكمة ، ويتوسط الهيئةَ رئيسُ المحكمة ، وبعد جلسات مُطوَّلة، ومداولات ، ومرافعات ، يبدأ رئيسُ المحكمة في النطق بالحكم ، تصوَّر وجوه الخلق !انظر : ترى الدموع تنهمر مدرارًا على بعض الوجوه ، وترى وجوهًا أخرى قد تملَّكها القلق والخوف والفزع ، وترى الصدور تعلو وتهبط ، وترى الأبصار لكل أفراد القاعة معلَّقة شاخصة لا تطرف تقريبًا ، متعلقة برئيس المحكمة ، وترى الآذان صاغية ؛ لسماع هذا الحكم !! كلُّ هذا في قاعة محكمة من محاكم الدنيا !!

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «من نوقش الحساب عذب» (٣٥٣٦ ، ٣٥٣٧) وانظر (١٠٣) ، ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» « باب إثبات الحساب» (٢٨٧٦) .

○ أخي : هل تصوَّرت هذه اللحظات ، وأنت واقف بين يدي رب الأرض والسموات ، على رؤوس الخلائق ، وعلى رؤوس الأشهاد ، وأنت عارٍ كما ولدتك أمك «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**» [(١)] .

تقدم لتقف بين يدي الله - جل وعلا - لتدفعك ولتسوقك الملائكة سَوْقًا قال ﷻ : ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ [ق: ٢١] وأنت في أرض المحشر يُنادى عليك باسمك !! أين فلان بن فلان ؟ فتقول: هذا هو اسمي .. ماذا تريدون يا ملائكة الله ؟ فيقالُ لك : أقبل ، هُلَمَّ إلى العرض على الله - جلَّ وعلا - قال تعالى : ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ۝١٠٨ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ۝١٠٩ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠ ۞وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ۝١١١ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴾ [طه: ١٠٨-١١٢] .

يُنادى عليك ! فيقرع النداء قلبك ، وترتعد فرائصك ، وتضطرب جوارحك ، وتُدفع لتقف بين يدي الله ، ليكلِّمك ملك الملوك .

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «كيف الحشر» (٦٥٢٧) ، ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة» (٢٨٥٩) .

● كما في «الصحيحين» (١) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« **مَا مِنكُمْ أَحَدٌ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إلاَّ مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إلاَّ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ** » .

ثم تتطاير الصحف ـ كما ذكرت ـ إن كنت من السعداء ـ اللهم اجعلني وإياكَ وإياكِ أيتها الأخت الكريمة من السعداء ـ فإن كنت من السعداء وجدت كتابك باليمين ؛ فتقرأ كتابك ، ويكلِّمُك ربك ويدنيك .

○ كما في «الصحيحين» (٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال صلى الله عليه وسلم :

« **إِنَّ الله يُدْنِي الْـمُؤْمِنَ ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ** » والكنف : الستر والرحمة في اللغة ، وهذا ليس تأويلًا للصفة . « **وَيَسْتُرُهُ ، فَيَقُولُ : أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ أَتَعرِفُ ذَنْبَ كَذَا ؟ فيَقُولُ : نَعَمْ أَيْ رَبِّ ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، وأَمَّا الكَافِرُ والمنَافِقُ ، فيَقُولُ الأشْهَادُ** : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «التوحيد» باب «كلام الربِّ عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم» (٧٥١٢) واللفظ له . وانظر (١٤١٣) . ومسلم كتاب «الزكاة» باب «الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة» (١٠١٦/ ٦٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «المظالم» باب قول الله تعالى : «ألا لعنة الله على الظالمين» (٢٤٤١ ، ٤٦٨٥ ، ٦٠٧٠ ، ٧٥١٤) ، ومسلم كتاب «التوبة» باب «قبول توبة القاتل وإن كثر قتله» (٢٧٦٨) .

ألم تقرأ يومًا قول الله سبحانه : ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء:١٣، ١٥] .

فالصحيفة لا تغادر بليةً كتمتها ، ولا معصيةً أخفيتها ، كلُّ شيء مُسطَّرٌ ومُدونٌ ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨] .

ووالله ! ما سترك الله في الدنيا ليفضحك في الآخرة ، بل هو القائل سبحانه ـ كما سبق ـ « **سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ** » ؛ فينطلق المؤمن في أرض المحشر وكتابه بيمينه .. يبحث عن أهله وأحبابه وخلانه ، فإذا رأى أحدًا ممن يعرفه ، يقول : ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴾ ها هو كتابي بيميني .. اقرؤوا معي كتابي ، فهذا توحيدي ، وهذه صلاتي ، وهذه زكاتي ، وهذا صيامي ، وهذا حجِّي وهذا ، وهذا ، ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]

● أما الكافر ؛ فيرى كتابه بشماله ؛ قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ

ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]

أين الأموال ؟ وأين الجاه ؟ وأين الكرسي ؟ وأين المركز ؟ ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة: ٢٨-٣٧].

○ وصدق الشاعرُ إذ يقول :

تذكرّ وقوفك يوم العرض عريانا ... مستوحشاً قلقَ الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عبدُ على مهلٍ ... فهل ترى فيه حرفا غير ما كان
فلما قرأْتَ ولم تنكر قراءته ... وأقررت إقرار مَنْ عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... وامضوا بعبد عصىَ للنار عطشانا
المشركون غدًا في النار يلتهبوا ... والموحِّدون بدارِ الخلد سكانا

اللهم اجعلنا وإياكم من أهل التوحيد .

○ فهيا أخي : حاسب نفسك ـ الآن ـ قبل أن تحاسب بين يدي الحق ﷻ ؛ قال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

فالله الملك الحق العدل ، ومع ذلك لا يحاسب خلقه في هذا اليوم بعدل مطلق ؛ بل بفضله بعد عدله ، ولو عاملنا وحاسبنا بعدله لهلكنا ! تدبر معي قول الله ﷻ: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠] ؛ قمة العدل .

وقال جَلَّ جَلَالُهُ : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦-٢٨] ، فلا يحمل إنسانٌ ذنب إنسانٍ آخر ؛ بل ومن أرق صور العدل ؛ إعذار الله لخلقه ، فيقدم أعمالهم مدونةً ؛ قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

فليس لي ولك عذر أو حجة ؛ فالكتاب موجود ، وأنت تقرأ كلَّ ما قد سطر عليك ؛ فكم من مصيبةٍ قد كنا أخفيناها أظهرها الله لنا وأبداها ، فيا حسرة قلوبنا في هذه اللحظات على ما فرطنا في دنيانا من طاعة مولانا جَلَّ جَلَالُهُ ، وبعد كلِّ ذلك هناك الشهود !! يشهدون على العبد ؟ مَنْ هؤلاء الشهود ؟ أعظم الشهود هو الله ؛ كما قال جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٣٣] ، وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦] .

وكلُّ رسول يشهد على أمته ، وأمة الحبيب ﷺ تشهد على كلِّ الأمم ،

والمصطفى يشهد على أمته وعلى كل الأمم كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

○ وكذلك الملائكة تشهد ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

● **وفي رواية في « سنن الترمذي » وغيره ـ وفي سندها ضعف**[1] من باب الأمانة العلمية ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤].

قال الرسول ﷺ:

« أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ ».

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: **« فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا »**.

وانظر إلى جرأة العبد في هذا الموقف بين يدي ملك الملوك!

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٧٤)، والترمذيُّ كتاب «صفة القيامة» باب (٧) (٢٤٢٩) وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، وفي كتاب «تفسير القرآن»، باب «ومن سورة إذا زلزلت» (٣٣٥٣)، وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٩٣)، وقال الشيخ الألبانيُّ: « ضعيف الإسناد » كما في « ضعيف سنن الترمذي ».

● ففي « صحيح مسلم »[1] من حديث أنس ﵁ ؛ قال : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فضَحِكَ ؛ فقَالَ :

« هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ ؟» .

قَالَ : قُلْنا : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : « مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ: يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ: فَيَقُولُ : فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي ، قَالَ فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، قَالَ : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ » .

يأذن الحق تبارك وتعالى لأركانه ولجوارحه أن تنطق ؛ فتنطق الأيدي وتتكلَّم ، وكذا الفرج ، والبطن ، والرِّجل ، فكلُّ الجوارح تشهد.

● قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥] .

● وقال ـ جلَّ وعلا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

[فصلت: ١٩-٢١]

(١) أخرجه مسلم كتاب «الزهد والرقائق» (٢٩٦٩) .

• قَالَ : « فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطِقِي ، قَالَ : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ ، قَالَ : فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ » .

وبعد قواعد العدل هذه يأتي الفضل من الله جلَّ وعلا لأهل التوحيد والإيمان ، فيبدل الله سيئاتهم حسنات ؛ قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان:٧٠].

• وفي رواية جميلة جدًّا في « صحيح مسلم » (١) من حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه في بيان آخر أهل الجنة دخولًا الجنة ، وآخر أهل النار خروجًا منها، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ : اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا ، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ ، فَيُقَالُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ » .

فصغائر الذنوب فقط التي كان ينساها العبد ولا يذكرها كلُّها موجودة ، فهو مشفق من أن تعرض عليه الذنوب الكبيرة ، وهو في حالةٍ من الفزع والرعب « فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً » ، فالعبد هنا يتجرأ ،

(١) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» (١٩٠) .

«فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا » يريدها أن تُبدل هي الأخرى حسنات ، ثم يزداد الفضل فتضاعف الحسنات لأهل التوحيد .

● قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

● وفي « مسند أحمد » بسندٍ حسن[١] من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

«قَالَ الله تَعَالَى : الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا أَوَ أَزِيدُ ، وَالسَّيِّئَةُ بِوَاحِدَةٍ أَوْ أَغْفِرُ ، وَلَوْ لَقِيتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا مَا لَمْ تُشْرِكْ بِي ، لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً » .

● وفي « صحيح البخاري ومسلم »[٢] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : قال الله تعالى :

« فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله عز وجل عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٤٨) ، والطيالسي في « مسنده » (٤٦٤) ، وحسَّن إسناده الشيخ شعيب ؛ لأجل عاصم ، وهو صحيحٌ لشواهده .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «من هم بحسنة أو بسيئة» (٦٤٩١) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٣١) .

فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا الله سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

انظر إلى فضل الله سبحانه على عباده ؛ فهذه قواعد عامة للحساب ، فيا تُرى مَنْ هي أول أمةٍ ستحاسب بين يدي الله جلَّ وعلا ؟ ومن هم أول مَنْ سيَقْضِي الله بينهم من أفراد هذه الأمة ؟ وما هو أول شيء سيحاسب عليه العبد بين يدي الله ؟ وما هو أول شيءٍ يقضي الله ﷻ فيه بين العباد ؟ كلُّ هذه الأسئلة نتعرف على جوابها في الفصل المقبل إن شاء الله تعالى .

والله أسأل أن يسترنا وإياكم في الدنيا والآخرة ، وأن يتقبل منى ومنكم جميعًا صالح الأعمال . إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .



أول من يقضى بينهم يوم القيامة

تعرفنا في الفصل السابق على قواعد العدل والفضل ، التي يحاسب الله ـ جلَّ وعلا ـ بها الخلق يوم القيامة ، وطرحتُ هذا السؤال في آخر الفصل ، ألا وهو : يا تُرى مَنْ هي أول أمة يُنادى عليها للحساب ليخفِّف الله ـ جلَّ وعلا ـ عنها هَوْلَ الموقف ؟

● **والجوابُ** : إنها أمَّةُ الحبيب المصطفى ﷺ ، نعم .. تتجلَّى رحمةُ الله للأمة حين يُقدِّم الله الأمة للحساب ، فموقف الأمم في أرض المحشر وفي ساحة الحساب موقفٌ عظيم .. الشمس فوق الرؤوس ، والناس غرقى في عرقهم على قدر أعمالهم ، وجهنم تزفر وتزمجر غضبًا منها لغضب ربها ـ جلَّ وتعالىَ ـ كلُّ نبيٍّ يقول : «نَفْسِي نَفْسِي» ، والموقفُ عصيبٌ رهيب ، لا يستطيع بليغٌ مهما آتاه الله من فصاحة اللسان ، وجمال الأسلوب والتبيان ، وحلاوة الكلام أن يُجسد هَوْل هذه اللحظات بين يدي ربِّ الأرض والسماوات ، نعم .. في ظل هذا الموقف يُنادى على أمة المصطفى ﷺ .

● ففي « **الصحيحين** »[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« **نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الجمعة» باب «فرض الجمعة» (٨٧٦) ، وانظر (٢٣٨) ، ومسلم كتاب «الجمعة» باب «هداية هذه الأمة ليوم الجمعة» (٨٥٥) .

أيُّ شرفٍ هذا ؟ آخر أمة هي أمة المصطفى ﷺ، وهي أول أمةٍ يوم القيامة تُقدم للحساب ؛ بل وهى أول أمةٍ تدخل الجنة بأمر الملك الوهاب .

○وفي لفظٍ في « صحيح مسلم » (١) :

« نَحْنُ الْآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

○وفى رواية ابن ماجة (٢) بسندٍ صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ ، يُقَالُ : أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا ؟ فَنَحْنُ الْآخِرُونَ الأَوَّلُونَ » .

○وفى رواية أخرى عن ابن عباس (٣) رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال :

« فَتُفَرِّجُ لَنَا الْأُمَمُ عَنْ طَرِيقِنَا ، فَنَمْضِي غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الطُّهُورِ ، فَتَقُولُ الْأُمَمُ : كَادَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلُّهَا » .

فهذه هي الأمة التي وحّدت رب الأرض والسماء .

فأمة الحبيب محمد ﷺ ، هي أشرف أمة كانت ولا زالت ، وستظلُّ أشرف أمة ، وأكرم أمة على الله ﷻ في الدنيا والآخرة ، مع ما تمرُّ به الأمة الآن من مرحلة من مراحل الضعفِ والهوان !! فالأيام دُوَلٌ ؛ قال سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١٤٠] .

---

(١) « صحيح مسلم » (٢٠/ ٨٥٥) .

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب «الزهد» باب «صفة أمة محمد ﷺ» (٤٢٩٠) وقال البوصيريُّ : « هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات » ، وكذا قال الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة » (٢٣٧٤) .

(٣) أخرجه أحمد في « مسنده » (١/ ٢٨١ ، ٢٩٥) وأبو يعلى في « مسنده » (٤/ ٢١٣) (٢٣٢٨) وحسنه لغيره الشيخ شعيب في «تحقيق المسند» .

فإن كانت الأمة الآن تمر بمرحلة من مراحل الضعف ، فلطالما مكّن الله للأمة ، ومرَّت بكثيرٍ من مراحل العز والعزة والتمكين (١) .

(١)وأنا أقول وبكل ثقة إن المرحلة القادمة لأمة الحبيب ﷺ ، وإن أشد ساعات الليل سوادًا هي الساعة التي يليها ضوء الفجر الصادق ، والفجر الصادق لدين الله قادمٌ بإذن الله ، بموعوده ﷻ ، وبموعود الصادق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ، فأمة النبي ﷺ هي خير أمة وأكرم أمة ، فكلُّ أمة على وجه الأرض تعتز بنفسها وتفخر بتاريخها ، بل وتتغنى برجالها ، بل وتتغنى بتاريخها ، وربما يكون تاريخها من السواد والظلم بمكان ، وإن أحق أمم الأرض بهذا الاعتزاز والفخار بجدارةٍ واقتدار ؛ بل وبشهادة العزيز الغفار : هي أمة نبيِّنا المختار ؛ قال ﷻ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] إذا أردت حبيبي في الله أن تتعرف على كرامة ومكانة الأمة ، انظر الآن إلى أمم الأرض - بلا استثناء - في الشرق أو في الغرب أو في أي بقعة على وجه الأرض ، والله لن تجد أمة تحقق الغاية التي من أجلها خلق الله السماء والأرض ، والجنة والنار ، ومن أجلها أنزل الكتب ، وأرسل الرسل ، لن ترى أمة توحد الله على وجه الأرض إلا أمة المصطفى ﷺ ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨] .

ومن الناس من يقول : دَعْ هذا الكلام الذي لا قيمة له ، فالحضارة المادية بدون دين ، وبدون أخلاق ، وبدون علم وتقدم ليس لها قيمة .

○ **أقول** : أنا لا أقلل من شأن العلم ، لست درويشًا أهرف بما لا أعرف ، لا ، فأمتنا هي أمة العلم ، وأول آية نزلت على قلب المصطفى ﷺ تدعو إلى العلم ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق:١] .

أقول : الحضارة لها ركنان : ركن مادي ، وركن إيماني أخلاقي ، أيُّ حضارة بدون هذا الركن الأصيل لا قيمة لها ولا كرامة .. ما قيمة هذه الأسلحة التي تدمر البشرية الآن تدميرًا ؟ ما قيمة هذا التطور في هذا الجانب الذي يُفني البشر بين عشيةٍ وضحاها ؟ ما قيمة حضارة بلا روح ، بلا ضمير ، بلا إيمان ، بلا توحيد ، بلا أخلاق ، بلا معرفةٍ للمصطفى ﷺ وجميع إخوانه من النبيين والمرسلين ؟ ما قيمة هذه الحضارة ؟

الحضارة الحقيقية في أخلاقها ، في اعترافها بربها ، وإيمانها بربها . في اعترافها برسل الله وأنبياء الله .. فيما تقدمه للبشر من سِلمٍ وسلام ، وأمنٍ وأمان ، وأخلاق وقيم ، لا فيما تقدمه من سفكٍ للدماء وتمزيق للأشلاء وهدمٍ للبيوت وإبادةٍ للمزارع والمصانع والمدارس ، فأمة=

○ ارجع معي إلى الأمة المباركة التي تتجلى كرامتها حين تُدعى لتشهد على كلِّ الأمم، مع أننا ما رأينا أمةً من الأمم قبل ذلك، ولكن ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الجمعة:٤]، والسؤال: كيف نشهد إذن للأمم ونحن لم نشهدها؟

● **والجوابُ**: يكفي أنك صدَّقت ما أخبر به الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، فالمؤمن يصدِّق النبيَّ ﷺ فيما بلَّغ أكثر من تصديقه لما يراه بعينه هو، وأكثر مما تسمعه بأذنك. هذا هو المؤمن بالله وبرسول الله ﷺ.

● **ففي «صحيح البخاري»**[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال:

= الحبيب هي أشرف وأكرم أمة وستظل أشرف وأكرم أمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فارفع رأسك لتعانق رأسك كواكب الجوزاء، وقُمْ بكل ثقة، وضمَّ العالم كله إلى صدرك، وأسمعه خفقان قلبك الذي وحّد الله ـ جلَّ وعلا ـ قُم ودثر العالم كله ببردتك ذات العبق المحمدي الطاهر.

ومما زادني فخرًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن سيرت أحمد لي نبيا

فمن مثلك أيها الموحد؟ ارفع رأسك واعتز بإيمانك وبتوحيدك وبدينك وباتباعك، ثم هيا ترجم هذا الاعتزاز وهذا الشرف بشهادةٍ عملية على أرض الواقع، بعيدًا عن التنظير السالب.. اشهد لهذا الانتساب بأخلاقك، وسلوكك، وإبداعك، وعطائك، وإنتاجك، وعملك في كل ميادين الحياة.

اللهم ارفع عن الأمة كل وباء وكل بلاء، اللهم ارحم أمة حبيبك المصطفى ﷺ، وارفع عنها كل كربٍ وهمٍ وغم يا أرحم الراحمين.

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «التفسير» باب «قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾» (٤٤٨٧) وكتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٣٣٩).

« يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَلَّغْتَ؟ ـ وهو أعلم جل جلاله ـ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ـ والله ما رأيناه ولا عرفناه ـ فيقول الملك لنوح : « فَيَقُولُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فيَقُولُ : مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ » .

○ وفي رواية في سنن ابن ماجة بسندٍ صحيح (١) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ :

« يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلاَنِ ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلاَثَةُ ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَقَلُّ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ ، فَيَقُولُ : نَعَمْ. فَيُدْعَى قَوْمُهُ ، فَيُقَالُ : هَلَ بَلَّغَكُمْ ، فَيَقُولُونَ : لاَ. فَيُقَالُ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ، فيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، فَيُقَالُ : هَلْ بَلَّغَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ. فيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ فَيَقُولُونَ : أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ ، أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ. قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة:١٤٣] » .

● وقال الله ـ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الزهد باب صفة أمة محمد ﷺ (٤٢٨٤) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» .

بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١].

وحتى تعرف كرامتك أيها الحبيب وكرامة الأمة المباركة كذلك .

● روى مسلم في «صحيحه»(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ : أَتَى الْمَقْبَرَةَ ـ أي: خرج إلى البقيع ـ فَقَالَ : « **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ. وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا** » .

قال الصَّحَابَةُ : أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ الله؟

قَالَ : « **أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ** » .

يا له من شرف ! ويا لها من كرامة !!

فقالوا : كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ الله؟

فقال: « **أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ، بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟** » .

○ **الغرة** : الشعر الأبيض الجميل الذي في جبين الفرس ، **والتحجيل** : الشعر الأبيض الجميل الذي في ساق الفرس من أسفل . فالنبيُّ ﷺ يقول لهم :

«**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ ، بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟**» .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الطهارة» ، باب « استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء » (٢٤٩) .

قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ الله ـ أي : أجل يعرف خيله ؛ لأن الغرة ظاهرة ، والتحجيلة ظاهرة ـ قال : « **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ الْوُضُوءِ** » ، أي : من أثر الوضوء ! فحافظ على الوضوء وأكثر منه ، فإن النبيَّ ﷺ يقول: كما في «مسند» أحمد و«سنن» ابن ماجه والدارميِّ و«مستدرك» الحاكم وغيرهم [١] عن ثوبان رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « .. **وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ** » .

فبمجرد ما ينتقض وضوؤك أسرع بقدر المستطاع وجدِّد الوضوء ، وكن دائمًا على طهارة ، وأنت خارج إلى العمل ، وأنت في السيارة ، وأنت في البيت ، وأنت في أي مكان .

فالوضوء له نور ، ودليل على إيمان العبد ، ولقد اكتشفوا الآن بالأبحاث العلمية المجردة أن المتوضئ تحيطه هالةٌ من النور الحسِّي الحقيقي ، فالوضوء له غرة ، أي : نور في الجبين ، وكذلك في الأعضاء .

فهذه كرامةُ الأمة ؛ فهي أوَّلُ أمَّةٍ ينادى عليها للحساب .

○ والسؤال الآخر : مَنْ هم أول من يقضي الله بينهم في الأمة ؟ وهذا سؤال خطيرٌ جدًّا ، فالأمة تقدَّمت للوقوف بين يدي ملك الملوك وجبار

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب « الطهارة وسننها » ، باب « المحافظة على الوضوء » (٢٧٧) ، وأحمد (٥/ ٢٧٦ ، ٢٨٢) ، والدارمي (٦٥٥) ، والحاكم (٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩) ، والطيالسي (٩٩٦) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٨٢ ، ٤٥٧) ، و«الشعب» (٢٧١٣ ، ٢٨٠٢) ، وصححه الألباني في «الإرواء» (٤١٢) ، و«صحيح الجامع» (٩٥٢) .

السموات والأرض ـ جلَّ وعلا ـ على مرأى ومسمع من جميع الأمم ، يا تُرى مَنْ أَوَّلُ مَنْ سَيُنَادَى عليه من هذه الأمة للحساب ؟

ليس أهل الكبائر ، ولا أهل الصغائر من الذنوب ؟ لن تصدِّقَ إنْ قُلْتُ لَكَ : هم الشهداء ، والعلماء ، وقُرَّاء القرآن ، والمحسنون ، والمنفقون الأسخياء .

● والدليل على ذلك ، ما رواه مسلم [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ » .

نعم .. شهيد!! سقط في الميدان!! يُلقى في النار !! لماذا ؟ فربُّ العزة يقول له : كذبت كذبت .. ما قاتلت ابتغاء مرضاة الله ، ما قدَّمت دمك لله ، لا ؛ بل لزعامة وصدارة ، وقيادة ، وريادة ، وقومية ، وعصبية منتنة ، لم تكن شهادتك لله ، ولو استطاع أحدنا أن يخدع الخلق كل الخلق فلن يستطيع أن يخدع الخالق جل جلاله قال سبحانه:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا

(١) أخرجه مسلم كتاب «الإمارة» باب « من قاتل للرياء والسمعة استحق النار » (١٩٠٥) .

يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩] .

فربُّ العزة يقول: كذبت ؛ بل قاتلت ليقال: هو جريء ، كنت تريد هذه ، وقد أخذتها ، لماذا تريد الأجر والثواب إذًا ؟

○ أما الثاني :

« وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ : هُوَ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ !! » .

عالم يُجرُّ على وجهه في النار ؟ نعم ، عالم ملأ الدنيا ضجيجًا وكلامًا وعلمًا ! لكن ليس لله !! اللهم لا تجعل حظَّنا من ديننا قولنا ، وأحسن نياتنا وأعمالنا .

فتنةٌ رهيبة جدًّا ، عالم يُجرُّ على وجهه في جهنم لأنه لم يُخلص للعزيز الغفار ، يهوى السمعة والشهرة ! كان يريد فقط أن يقال عنه : عالم ، ويقال عنه : رجل مفوَّه .

○ أما الثالث :

« وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هُوَ

جَوَادٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

هؤلاء المراءون أول الناس يقضي الله ﷻ بينهم يوم القيامة من أمة الحبيب المصطفى ﷺ هؤلاء الذين ابتغوا بأعمالهم وجه الناس ، والسمعة ، والشهرة ، والمحمدة والمكانة عند الناس ، ولم يريدوا وجه الله ﷻ .

○ والرياء ؛ كما قال أهل اللغة ؛ كالفيروز أبادي ، وابن منظور في « لسان العرب » [1] وغيرهما قالوا : « الرياء مشتق من الرؤيا ، راءى مراءاةً ورياءًا ورآءًا أي : أطلع الناس على خلاف ما يبطن » ، أن يُظهر الخشوع وقلبه قاس .. يُظهر الصدق وهو أكبر كذاب .. أظهر الخوف وهو غاية في الجرأة على الله ﷻ !! فإن كان الرياء بأصل الدين ـ أي: يظهر الإسلام وهو ، مبطنٌ للكفر ـ فهذا هو النفاق الأكبر ، وهو نفاق الاعتقاد ، وصاحبه خارج من ملة الإسلام باتفاق الأمة .

● قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ ۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾

[البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]

---

(١) انظر: «لسان العرب» (٥/ ٨٨) مادة رأي ، و« المصباح المنير» (١/ ٢٤٧) و« تاج العروس » (٨٣٩٤) ، و« القاموس المحيط» (١٦٥٨) .

● وقال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

[النساء:١٤٥]

● وقال الله فيهم: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

[المنافقون: ١]

○○ أما نفاق العمل؛ فله خمسةُ أصول بمجموع روايتي أبي هريرة وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهما في «الصحيحين»؛ أما الأولى فهي في «الصحيحين»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال:

«آيَةُ الْمُنَافِقِ ـ أي: علامة ـ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» فهذا منافق قد وقع في نفاق العمل.

والرواية الثانية فهي رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهي في «الصحيحين»[2] كذلك أنه ﷺ قال:

«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الإيمان» باب «علامة المنافق» (٣٣)، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «بيان خصال المنافق» (٥٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الإيمان» باب «علامة المنافق» (٣٤)، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «بيان خصال المنافق» (٥٨).

هذا منافق ، إذا ما اجتمعت فيه هذه الصفات كان منافقًا خالصًا ، وإذا اجتمعت فيه خصلة ، يكون فيه خصلة من خصال النفاق .

○ والرياء ـ حفظني الله وإياكم منه ـ محبطٌ للأعمال ، وهو الشرك الخفي ، وربُّ العزة تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه موافقًا لسنة حبيبة المصطفى ﷺ ؛ فقد تكون متبعًا ، وعملك على السنة ، لكنك ما ابتغيت به وجه الله ، فهذا العمل مردودٌ ، وقد تُخْلِصُ فيه النية ، لكنه على غير سنة رسول الله ﷺ ، وهذا هو الآخر مردود ؛ فلا بد من الإخلاص والاتباع ؛ قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف:١١٠] والعمل الصالح هو الخالص الذي كان على هدي المصطفى ﷺ .

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥] فقد يكون العمل صغيرًا عند الناس وهو عند الله كبير ؛ لأن صاحبه ابتغى به وجه الملك القدير .

●وفي الحديث القدسي الذي رواه «مسلمٌ» (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الزهد والرقائق» باب «من أشرك في عمله غير الله» (٢٩٨٥) .

« قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » .

○ وفى لفظ ابن ماجه [١] :

« فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ » .

فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا ، وابتغي به وجهه . وأنا أعلم صعوبة الأمر جيدًا ! فكثير من إخواني الآن يتألم ، وكثير من أخواتي يتألمن ، يخافون من أي عمل !!

أقول لهم : أبشروا بهذه البشرى من رسول الله ﷺ لأرفع بها كثيرًا من الحرج ؛ فقد يفعل واحدٌ من إخواننا وأحبابنا وأخت من أخواتنا الفضليات وأم من أمهاتنا الطاهرات عملًا من أعمال الخير ، لكنه يبتغي به وجه الله ، ومع ذلك يخشى الرياء .

● **أقول** : وتضرعك لله أن يرزقك الإخلاص دليل إخلاصك ..

قال الحسن [٢] : «ما أمن النفاق إلا منافق ، وما خاف النفاق إلا مؤمن»

أبشر ! لا تقلق ولا تخف ، فدليل إخلاصك في تضرعك لله ، فقد تعمل عملًا من أعمال الخير ، ثم تسمع بأذنك ثناء الناس عليك وعلى عملك ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب «الزهد» ، باب «الرياء والسمعة» (٤٢٠٢) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ، وصحيح الترغيب (٣٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الشعب » (٨٥٩) وعلَّقه البخاريُّ بصيغة التمريض كتاب «الإيمان» باب « خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر » .

بل وترى مكانتك التي في قلوب المسلمين والمؤمنين فتفرح ، فهذا ليس رياءً .

● ففي « صحيح مسلم »[(١)] ، من حديث أبي ذرٍ رضي الله عنه قال : قِيلَ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم :

« أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ ؟ ـ أي : على ألسنة الناس ـ فقال صلى الله عليه وسلم : « تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ » فهذه بشرى لك ما دمت تتضرع إلى الله أن يرزقك الإخلاص ، وأن يجعل عملك وقولك وفعلك لوجهه تبارك وتعالى .

فهذه شهادة المؤمنين وأهل التوحيد لك .

● روى الإمام البزار بسندٍ صحيح[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال :

« مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ صِيتٌ فِي السَّمَاءِ ـ أي : سمعة ـ فَإِنْ كَانَ صِيتُهُ فِي السَّمَاءِ حَسَنًا وُضِعَ فِي الْأَرْضِ » .

أَبْشِر إن سمعت البشرى في ثناء الناس ، وجعل الله لك مكانة في قلوب

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «البر والصلة والآداب» باب «إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره» (٢٦٤٢) .

(٢) رواه البزار (ص٣٢٦ ـ زوائده) ، وابن عدي (٢/ ٥٨) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (١٠/ ٢٧١) : «رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح» ، وقوّى إسناده الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٢٢٧٥) ، وصححه في «صحيح الجامع» (٥٧٣٢) .

المؤمنين الصادقين ؛ فهذه بشارة خير ذلك ، فمحالٌ أن يحب المنافق مؤمنًا ، لأنه لا يبغض رجلًا من أهل العلم والفضل والسنة إلا منافق ، والنبيُّ ﷺ قال كما في « صحيح مسلم »[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ :

« الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » .

قال الإمام الخطابيُّ[٢] : « يميل الأخيار إلى الأخيار ، والأشرار إلى الأشرار » ، فانظر لمن تحنُّ ؟، ومن تحب ؟ فهذا ترمومتر حقيقيٌّ ودقيقٌ جدًّا عند كلِّ مسلم ومسلمة .

فإذا ألقى الله لك الثناء الحسن على ألسنة المسلمين والمؤمنين والمؤمنات ، وجعل لك مكانةً في قلوب الخلق ، فاعلم بأنها بشرى عجَّلها الله لك في الدنيا ، لتكون موصولةً إن شاء الله تعالى ببشراه لك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ؛ كما سبق[٣] في الحديث ، وفيه :

« يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عز وجل ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ ، ثُمَّ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَعْرِفُ ، قَالَ : فَإِنِّي قد سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «البر والصلة والآداب ، باب الأرواح جنود مجندة » (٢٦٣٨) . وأخرجه البخاري كتاب «أحاديث الأنبياء» (٣٣٣٦) عن عائشة رضي الله عنها معلقًا بصيغة الجزم .

(٢) « مسلم بشرح النووي » (٨/ ٤٣٥) ط الحديث . وانظر « فتح الباري » (٦/ ٤٢٦) .

(٣) سبق تخريجه وهو في البخاريِّ (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) واللفظ له .

حَسَنَاتِهِ » .

○ **والسؤال** : هل ممكن أن تصف لنا دواءً لهذا الداء ؟ نعم .. لأنها مسألة في منتهى الأهمية .

○ **وأول جرعة دواء تأخذها أن تتبرأ من حولك وطولك** ، وأن تنكسر بين يدي الله جل جلاله ، وأن تعلم أنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله ، فتذلل ، واكسر قلبك ، واطرح قلبك بذلٍ وانكسار بين يدى العزيز الغفار ، وسله أن يرزقك الإخلاص ، وأن يجنبك الرياء الأكبر ، والنفاق الأكبر .

فأنا أريد منك أن تنكسر بين يدي الله ؛ فكلُّ الطرق إلى الله مليئة ، لو سلكت طريق التوحيد ستجد الطريق مليئًا بالموحدين .. لو سلكت طريق الصلاة ستجد الطريق مليئًا بالمصلين .. لو سلكت طريق الزكاة والصيام .. الطرق إلى الله مليئة بأهل الفضل . أما طريق الانكسار فَقَلَّ من يسلكه ، وهو أقرب الطرق التي توصل إلى العزيز الغفار ، فالله غنيٌّ عنا وعن طاعتنا وعبادتنا ، فالله يريد منا الانكسار والعبودية له ﷻ ، ونبينا ﷺ ما الذي كرَّمه؟ وما الذي شرَّفه ؟ إنها العبودية ؛ فهو الذي حقَّق أعلى مقامات العبودية لربه جل جلاله ، فهو في مقام الإسراء عبد ، وفي مقام الدعوة عبد ، وفي مقام التحدي عبد ، وربنا أثنى عليه بهذه الصفة قال سبحانه : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء:١] .

● وقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن:١٩] .

● وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣].

فانكسر، واستسلم، وذِل نفسك لله؛ فالذُّل لله عزٌّ وكرامة، وبالذل يرفعك الله، ويكرمك، ويُعْلي قدرك، ويرفع شأنك في الدنيا والآخرة، والله يعلم الصادق من الكاذب.

فأوَّلُ جرعة دواء للرياء الأكبر والرياء الأصغر والنفاق الأكبر: أن تتذلل إلى الله سبحانه وتعالى.

○ **والثانية**: أن تكون على بصيرةٍ بعواقب الرياء في الدنيا والآخرة، لأن المرائي في الآخرة - وأنا ذكرت الحديث سواء كان عالمًا أو قارئًا للقرآن، أو شهيدًا، أو منافقًا - ليس له أي شيء.

○ **ففي «مسند أحمد»** (١) وغيره عن محمود بن لبيد ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال:

«يَقُولُ اللهُ ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِيْنَ كُنْتُم تُرَاءُوَن فِي الدُّنْيَا، فانْظُروا هَلْ تَجِدُوْنَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟»

أقول لك: «قلب من ترائي بيد من عصيت !!»، فأنت ترائي فلانًا وعصيت بهذا الرياء ربك، وقلب هذا الرجل الذي ترائيه بيد الملك، وهو سبحانه قادر على أن يحول قلبه بالبغض لك.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٣١)، والبغويُّ في «شرح السنة» (١٤/ ٣٢٤) وجود الألبانيُّ إسناده في «الصحيحة» (٩٥١)، وصححه في «صحيح الجامع» (١٥٥٥)، و«صحيح الترغيب» (٢٩).

وهذه قاعدة مهمة جدًّا : « المعاقبة بنقيض القصد أمرٌ ثابت شرعًا وقدرًا » ، كما في « سنن الترمذي » و« عبد بن حميد » وغيرهما[(١)] عن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ قال :

« مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ النَّاسِ ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ » .

فقلوب الناس يقلِّبها الله كيف شاء ، فلا بد أن تكون على بصيرة بعواقب الرياء ، والرجل المرائي مسكينٌ مشتَّتٌ ، يعيش في هم ونكد ؛ لأنه يريد أن يُرائي بابتسامةٍ لفلان ، ويرائي بقولةٍ لفلان !! ولا يستطيع المسكين إرضاء كلِّ الخلق ؛ فإرضاء الخلق غايةٌ لن تُدرك أبدًا[(٢)] ، فلماذا تتعب نفسك ؟ ابتغ بعملك وقولك وجه الله ، واترك الخلق للخالق تبارك وتعالى ، فأيُّ خيرٍ لك في مدح الناس ، وأنت عند الله مذموم ؟! وأيُّ شر لك في ذم الناس لك ، وأنت عند الله محمود ؟! فلن تستطيع أن ترضي الناس ، هذا مستحيل ، ولو رضي الناس كل الناس عن أحد لرضي الناس عن سيد الناس المصطفى ﷺ ؛ فمنهم من سبَّه ، ومنهم من آذاه !!

بل - والله ! - لو رضي الخلق عن أحدٍ لرضي الخلق عن الواحد الأحد ؛ فلا تتعب نفسك، وعلِّق قلبك بالله وحده.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ كتاب «الزهد» باب (٦٥) (٢٤١٤) وعبد بن حميد في « المنتخب » (١٥٢٢) وابن حبان (١٥٤٢) وقد رُوي موقوفًا . والمرفوع أصح ؛ كما قال الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٣١١) .

(٢) هذه مقالة للإمام الشافعي رحمه الله ، انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٢٤٥ ط ابن رجب).

وصدق الشاعر إذ قال :

والله لو صحب الإنسان جبريل لم يسلم المرء من قال ومن قيلا
قد قيل في الله أقوالٌ مصنفةٌ تتلى إذا رُتِّل القرآن ترتيلا
قد قيل إن له ولدًا وصاحبة زورًا عليه وبهتانًا وتضليلا
هذا قولهم في الله خالقهم فكيف لو قيل فينا بعضُ ما قيل

○○ ثم الإخفاء لكلِّ عملٍ شرع لك الدينُ أن تخفيه ؛ إذ لا يوجد دواءٌ للرياء أعظم من الإخفاء ، فيما دل الشرع على جواز إخفائه ، وإلا فلا يجوز لك البتة أن تخفي صلاة الجماعة ، أو أن تخفي الحج لبيت الله ، أو أن تخفي الدعوة إلى الله ، فكل ما استطعت أن تخفيه فسارع؛ لتدرِّب القلب بهذا العمل في الخفاء على الإخلاص ، وأنت في العلانية .

فهؤلاء هم أول من يقضى الله ﷻ بينهم يوم القيامة .

○ثم ينادى بعد ذلك على سائر العباد ، فينادى عليك أيها المسلم وأيتها المسلمة للوقوف بين يدي الحق ـ جلَّ وعلاَ ـ للحساب .

قال القرطبيُّ رحمه الله في « التذكرة » [1] :

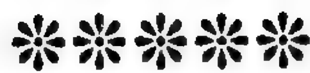
«توهَّمْ نفسك يا أخي ، وتخيل نفسك إذا تطايرت الكتب ، ونصبت الموازين ، وقد نُوديت باسمك على رؤوس الخلائق : أين فلان بن فلان ؟ هلُمَّ إلى العرض على الله تعالى ، فإذا عرفت أنك أنت المطلوب قَرَع النداءُ

(١) « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » (٣٣٢) ط الصفا . بتصرف واختصار .

قلبك ، فارتعدت فرائصك ، واضطربت جوارحك ، وتغير لونك ، وطار قلبك ، والملائكة تتخطى بك وقد وُكِّلَتْ بسوقك إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ تتخطى بك الصفوف ؛ صفوف الإنس ، وصفوف الملائكة ، وصفوف الجن ؛ لتوقفك بين يدي الحق ـ جل جلاله ـ للعرض عليه ، وللحساب بين يديه ، والخلائق جميعًا ينظرون إليك .. توهَّمْ نفسك وأنت بعد ذلك بين يدي ربك سبحانه وتعالى ، وقد أخذت صحيفتك ؛ تلك الصحيفة التي لا تغادر بلية كتمتها ، ولا مخبأة أسررتها ؛ فكم من مصيبةٍ قد كنت أخفيتها أظهرها الله لك وأبداها ، فيا حسرةَ قلبكَ في هذه اللحظات ، على ما فرطت في دنياك من طاعة رب الأرض والسماوات ...» .

فيا ترى ما هو أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ؟ وماذا يُسأل بعد ؟ وماذا إذا فرغ الحق تبارك وتعالى من القضاء بين العباد فيما يتعلق بحقوقه جلَّ وعلا ؟ ما الذي يحدث ؟ يأذن لدواوين المظالم وأداء الحقوق أن تُنصب ؛ فعند الله تجتمع الخصوم ، ولابد من أداء الحقوق ، ولن يدخل الجنة أحدٌ وفي عنقه مظلمةٌ لأحد . هذا ما نتعرف عليه بالتفصيل في الفصل القادم إن شاء الله تعالى .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يسترني وإياكم في الدنيا والآخرة ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .



أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة

تعرفنا - فيما مضى - على أول من يقضي الله ﷻ بينهم يوم القيامة ، فيا تُرى ما هو أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ؟

● **والجواب - مباشرةً - من رسول الله ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم بسندٍ صحيح**[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ» .

○ **وفي رواية الطبرانيِّ**[2] **بسندٍ صحيح من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ** قال :

« أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ ، فَإِنْ صَلُحَتْ ، صَلُحَ سَائِرُ عَمَلِهِ ، وَإِنْ فَسَدَتْ ، فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ » .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٠ ، ٤٢٥) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة (٨٦٤، ٨٦٥) ، والترمذيُّ في «أبواب الصلاة» ، باب «ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة» (٤١٣) ، والنسائيُّ كتاب «الصلاة» باب «المحاسبة على الصلاة» (١/ ٢٣٢) ، وابن ماجه كتاب «إقامة الصلاة» باب «أول ما يحاسب به العبد» (١٤٢٥) ، وصححه الألباني في «الصحيحة» بمجموع طرقه(١٣٥٨) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٤٣٣٨) ، والضياء المقدسي في « المختارة » (٢/ ٢٠٩) ، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في « صحيح الجامع » (٢٥٧٣) ، و« الصحيحة » (١٣٥٨).

○ **أخي** : هل تستطيع في زمن الشهوات والشبهات وزمن الأنانية البغيضة أن تتخلى عن صلتك بمولاك ؟! مَنْ منا ليس له هموم ؟ ومَنْ منا ليس له أحزان ؟ همومي وهمومك كثيرة ! فالقلق والاضطراب وضيق الصدر والاختناق ؛ انظر إلى الدماء التي تُسفك ، والأشلاء التي تُمزق ، والدموع التي تسكب على وجوه أطفالنا في ليلة العيد ..، فقد هذا الطفل أباه ، وفقدت هذه الطفلة أمها، وهذه المرأة فقدت زوجها ! آلام وأحزان تمزق القلوب ، ولا توجد صلة لتُذْهِب عنا هذه الآلام ولتبدد عنا هذه الأحزان ، ولتطهر أدران الذنوب والمعاصي إلا الصلاة ؛ فهيا ـ وبسرعة ـ توضأ ، والجأ إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ في أي مكان شئت ، وفى أي زمانٍ شئت ، وتحت أي سماءٍ شئت، وفوق أي أرض شئت ، واطرح قلبك بذلٍ وانكسار بين يدي العزيز الغفار ، وقُلْ :

بك أستجير ومن يجير سواك ... فأجِرْ ضعيفًا يحتمي بحماك

إني ضعيفٌ أستعين على قوي ... ذنبي ومعصيتي ببعض قواك

أذنبتُ يا ربِّ وقادتني ذنوب ... ما لها مِنْ غافرٍ إلاك

دنياي غرَّتني وعفوُك شدَّني ... ما حيلتي في هذه أو ذاك

لو أنَّ قلبي شكَّ لم يكُ مؤمنًا ... بكريم عفوك ما غوى وعصاك

رباه ها أنا ذا خُلِّصتُ من الهوى ... واستقبل القلبُ الخليُّ هداك

رباه ... قلبٌ تائبٌ ناجاك

أتــردُّه وتــردُّ صــادق تــوبتي حاشــاك تــرفضُ تائبًــا حاشــاك

فلـيرض عني النـاس أو فليسـخطوا أنـا لم أعـد أسـعى لغـير رضـاك

هيا قم وتوضأ ، وصل ركعتين ، والله لـو صَدَقْتَ لـذهب همك ، وزال غمك ، وحوّل الله قلقك إلى أمن ، وحزنك إلى سعادة ، وفقرك إلى غِنى .. اصدق مع الله ﷻ واعلم أن الله سيطهرك من كل معصية وذنب ؛ كما قال الصادق الذي لا ينطق عن الهوى .

● روى «البخاريُّ ومسلم» (١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال :

« أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا ، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟» .

لو أن على باب البيت ترعة ، أو نهرًا جميلًا جاريًا عذبًا حلوًا ، كل يوم تغتسل فيه خمس مرات ، هل يبقى على جسدك شيء من القذارة أو النجاسة ؟

قَالُوا : لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ : «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا » .

هل تريد بعد ذلك شيئًا؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «مواقيت الصلاة» باب «الصلوات الخمس كفارة» (٥٢٨) ، وهذا لفظه، ومسلم كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب «المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات» (٦٦٧) .

● وروى الطبرانيُّ في « الصغير » و« الأوسط » [(١)] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ـ أي : بالمعاصي ـ فإِذَا صَلَّيْتُمْ الصُّبْحَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ العِشَاءَ غَسَلَتْهَا ، ثُمَّ تَنَامُونَ ، فَلَا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا » . والحديث في سندهِ ضعفٌ من باب الأمانة العلمية.

● وفي الحديث الذي رواه «مسلمٌ» [(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟» .

قَالُوا : بَلَى ، يَا رَسُولَ الله .

قَالَ : «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ،

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط » (٢/ ٣٥٨) (٢٢٢٤) و« الصغير» (١/ ٤٧) ، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٣٠٥) ، وقال الهيثميُّ في «المجمع» (١/ ٢٩٩) : «أخرجه الطبرانيُّ في الثلاثة ، إلا أنه موقوف في « الكبير» (٨/ ٥٧) ، ورجال الموقوف رجال الصحيح ، ورجال المرفوع فيهم عاصم بن بهدلة ، وحديثه حسن » ، وحسَّن إسناده المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٧٥) وقال : «الموقوف أشبه» وكذا قال ابن رجب في « فتح الباري » (٥/ ١٨٣) : « وقد روي موقوفًا ، وهو أشبه » ، وقال الشيخ الألباني : «حسن صحيح» في « صحيح الترغيب » (٣٥٧) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الطهارة» باب «فضل إسباغ الوضوء على المكاره» (٢٥١) .

وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ؛ فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ » .

● وفي « صحيح مسلم »[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ الله ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً ، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً».

○ وفي رواية عند «البخاريِّ ومسلم»[٢] يقول النبيُّ ﷺ :

« الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ ، مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ ، تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ » .

ودعوة المَلَك لا تُردُّ أبدًا . ودونك هذه البشرى الجميلة من رسول الله ﷺ ؛ كما في الحديث الذي رواه أبو داود الترمذي والنسائي وغيرهم[٣] بسندٍ صحيح من حديث بُريدة رضي الله عنه قال النبيُّ ﷺ :

« بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب «المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات» (٦٦٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الصلاة» باب «الحدث في المسجد» (٤٤٥) ، وانظر (١٧٦) ، ومسلم كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب «فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة» (٦٤٩) .

(٣) أخرجه أبو داود كتاب «الصلاة» باب «ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظلام» (٥٦١) ، والترمذي كتاب «الصلاة» باب «ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة» (٢٢٣) وقال: «حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه» وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٨٢٣) ، و«صحيح الترغيب» (٣١٥ ـ ٣١٧) .

● قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨] .

●وقال تعالى :﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد:١٢] .

اللهم اجعلني وإياكم من أهل الأنوار ، ولا تجعلنا يا ربنا برحمتك من أهل الظلمات ، ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا ﴾ أي : انتظرونا .. لماذا ؟ ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ انتظرونا نمشى معكم في النور ولا تتركونا في هذه الظلمة الحالكة ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ كنا معكم في المساجد والجماعات والجُمعات ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ أي : بأهل التوحيد الإيمان ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

فأول شيء ستحاسب عليه: الصلاة ، فعاهد ربك الآن ألا تضيِّع الصلاة ، لا تقل :أنا لم أصل منذ زمن ؟ أقول لك : صَلِّ الآن ، وأُبَشِّرُكَ

بقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] .

أَقْبِل على الملك بقلبٍ محب ، وأنا أبشرك بأن الله ﷻ سيفرح بتوبتك وهو الغنيُّ عن العالمين ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧] ، وقال سبحانه ينادى على المسرفين بالمعاصي والذنوب من أمثالي بقوله: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ، فالله ينسبنا عبادًا إليه ونحن أهل الذنوب والمعاصي ويقول : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] فهيا عاهد الله على المحافظة على الصلاة .. هيا أغلق المحل ، ومكتب الوزارة ، وتعال إلى المسجد ولا تخف ، وأنا أخاطب كلَّ مسئول ؛ فالصلاةُ ستزيد الإنتاج ولن تقلل منه ، وهي كذلك تضبط أخلاقنا ومشاعرنا .

● قال ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

أيتها الأمَّةُ الحبيبة ، ويا أيها الموحِّدُون في كلِّ بقاع الدنيا ؛ أخاطبكم : تعالوا لنعاهد ربنا على المحافظة على الصلاة .

وأسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين .

○ **ثم ما الذي سيسأل عنه العبد بعد الصلاة ؟**

لقد ذكر ربنَّا في القرآن أمورًا محددة سوف يُسأل العباد عنها بين يدي الله سبحانه، وكذا وضحت السنة ذلك ، لكنه من المعلوم أن العبد سيسأل بين يدي ربه وخالقه عن الصغير وعن الكبير ، وعن جميع أحواله وأقواله وأفعاله ؛ مصداقًا لقوله سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ، ٨] . ولقوله سبحانه : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ ، ٩٣] وسيسأل العبد كذلك يوم القيامة عن النعيم ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] .

○ فما هو النعيم في الآية ؟

● قال ابن عباس رضي الله عنهما [(١)] : «النعيم : صحة الأبدان ، والأسماع ، والأبصار».

● وقال ابن مسعود [(٢)] رضي الله عنه : « النعيم : الأمن والصحة ».

● وقال مجاهد : « النعيم كل شيء من لذات الدنيا » [(٣)] .

● **وروى الترمذيُّ وابن حبان [(٤)] وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ**

---

(١) أخرجه الطبريُّ في تفسير سورة التكاثر ، وأورده عن الحسن البصري، وهناك أقوالٌ أخرى .

(٢) المصدر السابق .

(٣) أخرجه الطبريُّ في « تفسيره » « تفسير ابن كثير » (لسورة التكاثر :٨) .

(٤) أخرجه الترمذيُّ كتاب «تفسير القرآن» باب ومن سورة ألهاكم التكاثر (٣٣٥٨) وقال: «حديث غريب» ، وابن حبان (٧٣٦٤) ، والحاكم (٤/ ١٩٨) ، وفي « علوم الحديث» (١٨٧) ، وعبد الله بن أحمد في « زوائد الزهد » (ص٣١) ، والبيهقي في « الشعب» (٤٦٠٧) ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٥٣٩) ، و« صحيح الجامع » (٢٠٢٢) .

ﷺ قال : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يَعْنِي : الْعَبْدَ - مِنْ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ ، وَنُرْوِيكَ مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ » .

● وروى أحمد وابن ماجه (١) من حديث معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه عن عمه ، قال : كُنَّا فِي مَجْلِسٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَى رَأْسِهِ أَثَرُ مَاءٍ ؛ فَقَالَ لَهُ بَعْضُنَا : نَرَاكَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ ؛ فَقَالَ : «أَجَلْ وَالْحَمْدُ للهِ» ، ثُمَّ أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْغِنَى ؛ فَقَالَ: «لَا بَأْسَ بِالْغِنَى لِمَنْ اتَّقَى، وَالصِّحَّةُ لِمَنْ اتَّقَى خَيْرٌ مِنْ الْغِنَى ، وَطِيبُ النَّفْسِ مِنْ النَّعِيمِ » .

● وفي « مسند أحمد » بسندٍ صحيحٍ لشواهده (٢) عن أبي عَسِيبٍ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ دخل يومًا حائطًا لبعض الأنصار ، فجاء صاحبُ الحائط بتمرٍ وماءٍ بارد للنبيِّ ﷺ ، وكان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فقال النبيُّ ﷺ : « لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ».

● وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ بسندٍ صحيح بشواهده (٣) من

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٢ ، ٣٨١) ، وابن ماجه كتاب «التجارات» باب «الحث على المكاسب» (٢١٤١) ، والحاكم (٢/ ٣) ، وصححه ووافقه الذهبيُّ وقال البوصيريُّ : «إسناده صحيح ، ورجاله ثقات» ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٨١) ، والطبريُّ في « التفسير» (٣٧٨٩٥) ، والبيهقي في « الشعب» (٤٢٨١) ط الرشد، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٢١) ، وهو في « صحيح مسلم » (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الترمذيُّ كتاب «صفة القيامة» باب «في القيامة» (٢٤١٦)، وقال : «حديث غريب»، وبرقم (٢٤١٧) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٢٩٩ ، ٧٣٠٠) ، و« الصحيحة » (٩٤٦) .

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال:

« لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ ».

○ **الأولى: «عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ»** والعمر هو رأس المال، وهو البضاعة، ومن فقد رأس ماله أوفقد بضاعته، ولم يحقق ربحًا فهو من الخاسرين؛ قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]. فاحذر أن تنشغل عن الآخرة لأنك إن لم تفق في الدنيا فلن تفيق إلا وأنت في معسكر الموتى !! فالأيام تجري وتمر، والأشهر تجري وراءها، تسحب معها السنين، وتجرُّ خَلْفها الأعمار، وتُطْوى حياةُ جيلٍ بعد جيل، وبعدها سيقف الجميع بين يدي الملك الحق الجليل، للسؤال عن الكثير والقليل، والصغير والكبير؛ قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

● **وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ** (١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب الرقاق باب «ما جاء في الصحة والفراغ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة» (٦٤١٢).

ﷺ قال: « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » .

أي: من وظَّف صحته ووقته في طاعة الله ، أو في عمل للدين أو الدنيا ؛ فهو المغبوط السعيد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يوظِّف صحته ووقته في طاعة الله ، أو في عملٍ للدين ، أو للدنيا ؛ فهو المغبون الخاسر في الدنيا والآخرة .

○ وكان أحدُ الحكماء يقول (١) : « كيف يفرح مَنْ يومُه يهدم شهرَهُ ، ومَنْ شهْرُه يهدم سنته ، ومَنْ سنته تهدم عمره ، وكيف يفرح من يقوده عمره إلى أجله ، ومَنْ تقوده حياته إلى موته ؟! » .

○ ولقي الفضيل بن عياض رجلًا ؛ فقال له (٢): « كم عمرك ؟ قال : ستون سنة . فقال له الفضيل : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى الله يوشك أن تبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال : أخي الحبيب هل عرفت معناها ؟ قال : الرجل نعم عرفت أني لله عبدٌ ، وأني إليه راجع . قال : مَنْ عرف أنه لله عبدٌ وأنه إليه راجع ، فليعلم أنه موقوفٌ بين يديه ، ومن علم أنه موقوفٌ بين يديه ، فليعلم أنه مسؤول ، ومن علم أنه مسؤول ، فليعد للسؤال جوابًا ، فقال الرجل : يا فضيل ، فما الحيلة ؟ قال الفضيل : يسيرة . قال : ما هي يرحمك الله ؟ قال : تحسن فيما بقي يغفر الله لك ما قد

(١) « ذم الدنيا » لابن أبي الدنيا (١٩٥) ، وانظر « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٢١) ، و« جامع العلوم والحكم » (٣٨٣) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « لحلية » (٨/ ١١٣) ، وانظر: « جامع العلوم والحكم » (٣٨٣) .

مضى وما بقي ، فإنك إن أسأت فيما بقي أُخِذْتَ بما مضى وما بقي » .

○ وكان لقمان الحكيم [١] يقول لولده: « أي بني ! إنك من يوم أن نزلت إلى الدنيا استدبرت الدنيا واستقبلت الآخرة وأنت إلى دارٍ تقبل عليها أقرب من دارٍ تبتعد عنها » .

إذا مر بي يومٌ ولم أقتبس هُدىً ولم   أستفد علمًا فما ذاك من عمري

اجعل هذا شعارك أيها الحبيب !

● والجسم كذلك أمانة ؛ قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] ستسأل عن الفؤاد .

من تحب ؟ ومن تكره ؟ ومن توالى ؟ ومن تعادى ؟ ما الذي يحركك ، الصدق أم الهوى ؟ من الذي في القلب ؟ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]

● فستسأل عن جسمك فيما أفنيته ؟ في طاعة ، أم في شهوات وملذَّات الدنيا ؟! لا بأس أن تعمل للدنيا لكن لا تنس الدار الآخرة ؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذيُّ بسندٍ صحيح [٢] من حديث أنس ﷺ قال : قال

(١) انظر « حلية الأولياء » (٦/ ٣٢٠) ، و« ذم الدنيا » لابن أبي الدنيا (٧٣) ، و« الزهد » لابن المبارك (١٠٦٠) ، وابن عساكر في « تاريخه » (٣٢/ ٣) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ كتاب صفة القيامة (٢٤٦٥) ، وأخرجه ابن ماجه كتاب « الزهد » ، باب « الهم للدنيا » (٤١٠٥) ، وأحمد (٥/ ١٨٣) عن زيد بن ثابت ﷺ ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٩٤٩ ، ٩٥٠) .

رسول الله ﷺ :

« مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جعَلَ الله غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جعَلَ الله فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ » .

● وستسأل عن العلم ماذا عَمِلْتَ فيها علِمْتَ ، وقد ذكرت ـ قبل ذلك ـ العالم الذي تسعَّر به النار ؛ لأنه مراءٍ غير أمين !! .

● وفي الحديث الذي أخرجه الترمذيُّ وغيره بسندٍ صحيح [١] من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ » .

ولذلك كان النبيُّ ﷺ يستعيذ بالله من عِلْمٍ لا ينفع ؛ كما في « صحيح مسلم » [٢] من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : لا أقول لكم إلا كما كان النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب « العلم » باب « ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا » (٢٦٥٤) ، وصححه الألباني في « الترغيب » (١٠١) ، وأخرجه ابن ماجه (٢٥٩) عن حذيفة رضي الله عنه ، وأخرجه أبو داود (٣٦٦٤) ، وابن ماجه (٢٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه ابن ماجه (٢٥٣) عن ابن عمر رضي الله عنه ، وبرقم (٢٥٤) عن جابر رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم « كتاب الذكر والدعاء » باب « التعوذ من شر ما عُمِلَ ومن شر ما لم يُعْمَل » (٢٧٢٢) .

تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » .

● وسيسأل عن المال !! « وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ » .

المال نعمة ، وما أشرفها وأكرمها من نعمة ، إن كانت في أيدي الصالحين والشرفاء ؛ ليحرِّكُوه في مرضاة رب الأرض والسماء .

●وفي « صحيح البخاري » [(١)] من حديث ابن مسعود ﵁ أنه ﷺ قال :

« أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ ».

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ.

قَالَ : « فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ ».

●وفي « صحيح مسلم » [(٢)] من حديث عبد الله بن الشِّخِّير ﵁ أنه ﷺ قال :

« يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي مَالِي ، قَالَ : وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟ » .

هذا هو المدخر لك عندالله في الآخرة .

●وفي « سنن الترمذي» [(٣)] عَنْ عَائِشَةَ ﵂ : أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ ».

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «ما قدم من ماله فهو له» (٦٤٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الزهد والرقائق» (٢٩٥٨) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ كتاب «صفة القيامة» (٢٤٧٠) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» .

قَالَتْ : مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا .

قَالَ : « بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا » .

فالذي تصدَّقتَ به هو الباقي ؛ فلا تجمع من الحرام ، والله لن ينفعك شيءٌ من ذلك ، فربُّ العزة سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ، وهذه ليست علامة حبٍّ ورضا ، فهذا قارون عجز العصبة من أولي القوة عن حمل مفاتيح خزائنه !! ومع ذلك قال سبحانه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١] ، فلا تغتر ؛ فالله قال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

فلا تتصور أنك لن تسأل عما تجمع .

● وكما في «مسند أحمد» بسندٍ صحيح [(١)] من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ». ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]

●وقال سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾

---

(١) أخرجه أحمد(٤/ ١٤٥) ، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٧٢) ، والبيهقي في «الشعب» (٤٥٤٠) ، وصححه الألباني في « صحيح الجامع » (٥٦١) ، و« الصحيحة » (٤١٣) .

نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

● وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فليس كلُّ من وسَّع الله عليه، دليلَ إكرام الله له، وليس كلُّ من ضيَّق الله عليه دليل إهانةٍ له !!

دع الحرص على الدنيا وفي العيش فلا تطمع
ولا تجمع من الحرام فما تدري لمن تجمع
فإن الرزق مقسومٌ وسوء الظن لا ينفع
فقيرٌ كل من يطمع غنيٌّ كل من يقنع

وسيسأل العبد ـ كذلك ـ عن العهود التي عاهد الله عليها، والتي عاهد الناس عليها؛ قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]

●وسيسأل العبد يوم القيامة عن رعيته وعن أسرته، وستسأل المرأة أيضًا يوم القيامة؛ ففي «الصحيحين» (١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: « أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الجمعة» باب «الجمعة في القرى والمدن» (٨٩٣)، ومسلم كتاب «الإمارة» باب «فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر» (١٨٢٩) واللفظ له.

عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ مَسْؤُولَةٌ عَنْهُمْ ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » .

○ أيها الأحبة : حتى إذا فرغ الله ـ جلَّ وعلا ـ من الحساب بين الخلق ، من الحقوق التي له تبارك وتعالى ، أمر الله ـ جلَّ وعلا ـ بدواوين المظالم أن تُنصب للقصاص ، ولأداء الحقوق التي للعباد .

أيها المظلوم صبرًا لا تهن إن عين الله لا تنام
نم قرير العين واهنأ خاطرًا فعدْلُ الله قائمٌ بين الأنام

أيها الظالم ! أخاطبك ـ بقلبي والله : لا تغتر بقوتك ، ولا بمالك ، ولا بجاهك ، ولا بمنصبك ، ولا بكرسيك ، ولا بسلطانك ، ولا بصحتك ؛ فستقف بين يدي الحق تبارك وتعالى وستسأل عن الصغير وعن الكبير .. لا يظنن أحدٌ أنه سيدخل الجنة ولو كان من أهل الإيمان ، وفي عنقه مظلمةٌ لأخٍ مسلم .. مستحيل ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: ٤٠].

بل ستعجب إذا علمت أن الله ـ جلَّ وعلا ـ سيقتصُّ للدواب والوحوش يوم القيامة ؛ كما في «صحيح مسلم» [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «البر والآداب والصلة» باب «تحريم الظلم» (٢٥٨٢) .

الْقَرْنَاءِ » .

فسيقتصُّ الله ﷻ للشاة التي ليس لها قرنٌ من الشاة التي لها قرن يوم القيامة على رؤوس الخلائق .

● وفي « مسند أحمد » والطيالسي بسندٍ صحيح لشواهده (١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه : أَنَّ رسول الله ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ . تَنْتَطِحَانِ ؛ فَقَالَ :

« يَا أَبَا ذَرٍّ ، هَلْ تَدْرِي فِيْمَ تَنْتَطِحَانِ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي ، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

● وروى ابن جرير الطبريُّ بسندٍ جيد (٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : « إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم ، وحشر الداوب والبهائم والوحش ، ثم يجعل القصاص بين الدواب ، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ، فإذا فُرِغ من القصاص بين الدواب ، قال لها : « كوني ترابًا » قال : فعند ذلك يقول الكافر : يا ليتني كنت ترابًا » .قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٢ ، ١٧٣) ، والطيالسي (٤٨٠) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (١٠/ ٦٣٨) : «رواه كله أحمد والبزار ، وكذلك الطبراني في « المعجم الأوسط » وفيها ليث ابن أبي سليم وهو مدلس ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ، ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راو لم يسم » ، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٤/ ٦١٠) تحت حديث (١٩٦٧) ، وانظر رقم (١٥٨٨) .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبريُّ في « التفسير » لسورة النبأ (٤٠) (٣٦٠٢٩) (٢٤/ ٧١) ، وقال الشيخ الألباني في « الصحيحة »(٤/ ٦٠٧) : « إسناده جيد ، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي المغيرة » .

ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠].

تصور هذا مع البهائم والدواب والوحوش ؛ فما ظنك بالمكلَّفين ؟ فلابد من القصاص ، ولابد من أن تنصب موازين العدل .

أَمَـا وَاللهِ إِنَّ الظُّلْـمَ شُـؤْمٌ ... وَلَا زَالَ الْمُسِيءُ هُـوَ الظَّلُـومُ
سَـتَعْلَمُ يَـا ظَلُـومُ غَـدًا ... إِذَا الْتَقَيْنَا عِنْدَ الْمَلِيْكِ مَنِ الْمَلُومُ
إلى ديـان يـوم الـدين نَـمْضِي ... وعنـد الله تجتمـع الخصـوم

فاحذر الظلم أخي في الله.

لَا تَظْلِمَـنَ إِذَا مَـا كُنْـتَ مُقْتَـدِرًا ... فَـالظُّلْمُ تَرْجِـعُ عُقْبَـاهُ إِلَى النَّـدَمِ
تَنَـامُ عَيْنَـاكَ وَالْمَظْلُـومُ مُنْتَبِـهٌ ... يَـدْعُو عَلَيْـكَ وَعَـيْنُ اللهِ لَمْ تَـنَمِ

ولَمَّـا بعـث النبـيُّ ﷺ معـاذ بـن جبـل رضي الله عنه إلى الـيمن ، والحـديث في «الصحيحين»(١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال النبيُّ ﷺ لمعاذ :

« وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْـمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ » .

○ وفي رواية(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «المظالم» باب «الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم» (٢٤٤٨) ، ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩) .

(٢) أخرجه الترمذي كتاب «صفة الجنة» باب «ما جاء في صفة غرف الجنة» (٢٥٢٦) ، وكتاب «الدعوات» (٣٥٩٨) ، وابن ماجه كتاب «الصيام» باب «في الصائم لا ترد دعوته» (١٧٥٢) ، وأحمد (٢/ ٣٠٤، ٣٠٥، ٤٤٥) ، وابن حبان (٨٧٤ ، ٧٣٨٧) ، والطيالسي (٢٥٨٤) ، وعبد بن حميد في « المنتخب » (١٤٢٠) ، وصحَّحه لشواهده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٥٢٧ ، ٥٢٨) تحت حديث (٨٢٠) .

« وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » .

● وفي «الصحيحين»(١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن الحبيب النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » وقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] .

● وفي سنن ابن ماجه و«صحيح ابن حبان» وغيرهما (٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال للمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة :

« أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » .

قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَى يَا رَسُولَ الله ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ؛ فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ الله الْكُرْسِيَّ ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم الظلم» (٢٥٨٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه كتاب «الفتن» باب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٤٠١٠) ، وابن حبان (٥٠٥٨) ، وأبو يعلى (٢٠٠٣) ، ورُوي عن بريدة عند البيهقي في «الكبرى» (٦/ ٩٥) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٩٧ ، ٤٥٩٨) .

الله ﷺ :

« صَدَقَتْ صَدَقَتْ ! كَيْفَ يُقَدِّسُ الله أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ ».

فأمة الظلم ولو كانت مسلمة إلى زوال ، وأمة العدل ولو كانت كافرة إلى بقاء ؛ كما قال ابن تيمية [1] : « إنَّ الله تعالى يقيم دولة العدل وإن كانت كافرة ، ولا يقيم دولة الظلم وإن كانت مسلمة ».

والظلم ظلمات يوم القيامة ، فليس هناك درهم ولا دينار ولا ريال ولا دولار ؛ بل حسنات وسيئات !!

● ففي « صحيح البخاري » [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ » أي : يُؤخذ من حسناته لأخيه ، فإن فنيت حسناته أُخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه ، ثم طرح في النار !

---

(١) انظر : « مجموع الفتاوى » (٢٨/ ٦٣) ، و« الاستقامة » (٢/ ٢٤٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب « المظالم » باب « من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له ، وهل يبين مظلمته ؟ » (٢٤٤٩ ، ٦٥٣٤) .

• وفي «صحيح مسلم» (١) من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال :

« أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ »

قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ .

فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي ، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » .

يأتي الظالم وهو على أرض المحشر على بساط العدل في ساحة الحساب بين يدي الملك الوهاب ، وكلٌّ من ظلمهم في الدنيا يحيطون به ، من كلِّ جانب ، كلٌّ منهم يريد حقه منه ؛ فيؤخذ من حسنات هذا الظالم إلى صحائف المظلومين ، حتى إذا فنيت الحسنات أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، حتى أصبحت صحيفةُ الحسنات بيضاء! فهل نسيت ـ أخي ـ اللحظة التي ستقف فيها بين يدي الله ﷻ؟

والله ستؤدِّي الحق كاملًا غير منقوص ؛ فإذا فنيت الحسنات يؤخذ من سيئات هؤلاء لتنقل إلى صحيفتك . نعم .. هذه سيئات من ظلمتهم في الدنيا ، فترفع رأسك ، وتمد عنق الرجاء إلى رب الأرض والسماء أن يخلِّصك

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «البر والصلة والآداب» باب «تحريم الظلم» (٢٥٨١) .

من هؤلاء ، فيقرع سمعك ، ويخلع قلبك نداءُ الحقِّ جلَّ وعلا : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ ﴾ - يعني : مسرعين - ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ رافعي الرؤوس نحو الداعي لا تطرف أبصارهم ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣] فالأفئدة قفزت من الصدور ، وبلغت الحناجر ؛ كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

○ أيها الحبيب في فلسطين ، وفي العراق ، وفي لبنان ، وأفغانستان ، والشيشان ، يا من ظُلمت ، ويا من سُفِكَت دماؤك ، ويا من مُزِّقت أشلاؤك ، اصبر ولا تحزن !! .

أين الظالمون وأين التابعون لهم في الغي؟ ... بل أين فرعون وهامان؟
أين من دوَّخوا الدنيا بسطوتهم ... وذكرهم في الورى ظلمٌ وطغيان ؟
هل أبقى الموتُ ذا عزٍّ لعزته ؟ ... أو هل نجا منه بالسلطان إنسان ؟
لا والذي خلق الأكوان من عدم ... الكلُّ يفنى فلا إنس ولا جان

● وأختم بسؤال خطير، ألا وهو: يا تُرى ما هو أول شيء يَقْضِي الله ﷻ

فيه بين العباد ؟ .

● والجواب : في الدماء ، ثم يقضي الله ـ تبارك وتعالى ـ في الدماء ؛ فالدماء أولُ حقٍّ من حقوق العباد ؛ يقضى الله فيه بين الخلق يوم القيامة. ولا تعارض بين هذا وبين حديث رسول الله ﷺ :

« **أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْه العَبْدُ : الصَّلاَةُ** »(١) فقد جمعت رواية النسائيِّ بين الأمرين ، فقال ﷺ : « **أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْه العَبْدُ : الصَّلاَةُ ، وأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ في الدِّمَاءِ** »(٢) ؛ فالدماء لها حرمةٌ عظيمة ؛ لأن الله ـ جلَّ وعلا ـ هو واهب الحياة ، وليس من حَقِّ أحدٍ أبداً أن يستحل هذا الحق ، أو أن يستبيح حماه إلا في حدود الشرع الذي شرعه ربُّنا ـ جَلَّ وعلا ـ وهو وحْدهُ سبحانه أعلم بمن خلق ؛ قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك :١٤] .

○ فالدماء لها حرمة عظيمة ؛ لذا كانت الدماء أول ما يقضي الله فيه بين

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٣) ، وأبو داود (كتاب الصلاة ، باب قول النبي ﷺ كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) (٨٦٦) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة (١٤٢٦) عن تميم الداري ، وله شواهد أخرى ، وصححه بمجموع طرقه العلامة الألباني في « الصحيحة » (١٣٥٨) .

(٢) أخرجه النسائي ، كتاب تحريم الدم ، بابا تعظيم الدم (٧ / ٨٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٤٢٥) عن ابن مسعود ، وحسن الشيخ الألباني سنده في الشواهد ؛ كما في الصحيحة» (١٧٤٨) ، وصححه لغيره في « صحيح الترغيب » (٢٤٣٥) ، و« صحيح الجامع » (٢٥٧٢) .

○ وانظر كذلك للجمع بين الحديثين « شرح مسلم » للنووي (١١ / ١٦٧) ، و «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٠٤) .

العباد يوم القيامة ، كما في «الصحيحين»[(١)] من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « **أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ** » .

وتدبر معي هذا الوعيد الذي ذكرته في قول ربنا ﷻ :﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، وحتى لا يظن أحدٌ أن الدماء التي قدّسها ديننا، وبيّن حرمتها إسلامنا ليست دماء المسلمين فقط، وإنما هي الدماء بصفة عامة في حدود الشريعة التي شرعها ربُّنا ـ تبارك وتعالى ـ ؛ أقول : حتى لا يظنن أحدٌ ذلك أُذكِّر فقط مرةً أخرى بهذا الحديث الجميل الذي رواه **البخاريُّ في «التاريخ الكبير» وعبد الرزاق في «المصنف» والطبراني في «الكبير» و «الأوسط» وابن حبان في «الصحيح» والبيهقي في «السنن»[(٢)] بسندٍ صحيح** من حديث عمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَنْ أَمَّنَ** ـ أي : أعطى الأمان ـ **رَجُلاً عَلى دَمِه فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ القَاتِلِ وَإِنْ كَانَ المَقْتُولُ كَافِرًا** ».

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٣) ، ومسلم ، كتاب القسامة ، باب المجازاة بالدماء في الآخرة (١٦٧٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ـ معلقًا ـ في « التاريخ الكبير » (٣/ ٣٢٢) (ترجمة رفاعة بن شداد) ، وعبد الرزاق (٥/ ٣٠٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠ / ٢٢٢، ٢٢٧ ــ ٢٣٠) ، و«الأوسط» (١٤٠٣)، وابن حبان (٦٠٨٢) ، والطيالسي (١٣٦٩) ، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ١٤٢) ، وابن أبي عاصم في « الآحاد والمثاني (٢٠٧٤) عن عمرو بن الحمق الخزاعي ﷺ وله شواهد ؛ صححه بها العلامة الألباني في « الصحيحة » (٤٤٠) .

وَدِدتُ الآن أن لو سمعت الفاتيكان وأوروبا وأمريكا هذا الكلام النبويَّ ! وأرجو أن لو ترجم هذه الكلمات بعضُ أحبابنا وإخواننا ممن تحترق قلوبهم غيرةً على دين الله بصفة عامة وعلى رسول الله ﷺ بصفةٍ خاصة .

● وفي « صحيح البخاري »(١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : « **لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا** » .

وكان ابن عمر يقول(٢) : « إِنَّ مِنْ وَرْطَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا : سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ » .

● وفي الحديث الذي رواه أبو داود والحاكم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ورواه الحاكم والنسائي وأحمد(٣) من حديث معاوية رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « **كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا** » .

فهذه رسالةٌ أوجهها لإخواننا في فلسطين ، وفي العراق : كُفُّوا عن الدماء المسلمة المحرمة .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الديات» باب ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ (النساء: ٩٣) (٦٨٦٢) .

(٢) المصدر السابق (٦٨٦٣) .

(٣) أخرجه أبو داود كتاب «الفتن والملاحم» باب «في تعظيم قتل المؤمن» (٤٢٧٠) ، والحاكم (٤/ ٣٥١) عن أبي الدرداء ، وأخرجه أحمد (٤/ ٩٩) ، والنسائي كتاب تحريم الدم (٧/ ٨١)، والحاكم (٤/ ٣٥١) ، وصححه الشيخ الألباني لشواهده في «الصحيحة»(٥١١) ، (٥١١) ، و« صحيح الجامع » (٤٥٢٤) .

○ أيها المسلم على أرض فلسطين والعراق : إياك أن تسفك دم أخيك المسلم ،ورطةٌ لا مخرج منها لا في الدنيا ولا في الآخرة ؛ فدماء المسلمين حرام ، ففي «الصحيحين» (١) من حديث أبي بكرة ﵁ أنه ﷺ قال في حجة الوداع :

« **فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا** » .

فهل يا تُرى انتهت مشاهد القيامة ؟ لا ، فبعد الحساب تُنصب الموازين ، فالحساب لتقرير الأعمال ، والموازين لبيان مقدارها ؛ ليكون الجزاء بحسبها ، وهذا ما نتعرف عليه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى ، سَتَرَنِي اللهُ وإياكم في الدنيا والآخرة .



(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «العلم» باب قول النبيِّ ﷺ «**رب مبلغ أوعى من سامع**» (٦٧) ، وانظر (٤٤٠٦) ، ومسلم كتاب «الحج» باب «حجة النبي ﷺ » (١٢١٨) .

الميزان والصراط

○ **أيها الأحبة** : الميزان قضية خطيرةٌ وجليلة ، ونحن المؤمنين الموحدين نؤمن بالميزان، ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنه لا يعلم عظمته وحقيقته إلا الرحيم الرحمن جَلَّ جَلالُهُ .

○ واعلم أن الميزان توزن فيه الأعمال أو يوزن فيه العبد أو توزن فيه الصحف ، على ثلاثة أقوال لأهل العلم(١) . وسيأتي التفصيل في ذلك . لكن تَدبَّر معي كَلَامَ البشير النذير؛ كما في «**مستدرك الحاكم**»(٢) **بسندٍ صحيح** من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال :

«**يُوضَعُ المِيزَانُ يَوْمَ القِيامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيه السَّماواتُ والأَرْضُ لَوسِعَتْ**، فتقول الملائكة : **يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا ؟ فيقولُ الله تعالى : لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي** ، فتقولُ الملائكة : **سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِك**» .

وهذا يؤكد لنا أنه لا يعلم مقدار هذا الميزان إلا الرحيم الرحمن . ومعنى: لوسعت أي : لوسعت كَفَّتاه أو كِفَّتاه ـ واللغتان صحيحتان ـ السماوات

---

(١) راجعها بالتفصيل في « شرح الطحاوية » (ص ٢٣٠ ــ ٢٣٢ ط أولى النهى) و« معارج القبول » (٢/ ٨٤٥ ـ ٨٤٩) ط ابن القيم وابن عفان .

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٨٦) وقال : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبي ، قال الألباني : « وفيه نظر » ، ثم قال : « وقد رواه الآجري في « الشريعة » (٣٨٢) موقوفًا على سلمان ، وإسناده صحيح ، وله حكم المرفوع ؛ لأنه لا يقال من قبيل الرأي » ، وصححه الشيخ الألباني لغيره في « صحيح الترغيب » (٣٦٢٦) ،وانظر « الصحيحة » (٩٤١) .

والأرض قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء:٤٠] .

● وفي الحديث القدسي : « **يَا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا** »[١] .

● قال الله ﷻ ـ وتدبر قول الله : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١ ـ ١٠٤] .

فمن ثَقُل ميزانُهُ بحسنةٍ واحدةٍ أفلح وسعد ؛ لذا لا تحقرن من المعروف شيئًا ، فحسنةٌ تَدْخُلُ بها الجنة ، ويثقل الله بها ميزانك ، وبسيئة واحده تهلك ؛ ويخفُ بها ميزانك .

● قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾
[القارعة:٦ ـ ١١]

فإياك أَنْ تحقر عملًا من الأعمال ، فرب عمل صغير ينجيك الله به من النار ؛ كما تقدم في الحديث : «**اتَّقُوا النَّار ولَوْ بِشقِّ تَمْرَة**» ، أمَّا من تساوت

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ .

حسناته مع سيئاته، فهو ـ على الراجح من قول جمهور أهل العلم ـ[1] من أهل الأعراف في مكانٍ بين الجنة والنار ؛ فأهل الأعراف قومٌ استوت حسناتهم مع سيئاتهم، قعدت بهم حسناتهم فلم توصلهم إلى الجنة، فالحسنات أقل من أن يدخلوا بها الجنة ، ومن أن يحجبوا بها كذلك عن النار، فهؤلاء هم أَهْلُ الأعراف ؛ إذا نظر أهل الأعراف إلى أهل الجنة، قالوا : سلامٌ عليكم ؛ قال تعالى :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[الأعراف: ٤٦، ٤٧]

○ نعود لمسألةٍ مهمة ألا وهي : ما الذي يوضع في الميزان ؟

● والجواب : أن للعلماء ثلاثة أقوال في ذلك ـ كما سبق ـ :

● الأول : قالوا : توضع الأعمال من التوحيد ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله، وحضور مجالس العلم ، والبكاء من خشية الله .. إلى غير ذلك من أعمال البر.

وقد يقول قائل : كيف والأعمال أعراض وليست أجسامًا ؟ كيف يوضع

---

(١) راجع « تفسير ابن كثير » (لسورة الأعراف : ٤٧) ، و« تفسير الطبري » كذلك (الأعراف: ٤٦ ، ٤٧) .

التوحيد في الميزان ؟ وكيف توضع الخشية ، والتوكل ، والرجاء ، والإنابة ، والتفويض ، والاستعانة في الميزان ؟

● **والجواب** أن الله تعالى قادرٌ على أن يحوّل الأعراض إلى أجسام ، وأن يضعها في الميزان ؛ ليثقل بها الميزان ، أو ليخف بها الميزان ، بحسب الحسنات والسيئات ، والأدلة على ذلك من كلام النبيِّ ﷺ كثيرةٌ جدًّا ، ودونك ـ أيها الحبيب ـ بعض الأدلة ، من ذلك: ما رواه «**البخاريُّ ومسلم**» [(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« **كَلِمَتان ، خَفِيفَتَانِ عَلى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ في المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ: سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ الله العَظِيم** » .

هيَّا ثقِّل ميزانك ، وأنت جالس الآن ، فالله يحبُّ هاتين الكلمتين . فهذا إذًا عَرَضٌ يوضع في الميزان ، ويثقل الله عز وجل بهاتين الكلمتين الجميلتين الحبيبتين إليه ميزان العبد المؤمن يوم القيامة .

● ومن الأدلة كذلك : **ما رواه أبو داود والترمذيُّ وأحمد وغيرهم بسندٍ صحيح** [(٢)] من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « **مَا مِنْ شَيْءٍ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب فضل التسبيح (٦٤٠٦) ، ومسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٢ و ٤٤٦ و ٤٤٨) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق (٢٧٩٩) ، والترمذي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في حُسن الخلق (٢٠٠٢ ، ٢٠٠٣) والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢٧٢) قال الترمذيُّ : « هذا حديث حسن صحيح » ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٨٧٦) .

أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ » .

فهيا حسِّن أخلاقك مع ربك سبحانه ، ومع نبيك ﷺ ، ومع زوجتك ومع أمك ، ومع أبيك ، وأولادك ، وجيرانك ، وموظفيك ومرؤسيك في العمل .

حسِّن خُلُقك بكلمة جميلة ، وابتسامة حلوة ، وإن لَمْ تستطع أن تعامل الناس بكلمةٍ رقراقةٍ ، وابتسامه مشرقة جميلة ، فكُفَّ أذاك عن الخلق ، فإن ذلك من حسن الخُلُق .

هذا لو كففت شرَّكَ عن الخلق! فكيف لو أدخلْتَ السُّرور على قلب أخيك ؟ وكيف لو رحِمْتَ ضعيفًا ؟ وكيف لو بذلت الدواء لمريض بحُبٍّ ؟ وكيف لو أخذت بيد أعمى لا يدري أين الطريق ؟ وكيف لو أعطيت فقيرًا جنيهًا أو مئة جنيهٍ مثلاً؟ وكيف لو عاونت يتيمة في نفقات زواجها؟ إن هذا لمن عظيم حسن خلق العبد المؤمن .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

والله لا كرامة لهذه الأمة إلا بحسن الخلق ، هل تعلم أن البعثة النبوية تُلخَّص فى هذه القضية ؛ فيقول الحبيب ﷺ : « إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّم صَالِحَ الأَخْلَاقِ »[1] إنها قضية الأخلاق ، وعبادةٌ بدون خلق ، لا ينتفع صاحبها من ورائها ، وعلم بدون خلق لا قيمة له ؛ فكم من مقرِّبٍ إلى الله وهو

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٤٥) .

بعيدٌ عن الله ! وكم من مخوِّفٍ من الله وهو جريءٌ على الله ! وكم من تالٍ لكتاب الله وهو منسلخٌ عن آيات الله !! فالقضية قضية خُلُق «**وإنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيء**»[(١)] .

○ **وفي رواية أبي داود وأحمد وابن حبان**[(٢)] **، من حديث عائشة** ﵂ **بسندٍ صحيح أنه** ﷺ **قال :**

« **إنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائِم القَائِم** » .

فحسن الخلق يوضع في الميزان ، ويثقل الله ﷻ به ميزان المؤمن يوم القيامة ، فالعمل - وإن كان عَرَضًا - فالله - جلَّ وعلا - يحوله إلى جسمٍ يثقل به الميزان .

● وفي «**صحيح مسلم**»[(٣)] من حديث النواس بن سمعان ﵁ قال : قال النبيُّ ﷺ : « **يُؤْتَى يَوْم القِيَامَةِ بِالقُرْآنِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلونَ بِه تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وآلُ عِمْرانَ ، كَأَنَّهما غَمامَتان، أَوْ ظُلَّتان سَوْدَاوانَ . بَيْنَهُما شَرْقٌ، أو كَأَنَّهما حِزْقَان مِنْ طَيْرٍ صَوَّافَّ ، تُحاجَّان عَنْ صَاحِبِهِمَا**» .

---

(١) وهو جزءٌ من الحديث قبل المتقدم : « **ما من شيء أثقل ....** » .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٦٤ ، ٩٠) ، وأبو داود ، كتاب الأدب ، باب في حسن الخلق (٤٧٩٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٧٦٧) ، وابن حبان (٤٨١) عن عائشة ، وله شاهدٌ عن أبي الدرداء عند الترمذي (٢٠٠٣) ، وشواهد أخرى ، وصححه الألبانيُّ في « المشكاة » (٥٠٨٢) و« صحيح أبي داود » .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (٨٠٥) ، والرواية الثانية عند مسلم برقم (٨٠٤) .

وفي رواية أبي أمامة رضي الله عنه عند «مسلم» أيضًا :

« فإنّهما تأتِيَان يَوْمَ القِيَامَة كأَنَّهما غَمامَتان أَوْ كأَنَّهما غيَايَتَانِ أَوْ كأنَّهما فِرْقَان مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهما ».

حديثٌ في غاية الرقة والجمال .

وإليك رواية عجيبة جدًا، رواها «البخاريُّ ومسلمٌ»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ :

« يُؤْتَى بِالْـمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ ، هَذَا الْـمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْـجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ » ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم : ٣٩] .

● فالقول الأول : من أقوال أهل العلم في أن الذي يوضع في الميزان هي الأعمال .

● القول الثاني : هو أنَّ الذي يوضع في الميزان : العبد نفسه ؛ إما أن

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ (٤٧٣٠) ، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٩) .

يَثْقُل به الميزان أو يخفَّ ، لكن ليس بحسب الضخامة والسِّمَن !! إطلاقاً ، وليس بالنحافة والضعف ، وإنما بالإيمان والعمل الصالح ، فموازينُ الدنيا تختلف عن ميزان الآخرة ، والناس في الدنيا لها موازين أخرى مختلفة عن ميزان الله ﷻ ؛ روى «البخاريُّ ومسلم»(١) من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

« إِنَّهُ لَيُؤْتَى بالرَّجُلِ العَظِيمِ السَّمِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلاَ يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ » وقَالَ : اقْرءوا : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف:١٠٥] رجل سمين ، ورجلٌ عظيم، له وضْعُه، وله كيانه ،وله مكانة ، وله كرامة بين الناس ، لكن ليس عنده إيمان ولا تقوى ؛ فهذا لا يزن عند ربنا جناح ذبابة !! لماذا ؛ لأن الله قال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣].

● وفي مسند الإمام أحمد(٢) بسندٍ حسن من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ كان يجتني سِوَاكًا من الأَرَاكِ ، وكان دقيقَ السَّاقَيْنِ ، فجعلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ ، فقالَ رسُولُ الله ﷺ :

«مِمَّ تَضْحَكُونَ ؟ »

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ (٤٧٢٩) ، ومسلم كتاب صفة الجنة والنار (٢٧٨٥) .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠) والطيالسي (٣٥٥) عن ابن مسعود ، وله شاهدٌ ، أخرجه أحمد (١ / ١١٤) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٢٣٨) عن عليٍّ ﷺ ، وصححه الألباني بطرقه في « الصحيحة » (٢٧٥٠) .

قالوا : يَا نَبيَّ الله ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ .

فقَالَ « **والذَّي نَفْسِي بِيَدِه ، لَهُمَا أَثْقَلُ في الميزَانِ مِنْ أُحُدٍ** » .

الله أكبر !! رضي الله عن ابن مسعود ؛ فهذه شهادةٌ عجيبةٌ له ! فموازين الدنيا بالضخامة ! أما موازين الآخرة فليست كذلك ، إنما هي بالتقوى:

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[الحجرات:١٣] .

● وتدبر ـ معي ـ هذا الحديث المهم ؛ ففي « **صحيح البخاري** »[(١)] من حديث سهل بن سعد الساعديِّ ﷺ قال : مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ :

«**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟**» .

قَالُوا : حَرِيٌّ إِنْ خطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ ، قَالَ : ثُمَّ سَكَتَ ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْـمُسْلِمِينَ، فَقَالَ:

«**مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا ؟**»

قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ .

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا** » .

● إذًا ؛ يوضع العبد نفسه في الميزان .

وهنا سؤالٌ غايةٌ في الأهمية ، ألا وهو : ما هو وزني عند الله ؟ هل فكَّرنا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين (٥٠٩١) .

في هذا السؤال ؟!

ستقول لي : وكيف أعرف وزني عند ربي ؟ وأنا أقول لك : تَعْرِف ذلك بحالك مع أمك وأبيك ، ومع زوجتك وأولادك .. بأخلاقك وصدقك ووفائك وأمانتك وتقواك .. ترمومتر مهمٌّ تستطيع أن تقيس به نفسك وحالك !! فيا أخي حقِّق التقوى ؛ ليثقل الله ميزانك في يومٍ لا يثقل الميزانَ إلا العمل الصالح .

● **القول الثالث** : أن الذي يوزن : صحف الأعمال .

● واستدل القائلون بذلك بما رواه **أحمد والترمذيُّ وابن ماجة** ـ واللفظ له ـ وغيرهم **بسندٍ صحيح** [1] من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال :

«إِنَّ اللهَّ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ :

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣) ، والترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠) ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٣٥) ، قال العلامة الألباني : « وفي الحديث دليلٌ على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان ، وأن الأعمال وإن كانت أعراضًا ، فإنها توزن ، والله على كل شيء قدير ، وذلك من عقائد أهل السنة ، والأحاديث في ذلك متضافرة ، وإن لم تكن متواترة » ، انظر : « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٥١ ـ ٣٥٢) ط المكتب الإسلامي .

أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقُولُ : لَا يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ : مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ : فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ » .

يا رب أحينا على التوحيد ، وتوفنا على التوحيد ، واحشرنا في زمرة الموحدين تحت لواء إمام الموحدين، وقدوة المحققين محمدٍ سيد النبيين والمرسلين ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]

• وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥ ، ٦٦] .

• وفي «الصحيحين» (١) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال :

« مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ [النساء : ١٧١] (٣٤٣٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨) .

وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ ، وَابْنُ أَمَتِهِ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ» .

واعلم أنَّ التوحيد هو الإكسير الأعظم الذي إن وضعت منه ذرةٌ على جبال من الذنوب والخطايا لأذابتها وبددتها ؛ ففي «**صحيح مسلم**»[(١)] عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

« **يَقُولُ اللهُ عز وجل : وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً** » .

○ **وفي رواية الترمذيِّ**[(٢)] من حديث أنس رضي الله عنه ؛ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول :

«**قَالَ اللهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا فِيك ولاَ أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَم لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي ، قال ـ جل جلاله :يَا ابْنَ آدَم ، إنك لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خطَايا**

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ؛ في « السنن » كتاب الدعوات ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠) وقال : «وهذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه»ا.هـ وله شاهدٌ عند أحمد (٥/ ١٤٨ ، ١٦٧) عن أبي ذر. وحسنه بشواهده الألباني في « الصحيحة » (١٢٧) .

ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِها مَغْفِرَة » .

فالإيمان قولٌ باللسان، وتصديق بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، فليس مجردَ كلمةٍ ترددها الألسنة ، دخانًا يطير في الهواء! فيجب أن يترجم الإيمان إلى عمل .

○ الشاهد : أن من أهل العلم من قال : توزن الأعمال ، ومنهم من قال : يوزن العبد نفسه في الميزان ، ومنهم من قال : توضع الصحائف في الميزان ، وأنا أقول: لا حرج على الإطلاق في الجمع بين هذه الأقوال كلّها ، فيوضع العبد بأعماله وصحيفتهِ في الميزان بين يدي الرحيم الرحمن ﷻ ، ولا أريد أن أطيل في هذه الجزئية أكثر من ذلك ؛ فإذا ما نُصبت الموازين، وانتهى الحساب، وتقرر الجزاء بعد الحساب والميزان، فالحساب لتقرير الأعمال، والميزان لبيان مقدارها، ليكون الجزاء بحسبها .

○ **أقول** : إذا فرغ الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ من الحساب وتقرر الجزاء ، أمر الملك ﷻ بنصب الصراط على ظهر جهنم ، يا رب سلِّم !! وهل هناك صراط ! بعد الحساب والميزان ؟ نعم ، يُضْرَبُ الصراط بين ظهري جهنم أو على متن جهنم ، فتكون جهنم تحت الصراط، والكلُّ واردٌ عليه !!

● قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾[مريم:٧١، ٧٢] .

اللهم اجعلني وإياكم من المتقين .

ثم قال سبحانه : ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم:٧٢] .

○ **والسؤال : ما هو الصراط ؟**

● الصِّراط لغةً : هو الطريق الواضح ، ومنه قول جرير يمدح هشام بن عبد الملك :

أمــيرُ المــؤمنين عَــلَى صراط إذا اعــوَجَّ المــواردُ مسـتقيم (١)

●● والصراط في الشرع : الجسر الذي يضرب على ظهر جهنم أو على متن جهنم يمرُّ عليه كلُّ الخلق .

▫ **وقد اختلف العلماء في المراد بورود النار في هـذه الآية الكريمـة على أقوال** (٢) :

● **فمن أهل العلم مَنْ قال** : الـورود هـو الـدخول ، يمـرُّ عـلى الصراط بمعنى يرد النار كلُّ أحدٍ ؛ البرُّ والفاجر؛ لكن الله يجعلُ النار بـرداً وسـلاماً على المتقين، كما جعلها على إبراهيم عليه السلام.

●● **والقول الثاني** ـ وهو قول الجمهور ـ وهو الذي أدين الله به، وأميـل إليه : أن الورود بمعنى المرور، ولا حـرج أن أجمـع بـين قـولي أهـل العلـم؛

---

(١) « تهذيب اللغة » للأزهري (باب : سرط) و« لسان العرب» لابن منظور (مادة سرط) و«القاموس المحيط » (٨٧١) (مادة الصراط) .

(٢) راجع بحثًا متينًا في ذلك في « أضواء البيان » للعلامة الشنقيطي (٤/ ٣٧٦ ـ ٣٨٢) ، و« شرح الطحاوية » (ص٢٣٠ ط أولى النهى) ، و« تفسير ابن كثير » (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧ ط المكتبة القيمة) .

فأقول: الورود له معنيان:

○ **المعنى الأول**: الورود بمعنى الدخول، وهذه للكافرين؛ كما قال الله في شأن فرعون: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود: ٩٨].

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم:٨٦] هذا هو المعنى الأول.

○○ والورود بالمعنى الآخر: ألا وهو المرور؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١] أي: إلاَّ وسيمرُّ عليها، ثم ينجِّي الله تبارك وتعالى المتقين، ويسقط في جهنم مَنْ على الصراط من الكافرين والمجرمين والظالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تدبر حَدِيثَ من آتاه الله جوامع الكلم؛ كما في «**الصحيحين**»(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا قَالُوا لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله! هَلْ نَرى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟

فَقَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**»

قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ الله.

قَالَ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**».

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب فضل السجود (٨٠٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢).

قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ الله .

قَالَ : « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ. فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ . وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ ، وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا ، فَيَأْتِيهِمُ الله ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ . فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ بِالله مِنْكَ ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُنَا ، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ ، فَيَأْتِيهِمُ الله تعالى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ . فَيَقُولُونَ : أَنْتَ رَبُّنَا ، فَيَتَّبِعُونَهُ ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ! سَلِّمْ ، سَلِّمْ ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ يَا رَسُولَ الله ، قَالَ : «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا الله ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَمِنْهُمْ الْمُؤمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ ، وَمِنْهُمْ الْمُجَازَى حَتَّى يَنْجَّى ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ الله مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ العِبَادِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا . مِمَّنَ أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ ، مِمَّن يَقُولُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله . فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ ، يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ . تَأْكُلُ النَّارُ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ . حَرَّمَ الله عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ . فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ وَقَدْ امْتَحَشُوا ، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ ، فَيَنْبُتُونَ مِنْهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ، ثُمَّ

يَفْرُغُ اللهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ ، وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ . فيَقُولُ: أَيْ رَبِّ ! اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا . فَيَدْعُو اللهَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدْعُوَهُ . ثُمَّ يَقُولُ الله تبارَكَ وَتَعَالَى: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فَيَقُولُ : لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ . وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ اللهُ، فَيَصْرِفُ اللهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ. فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ . ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! قَدِّمْنِي إِلى بَابِ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ الله لَهُ : أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ لَا تَسْأَلُنِي غَيْرَ الَّذِي أَعْطَيْتُكَ ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ ! مَا أَغْدَرَكَ ! فيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! وَيَدْعُو الله حَتَّى يَقُولَ لَهُ : فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ ! فيَقُولُ : لَا وَعِزَّتِكَ! فَيُعْطِي رَبَّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهُودٍ وَمَوَاثِيقَ . فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ؛ فإذا قَامَ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الخَيْرِ وَالسُّرُورِ ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسْكُتَ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ . فيَقُولُ الله تبارَكَ وَتَعَالَى لَهُ : أَلَيْسَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ ، وَيْلَكَ يَا ابْنَ أدَمَ ! مَا أَغْدَرَكَ ! فيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، لَا أَكُونُ أَشْقَى خَلْقِكَ . فَلَا يَزَالُ يَدْعُو الله حَتَّى يَضْحَكَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ ، فَإِذَا ضَحِكَ الله مِنْهُ ، قَالَ : ادخُلِ الجَنَّةَ ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ الله له : تَمَنَّهْ . فَيَسْأَلُ رَبَّهُ وَيَتَمَنَّى ، حَتَّى إِنَّ الله لَيُذَكِّرُهُ مِنْ كَذَا وَكَذَا ، حَتَّى إِذَا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ . قَالَ الله تَعَالَى : ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ » .

قَالَ عَطَاءُ بنُ يَزِيدَ ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ لاَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِهِ شَيْئًا، حَتَّى إِذَا حَدَّثَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنَّ الله قَالَ لِذَلِكَ الرَّجُلِ : « **وَمِثْلُهُ مَعَهُ** » .

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : « **وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ مَعَهُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ !** ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا حَفِظْتُ إِلاَّ قَوْلَهُ : « **ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ** ».

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : أَشْهَدُ أَنِّي حفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ قَوْلَهُ : « **ذَلِكَ لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ** ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : « وَذَلِكَ الرَّجُلُ آخِرُ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجَنَّةَ » .

● وفي رواية جميلة في «**صحيح مسلم**»[(١)] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيها أن الحبيب النبيَّ ﷺ سُئل عن الصراط ما الصراط ؟ فقال الحبيبُ : « **دَحْضٌ مزلَّة** » أو « **مَزِلَّة** » ـ واللغتان صحيحتان ـ مكان تَزِلُّ عليه الأقدام ، ولا تثبت ، إلا لمن ثبت الله أقدامه ، قال: « **فِيهِ خَطَاطِيفُ ، وكَلاليبُ ، وَحَسَكٌ ، تكوُن بِنَجْدٍ فيها شُوَيْكَةٌ يُقالُ لَها : السَّعْدانُ ، فَيَمُرُّ المؤْمِنُوَن كَطَرْفِ العَيْنِ** » الله أكبر! فريقٌ من أهل الإيمان عندما يقف على الصراط يعبر في لحظة! «**وَكالبَرقِ، وَكَالرِّيحِ ، وَكالطَّيْرِ ، وكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ ، فنَاجٍ مُسلَّمٌ**» هذا أول صنف من أهل الإيمان ، «**ومَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، ومَكْدُوسٌ في نَارِ جَهَنَّم**» ، سلِّم يا رب !!

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

● وفي رواية في «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قال ـ عليه الصلاة والسلام : «وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ والرَّحِمُ فتَقُومَانِ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ يَمِيناً وشِمَالًا» .

نعم .. ستُمسك بك الأمانة والرحم ، ويسألانك هل قمت بحقهما ؟ أم أنك خنت الأمانة ، وقطعت الرحم ؟!! هل تصوَّرتَ : الأمانة على جانب ، والرحم على جانب آخر!

○ أيها الأحبة :الموقف صعب ، والمشهد رهيب ـ ورب الكعبة ـ والنار تحت الصراط تزفر وتزمجر!!

● وأختم هذا الفصل بحديثٍ جميل يوضح لنا من هو آخر رجل يمرُّ على الصراط ثم يدخل الجنة ، والحديث في «صحيح مسلم»(٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ :

« آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ . فَهْوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً . وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً(٣) ، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ : تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ ، لَقَدْ

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٥) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب آخر أهل الجنة خروجًا (١٨٧) . وهو في «الصحيحين» (مختصرًا البخاري ٦٥٧١ ، ومسلم ١٨٦) .

(٣) عش بقلبك وعقلك وكيانك هذا الموقف ؛ فمع هذا العناء الذي يكون فيه هذا الرجل ، ينجيه الله بعد ذلك ؛ فيا ترى ما هو حاله عند ذلك ؟!! ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ : يَا ابْنَ آدَمَ! لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ ! وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا ، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنْ الْأُولَى ، فَيَقُولُ :أَيْ رَبِّ ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا ، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا . فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا ؟ فَيَقُولُ : لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ ، لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا ، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا ، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنْ الْأُولَيَيْنِ ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا ، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، فَيَقُولُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ ! هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا ، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَ . فَيُدْنِيهِ مِنْهَا ، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! أَدْخِلْنِيهَا ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ ! مَا يَصْرِينِي مِنْكَ ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا ؟ قَالَ : يَا رَبِّ !أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ » .

فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، فَقَالَ : أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ ؟ فَقَالُوا : مِمَّ

تَضْحَكُ؟ قَالَ : هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ . فَقَالُوا : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

قَالَ : «**مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فيَقُولُ : إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ**» .

○ أيها الأفاضل : ماذا بعد الصراط ؟ نارٌ أم جنة؟

هذا ما سنتعرف عليه في الفصل القادم ـ إن شاء الله ـ وأسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل الجنان ، إنه على كلِّ شيء قدير.

*****

وصف الجنة والنار

توقفتُ في الفصل السابق مع هذا المشهد الذي يخلع القلب ، حينما وصف النبيُّ ﷺ الصراط ؛ كما في « صحيح البخاري ومسلم [(١)] - واللفظ له » من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول ﷺ سُئِلَ: وَمَا الْجِسْرُ؟

قَالَ : « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ ، يُقَالُ لَهَا : السَّعْدَانُ ، فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَكَالْبَرْقِ ، وَكَالرِّيحِ ، وَكَالطَّيْرِ ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ ، وَالرِّكَابِ ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ » .

وسامحوني إن قلت : تعالوا لنقف قليلًا مع هذا الذي سقط في النار ، وقد يتألم البعض إذا تحدثنا عن النار وعن الترهيب ، فيقول : لم لا تُفْتَحُ من خلالكم أبوابُ الرجاء والرحمة والأمل ؟ ولم تدندنون على الترهيب ؟!

والجواب : إن منهج القرآن الكريم في تهذيب النفس البشرية وتربيتها هو : الترغيب والترهيب ، ومنهج القرآن هو أعظم منهج .ولم لا ؟ وهو منهج خالق البشر ، وهو الذي يعلم ما يصلحهم وما يفسدهم ؛ قال جلَّ وعلا :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «التوحيد» باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ، ٢٣] (٧٤٣٩) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «معرفة طريق الرؤية» (١٨٣) .

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [تبارك: ١٤].

فالنفس البشرية فيها الخوف والشر، والفجور والتقوى، والحلال والحرام، والإقبال والإحجام، والطاعة والمعصية.

● قال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠].

فهناك نفوسٌ لا تأتي إلى الله - جلَّ وعلاَ - إلا من جانب الترغيب؛ فهي نفوس أبية زكية كريمة، تأتي من باب الرجاء والرحمة والأمل والترغيب. وهناك نفوس عَلِمَهَا خالق البشر لا تأتي إلى الله إلا من جانب الترهيب والوعيد.

○ إذًا؛ فليعلم أن النفس تحتاج إلى هذا المنهج الذي تجده كثيرًا في القرآن.

● قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]

● وقال سبحانه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

● وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟

مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٩].

● وقال سبحانه: ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة: ١-٩].

ومؤصدة؛ أي: مغلقة.

● وقال جلّ وعلا: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ

ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ
مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى
ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾
لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ
عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾

[الواقعة: ٢٧-٥٦]

○ **أيها الأحبة** : هذه آيات القرآن .. والآيات التي جمعت بين الترغيب والترهيب كثيرة جدًّا ، فالنفس لا تزكو إلا به ؛ فلابد من الترغيب والترهيب .

فالخوف والرجاء جناحان لطائرٍ واحدٍ لا يمكن أبدًا أن يُحلِّق هذا الطائر في أجواء الفضاء إلا بهذين الجناحين معًا ، ولو طار في أفق السماء بجناحٍ واحد ، ونجح في ذلك لفترةٍ ولو طالت ؛ فإنه حتمًا سيسقط لينكسر جناحه الآخر .

فغلِّبْ جانب الرجاء إن غلَبَ عليك الخوف ، وغلِّبْ جانب الخوف إن غلَبَ عليك الرجاء .

○ قال ابنُ القيم رحمه الله [١]:

« القلب في سَيْرِهِ إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى فقد الجناحان فهو عرضة لكلِّ صائدٍ وكاسر ، ولكن السلف استحبوا أن يُقَوِّي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف .. هذه طريقة أبي سليمان وغيره . قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف ، فإن غلب عليه الرجاء فسد » .

● وقال أيضًا [٢] :

« قال أبو علي الروذباري : الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير ، وتَمَّ طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حَدِّ الموت » .

○ وقيل للحسن البصري رحمه الله [٣] :

« يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقوامًا يخوفونا ، حتى تكاد قلوبنا أن تطير .

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٥١٧) .

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٦) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٠) ، وابن أبي الدنيا في « الوجل والتوثق بالعمل » (٢٨) برقم (٣) ، والمزي في « تهذيب الكمال » (٦/ ١١٤) ، وذكره الغزالي في « الإحياء » (٤/ ١٦٢) .

فقال: والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك في الدنيا حتى يدركك الأمن في الآخرة ، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك في الدنيا حتى يدركك الخوف في الآخرة » .

● وفي الحديث الذي رواه أبو نعيم في « الحلية » والطبراني في « مسند الشاميين » عن شداد بن أوس ﵁ . ورواه ابن حبان والبيهقي في « الشعب » والبزار ، وصححه شيخنا الألباني في « الصحيحة » [(١)] من حديث أبي هريرة ﵁ أنه ﷺ قال : قَالَ اللهُ تَعَالَى:

« وَعِزَّتِي ! لاَ أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ ، إِذَا خافَنِي في الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

□ ولقد وصف النبيُّ ﷺ النارَ وصفًا دقيقًا عجيبًا ؛ فقال : كما في « الصحيحين » [(٢)] عن أبي هريرة ﵁ أنه ﷺ قال :

---

(١) أخرجه ابن حبان في « صحيحه » (٦٤٠) ، والبيهقيُّ في «الشعب » (٧٧٧) ، ورواه البزار ؛ كما في كشف الأستار (٤/ ٧٤) عن أبي هريرة ﵁ ورواه البزار في المصدر نفسه عن الحسن مرسلاً، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (١٠/ ٣٠٨) : «رواهما البزار عن شيخه محمد بن يحيى ابن ميمون ، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح ، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة ، وهو حسن الحديث » ، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٧) مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٧٠) و (٦/ ٩٨) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (٤٦٢ ، ٣٤٩٥) عن شداد بن أوس ﵁، وصححه الألباني في « الصحيحة» (٧٤٢ ، ٢٦٦٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب «صفة النار وأنها مخلوقة» (٣٢٦٥) ، ومسلم كتاب «الجنة وصفة ونعيمها وأهلها» باب «في شدة حَرِّ نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين» (٢٨٤٣) واللفظ له .

«نَارُكُمْ هَذِهِ ، الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ ، جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ » .

قَالُوا : وَاللهِ ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً ، يَا رَسُولَ اللهِ !

قَالَ : «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا ، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا » .

هل يستطيع أحدنا أن يضع أصبعه على نار شمعة ؟ !والله لا يقدر أحدنا على ذلك .

هل تخيَّلت بئرًا من آبار البترول والنار مشتعلةً فيه ؟ هل شاهدت هذا المشهد ؟ فجهنم فُضِّلَتْ على هذه النار العظيمة في الدنيا بتسعةٍ وستين جزءًا !!

بل قال النبيُّ ﷺ عن هذه النار ؛ كما في « صحيح مسلم »[1] من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

○ فهل تتخيل النار وسعتها وحرها ونارها ؟ وهل تصبر على عذابها ؟ وهل تصبرين ـ أختي في الله ـ على عذاب النار ؟

● وفي « صحيح مسلم »[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب « في شدة حرِّ نار جهنم وبعد قعرها» (٢٨٤٢) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها» (٢٨٤٤) .

ﷺ ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً - أي : صوت عال - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« **تَدْرُونَ مَا هَذَا ؟** » .

قَالَ : قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : « **هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا ، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا** » .

والله لا أحد منا يتحمَّلُ الحرَّ إذا اشتد ؛ فما بالك بالنار ؟ والحر هذا نفسٌ لجهنم ؛ ففي « **الصحيحين** » (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال :

« **اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا ، فَقَالَتْ : يَا رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهْوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنْ الزَّمْهَرِيرِ** » .

هل تتصور ذلك ؟

بل تخيل أهون أهل النار عذابًا ، كيف يكون حاله ؟ وما هو عذابه ؟

● ففي « **الصحيحين** » (٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري كتاب «مواقيت الصلاة» باب «الإبراد بالظهر في شدة الحر» (٥٣٧) ، وانظر (٣٢٦٠) ، ومسلم كتاب «المساجد ومواضع الصلاة» باب « استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يمضي إلى جماعة ويناله الحر في طريقه » (٦١٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «أهون أهل النار عذابًا» (٢١٣) .

« إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ . وفي لفظ :« جَمْرَةٌ » وفي لفظٍ : « لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا ، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » .

○ وفي النار سجنٌ يعذَّب فيه أهل الكبر ؛ ففي « مسند » أحمد ، و« مصنف» ابن أبي شيبة والبخاري في « الأدب المفرد » والترمذي ، وهو حديث حسن [(١)] ، من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه أن النبيِّ ﷺ قال :

« يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، فِي صُوَرِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ ، طِينَةُ الْخَبَالِ » .

إن أهل النار يودُّون الافتداء بالمال والأهل ؛ بل بالدنيا بأسرها من عذاب الله ، ولكن هيهات هيهات !!

● قال ﷻ : ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٩) وابن أبي شيبة في « المصنف» (٩/ ٩٠) ، ونعيم بن حماد في زوائد «الزهد» لابن المبارك (١٩١) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٥٥٧) ، والحميدي (٥٩٨) والترمذيُّ كتاب «صفة القيامة» باب (٤٧) (٢٤٩٢) وقال: «حسن صحيح» ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٤٠) و« المشكاة » (٥١١٢) .

يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١١-١٧]

● وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

● وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

● وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

● وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

● وفي «**الصحيحين**»(١) عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «أحاديث الأنبياء» باب «خلق آدم وذريته» (٣٣٣٤)، ومسلم كتاب «صفة القيامة والجنة والنار»، باب «طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهبًا» (٢٨٠٥) واللفظ له.

« يَقُولُ الله تبارَكَ وتَعالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عذابًا : لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ ، فيقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لا تُشْرِكَ ـ أَحْسَبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ » .

○ بل إن أهل النار يتمنون الموت ، ليستريحوا من عذاب النار ، ولكن الله قد كتب عليهم العذاب والخلود فيها ؛ قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

● وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢١-٢٦] .

● وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٦ ، ٣٧] .

● وقال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ

ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

[إبراهيم : ١٥-١٧]

● وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه :٧٤].

● وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾

[غافر : ٤٩ ، ٥٠]

● وقال جلَّ في علاه : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧]

● وفي « الصحيحين »[1] من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: « **يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ، ثُمَّ يُنَادِي : يَا أَهْلَ النَّارِ ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، فَيَقُولُ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، هَذَا الْمَوْتُ ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ،**

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «التفسير» باب ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾ [مريم: ٣٩] (٤٧٣٠) ، ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء» (٢٨٤٩).

فَيُذْبَحُ ، ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ »، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩] » .

والغمسة الواحدة في نار جهنم تُنْسي العبد كلَّ نعيمٍ ذاقة وتنعَّم به في الدنيا من شدة العذاب ؛ كما في « صحيح مسلم »[١] من حديث أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لَا ، وَاللهِ! يَا رَبِّ »

بل عش معي ، فالطعام في النار نار ، والشراب في النار نار ، واللباس في النار نار !!!

● قال تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٢٢ ﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

● وقال سبحانه : ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «صفة القيامة والجنة والنار» باب «صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة» (٢٨٠٧) .

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٩ ، ٥٠] .

● وفي « صحيح مسلم »(١) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » .

○ والنائِحَةُ : هي التي ترفع صوتها ، وتشقُّ جيبها عند المصيبة .

والفرش والغطاء في النار نار .

● قال سبحانه : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾

[الأعراف: ٤١]

والمهاد ما يكون من تحتهم ، والغواش هي: التي تغشاهم من فوقهم .

● وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

[الزمر:١٦]

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥٥] .

○ وشرابهم نار :

● قال سبحانه : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجنائز» باب «التشديد في النياحة» (٩٣٤) .

○ **والمهل هو** : الزيتُ المغليُّ العَكِرُ المترسِّبُ الشديدُ الحرارةُ ؛ فإذا كان بخارُ هذا المهل قبل أن يصل إلى الشفاة يشوي الوجوه ! فكيف بالماء نفسه ؟! وهذا دليلٌ على شدة حرارته !!

○ وكذلك يشربون الحميم والغساق ، والحميم هو : الماء الحارُّ الذي وصل إلى منتهى الحرارة ، والغساق ضدُّه ، وهو البارُد الذي بلغ شدة البرودة .

● قال تعالى : ﴿ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥٤-٥٦] .

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴾ [ص: ٥٧] .

● وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤] .

● وقال تعالى : ﴿ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ﴿٢٥﴾ جَزَآءٗ وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٥، ٢٦] .

● وقال جلَّ وعلا: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴾ [محمد: ١٥] .

ويشربون من الصديد الذي يسيل من لحم الكافر وجلده في النار !!

● قال تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم: ١٦ ، ١٧] .

○ **أما طعامهم** ؛ فهو الزقوم والغسلين والضريع .

● قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣] .

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾

[الصافات: ٦٢-٦٦]

○ **وطعامهم الضريع ، وهو : شوكٌ يُقالُ له الشبرق .**

● قال سبحانه : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية:٦،٧] .

○ **وكذلك الغسلين :**

● قال جلَّ وعلا : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾

[الحاقة: ٢٥-٣٧]

○ بل ويأكلون طعامًا يقف في حلوقهم .

● قال سبحانه : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١٢، ١٣] .

بل يزيد الله الكافر حسرةً بأن يريه مقعده في الجنة لو آمن وأطاع الله .

● روى «البخاريُّ»[١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ ، لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً » .

ومن شدة العذاب يستغيثُ أهل النار بخزنة جهنم ليدعوا ربهم أن يخفف عنهم يومًا واحدًا من العذاب .

قال جلَّ وعلا : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩ ، ٥٠] وبعد فَقْدهم الأمل في خزنة جهنم ينادون على مَنْ ؟ على مالكٍ خازن النار؛ قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وهنا يتذكَّرُ أهلُ النَّارِ أَهْلَ التوحيدِ والإيمان الذين طالما سخروا منهم واستهزؤوا بهم في الدنيا ، فيلجأون

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٦٩).

إليهم ليغيثوهم بشيْءٍ من الماء أو بشيْءٍ مما رزقهم الله .

قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾

[الأعراف: ٥٠ ، ٥١].

● وقال جلَّ وعلا : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾

[هود: ١٠٥ - ١٠٨]

ولا أريد الإطالة في الحديث عن النار ، وأهل النار ، أسال الله أن ينجينا من النار ؛ اللهم إنا ضِعَافٌ لا نقوى على حرها فاللهم ارحمنا يا أرحم الراحمين .. يا رب أتُراك تعذِّبنا في جهنم وتوحيدُك في قلوبنا ؟ وجوارحنا قد خضعت لك وسجدت على الطين وعلى الأرض ذلًا وانكسارًا بين يديك ؟ أتُراك تعذِّبُنا وحبُّك يملأ قلوبنا ؟ وحبُّ حبيبك يملأ قلوبنا ؟ اللهم وإن قصرت أعمالنا ، وزلَّت أقدامنا فارحمنا برحمتك الواسعة ، يا أرحم الراحمين .

○ وصف الجنة ○

تعالوا بنا ندخل الجنة ! ومن يستطيع أن يصف الجنة مهما أوتي من حُسْن البيان ، وعظمة التبيان ، وروعةِ البلاغة وفصاحة اللسان؟ لا أحد يقدر .

* ففي « الصحيحين » [١] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال :

قال الله تعالى : « **أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ : مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** » فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] .

والنبيُّ ﷺ يصف لك الجنة ؛ لأنه دخلها ورآها ـ وهو في الدنيا في ليلة الإسراء والمعراج ـ ؛ ففي « **صحيح البخاري ومسلم** » [٢] من حديث ابن عباس ﷺ ـ في حديث صلاة الكسوف ـ وفيه :

قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَفَفْتَ .

فَقَالَ : «**إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا ، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ**

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٤٤) ، ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الأذان» باب « رفع البصر إلى الإمام في الصلاة » (٧٤٨) ، (١٠٥٢) ، ومسلم كتاب «الكسوف» باب «ما عرض على النبيِّ ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار» (٩٠٧) .

مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا » .

○ فما هو شكل الجنة ؟ وما بناؤها ؟

● روى أحمد ، وابن حبان ، والطيالسيُّ ، والترمذيُّ ، وعبد بن حميد وغيرهم (١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قيل له :

حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ ، مَا بِنَاؤُهَا ؟

قَالَ : « لَبِنَةُ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ » .

● وفي « الصحيحين » (٢) عن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل ، وفيه :

«ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ - وهذا في الإسراء والمعراج - فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ » .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥ ، ٤٤٥) ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٣٨٧) ، والدارمي (٢٨٢١) ، والطيالسي (٢٥٨٣) ، والترمذيُّ كتاب «صفة الجنة» باب « ما جاء في صفة غرف الجنة » (٢٥٢٦) ، وعبد بن حميد في «المنتخب» (١٤٢٠) ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧١١١) ، والحميدي (١١٥٠) ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣١١٦) ، و« المشكاة » (٥٦٣٠) ، و« صحيح الترغيب » (٣٧١١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «الصلاة» ، باب «كيف فرضت الصلاة في الإسراء» (٣٤٩) ، (٣٣٤٢) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات» (١٦٣) .

● وفي « صحيح مسلم »[1] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ ؟

فَقَالَ : « دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ ، مِسْكٌ خَالِصٌ » .

○ والدرمكة : مفرد درمك ، والدرمك هو : الدقيق النقيُّ الصافي من النخال ، الناصع البياض ؛ كما قال ابن منظور[2] .

وأهل الجنة لا يمرضون ، ولا يموتون ، ولا يهرمون ، ولا ييأسون ، ولا يمتخطون ، ولا يبولون ، ولا يتغوطون .

● روى مسلمٌ في « صحيحه »[3] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال :

« يُنَادِي مُنَادٍ - أي على أهل الجنة - إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبْدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا » فذلك قوله ﷻ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

وانظر إلى صورة أهل الجنة وإلى أمشاطهم وآنيتهم .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الفتن» ، باب «ذكر ابن صياد» (٢٩٢٨) .

(٢) « لسان العرب » (١٣٦٧) مادة «درمك» .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الجنة ، باب دوام نعيم أهل الجنة (٢٨٣٧) .

● ففي « الصحيحين »(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ :

« إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، والَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتْفِلُونَ ، أَمْشَاطُهُمْ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمْ الأَلُوَّةُ ، وَأَزْوَاجُهُمْ الْحُورُ الْعِينُ ، أَخْلَاقُهُمْ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ » .

وفي رواية : « وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ، يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنْ الْحُسْنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

○ وفي لفظٍ : « وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ » .

وقبل أن أتكلَّم عن الحور العين أُبَشِّرُ أختي الفاضلة التقية المؤمنة الموحدة وأقول لها : أيتها التقية النقية : إن حُسْنَك وجمالك في الجنة لا يقلُّ عن حُسْن وجمال الحور العين ، وهل هذا الكلام عليه دليل ؟ نعم ، فلن أتكلَّم كلمةً بدون دليل ، أنتِ قمت بطاعة الله ، واستعليتِ على الشهوات ، وعلى الشبهات ، وتحملْتِ كثيرًا ، ولن يَضِيع عملُكِ هكذا ؛ ففي الجنة سيُنشئكِ الله إنشاءً جديدًا يتناسب مع الجنة وما فيها من حُسْنٍ وبهاءٍ

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» ، باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٤٥ ، ٣٢٤٦ ، ٣٢٥٤ ، ٣٣٢٧) ، ومسلم كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » ، باب «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر» (٢٨٣٤) .

وسَناءٍ وجمالٍ وجلالٍ ، اقرئي معي قول الكبير المتعال : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾[الواقعة: ٣٥] فهذا إنشاءٌ آخر خالص ، فقد تكون زوجتك امرأة فاضلة صالحة لكنها ليست حسناء . فهذه المرأة في الآخرة لو كانت من أهل الجنة ، وماتت عن ستين سنة أو سبعين سنة وهي عجوزٌ شمطاء ، ففي الجنة تُعدُّ لك إعدادًا جديدًا ، فستكون في سنِّ الشباب . ولك أن تتصور حسنًا وجمالًا يُنْشؤُه مَنْ وَهَب الحسن ، والجمال .

● قال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴾ [الواقعة: ٣٥ ، ٣٦]

كلما أقبل الرجل في الجنة على امرأته في الفراش وجدها بكرًا في كلِّ مرة . ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا ﴾[الواقعة: ٣٦ ، ٣٧]

○ **وعربًا** : جمع عروب ، والمرأة العروب في اللغة: هي المرأة التي تَتفنَّنُ في كلماتِ الحب والعشق والغرام والجمال لزوجها .

● **قال تعالى** : ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابًا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾[الواقعة: ٣٥ - ٣٨] .

● **أما الحور العين** ؛ فيقول ربُّ العزة فيهن : ﴿ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٌ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ

ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢-٧٨] .

○ والحور ، جمع حوراء . والحوراء هي : المرأةُ الشابة الحسناء الجميلة الشديدة بياض الجسد مع شدة سواد العين .

● وفي « صحيح البخاري »[(١)] من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« غَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ الله أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ مِنْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا ـ يَعْنِي : الْخِمَارَ ـ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

○ أخي: تخيَّل كلَّ هذا في جنة عرضها السماوات والأرض ؛ كما قال ربنا سبحانه: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

● وقال ـ جلَّ وعلا : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] هذا عرضها فما بالك بطولها ؟!

○ وأبوابها ثمانية أبواب ؛ كما في « البخاريِّ »[(٢)] من حديث سهل بن

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٦٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب « صفة أبواب الجنة » (٣٢٥٧) .

سعد الساعدي رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« فِي الجَنَّةِ ثَمانِيَةُ أَبْوَابٍ » .

● وفي « صحيح مسلم » (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال :

« مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ (أَوْ :فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ) ثُمَّ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » .

وكما سبق فإن أول أمة تدخل الجنة هي أمة الحبيب المصطفى ﷺ ونبينا هو أول من تُفْتح له الجنة ؛ كما في « صحيح مسلم » (٢) من حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ ، فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ » .

● قال سبحانه :﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [ص: ٥٠، ٥١] .

● وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الطهارة» باب «الذكر المستحب عقب الوضوء» (٢٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» باب قول النبيِّ ﷺ : «أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا» (١٩٧) .

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

○ وأكثر أهل الجنة الفقراء؛ ففي «الصحيحين»[(١)] عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:

«اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

● وفي «صحيح مسلم»[(٢)] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال:

«إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا».

والجنة درجات، كما أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ففي «صحيح البخاري»[(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٤١) واللفظ له، ومسلم مختصرًا كتاب «الزهد والرقائق» باب «أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء» (٢٧٣٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الزهد والرقائق» (٢٩٧٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب «الجهاد والسير»، باب «درجات المجاهدين في سبيل الله» (٢٧٩٠).

الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ » .

نعم في الجنة أنهار. ألم يقل الله سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥] .

• وقال : ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩] .

والآيات كثيرةٌ تثبت أنهار الجنة ، وهذه الأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفًّى .

• قال - جلَّ وعلا : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] .

• وروى أحمد والترمذيُّ وابن حبان وغيرهم [(١)] عن معاوية بن حيدة

---

(١) أخرجه الترمذيُّ كتاب «صفة الجنة» باب «ما جاء في صفة أنهار الجنة» (٢٥٧١) ، وقال: «حديث حسن صحيح» ، وأحمد (٥/ ٥) ، وابن حبان في «صحيحه» (٧٤٠٩) وعبد بن حميد (٤١٠) ، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤٢٤) ، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٤٧٥) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع » (٢١٢٢) .

رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :

« إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ » .

بل ستعجب إذا علمت أن أنهارًا في الدنيا من أنهار الجنة ؛ كما في « صحيح مسلم » (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ ، كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ » .

○ وفي الجنة حوض المصطفى ﷺ وهو الكوثر .

أسأل الله أن يوردنا حوضه ، وأن يسقينا من يده شربة لا نظمأ بعدها أبدًا .

● ففي « صحيح مسلم » (٢) من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا ، فَقُلْنَا : مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟!.

قَالَ : « أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ » فَقَرَأَ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ، ثم قال : « أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ » .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجنة ونعيمها وأهلها» باب «ما في الدنيا من أنهار الجنة» (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الصلاة» باب «حجة من قال : البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة» (٤٠٠) .

فَقُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ :

« فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ » .

وفي رواية :

« فِي الجَنَّةِ ـ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ ، فَيَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ! إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ » .

○ بل في الجنة ترع كذلك ؛ كما في «مسند أحمد» وابن أبي شيبة في « المصنف» ، والنسائي في « الكبرى » وغيرهم [(١)] عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال :

« إِنَّ مِنْبَرِي عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّةِ ، وَمَا بَيْنَ مِنْبَرِي وَحُجْرَتِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ » .

○ والجنة بها عيون :

● قال ـ جلَّ وعلا : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥] .

ومن العيون ما قال الله فيه : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٦٠ ، ٤٠١ ، ٤١٢ ، ٤٥٠ ، ٥٣٤) ، وابن سعد في « الطبقات » (١/ ٢٥٣) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٣١٧) ، والنسائي في « الكبرى » (٤٢٨٨) ، والطبراني في« الأوسط » (٩١١٧) ، و« الصغير » (١١١٠) ، والبيهقي في «الكبرى» (٥/ ٢٤٧) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٢١) ، و« الصحيحة» (٢٣٦٣) .

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨].

● وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

● وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨].

● وقال سبحانه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠].

● وقال ـ جلَّ وعلا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦].

○ وفي الجنة شجر، لكنه ليس كشجر الدنيا؛ بل ظله ممدود؛ قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

● وقال ـ جلَّ وعلا: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وفي «الصحيحين»[(١)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال:

«**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**»:

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق»، باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٥٢) ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» (٢٨٢٦).

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠] .

● وفي « صحيح مسلم » [(١)] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا** » .

○ بل انظر إلى فاكهة الجنة وإلى ثمارها .

● قال ـ جلَّ وعلا : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥] أي : آمنين من انقطاع الفاكهة ، ومن مضرتها لهم كذلك .

● وقال سبحانه : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥١]

وفاكهة الجنة لا تكون في وقت وتنقطع في وقتٍ آخر ! لا ؛ فمن أرادها وجدها ؛ قال سبحانه : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢ ، ٣٣] . وهي قريبةٌ جدًّا لمن أرادها في أي وقت .

● قال الله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

● وقال تعالى : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤]

● وقال سبحانه : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» ، باب «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها» (٢٨٢٨) .

أي : قريب متدلٍّ يقطفُ منه العبد في الجنة متى شاء .

○ وفيها من كلِّ الفواكه التي تشتهيها من الأعناب والرمان ... إلى غير ذلك ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ١٥]

● وقال سبحانه: ﴿ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ [الأنعام: ٩٩] .

● وقال سبحانه : ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨] .

● وقال تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢] .

● وقال سبحانه: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩] ، وأكثر المفسرين على أنه شجر الموز .

○ أما عن غرف الجنة وبيوتها ومساكنها وقصورها وخيامها ، فما لا يقدر بليغٌ على وصفه .

● قال تعالى : ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠] .

● وقال تعالى : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] .

● وقال سبحانه : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ

﴿فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

● وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الصف: ١٢].

● وقال سبحانه ـ حكاية عن امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

● وفي «الصحيحين» [١] من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال:

«إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ».

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ، لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ.

قَالَ: «بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ».

● وفي «الصحيحين» [٢] من حديث أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال:

«بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا»، فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ؟!

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق»، باب «صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٥٦)، ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها»، باب «ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء» (٢٨٣١).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق»، باب «ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٤٢)، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة»، باب «من فضائل عمر ﷺ» (٢٣٩٥).

● وفي «الصحيحين» (١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

«أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ».

○ ولهم أيضًا خيام ينعمون فيها.

● قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢].

● وفي «الصحيحين» (٢) عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه ﷺ قال:

«إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً، مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُ، فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا».

○ أما عن الفرش والسرر؛ فقال الله: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٣]

○ وهي مصفوفة ليست ببعيدة؛ قال تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب «مناقب الأنصار» باب «تزويج النبي ﷺ خديجة، وفضلها ﷺ» (٣٨٢٠)، ومسلم كتاب «فضائل الصحابة»، باب «فضائل خديجة أم المؤمنين ﷺ» (٢٤٣٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب «بدء الخلق» باب «صفة الجنة وأنها مخلوقة» (٣٢٤٣) (٤٨٧٩)، ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب «الجنة وصفة أهلها ونعيمها»، باب «في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين» (٢٨٣٨).

○ وهي موضونة أيضًا ، أي : منسوجة ، وقيل مليئة بالجواهر والياقوت والدرر ؛ قال سبحانه : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ [الواقعة: ١٥].

○ ولهم في الجنة أرائك ، وهو : السرير ، ولا تشبه شيئًا في الدنيا بآخر في الجنة ، فكما قلنا : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؛ قال تعالى : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ [الكهف: ٣١]. وقال سبحانه عن الوسائد : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ [الغاشية: ١٥].

● وقال سبحانه : ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]

● وقال الله في شأن سجَّاد الجنة ؛ وفرشها .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وآنيتهم الذهب والفضة .

● قال تعالى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف: ٧١]

● وقال تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة: ١٧ ، ١٨].

● وقال سبحانه : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥ ، ١٦].

○ ولباسهم الحرير ؛ قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣].

● وقال سبحانه : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٢].

● وقال ﷻ : ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الدخان: ٥٣]

● وقال تعالى : ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [الإنسان: ٢١]

● وقال سبحانه : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا ﴾ [الكهف: ٣١].

○ وحليهم أساور الذهب واللؤلؤ ؛ قال سبحانه : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج: ٢٣].

● وقال تعالى : ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١] .

○ وطعامهم اللحم ، ولحم الطير .

● قال تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور: ٢٢].

● وقال سبحانه : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١].

○ ويتلذذون بالطعام والشراب ، ورزقهم في الجنة لا ينقطع .

قال سبحانه : ﴿ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]

● وقال تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً

وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ٦٢].

● وقال سبحانه : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٧].

○ وبالجملة ؛ قال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

○ ومنزلةُ النبيِّ ﷺ أعلى منزلةٍ في الجنة ، وهي الوسيلة .

● ففي « صحيح مسلم »[١] من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ قال :

« إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » .

○ فما هي منزلة أدنى رجلٍ من أهل الجنة ، وهو آخر أهل الجنة دخولًا الجنة ؛ ففي « صحيح مسلم »[٢] من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ . فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ! كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ، فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ

---

(١) أخرجه مسلم كتاب «الصلاة» باب «استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه» (٣٨٤) .

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها» (١٨٩) .

مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ . فَيَقُولُ : لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ . فَيَقُولُ : هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ . قَالَ (أي: موسى ﷺ) : رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » قَالَ : وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] .

• وفي « الصحيحين » [(١)] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال :

« إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا ، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ حَبْوًا ، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى ، فَيَرْجِعُ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! وَجَدْتُهَا مَلْأَى ، فَيَقُولُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى ، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ! وَجَدْتُهَا مَلْأَى ، فَيَقُولُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا » أَوْ « إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُ : تَسْخَرُ مِنِّي » أَوْ « تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ » فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ . وَكَانَ يَقُولُ : « ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٧١) ، ومسلم كتاب «الإيمان» باب «آخر أهل النار خروجًا» (١٨٦ ، ١٨٧) .

○ **أحبتي في الله** : إن نعيم الجنة الحقيقي ليس في خمرها ، ولا لبنها ، ولا ذهبها وفضتها ، ولا حورها ولا قصورها ، وإنما أغلى النعيم وأعلى نعيم هو النظر إلى وجه الله الكريم يوم القيامة .

● قال سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] .

هذا هو النعيم ، أن ترى وجه الله ﷻ فَتُشْغَلُ بالنظر إلى وجهه عن كلِّ نعيم في الجنة ؛ قال تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

● ففي « الصحيحين » (١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال :

« إن الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبِّ ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

● وفي « صحيح مسلم » (٢) من حديث صهيب ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ كتاب «الرقاق» باب «صفة الجنة والنار» (٦٥٤٩) ، ومسلم كتاب «الجنة وصفة نعيمها وأهلها» باب «إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا» (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه مسلم كتاب «الإيمان» ، باب «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى» (١٨١) .

« إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ـ قَالَ ـ يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ، فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ ـ قَالَ ـ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ » .

● قال ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] .

والحسنى هي الجنة ، والزيادة هي التمتع بالنظر إلى وجه الله في الجنة .

○ ورحم الله من قال :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا الذي كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخيرٍ طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها
وكم من مدائن في الآفاق قد بنيت ... أمست خرابًا وأفنى الموت أهليها
أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعلم ثانيها
والعقل ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل باقيها
لا تركنن إلى الدنيا ... فالموتُ لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدارِ غدٍ رضوانُ خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهبٌ والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها
أنهارها لبن مصفى ومن عسل ... والخمر يجري رحيقًا في مجاريها

والطير تجري على الأغصان عاكفة   تسبح الله جهرًا في مغانيها
فمن يشترى الدار في الفردوس يعمرها   بركعة في ظلام الليل يحييها

فإيمانٌ وعملٌ صالحٌ واتباع سبب لدخول الجنة ؛ قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] .

أسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يجعلني وإياكم من أهل الجنة ؛ وأن يتقبل مني ومنكم صالح الأعمال ، وأن يجعل عملنا صالحًا ، ولوجهه خالصًا ، وألا يجعل لأحدٍ فيه شيئًا ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب وربنا محمود   وله المكارم والعلا والجود

وكتبه

أبو أحمد محمد بن حسان



فهرس الموضوعات